في رحاب القرآن

مختصر تفسير العلامة الشيخ بيوض

سـور

[العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة -
الأحزاب - سبأ - فاطر]

«برواية ورش عن نافع»

اختصره ورتبه وأشرف عليه

الشيخ الناصر بن محمد المرموري

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

في رحاب القرآن

مختصر تفسير العلامة الشيخ بيوض

ســـــور

[العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة -

الأحزاب - سبأ - فاطر]

«برواية ورش عن نافع»

اختصره ورتبه وأشرف عليه

الشيخ الناصر بن محمد المرموري

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

سورة العنكبوت

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة العنكبوت وهي مكية وءاياتها ٦٩

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ
لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ
ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ
فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ
وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾

السورة مكية وقيل فيها بعض آيات مدنية ، وهذا قد يقع في بعض السور والعبرة بأغلب السورة،وأما تسميتها بالعنكبوت فلورود التمثيل فيها بالعنكبوت لما يعبده الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، والأسماء التي سميت بها السور توقيفية ، وفتحت السورة بحروف الهجاء المقطعة ،وهي كما ذكرنا غير مرة إشارة إلى الإعجاز الذي يمتاز به كلام الله الذي نزل بلسان عربي مبين ، وبحروف اللغة التي ينطقون بها ،

وأعجزهم أن يأتوا بسورة من مثله ، وقيل إن هذه الحروف جيئ بها في أوائل بعض السور لأجل التنبيه وقد يقدم بين الكلام ذي البال بحروف التنبيه حتى يتنبه الغافل ويفيق الناعس فيستمع إلى القول بقلب شهيد ، وقد ينبه الناس بعضهم بعضا بأصوات ولو بتصفير وضرب على الطاولات وبأشياء فيها قرع وأصوات ليتنبه المستمعون ، هذا وقال أهل التفسير في هذه الحروف غير ذلك والعلم الحقيقي بمعنى هذه الحروف والمراد منها عند الله تعالى . ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

أيضن الناس ويحسبون أن يقولوا ءامنا ويكفيهم هذا القول وهم لا يفتنون ، أيطمعون أن يكفيهم النطق بكلمة الايمان المجردة ثم لا يمتحنون ليظهر المؤمن الصادق من الكاذب ، لا بد من الفتنة والإمتحان ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . والفتنة عرض الذهب وسائر المعادن على النار ليظهر خالصها من زيفها وكذلك يفتن الله عباده ليظهر صادقهم من كاذبهم وتلك سنة الله في عباده ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

يؤكد الله الخبر بمؤكدين ليبين لنا أن الفتنة لابد منها حتى لا يطمع أحد أن يقول آمنت بالله بلسانه ثم لا يفتن ولا يمتحن ،والفتنة هنا هي الامتحان ، يمتحن الله عباده ببعض البلايَا يتعرضون لها بسبب إيمانهم فينظر أيثبتون على إيمانهم ويصبرون ، أم ينقلبون على أعقابهم ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ الله شَيْئاً وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران / ١٤٤] وقد يكون الامتحان والابتلاء بالشدة وقد يكون بالرخاء ليمتاز الصابرون والشاكرون من غيرهم من الكافرين قال تعالى : ﴿ ونَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء / ٣٥] .

والفتنة لها معان ، فالفتنة من الله جل جلاله اختبار وابتلاء وامتحان ، والفتنة من الشيطان تغرير وإضلال ، قال تعالى ﴿ يَبَنِى ءَادَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم من الجَنَّةِ ﴾ [الأعراف / ٢٧] وتسليط الشيطان على الإنس والجن يوسوسهم من فتنة الله لعباده يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء ، وكذلك فتنة الدنيا وزينتها من الأموال والبنين ، وحب الشهوات والنساء ، في كل هذه الأشياء فتنة تفتن الناس عن التمسك بدينهم وتصرفهم عن اتباع صراط ربهم المستقيم فلا يثبت عليهما إلا مؤمن قوي في إيمانه، متمسك بدين ربه يخاف يوم الحساب ، ومن فتنة الله لعباده أن يفتن بعضهم ببعض قال تعالى ﴿ وجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْض فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ [الفرقان / ٢٠] يفتن الله أهل الفقر والمسكنة بأهل الجاه والغنى يبسط الله لهم في الرزق والجاه وهم يكفرون بالرحمن ، ويبتلي الله أولياءه بالفقر والضعف لينظر أيصبرون أم ينقلبون على أعقابهم ، وفي هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْلآ أن يَّكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لجَعَلْنَا لمنْ يَكْفرُ بالرَّحْمَن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرفاً وَإِن كلُّ ذَلِكَ لَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف / ٣٣/٣٥] فعباد الله المتقون يصبرون على الفقر والبلاء رجاء ماعند الله في الآخرة ، ويعلمون أن ما أعطي الكافرون ما هو إلامتاع الحياة الدنيا، ولا يدل ذلك على محبة الله ورضاه بل هو فتنة لهم ومتاع إلى حين ورضوان الله إنما هو لعباده المتقين الصابرين .

ويفتن الله أهل الكبرياء والترف والغنى من الكفار والمنافقين بأهل الفقر والمسكنة والضعف فيقولون : لو كان هؤلاء على حق لأغناهم الله وأعزهم ورفع عنهم البلايا

والآفات ، فيقولون كما حكى الله عنهم في القرآن ﴿ وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُواْ أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام / ٥٣] ويقولون كما حكى الله عنهم أيضا ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف / ٣١] واليوم يقول المفتونون من ضعفاء المؤمنين : إن هذا الدين هو السبب في تأخر المسلمين ، يقولون هذا المقال لما رأوا تقدم أوروبا وأمريكا واليابان في العلوم الحضارية ، ولو عقلوا لقالوا إن الذي ترك المسلمين متخلفين عن ركب الحضارة هو تركهم لدينهم ، ونبذ أكثرهم للقرآن وراءهم ظهريا ، ولو اتبعوا دينهم وتمسكوا بكتاب الله لكانوا أيمة للناس في العلوم والحضارة الحقيقية ، وما كان الدين يوما عدوا للعلم بل الدين والعلم الصحيح أخوان شقيقان ، وأكبر دليل على ذلك تمجيد القرآن للعلم ودعوته للتفكر والتدبر في الكون ، وإلفاته العقول والأفكار إلى آيات الله في السموات والأرض وما بينهما ، وفي أجواف الأرض ، وفي البحار ، وفي تكوين الإنسان ﴿ وفِي الأَرْضِ ءَايَتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات / ٢٠-٢١] آيات كثيرة وكثيرة في كتاب الله تدعو إلى النظر والتأمل والتدبر والتفكر وتدعو إلى استعمال العقل في آيات الله في الكون علويه وسفليه ، وأول آية نزلت من القرآن الكريم تدعو إلى القرآءة والكتابة وتشيد بالعلم ، قال الله تعالى : ﴿ إقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَذِي خَلَقَ خَلَقَ الاِنسَانَ مِنْ عَلَق إقْرَأْ وَرَبُّكَ الاَكْرَمُ الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الاِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق / ١-٥] وهذا الذي بهرهم اليوم من الغرب ويسمونه تقدما وحضارة ما هو إلا حضارة مادية جوفاء خالية من الروح ، بل تحمل معها بذور الحرب والدمار والخراب لأنها خالية من الدين ،

وسيأتي اليوم الذي تعلن فيه إفلاسها من القيم الحقيقية ويومئذ يرجع الناس يفتشون عما ينقذهم من ويلاتها فلا يجدون لهم ملجأ إلا الدين ، ولعل هذا اليوم قريب ، ويومئذ تنقشع غيوم هذه الحضارة الجوفاء ، وينكشف السر المغطى ويعلم الناس أن دين الله هو الحق وكذلك يزهق الباطل إذا جاء الحق ﴿ وَقُلْ جَاءَ اَلْحَقُّ وَزَهَقَ اَلْبَاطِلُ إِنَّ اَلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ [الإسراء / ٨١] والذين يقولون إن الإيمان مجرد النطق بالشهادة بعيدون عن الصواب .

﴿أَحَسِبَ اَلنَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَيُفْتَنُونَ ﴾ .

أيحسبون أن يقولوا ءامنا ويكفيهم هذا القول ! كلا لن يكفي القول حتى يصدقه العمل ، إنه لابد من أداء الفرائض واجتناب النواهي والصبر على البلاء والشكر للنعماء، والرضا بمر القضاء وذلك هو القدر المشترك الذي يعرض الناس عليه جميعها من الامتحان حتى يظهر الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق ، وتلك سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا اَلذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذِينَ صَدَقُواْ وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

ولقد كانت فتنة الذين من قبلنا أقسى فصبروا وتحملوا الأذى الشديد في سبيل الله حتى أتاهم نصر الله ، وكذلك السابقون إلى الإسلام فتنوا وأوذوا في سبيل الله فصبروا ففازوا بالدرجات العلا عند الله والله مع الصابرين ، ونحن اليوم في زمان غربة الإسلام في أيام الفتنة والصبر ، القابض فيها على دينه كالقابض على الجمر وطوبى للغرباء ، وهم الذين يصلحون أنفسهم عند فساد الناس أو يصلحون ما أفسد الناس إن استطاعوا ذلك طوبى لهم أولئك لهم الدرجات العلا عند الله وأولئك هم الناجحون

في الامتحان والفائزون ، قال الله تعالى :

﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

إن علم الله محيط بكل شئ قبل أن يكون وبعد وقوعه لكنه لا يجازي الناس بعلمه فيهم قبل صدور الأعمال منهم وقيام الحجة عليهم بل يفتنهم ويمتحنهم فيظهر منهم ما كان يعلمه فيهم فيثيبهم ويعاقبهم على حسب نياتهم وأعمالهم بعد الإنذار والإعذار ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ولا يظلم الله الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، بل يمن الله تعالى بالعفو والمغفرة والرحمة ولا يظلم بالعذاب ، ويأمر الناس بالعدل والإحسان ويعاملهم بالعدل والإحسان ، والمراد بعلم الله في هذه الآية الكريمة ظهور علم الله تعالى في عباده بالنيات والأعمال التي يستحقون بها المثوبة أو العقوبة فالمثوبة للذين صدقوا والعقوبة للكاذبين .

ثم يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

أمْ هنا للإضراب فهي بمعنى بل ، أي بل هل يظن هؤلاء الناس الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ، أيظنون أنهم يفلتون من قبضتنا أو يخفون عنا ؟ كلا إنهم لا يعجزوننا إن لهم أجلا مسمى إذا انتهوا إليه لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، والآية نزلت في أهل المعاصي الموحدين لأن سياقها يدل على ذلك فهي شديدة الارتباط بسابقتها ، والآية السابقة نزلت في أهل التوحيد الذين نطقوا بكلمة الإيمان

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ وكذلك هذه الآية.

﴿ أَمْ حَسِبَ الذِينَ يَعْمَلونَ السَّيئاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

إنهم ناس نطقوا بالإيمان وفتنوا بالشيطان والنفس والهوى فافتتنوا فهم يعملون السيئات ويظنون أنهم يفلتون من عدالة الله ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ خطّأ الله تعالى حكمهم ، وفند عملهم الباطل ، وأمانيهم الفارغة ، وهذا نظير قوله تعالى في آية أخرى ﴿أَمْ حَسِبَ الذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْياهُمْ وَمَمَاتُهمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية / ٢١] أي ما أضل حكمهم هذا وأبعده عن الصواب ، وكيف تكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس إذا لم يكن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وصبر على التواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وصبر على المكاره . أيحسب الناس أن يعملوا بالمعاصي ثم لا يعاقبون على ذلك ؟ أم يحسبون أنهم يعجزون ربهم ويسبقونه أم يحسبون الله يخلف وعده ووعيده ! كلا بل ذلك تغرير الشيطان بهم ووعده الكاذب لهم ، والله يعد الوعد الحق ولا يخلف الميعاد . قال تعالى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بَظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ق / ٢٩] هذا حكم الله وكلامه الصريح في كتابه الكريم.

﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لأَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وفي سياق ما تقدم تأتي هذه الآيات الثلاث تذكيرا للموحدين الذين يؤمنون بالآخرة ووعظا لهم حتى لا تفتنهم هذه الحياة الدنيا بما فيها من أنواع الفتن الكثيرة التي أخطرها على الإنسان الضعيف فتنة إبليس اللعين ، تأتي هذه الآيات تذكيراً بلقاء

الله القريب يوم الجزاء حتى نستعد له ونؤمن به إيمانا يكون لنا قوة نتغلب بها على فتن الشياطين والنفس والدنيا وفتنها الكثيرة .

فيقول الله تعالى :

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاء الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾،

من المفسرين من يقول : معنى الرجاء هنا انتظار الأمر المحبوب وهو مغفرة الله ورحمته وثوابه العظيم ، ولا يرجو هذا الرجاء إلا من قدم لنفسه ، وفي هذا ترغيب في تقديم الباقيات الصالحات ومنهم من يقول معنى الرجاء هنا الظن الذي هو بمعنى اليقين على معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ وأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة :٤٥/٤٦] وكلا المعنيين صحيح والمعاني لا تتزاحم وفي كليها وعظ وتذكير وإنذار للمؤمنين أن يقدموا لأنفسهم قبل انتهاء الأجل الآتي وكل آت قريب ،وفي استقراب الأجل المحقق القريب عون على الصبر على فتن الدنيا وإشعار أنها وشيكة الزوال ، قريبة الأمد ، سريعة الفناء ، وأن لابقاء لها والبقاء لله ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هو السميع لأقوالكم ، العليم بأفعالكم وبما في نفوسكم وقلوبكم ، فلا تظنوا أن شيئا من ذلك يخفى على الله من خير وشر، وهذا التذييل بهذين الوصفين مناسب ومتمكن في هذا المقام حتى يقطع الله عن قلوب المسلمين وساوس شياطين الجن والإنس فهي تحاول أن تفتن عباد الله باستبعاد ما هو قريب من وعد الله، وبالتشكيك في سعة علم الله وإحاطته بما هو جلي وخفي فمهما يخفي العبد من الأفعال والنوايا والأقوال وإن خفيت عن الناس فإن الله يعلمها و هو السميع العليم .

﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ .

ولذكر الجهاد هنا فائدة عظيمة ولا يقوى على اجتياز فتن الدنيا بسلام إلا المجاهدون ،فما أحوجنا ونحن نخوض فتن الدنيا الكثيرة إلى الجهاد الطويل ،وهو الجهاد الأكبر كما وصفه النبي ﷺ: جهاد النفس والهوى والشياطين، وحلو الدنيا ومرها ،وغناها وفقرها ،وتقلبات أيامها، ففي الآية تحريض على الجهاد في سلوك سبيل النجاة وبيان أن من جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ،والله أجل وأعلى من أن تناله طاعتنا أو معصيتنا ،وهو الغني ونحن الفقراء ،هو الغني عن العالمين ؛والعالمون هم المخلوقات في السماوات والأرض وما بينهما ، وسموا العالمين لأن وجودهم علامة تدل على وجود الخالق وعلمه وقدرته وإرادته وعظمته ورحمته وحكمته وتفرده بالربوبية ووحدانيته في ألوهيته فلا إله إلا هو ولا رب سواه ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَإِلَهَ إِلا هُو فَادْعُوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر /٦٥].

﴿ وَالذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ .

لا يرد الايمان في القُرءان إلا وهو مقرون بالعمل الصالح إما يسبقه أو يلحقه ويعقبه،وذكر العمل الصالح هنا مؤكد لما سبق أنه لا يكفي أن يقول الناس آمنا وهم لا يفتنون، فالأعمال الصالحة هي التي تميز صادق الناس من كاذبهم والآية هنا تبين الجزاء الأوفى الذى أعده الله للعالمين ،وفي ذكر الجزاء ترغيب في الأعمال الصالحة مقترنة بالايمان بالله واليوم الآخر؛ إن الله يعد ووعده الحق أن الذين يجمعون بين الايمان والعمل الصالح أنه يكفر عنهم سيئاتهم ويجزيهم أحسن الجزاء ؛ وهذا أقصى ما يأمله

المؤمن عند ربه : مغفرة الذنوب وتكفير السيئات وقبول الأعمال الصالحة وحسن الجزاء، وأخوف ما يخافه المؤمنون شؤم ذنوبهم وأن تكون أعمالهم مردودة عليهم فإذا بشرهم ربهم بتكفير سيئاتهم وقبول أعمالهم وأنهم يجزيهم الجزاء الأوفى على أحسن ما كانوا يعملون فتلك هي البشارة الكبرى، وذلك هو أقصى المنى وذلك هو الفوز العظيم ،وتكفير السيئات هو سترها عليك وأن لا يؤاخذك بها ولا يعاقبك عليها، والجزاء على أحسن الأعمال بعد مضاعفتها بعشر أمثالها إلى سبعين ضعفا إلى مائة ضعف إلى سبعمائة ضعف إلى ألف إلى مائة ألف إلى أضعاف كثيرة والله يضاعف لمن يشاء ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ،ولا يزال المؤمن يستغفر ربه ويجتهد في الأعمال الصالحات ويحسن الظن بربه فيجد الله عند حسن ظنه ، وذلك لمن أحسن الظن وأحسن العمل أما الذين يفرطون في الأعمال ويرتكبون الآثام ويقولون نحن نحسن الظن بالله تعالى ، فقد جاء في الحديث الصحيح أنهم كاذبون ولو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل وقد يقول قائل : إذا كان الله يجزي عباده المؤمنين أحسن الذي كانوا يعملون فما بال أعمالهم الحسنة التي هي دون الأحسن فهل يجازيهم عليها ؟ وهذا وهْمٌ ينتج عن خطأ في الفهم ويرد عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنَ اَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف/ ٣٠] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّه لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُوتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء / ٤٠] وقوله تعالى :﴿ فَمَن يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَّرَهُ وَمَن يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَّرَهْ ﴾ [الزلزلة/٧–٨] في أمثالها من الآيات التي تفيد أن لا شئ من أعمال العالمين يضيع أبداً وإنما يخرج قوله تعالى:

﴿ ولَنَجزِ ينَّهُمُ أَحْسَنَ الذِيَ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

تخرج تخريج مضاعفة الجزاء أي يجزيهم بأضعاف ما عملوا من الأعمال الصالحات وذلك هو أحسن الذي كانوا يعملون ، هذا بعد تكفير السيئات فنعم أجر التائبين المستغفرين ونعم أجر العاملين .

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾

تأتي هذه التوصية الربانية في أثناء الكلام على فتنة الله لعباده وهي من صلب هذا الموضوع لأن الله فتن الآباء بأولادهم وفتن الأولاد بآبائهم وأمهاتهم قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن /١٥] وذلك لأن حنو الآباء والأمهات على أولادهم يفتنهم عن طاعة الله فيضيعون أمر الله ويرتكبون نهيه فيجمعون لهم الحرام ويبخلوا بحقوق الله في أموالهم وفي الأثر « الولد مبخلة مجهلة مجبنة » ونعوذ بالله من فتنة الأموال والأولاد وكذلك فتن الله الأولاد بآبائهم وأمهاتهم بما كلفهم به من المبالغة في الإحسان إليهم وخفض الجناح والتذلل لهم من الرحمة والصبر على تحمل أذاهم وهذا أمر شاق لا ينهض به من الأولاد إلا من وفقه الله ورحمه وأعانه على ذلك ، وقد يأمرانه بجريمة أو معصية أو شرك فيطيعهما ،وهذه فتنةأخرى من أعظم أنواع الفتن أن يأمرك من تحبه بأمر فتطاوعه ولو كان ذلك الفعل معصية للخالق ، أو ينهاك عن شئ فتجتنبه ولو كان فرضا أوجب الله عليك فعله فتكون حينئذ هالكا قد فتنت بوالديك،

ولا يجوز طاعتهما فيما هو معصية لله ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾

توصيته أمر الله وإيجابه على كل إنسان أن يحسن لوالديه إحسانا لأنهما سبب وجوده ولأنهما أحسنا في تربيته وتحملا في ذلك الأتعاب والمشقات زمانا طويلا وقد كانت أمه تعبت في حمله في بطنها زمانا ووضعته كرها ثم تحملت ما تحملت في تربيته وهو صغير، وتعب أبوه كذلك وقام بالإنفاق عليه وتحمل في ذلك الأتعاب وتعرض للأخطار في جمع أقوات عياله وأولاده فيجب على الأولاد أن يجازوا إحسانهم بالإحسان ولو كانا مشركين ، ولا يسقط الشرك حقهما وحسابهما على الله، وكذلك حساب وثواب أو عقاب أولادهم قال تعالى :

﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم إلي مصيركم بعد موتكم فأنبئكم وأجازيكم على أعمالكم التي كنتم تعملونها في الدنيا، و أنا الذي أحاسب الوالدين إن كانا مشركين وأجازيهما على شركهما وأجازي الأولاد على إحسانهم إن كانوا محسنين وأجازيهم على تضييعهم لحق الوالدين وتفريطهم إن كانوا مفرطين ، وهذا التحريض والتوصية في القيام بحق الوالدين ولو كانا مشركين يجاهدان ولدهما على أن يشرك بالله ما ليس له به علم فكيف بالوالدين المسلمين الذين يأمران ولدهما بالاستقامة على طريق الهدى وقد رباه من قبل على الإسلام فهذان لا شك يكون حقهما أعظم وبرهما ألزم ، ويكون الإثم في التفريط بحقهما أعظم جرما والعقوبة تكون من الله أشد وأنكى فليتق الله الأولاد الذين يسيئون إلى آبائهم وأمهاتهم أويفرطون في واجب الإحسان إليهم. ثم

قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ .

يعقب الله عز وجل على هذه الآيات السابقة بهذه الآية الكريمة بحكم يحكمه أن يدخل في الصالحين كل من آمن وعمل صالحا، والأعمال الصالحة هي التي فيها صلاح عامليها وصلاح المجتمع المسلم ،إن الله يدخلهم في الصالحين ويلحقهم بهم في جنات عدن يجازيهم فيها على أعمالهم ويزيدهم من فضله، وذكر الدخول في الصالحين فيه بيان أن هنالك عبادا لله نجحوا في الإمتحان وخرجوا من فتن الدنيا منتصرين لم تتغلب عليهم و لم تضرهم في دينهم شيئا فلتكن لنا بهم أسوة حسنة حتى يلحقنا الله بهم وحسن أولئك رفيقا ،وهذا نظير قوله تعالى مخاطبا النفس المطمئنة ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر / ٢٩-٣٠] ولا يكون هذا إلا للذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وإيمان بدون عمل صالح لا ينفع ولا يبلغ بصاحبه الدخول في عباد الله الصالحين . ثم يقول تبارك و تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠
وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ١١
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا

وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

هذه الآيات نزلت في بيان حقيقة المنافقين المذبذبين الذين ينقلبون على أعقابهم لأجل فتنة الناس ،ويجعلون فتنة الناس كعذاب الله في ميزان واحد فتراهم مذبذبين لا يثبتون على مبدأ واحد صحيح ، والحقيقة أن إيمان هؤلاء من أول مرة غير متمكن في قلوبهم ولذا قال في حقهم . ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ ﴾ .

فهو مجرد قول ودعوى وليس إيمانا حقيقيا .﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾ .

فإذا تعرض للأذى في سبيل الله ارتد على عقبيه وجعل فتنة الناس كعذاب الله ، ذلك لأن جبابرة الكفار يؤذون المؤمنين على إيمانهم بالله ويفتنونهم بأنواع الأذى فمن كان مؤمنا صادقا في إيمانه يخاف عذاب الله يثبت على إيمانه ولا يأبه لأذى الناس ولا يجعل له وزنا فهو يتحمله راضيا صابرا لأن عذاب الدنيا يهون في عذاب الآخرة فعذاب الدنيا يزول وعذاب الله يدوم ولا يزول فلا تصح المقارنة بينهما أبدا كيف يقارن ما يبقى بما يزول ويفنى ؟ ولذلك قال سحرة فرعون لفرعون لما هددهم بالعذاب لما آمنوا برب موسى وهارون رب العالمين قالوا له ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه /٧٢] إنهم رجال آمنوا بربهم وصدقوا في إيمانهم و لم يجعلوا فتنة فرعون كعذاب الله بل ثبتوا على إيمانهم وقالوا

لعدو الله ﴿ فاقْضِ مَا أنتَ قَاضٍ انـَّمَا تَقْضِى هَذهِ الحَيْوةَ الدُّنيَا ﴾ فرضي الله عنهم وأرضاهم ، لقد كانوا المثل الأعلى للمؤمنين الصادقين في إيمانهم وما ضرهم حين صبروا على عذاب يوم أو بعض يوم وأفضوا إلى نعيم الأبد أما الذي يرتد عن إيمانه ويرتكب المعاصي أو يترك الفرائض خوفا من عذاب الناس ويتعرض لعذاب الله الدائم فهو أخسر الخاسرين، وقد لا تكون فتنة الناس قاسية بل لا تكون إلا تهكما واستهزاء بالمؤمنين فيفتتن ضعفاء الإيمان وينقلبون على أعقابهم خوفا من سخرية الناس أن يصموهم بالجمود أو الرجعية فيشربون الخمر ويتركون الصلاة خوفا من سخرية هؤلاء الفاسقين حتى لا يوجهوا إليهم الشتائم والكلمات الجارحة ويجعلون فتنة الناس كعذاب الله.

﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مّن رَّبِكَ لَيَقُولُنَّ إِنّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾

وقد يكون النصر آخر الأمر مع المؤمنين الصادقين يمكن الله لهم في الأرض ويذل لهم من أعدائهم وحينئذ ينقلب إليهم هؤلاء المنافقون متزلفين إليهم يقولون لهم إنا كنا من قبل معكم ،إن الله تبارك وتعالى يرفض دعواهم الباطلة ويرد عليهم بقوله .

﴿ أَوَ لَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هذا استفهام تقريري يقول الله تعالى : أليس الله بأعلم بما في قلوب خلقه ؟ أيظن هؤلاء أن نياتهم تخفى على الله العليم بذات الصدور؟ إنهم من الجهل بربهم في ضلال بعيد وأن الله العليم بما في صدور العالمين فاتن عباده حتى يعلم الصادق من الكاذب .

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الله الذِين ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ .

إن الله يبتلي عباده ليظهر علمه فيهم فتقوم الحجة عليهم فيجازيهم على أعمالهم

بعد الابتلاء والامتحان، وهنا يقول تعالى :

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ .

أي الذين يثبتون على إيمانهم ويصدقون عند الامتحان ولا يترددون .

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ .

أي الذين ينقلبون على أعقابهم لفتنة الناس ولا يثبتون ،يعلم الله هؤلاء وهؤلاء فيجازي كلا بما يستحق بعد الابتلاء والامتحان، وشتان بين مصير هؤلاء وهؤلاء فليعتبر المعتبرون وليحذر المترددون الذين يجعلون فتنة الناس كعذاب الله ،إن هذا الفريق المذبذب يتربص بالمؤمنين فإن كان لهم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب مالوا إليهم وقالوا لهم ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين،هؤلاء يميلون مع الريح حيث تميل لاخير فيهم وهم شر خلق الله وسيلقون جزاءهم في الدرك الأسفل من النار إلا من تاب منهم وأخلص دينه لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما .

ثم بعد ذكر هذا الفريق المذبذب يذكر الله في هذه الآيات الفريق الثالث وهو فريق الكفار المصارحون بكفرهم ويحذرنا من فتنتهم وهم يجاهدون المؤمنين على أن يكفروا مثلهم ويتبعوا سبيلهم .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾.

بدأت السورة الكريمة بذكر فريق الموحدين فقسمتهم إلى مؤمنين صادقين

ومدعين كاذبين يخيبون ويخسرون عند امتحان الله ولا يصبرون ، ثم ذكر الله الفريق الآخر وهو فريق المنافقين المتربصين بالمؤمنين فحذرنا أن نكون منهم بعد أن بين لنا طباعهم وسماهم المنافقين وسيلقون جزاءهم ، ثم يذكر الله في هذه الآيات الفريق الثالث وهو فريق الكفار المصارحون بكفرهم ويحذنا من فتنتهم وهم يحاولون إضلال المهتدين وجرهم إلى سبيلهم الضال ويفترون على الله الكذب حين يدعون لهم أنهم سيحملون خطاياهم إن هم اتبعوا سبيلهم ،فيبين الله فتنتهم ويكذبهم ويتوعدهم على افتراءاتهم شر الوعيد .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ .

يقول أهل الكفر والضلال لأهل الإيمان والاستقامة اتبعوا سبيلنا واكفروا مثل كفرنا وافعلوا أفعالنا نتحمل خطاياكم على رقابنا ليفتنوهم ويجروهم إلى فسقهم وضلالهم، وقد يكون مع هذا الكلام تهديد منهم لأهل الاستقامة ولا يزال الناس يرددون هذه الكلمة ويقول أحدهم للآخر : « افعل كذا وكذا على ذمتي وعلى رقبتي» والعجب أن ضعفاء القلوب يصدقون مثل هذا الكلام ويفتنون فيقعون في الموبقات والمعاصي المهلكات ، ولا أحد يحمل عن أحد سيئة واحدة من سيئاته لأنه هو الذي أغراه بها ، يرد الله على هؤلاء الكفار بما يردعم ويعصم أهل الهدى والاستقامة من فتنتهم .

﴿ وَمَا هُمَ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .

يأتي الجواب بالنفي البات المؤكد المكذب لدعواهم الباطلة وليسوا بحاملين شيئا من خطاياهم ولو قليلا إنهم لكاذبون بل كل خطيئة تكتب على صاحبها ولا تزر وازرة

وزر أخرى وليست أحوال يوم القيامة كأحوال الدنيا وقد يغري بعض الناس في الدنيا بعضا من الصعاليك على القتل والانتقام ويقولون: اقتلوا أو اضربوا ونحن نتحمل النتائج ونغرم وقد يوفون بهذا ويغرمون الآلاف والملايين وقد ينسحبون آخر الأمر ويختفون ولا يتحملون شيئا فيؤخذ المجرمون المباشرون للإجرام وحدهم ولا يجدون معهم الذين كانوا أغروهم بالجريمة ووعدوهم الوعود الكاذبة ، أما الآخرة فالأمر فيها يجري على قانون الجزاء العادل وهو أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى ، كل نفس بما كسبت رهينة . هذه كلمة يقولها الكفار ليفتنوا بها المؤمنين وهي كذب وباطل كما رأينا وسمعنا وقد نضطر نحن في بعض الأحيان أن نقولها لبعض المبتلين بأمراض الوسواس في أمور النجاسة والطهارة فيصلون إلى بلاء شديد فلا يكاد أحدهم يقوم في مصلاه إلا بعد أن يمضي معظم وقت الصلاة أو كله فيصلي الصلاة خارج وقتها وقد كان يبالغ في الغسل ويسرف في صب الماء على أجسادهم أو على ثيابهم فنحاول علاجهم وتخفيف هذا البلاء عنهم وقد نقول لأحدهم صل بهذا الثوب أو يكفيك هذا الماء ، صل بهذا الثوب أو في هذا المكان على رقبتي وهذه الكلمة في هذا الموضع حق لأنا نقولها ونحن نعلم أنه ليس فيما نأمرهم به بأس أبدا بل هو الدواء الذي قد يمكن أن نعالج به أمراضهم، ففي هذا الموضع فقط تصلح هذه الكلمة « افعل كذا وكذا على رقبتي » يقولها معلم عالم لموسوس جاهل مبتلى ، أما في مواضع الإثم ظاهره وباطنه فهي كذب وزور ، فاحذروا أهل الإغراء الذين يزينون للناس لا سيما الشباب الأغرار منهم يزينون لهم الاثم ويغرونهم بالمعاصي ويقولون لهم : نحن نتحمل خطاياكم ، قال الله تعالى .

﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

يعني أن العصاة سيتحملون وحدهم إثم معاصيهم وعقوبتها لا يخفف عنهم أحد منها شيئا حتى الذين أغروهم بها وأن الذين أغروهم بها سيتحملون وزر إغراءهم مع أوزارهم من غير أن يحملوا من أوزار الذين يضلونهم شيئا ، قال الله تعالى وقوله الحق .

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ .

إنهم سيحملون يوم القيامة أثقال ذنوبهم ومعاصيهم وكفرهم وأثقالا أخرى مع أثقالهم يوم ترجع الخطايا أثقالا على أعناق أصحابها إنهم سيحملون أوزار إضلالهم وفتنتهم للناس أثقالا زيادة على أثقالهم وإنهم سيسألون يومئذ عما كانوا يفترونه من الكذب على الله وعلى الناس ، وقولهم هذا للناس من أعظم الافتراءات وإشراكهم بالله إفتراء ليس أعظم منه ظلما فقوله تعالى ﴿وَلَيُسْئَلُنَّ﴾ أي وليعذبن على إفتراءاتهم أفضع أنواع العذاب يقرر الله بهذه حكما وهوأن الدال على الشر كفاعله وكذلك الدال على الخير كفاعله فالذين يغرون الناس بالمعاصي يتحملون مثل معاصيهم ويكون عذاب الحريق جزاءهم يوم القيامة . ﴿ إِنَ الذِينَ فَتَنُواْ الْمُومِنِينَ وَاَلْمُومِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج/١٠] والذين يدعون الناس إلى الخير ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ويأتمرون بما يأمرون وينتهون عما ينهون أولئك هم المفلحون لهم عند الله الجزاء الأوفى .

ثم يقص الله علينا بعض أنباء من قبلنا وكيف جاءتهم النذر فكان منهم الصادقون أتباع الرسل ومنهم الكاذبون أعداء الله ورسله وفي قصصهم عبرة لأولى الألباب فيقول الله تبارك وتعالى :

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾
فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

هذا خبر رسول الله نوح عليه السلام يطويه الله تبارك وتعالى في آيتين وما أبلغ القرءان في إيجازه إذا أوجز وفي إطنابه إذا أطنب ولكل من هذين الأسلوبين مقام وتأثير، يطوي الله خبر عبده الشكور نوح الذي لبث في قومه زمانا طويلا ويحدد الله تبارك وتعالى هذا الزمن في هذا الكلام الموجز ويبين لنا نوح عقاب الظالمين منهم وعاقبة الناجين منهم وهم قليل ويذكر موضع نجاتهم من الغرق وكيف جعل قصة هلاك الهالكين من أعداء الله ورسوله ونجاة الناجين من أوليائه آية بينة للعالمين يتناقل الناس أخبارهم عبر القرون يحكيها الأسلاف للأخلاف ويرويها الأواخر عن الأوائل وفيها عبرة للمعتبرين وتذكرة للمتقين . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدَ ارْسَلْنَا نُوحاً إِلَىَ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمُ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ .

أرسل الله تبارك وتعالى عبده نوحا شيخ المرسلين إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له فكان يدعوهم وكانوا يكذبونه ويهددونه بالرجم ويضربونه فصبر على فتنتهم زمانا طويلا حتى آتاه نصر الله وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ،

ذكر الله الألف ثم استثنى منها خمسين عاما ليكون وقع الألف أبلغ في النفوس ولينضبط العدد ولتنصقل العبارة فتقع فصحة لها حلاوتها في النفوس وللمفسرين اختلاف في تحديد عمر نوح قبل الرسالة وبعد الطوفان فجمهورهم يقول أرسله الله على رأس أربعين عاما كعامة رسل الله وبعضهم يقول أكثر من ذلك وبعضهم يجعل مدة عمره كلها ألفا وسبعمائة سنة ، وبعضهم يقول أقل من ذلك والله أعلم ، وعلى كل فإن عمر نوح في قومه طويل ،وروي أن أعمار الناس يومئذ كانت طويلة كان الواحد منهم يعيش عدة قرون ، ثم إنه لم يؤمن بنوح في هذه المدة الطويلة إلا عدد قليل، أكثر ما قيل في عدتهم ثمانون شخصا وهم أولاده الثلاثة: سام وجام ويافت وأزواجهم وأولادهم ، والذين ءامنوا بنوح وهم الذين نجوا معه في السفينة وأولاد نوح أجداد من على ظهر الأرض اليوم من البشر قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات /٧٧] وهلك الباقون ومن الهالكين كنعان بن نوح لأنه كان كافرا وكذلك امرأة نوح لأنها كانت كافرة بالله ورسوله قال تعالى:

﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

كفروا بالله وتمردوا على رسوله نوح فدعا عليهم آخر الأمر بعد صبر طويل فاستجاب الله دعاءه عليهم فأخذهم عذاب الله وهو الطوفان وهم ظالمون ظلموا أنفسهم بالشرك وبأنواع المعاصي والمآثم وظلموا نوحا والذين ءامنوا معه وتمادوا على ظلمهم حتى أدركهم عذاب الله فماتوا وهم كافرون ولما حان موعد هلاكهم أمر الله السماء فانفتحت أبوابها بماء منهمر وأمر الله الأرض فتفجرت عيونها بإذن الله فالتقى الماء على أمر قد قدره الله تقديرا وغرقت اليابسة فلم ينج يومئذ إلا الذين سلكهم نوح

بأمر من الله على ظهر السفينة من الناس والحيوان والوحوش والطيور وهم الذين كتب الله أن يعمر الأرض بنسلهم بعد الطوفان العارم الذي طبق الأرض قال تعالى :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

هكذا يجيئ التعبير الرباني بنون العظمة لأن هذا الإنجاء من الله وحده وقد شاهده الناس أجمعون مؤمنهم وكافرهم كما قال نوح عليه السلام ﴿ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَّحِمَ ﴾ [هود/٤٣] أنجى الله عبده نوحا وأصحاب السفينة ، جاءت الإضافة هنا إضافة ملابسة لأنهم الذين ركبوا السفينة ولبثوا فيها مدة الطوفان وقد صنعت لهم ومن أجلهم فهم أصحابها و لم يكن الناس قبل الطوفان يعرفون صنع السفن ولا تسييرها لأن عدد الناس يومئذ قليل ، وكانوا يعمرون رقعة من الأرض متصلة لا يحتاجون في تزاورهم إلى ركوب البحار ، وكان الكفار يسخرون من نوح حين كان يصنع السفينة بأمر الله وإرشاده وكانت هذه النجاة نجاة من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة فهي نجاة حقيقية وكاملة ، أضافها الله إلى نون العظمة امتنانا منه على عباده المؤمنين وبياناً لكمال قدرته على كل شيء قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ حقا هي آية عظيمة باهرة لجميع العالمين أهل السموات وأهل الأرض الأولين والآخرين ، جعلها الله آية وأضاف هذا الجعل إلى نون العظمة وهو أمر عظيم لا يقدر عليه إلا الخالق العظيم الذي إذا أراد شيئاً إنما أمره أن يقول له كن فيكون ، لقد كانت حقا آية عظيمة تجلت فيها عظمة الملك الجبار الفعال لما يريد ، ولا أبدع في وصف هذا الأمر من وصف منزل القرآن حيث يقول عز من قائل ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر/١١-١٥]

هذا وفي كشف هذا الأمر وإرجاع الأرض إلى حالتها آية أخرى عظيمة لا تقل عن الأولى ولا أبدع في وصفها من وصف منزل القرآن حيث يقول عز وجل ﴿ وَقِيلَ يَأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسَمَاءُ اقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود/٤٤] هكذا استجاب الله لعبده نوحا حيث يقول ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلاَّ تَبَاراً ﴾ [نوح/٢٨] نجاه الله ومن آمن معه وأهلك الظالمين وتركها آية للعالمين ، وفي ذكر هذه الآية تسلية لقلب النبي محمد ﷺ وقلوب المؤمنين معه وتخويف للكافرين ، ثم يثني الله تعالى بذكر خبر سيدنا إبراهيم عليه السلام وصبره على فتنة قومه وكيف أنجاه الله من كيدهم وكانت العاقبة للمتقين .

قال الله تبارك وتعالى :

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ١٩ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٢٠ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ
مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ٢١ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ٢٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٣
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا
مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ
بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى
مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبْنَا

لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

يذكر الله خبر إبراهيم عليه السلام مع قومه بشيء من البسط في الكلام للاعتبار وللموعظة ولتسلية قلب رسوله محمد ﷺ والمؤمنين المستضعفين معه حتى يتأسوا به ويصبروا على أذى قومهم ، وكذلك يفتن الله بعض الناس ببعض للابتلاء والامتحان .

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنَ دُونِ اللَّه أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً اِنَّ الذِينَ تَعْبُدُونَ مِنَ دُونِ اللَّه لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْه تُرْجَعُونَ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ الاَّ البَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾.

أي واذكر رسول الله إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، والعبادة هي الطاعة المطلقة والخضوع الكامل وتوحيده بالعبودية، تفرد الله ربنا بالألوهية كما تفرد بالخلق والربوبية لا شريك له وما من نبي أرسله الله إلا ويدعو قومه أول ما يدعوهم لعبادة الله وحده لا شريك له ، كذلك خاطب إبراهيم قومه بالدعوة إلى عبادة ربهم وحده وقال لهم **﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾** أي واحذروه واطلبوا رضاه واتقوا سخطه ، والتقوى داخلة في معنى العبادة ولكنها أفردت بالذكر لأهميتها ولأن جميع خصال البر تندرج

تحت لفظ التقوى ، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة/١٩٧] ثم قال إبراهيم. ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

الإشارة بذلكم إلى ما تقدم من تقوى الله وإفراده بالعبادة قال : ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي لدنياكم وآخرتكم إن كنتم تعلمون أي تعلمون العلم النافع الذي يهديكم لحسن العواقب ، وكذلك يخاطب الرسل أممهم بلغة العقل والعلم والتفكر ويعلّم الله عباده علماً يهديهم بواسطة الرسل المرسلة والكتب المنزلة والعقل لا يبصر إلا بنور العلم كما أن العين لا تبصر إلا في الضوء ، فالعلم أشرف مطلوب وأنفس موهوب ومكسوب، ومن أوتي العلم النافع فقد أوتي الحكمة ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ثم قال إبراهيم لقومه :

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ .

أي ما تعبدون من دون الله إلا أصناماً تنحتونها أنتم بأيديكم من خشب وحجارة ثم ترجون نفعها وتخافون ضرها، وهذا إفك تخلقونه ما أنزل الله به من سلطان ، والإفك أعظم أنواع الكذب والزور، ثم بين لهم حقيقة ما يعبدون من دون الله فقال: ﴿ إِنَّ الذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه إن هذه الأوثان والأصنام التي تعبدونها من دون الله ربكم وترجونها لا تملك لكم من الرزق شيئاً قال لهم ذلك لأن أكثر ما يحرص الناس على تحصيله هو الرزق الذي به تقوم معيشتهم في هذه الحياة الدنيا التي يؤمنون بها وهم عن الآخرة هم غافلون ولذا خاطبهم بما يهتمون به وبين لهم حقيقة

معبوداتهم أنها لا تملك لهم من النفع شيئا ولا تدفع عنهم الضر بل هي التي تحتاج إليهم، فهم ينحتونها ويدهنونها ويعطرونها ويذبحون عندها ويصنعون عندها أنواع الأطعمة وهي لا تأكل ولا تنتفع من ذلك بشئ وهي عنهم غافلة لا تعي من أمرهم شيئاً كيف يطلبون الرزق ممن لا ينفع ولايضر، ولا يسمع ولا يبصر ولا ينطق ، ولا يعقل شيئا؟! قال لهم إبراهيم عليه السلام :

﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

أرشدهم نبيهم وهداهم إلى ما هو الحق والصواب وهو أن يبتغوا الرزق من عند الله الغني الحميد الذي له خزائن السموات والأرض فلا تنفد خزائنه ولا يبخل برزقه على عباده وهو خير الرازقين ،فابتغوا عند الله الرزق لا عند غيره واعبدوه وحده فهو الذي يقبل عبادتكم ويضاعفها ويجزيكم عليها خير الجزاء واشكروا له ، فهو المنعم الذي يستحق الشكر،وقضى أن يزيد الشاكرين من نعمه ويجزيهم على شكرهم ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران/١٤٥] والذي يرزق يستحق أن يعبد ويشكر ،ثم ذكرهم بمصيرهم إليه بعد الموت فقال :﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إلى الله لا إلى غيره يكون رجوع الناس يوم القيامة للحساب والجزاء ،والإيمان بيوم الحساب هو القضية الثانية بعد الإيمان بالله ورسله وكتبه، وهي التي تسير الناس على صراط الله المستقيم وتردهم عن الظلم وارتكاب الآثام، ولا يصح إيمان المرء إلا بالاستعداد ليوم الحساب ولذا يركز عليها رسل الله والدعاة إلى الله ويذكرون الناس بها وهي سر استقامة أولياء الله الصالحين . ثم قال لهم إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ .

أي وإن تؤمنوا بي وتصدقوني فهو خير لكم وإن تكذبوا وتكفروا فقد سبقكم أمم في الكفر والتكذيب فهم سلفكم وأئمتكم إلى النار ولا تضرونني شيئاً تهلكون أنفسكم وما على رسل الله إلا البلاغ المبين فما وظيفتي فيكم إلا التبليغ والتبيين ، أبين لكم طريق الهدى وطريق الضلال وأدعوكم إلى النجاة ، ولست أنا الذي أهديكم وما أنا عليكم بمسيطر إن علي إلا البلاغ ومهما تكذبوني أو تؤذوني فأنا صابر كما صبر أنبياء الله من قبلي حتى أتاهم نصر الله فأهلك الله أقوامهم المكذبين ونجاهم والمؤمنين هكذا يذكرهم إبراهيم بالأمم المكذبة من قبلهم ليعتبروا بعواقبهم ويتعظوا بأيام الله فيهم ، فأولى لهم أن يستمعوا إلى دعوته ويقبلوا نصيحته حتى يرشدوا ويجنبوا طريق الهالكين، وقد مضت قبل إبراهيم عليه السلام أمم جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوهم فأهلكهم الله ولا نعلم من أخبارهم إلا ما قص علينا الله في القرآن أسماءهم قبل إبراهيم وبعده ، وفيما قص علينا معتبر لأولي الألباب .

إلى هنا ينتهي الفصل الأول من كلام إبراهيم مع قومه،ثم يقص الله علينا كيف كان رد قومه عليه وقبل ذلك يعظنا بما يعظنا به من آياته البينات ذلك لأن القرآن كتاب دعوة وإرشاد وليس هو كتاب قصص وحكايات ، بل لا يذكر من الأخبار والقصص إلا ما فيه الذكرى والاعتبار ، وفي أثناء ذلك يركز الكلام على الدعوة إلى النظر في آيات الله البينات في الأكوان للتذكر ، ويعظ ويرشد وينذر ويبشر ويأتي بالحجج والبراهين ما يدل على وجود الله ووحدانيته وصدق رسله بما تخبر به من شئون يوم القيامة وسائر الغيبيات التي علينا أن نؤمن بها . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ

وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَالَكُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ وَالذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أوْلَئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . هذه الآيات كلام الله وقوله في مختلف أصناف الكفار المنكرين للبعث في كل زمان ومكان، ومن جملتهم كفار مكة المنكرون لرسالة محمد ﷺ ، ولذا أمره نبيه أن يأمرهم بالنظر والاعتبار فقال تعالى :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وأعظم ما أبتلي به الناس وفتنوا به إنكارهم للبعث بعد الموت وغفلوا عن النظر في آيات الله البينات في الأكوان ، ولو نظروا وتأملوا لأدركوا الحق وعرفوه ، ولذا فإن الله يقرعهم بأمثال هذه الآيات :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

أي أعموا و لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ؟! وقضية بدء الخلق وإعادته تتكرر في كل لحظة وتتجدد الالآف والملايين المرات ولا أحد غير الله يعلم سر الحياة، ولن يطمع أحد من المخلوقات في معرفة هذا السر ، ولقد يعلم الكفار أن آلهتهم التى يعبدونها من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولا أصغر من ذلك ولكنهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ، وما أنزل الله بهذا من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، وقضية بدء الخلق وإعادته تدل على البعث والنشور بعد الموت ، وقد ضرب الله لهذا أمثلة متعددة في القرآن ، وهنا يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي إن بدء الخلق وإعادته والإماته والإعادة يوم القيامة أمر يسير على الله فما لكم لا تدركون هذا

بالتأمل في مخلوقات الله ! يأمرهم الله تعالى بالسير في الأرض والنظر إلى ما حولهم من المخلوقات حيوانها ونباتها وغير ذلك نظر اعتبار وتأمل ، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قل يا محمد لهؤلاء الكفار المنكرين للبعث سيروا في أرض الله فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة بعد النشأة الأولى ولن يزال الأمر يتجدد في كل دقيقة وثانية وجزء من ثانية من يفعل هذا ؟ أليس الله هو الذي يبدء الخلق والله هو الذي يجدده بعد الموت والفناء : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ [القيامة/ ٤٠] بلى . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فإذا نظرتم وأدركتم قدرة الله وعلمتم أن الله على كل شئ قدير فلم تعبدون سواه ولم تنكرون البعث بعد الموت فأنى تؤفكون وأنى تصرفون !! يخاطب الله في الناس عقولهم وقلوبهم بهذا الخطاب المنطقي المعقول المفهوم الذي تدركه كل العقول ولا يعزب عن الأفهام إدراكه فلا ينكر الحق بعد هذا إلا متكبر عنيد يتبع الهوى ويعبد الشيطان الرجيم ، هكذا يقيم الله الحجج القاطعات على وقوع البعث والنشور بعد الموت ليجزي الناس على أعمالهم. قال الله تعالى :

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ .

يقرر الله تعالى في هذه الآية مسألة الجزاء يوم ينقلب الناس إلى الله فيعذب من

يشاء من عباده ويرحم من يشاء منهم والأمر كله بيديه لا يشاركه فيه أحد والكل خلقه يجري فيهم حكمه كما يريد بقضاء عادل لا يجور ﴿ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ أخبرنا بالجزاء لنستعد بالإيمان والعمل الصالح والإحسان فيه حتى تكون رحمة الله قريبا منا وعبر هنا عن البعث بالقلب .﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ والعبارة فيها نوع من الشدة ، والمقام مقام شدة وزجر ثم قال : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ .

أنتم أهون وأضعف من أن تعجزواربكم هربا فتفوتوه ، هيهات إنكم لا تعجزونه فى الأرض ولا فى السماء ولو طرتم فيها ، ولا تخفون عنه والله محيط بكم ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر/٦٧] فأين تذهبون وأين تهربون ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة/١١-١٢] إنكم عن الذهاب فى الأرض عاجزون فكيف وأنتم عن الذهاب في السماء أعجز فمن الذي يجيركم من الله . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ .

ما لكم أيها المنكرون للبعث والجزاء المكذبون بيوم الدين ما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ينصركم أو يشفع لكم ، إن هذه الأصنام التى ترجونها لتكون لكم شفعاء عند الله ستكفر بكم وتتخلى عنكم وتضل عنكم يوم يكون الأمر لله وحده ، والأمر كله لله ، ولن يشفع يومئذ أحد إلا بإذنه ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وليست الشفاعة للأوثان وما عبد من دون الله إنما هي لمن يأذن الله من أنبيائه ورسله ومن يريد من أوليائه ، أما الظالمون فما لهم من أنصار وما لهم من شفعاء ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر/١٨] فمن أراد النجاة يومئذ فليتخذ عند الله عهدا وليجعل الله وحده مولاه وليتوكل عليه ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج/٧٨] هذه هي العقيدة

الصحيحة يقررها الله تعالى فى هذه الآيات العظيمة التى تهدي إلى الرشد لا ما يهذي به الفلاسفة والملاحدة من الكلام المنمق والجدل ، فليحذر شبابنا من ترهاتهم ومن عناوينهم الضخمة ولاينخدعوا بشهرتهم الذائعة فليس عندهم آخر الأمر إلا الشك وصدق الله العظيم : ﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلىَّ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدِ اِلاَّ الْحَيَوَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [النجم /٢٨-٣٠] فلسفاتهم مبنية على الشك والتشكيك فهم يجعلون الشك مبدأهم ويشككون أهل العقائد فى عقائدهم بالترهات وزخارف الأقوال الكاذبة ، كانت هذه فلسفة اليونان والرومان الأقدمين وجرى عليها المحدثون ، ومنهم (روسل) الفيلسوف الإنجليزي الذي يضع الأسئلة يشكك بها الناس يقول : ليس لي دليل على وجود الله ولا على عدم وجوده ، ويشكك في كل شيء ، ومن هؤلاء (ديكارت) الذي يقول : أبدأ بالشك وأجعله نقطة انطلاق وهو الطريق إلى المعرفة ، ويجعلون لفلسفاتهم عناوين ضخمة منمقة يستهوون بها الشباب ، وكثير منهم يميلون إلى مقالاتهم ويعتقدونها وهي كلها فلسفات مبنية على الجدل والشك ولا تؤدي إلى يقين ، وطريق الحق الذي شرعه الله هو الوحي الذي يوحي به إلى أنبيائه ورسله وهو الهدى ، قال الله تعالى :﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام /٩١] والنظر في آيات الله الكونية يهدي إلى الإيمان بالله ، والقرآن مفعم بالآيات الكثيرة التى تدعو إلى النظر والتفكر والتدبر قال : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلىَ الاِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلىَ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلىَ الاَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية/١٧-٢٠] وقال تعالى : ﴿ قُلُ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالاَرْضِ ﴾ [يونس/١٠١] وهذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها من جملة تلك الآيات الكثيرة

التى ما تدبرها إنسان عاقل إلا ودلته على الإيمان بالله وصدق ما جاءت به الرسل دلالة يقينية لا لبس فيها ولاارتياب ، فويل للكافرين وويل للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين ويكذبون رسالات الله ، إن عاقبتهم ستكون وبالا وخسارا .

قال تعالى بعد هذه الآيات :

﴿ وَالذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾ .

وعيد من الله شديد لهؤلاء الكافرين بآيات الله ولقائه يوم القيامة بعد هذه الآيات البينات التى تحمل الحجج القاطعة على صدق رسل الله فيما يدعونهم إليه من الهدى ودين الحق ، إن الوعيد هو الإنذار بالعذاب الأليم واليأس من رحمة الله الواسعة لهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله البينات ويكفرون بلقاء الله بعد قيام الحجج القاطعة على صدق ما جاءت به رسل الله من عند الله ، هذا بعد قول الله تعالى :

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَّشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَّشَاءُ ﴾ .

نعم يعذب من يشاء من عباده ويرحم من يشاء منهم ولكن عذابه ورحمته تجري على سنة من عدله ، وهنا يبين لنا لمن يكون عذابه وهم الذين يكفرون بآيات الله أولئك ييئسون يوم القيامة من رحمة الله يوم يؤمنون لكن لا ينفعهم إيمانهم ، لهم عذاب أليم وهم فيه مبلسون وما أقساه من وعيد ! اليأس من رحمة الله في عذاب أليم ، لا رجاء في التخفيف ولا افتداء ولا شفاعة تقبل ، وذلك جزاءهم العادل من الله لا ظلم فيه لأنهم جاءتهم رسل منهم يتلون عليهم آيات الله وينذرونهم لقاء ذلك اليوم الحق فلم تغنهم الآيات ولا النذر ، هكذا تأتي هذه الآيات البليغة في أثناء الكلام على خبر

إبراهيم وقومه وهو يدعوهم إلى الله وقبل أن يذكر الله تعالى جوابهم له يأتي بهذه الآيات المذكرة المنذرة ، لأن القرآن كتاب ذكرى وموعظة ودعوة ، وهو الذكر الحكيم تنزيل من الله العليم الحكيم ، ولا يعرض عنه إلا شقي أعمى الله بصيرته وكتبه في الخاسرين نعوذ بالله من مصير المكذبين الضالين .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

يذكر الله تبارك في هذه الآية كيف كان جواب قوم إبراهيم له بعد دعوته لهم واجتهاده في سبيل هدايتهم إلى الدين الحق لينجوا من النار ويفوزوا بالجنة ، كان جوابهم له هو اللجوء إلى العنف والظلم الفظيع بعد أن عجزوا عن مجابهته بالحجة وقد أعياهم الجدل وأعوزهم الدليل والبرهان وبهتوا أمام آيات الله البينة التي كان يقرعهم بها فعوض أن يؤمنوا بها ويرجعوا إلى الحق وإلى طريق النجاة والفوز كان جوابهم المكر والظلم وماذلك بجواب ، وإنما سمي جوابا لأنه كان عوضا عن الجواب وبئس العوض، وفي تسميته جوابا روعة وبلاغة في التعبير لها وقعها وتأثيرها في نفوس المنتظرين لجوابهم بعد إقامة الحجج الساطعة لهم وبعد ظهور آيات الله البينات ، هكذا يلجأ الذين طغوا بسلطانهم وأموالهم وقوتهم في كل زمان يلجأون إلى العنف والمكر عندما يفشلون في مقارعة الحجج والبراهين وعندما تمنعهم كبرياؤهم من التسليم والإيمان ظلما وعلوا وفسادا في الأرض وتلك طبيعة الطغيان والجبروت في نفوس المتكبرين ، ما أبعدهم عن الهدى وما أشقاهم بما فيه للناس الرشاد ذلك لتحق عليهم من الله كلمة العذاب بعد ضلالهم المبين ونعوذ بالله من الكبر .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

لقد كان جوابهم لإبراهيم أن أمروا بقتله وتحريقه بالنار حتى يشفوا غيظهم ويخلصوا من دعوته ، وقد كانوا يظنون أنها تموت بموته كما هو شأن دعوات البشر تموت بموت أصحابها أوبعدهم بقليل ، وما علموا أن هذه الدعوة التى جاء بها إبراهيم هو دين الله الخالد الذي يرسل الأنبياء يدعون الناس إليه وبعدهم خلفاوهم وقد ضمن الله بقاء دينه حتى تقوم الساعة ، لقد كانت قريش تنتظر برسول الله محمد ﷺ أن يموت فتموت دعوته ، قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ [الطور/٣٠-٣١] أمر نمرود الملعون بقتل نبي الله إبراهيم عليه السلام أو تحريقه بالنار ، ويبدو أن بطانته والملأ من قومه رجحوا التحريق تزلفا إلى معبودهم وقد تبلغ البطانات من الشر نهايته ، وإذا أراد الله بملك شرا قيض الله له بطانة سوء ، فأمروا أن ينى له بنيانا يلقى منه بالمنجنيق في النار ، وأمروا بحفر خندق عظيم يوقد فيه جحيم من النيران حتى لايمكن لإبراهيم الفرار ولا يستطيع أحد من أهله إنقاذه منها ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات /٩٧] يلقونه فيها بالمنجنيق من مكان عال وبعيد لأن هذا الجحيم لايقوى أحد أن يقترب منه لشدة حره ، وما كانوا يشكون في احتراقه بل لقد كانوا يتوقعون أن النار ستلتهم جثمانة بمجرد وقوعه فيها ، ولكن إرادة الله فوق كيدهم وظلمهم . قال الله تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات/٩٨] لقد كان كيدهم في تضليل وما علموا أن النار مخلوقة من خلق الله لا تحرق إلا بإذنه وهي مطيعة لخالقها ﴿ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء/٦٩] قال رب النار للنار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم فاستمعت النار

وامتثلت لأمر ربها فكانت بردا لا قارساً بل سلاما على إبراهيم وعلى إبراهيم وحده ففقضي فيها أياما هي أسعد أيامه في الدنيا وأهنؤها لأنه مكث فيها يعبد ربه ويصلي له ويأتيه رزقه من عند الله بكرة وعشيا ومن كان لله كان الله له .

وهنا يقول الله تعالى في هذه السورة :

﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

أرادوا أن يجعلوا تحريقه عبرة لغيره حتى لا يسلك طريقه أحد فجعل الله إنجاءه من النار آية للمؤمنين الذين يسلكون طريقه ويتبعون ملته فأنجاه الله ربه من نارهم ومن كل نار في الدنيا والآخرة ، إن في ذلك أي في إنجائه من جحيمهم لآيات كثيرة لا آية واحدة، نعم آيات للمتوسمين الذين يتفكرون في آيات الله البينات فيزدادون إيمانا بربهم وحباله وتعلقا برحمته وتوكلا عليه وكذلك ينجي الله المؤمنين في كل زمان ويهلك الظالمين والكافرين وما كيد الكافرين إلا في تباب ، نسأل الله أن يجعلنا من المؤمنين المنتفعين بآيات الله المعتبرين المتعظين بها آمين .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

أيس منهم إبراهيم عليه السلام بعد أن شاهدوا آية إنجاء الله إياه من النار وكيف عاش في وسط النار أياما معدودة و لم يهلكه حر النار ولا العطش ولا الجوع ولا حتى السقوط من رمي المنجنيق وقد ألقوه من مكان عال ، كل هذه الآيات شاهدوها فلم ينفع ذلك شيئا و لم يؤمنوا بل ازدادوا كفراً وطغيانا وتعلقا بأصنامهم ، فقال قولته هذه بعدأن تأصَّلَ الكفر فيهم و لم يرج منهم خيرا .

﴿وَ قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَايكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ .

قال لهم إبراهيم إنما اتخذتم هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله جعلتم عبادتها مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم إن هذه المودة ستنقلب عداوة بينكم يوم يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار هي مولاكم وما لكم من ناصرين ، وكذلك كل محبة فى غير ذات الله تنقلب عداوة يوم القيامة قال الله تبارك وتعالى : ﴿الأخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدوٌ إلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف/٦٧] وقال تعالى :﴿ إِذْ تَبرَّأَ الذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة/١٦٦] في أمثالها من الآيات الكثيرة التى جاءت فى القرآن تبينّ هذا المعنى وهو أن الناس فى الدنيا قد تحمل الكثير منهم مودة آبائهم وكبرائهم على اتباع آثارهم والتعصب لهم على الباطل فلا يستمعون للناصحين حتى إذا رأوا العذاب يوم القيامة تبرأ بعضهم من بعض ولعن بعضهم بعضا وطلبوا لهم الزيادة من العذاب وإن كان ذلك لا يخفف عنهم شيئا ، وقد كتب الله لكل من المتَّبَعين والمتَّبِعين ضعفا من النار ، هؤلاء على إضلالهم أقوامهم وهؤلاء على تقليدهم الأعمى لهم وكفرانهم بنعمة العقول التى وهبها لهم ليميزوا بها بين الحق والباطل فلم ينظروا بعقولهم وأعماهم التقليد للآباء والأجداد وهذا طبع يكون في الناس ، فحذرنا الله تبارك وتعالى منه وبين لنا عاقبة هؤلاء الكفار المتعصبين لسلفهم وكبرائهم فى ضلالهم وكفرهم بآيات الله وإشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانا وعاقبتهم النار يصلونها خالدين لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ، لا أحد مطلقا ينصرهم أو يشفع لهم ولو شفع لم تقبل شفاعته فيهم وكذلك تكون حالة الظالمين وبئس مثوى المتكبرين وأتباع المتكبرين ، فليحذر أهل هذا

الدين من التقليد وليتبعوا دعاة الحق الذين يهدون بالحق وبه يعدلون ، وهم الذين يستمسكون بكتاب الله وسنة رسوله وآثار السلف الصالح من هذه الأمة ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها وما لم يكن يومئذ دينا لا يكون اليوم دينا .

ثم بعد هذه الدعوة الصادقة من إبراهيم وإعراض قومه عنه رغم مشاهدتهم الآيات البينات يذكر الله تعالى من آمن به من قومه وما أقل من آمن فقال تعالى : ﴿فَـآمَنَ لَـهُ لُـوطٌ﴾ لم يؤمن بإبراهيم من قومه إلا سيدنا لوط عليهما سلام الله ، ويذكر المفسرون أنه قريب له هو ابن أخيه او ابن عمه هداه الله للإسلام فآمن لإبراهيم وأسلم لله رب العالمين ولزم إبراهيم وهاجر معه ثم بعد ذلك يكون له شأن مع الله ، وذلك أنه سوف يجتبيه ويرسله رسولا إلى قومه في قرى سدوم .

﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

قال إبراهيم عليه السلام : إني مهاجر إلى الله ربي إنه هو العزيز الذي لا يغالب، الحكيم الذي جلت أفعاله عن العبث ، هاجر إبراهيم إلى ربه أي بإذن ربه ، وإلى حيث يوئه الله حين يظهر دينه ويجدد دعوته في أناس آخرين يرجو استجابتهم لله وللرسول ، والتعبير هنا ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ يؤذن أن هذه الهجرة لم تكن برأيه إنما كانت بأمر الله وإذنه بعد أن تبين أن مقامه في قومه لا يُغني شيئاً ، و لم يعد يرجو أن يؤمنوا بعد الذي شاهدوا من المعجزات فلم يزدهم ذلك إلا طغيانا وكفرا فأذن الله له بالهجرة ، وأرشده إلى مهاجره ليجد لدعوته تربة خصبة ولتحل نقمة الله وعذابه على قومه الذين بلغوا من الكفر والطغيان والتمرد على الله ما تحل عليهم به كلمة العذاب ، ورافقته زوجته سارة التي آمنت به ورافقه لوط عليه السلام إلا أن إبراهيم عليه السلام هاجر إلى فلسطين واستقر

بها ، أما لوط فهاجر إلى سدوم ولا تبعد عن فلسطين وبينهما مسيرة يوم وليلة ، وكل ذلك بتوجيه الله تبارك وتعالى وإرشاده .

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

يبدو أن هذا من قول إبراهيم يثني على ربه الثناء الحسن الجميل ويستحق الحمد والثناء ربنا تبارك وتعالى فهو العزيز الذي من اعتصم به لا يضيع ، ومن توكل عليه كفاه، وهو نعم المولى ونعم النصير ، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها ، وهو اللطيف لما يشاء ، الفعال لما يريد ، وكل أفعال ربنا عدل وحكمة ، سبحانه جلت أفعاله عن اللعب والعبث.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَتِهِ النُّبوءَةَ وَالكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

تولى الله أمر عبده إبراهيم الذى تحمل في سبيل ربه الهجرة ، وفراق الوطن المألوف ليس بالأمر الهين لاسيما بعد تقدم السن ، ويقال إنه هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة وفي هذه المدة كلها لم يولد له ولد ، وبعد هجرته بمدة بشره الله وأهله سارة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، قال الله تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

وهب الله إبراهيم وزوجه إسحق ثم يعيشان حتى يكبر ابنهما هذا ويتزوج ويلد ولدا هو يعقوب ، وقبل ذلك ولد له إسمعيل ، و لم يذكره هنا وله ذكر في موضع آخر من القرآن ، وذكر هنا إسحق ويعقوب لأنهما من امرأته سارة التى هاجرت معه ، ثم قال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوءَةَ وَالِكتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لقد تمت نعمة الله على عبده إبراهيم عليه السلام ، وهب له ذرية وجعلهم أنبياء صالحين وأطال عمره وعمر زوجه سارة وآتاه أجره في الدنيا وهو صلاح الأهل والذرية ، وطول العمر وسعة الرزق ، وجعله في الآخرة من الصالحين أي السعداء الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه بل هو في أعلى درجات السعادة والصلاح آتاه الله أجره مرتين أجر الدنيا وأجر الآخرة ، وهذا يبين لنا أن فضل الله واسع وأن الله يؤتي فضله من يشاء والله واسع عليم ، وأن نعم الله على عبده في الدنيا متى شكر الله عليها لا تحرمه من فضل الله يوم القيامة ، فما على العبد إلا أن يشكر نعم الله عليه ويخلص النية لله فلا يريد الدنيا بعمل الآخرة فإن الله يؤتيه منهما جميعا والله لا يضيع أجر المحسنين ، نسأل الله تعالى أن يؤتينا من فضله ويفيض علينا من بركاته ويتغمدنا برحماته في الدنيا وفي الآخرة ويلحقنا بعباده الصالحين .

وقد جعل الله النبوءة بعد إبراهيم في ذريته ولذلك يجمع على حبه وتوقيره أهل الأديان كلهم المسلمون واليهود والنصارى ، وهو أبونا ونحن أولى الناس به ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيءُ وَالذِينَ آمَنُواْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُومِنِينَ ﴾ [آل عمران/٦٨] وقد استجاب الله دعاءه حين قال عليه السلام ﴿ وَاْجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ [الشعراء/٨٤] وبعد خبر إبراهيم عليه السلام مع قومه وخبره بعد هجرته يأتي خبر لوط عليه السلام مع قومه بعد أن أرسله الله إليهم فيقول الله تبارك وتعالى :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ
مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ
ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى
عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ
قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟
ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ
لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ
أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ۖ
وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا
ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾
وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

يذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآيات الكريمة قصة لوط مع قومه ، وهي القصة الثالثة منذ أول السورة ويأتي خبر لوط بعد خبر إبراهيم عليهما السلام لأنه قريب له وفي زمنه ، ودار هجرته قريبة من دار إبراهيم بينهما يوم وليلة وهي المسافة بين الخليل وقرى سدوم في البحر الميت ، وفي الخليل مدفن إبراهيم عليه السلام وإسحق ويعقوب وأزواجهم ، وكذلك نقل إليه تابوت يوسف عليه السلام ، وبين مدينة الخليل والقدس مسيرة يوم وليلة. قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ .

اذكروا لوطا حين أنكر على قومه فاحشة إتيان الذكور شهوة من دون النساء ، وهي فاحشة لم يسبقهم إليها من العالمين أحد لا من الناس ولا من الحيوان . لم يذكر القرآن دعوة لوط قومه إلى التوحيد والإيمان بالله وباليوم الآخر لأن دعوة إبراهيم لابد تكون بلغتهم ، ولوط الذي آمن بإبراهيم لا شك أنه دعاهم بدعوته فهذا أمر معروف بالضرورة وإنما يذكر القرآن إنكار نبي الله لوط على قومه إتيان الفاحشة الكبرى ، قال لهم : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنَ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ ﴾ .

أكدلهم الكلام أن هذا الأمر الذي يأتونه فاحشة ، والفاحشة هي الذنب الذي يعظم شره ويتسع خطره لا سيما وقد سبقوا الناس إليها وما كانوا يفعلونها ولا تخطر على بالهم ، ويؤكد القرآن أنه ما سبقهم بها أحد من العالمين فقد فتحوا بابا من الإثم على الناس عليهم وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة ، ثم بين الله نوع هذه الفاحشة بصيغة الاستفهام الإنكاري فقال تعالى :

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ .

هذا من الله استنكار لهذا الأمر الفظيع وهو إتيان الرجال في أدبارهم واستغناؤهم بهم عن إتيان النساء وقطعهم السبل ، فهم يتعرضون للناس في طرقاتهم للفحش بهم وهذا من أفظع المناكر والظلم ، ثم إنهم يأتونها جهارا وفي مجتمعاتهم على مرأى ومسمع منهم ، يتعرون ويعبثون بعوراتهم في نواديهم ويجاهرون فيها بالمنكر ويأتونه علناً ولا يستترون ، والمجاهرة بالمعصية أعظم من المعصية فهي جرأة على الله وأنكر لوط عليهم ذلك ، فهذه ثلاثة أنواع من الإثم عظيمة أنكرها عليهم في هذه الآيات ، وهذا ما يسمى بالشذوذ الجنسي ، ويقال إنهم اكتفى رجالهم بالرجال ونساؤهم بالنساء ، وهو انحراف كبير وخروج عن فطرة الله التي فطر الناس عليها ، إذ جعل الله ميل الذكر للأنثى وميل الأنثى للذكر لعمارة الأرض ، فمن انحرف عن هذه الفطرة فقد ظلم ظلماً كبيرا ، أو كان فعله هذا سببا في فساد الأرض وخرابها ، وكل ما هو مخالف للفطرة فهو إثم حتى الاستمناء بالأيدي أو بغيرها ، وتكلم العلماء في عقوبة اللواط فقال بعضهم : لم يجعل الله لها حدا لأن الحد يقصد منه الزجر ، ومن ابتلى بهذا العمل وتمكن فيه لا ينزجر عنه فما هو إلا كالكلب المسعور يقتل حتى لا يتعدى ضرره للآخرين ، وقال فريق من العلماء : تكون عقوبتهم كحد الزنا الرجم للمحصن وغير المحصن ، لأن الله لما عاقب قوم لوط عمم عقوبتهم و لم يستثن منها غير المتزوجين ، وقال آخرون بغير ذلك من أنواع العقوبات ، وعلى كل فإنهم يستحقون أقسى أنواع العقوبات في الدنيا وعقابهم عندالله لاشك يكون عظيماً .

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى : فما كان جواب قوم لوط لنبيهم بعد التبليغ والوعظ والإخلاص في نصحهم إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، وهددوه بأنواع العقوبات منها الطرد من بلده وإقصاؤه عنها ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء/١٦٧] واستعجالهم لعذاب الله يعطينا صورة لحالة قساوة قلوبهم فهي قلوب نغلة رانت عليها الفواحش والذنوب فطبع الله عليها و لم يعد ينفع فيها الوعظ والزجر ، فلا تزداد بذلك إلا قساوة وتمردا وكذلك تفعل كبائر الإثم والفواحش بالآثمين المجاهرين بإثمهم والعياذ بالله . حينئذ لما أيس منهم نبي الله لوط عليه السلام دعا ربه أن ينصره عليهم .

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

دعا ربه عليهم وما كان من طبع رسل الله أن يعجلوا على قومهم بالدعاء عليهم بل كانوا يصبرون على أذاهم ويجتهدون في إنذارهم ووعظهم ونصحهم حتى إذا استيأسوا منهم ، حينئذ يدعون ربهم أن ينصرهم عليهم ويأخذهم بما يستحقون من العذاب الذي يبيدهم ولا يبقي منهم أحدا ، وهذا بإلهام من ربهم وبعد أن يأذن لهم بذلك ، ولذلك فإن الله يستجيب لدعائهم وينزل أمره بالنصر لهم والتدمير لأقوامهم المفسدين والظالمين . قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُواْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .

في هذه الآيات الكريمة يخبرنا الله تبارك وتعالى بمجيئ الملائكة بأمر الله لإهلاك قوم لوط وفي طريقهم يمرون على إبراهيم عليه السلام .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ .

جاءت رسل الله الملائكة إبراهيم بالبشرى وهي أنه سيولد له على كبره مع زوجه سارة ولد هو إسحاق ، وسيولد لهذا الولد ولد آخر هو يعقوب وكلاهما من الصالحين، وفي هذه الآية تطوى هذه البشرى وتبسط في سور أخرى وهي بشرى سارّة لإبراهيم وسارة عليهما السلام ، وأخبرت الرسل إبراهيم أنها جاءت لإهلاك قوم لوط الفاسقين ، وهذا الإخبار بأمر من الله وفيه إشارة لرفع مقام إبراهيم عند الله وملائكته ، أخبروه أنهم جاءوا ليهلكوا قرية قوم لوط بمن فيها وأن هذا أمر قضاه الله فهو لابد واقع بهم نكالا من الله على ظلمهم ، وقد ظلموا أنفسهم بالشرك وبالفواحش وظلموا الناس بقطع السبل ، وإتيان الرجال ظلم لأنه انحراف عن الفطرة وعدول عن قانون الله الذي هو إتيان الذكور للإناث لبقاء النوع وعمارة الأرض فإذا خولفت هذه الطبيعة فهو خراب الأرض وهو الفساد الكبير ، عندها قال إبراهيم لرسل الله الملائكة : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ أي كيف تهلكونهم وفيهم نبي الله لوط ، وكان إبراهيم يجادل الملائكة في إهلاك قوم لوط ويرجو تأخير العذاب عنهم لعلهم يرجعون ، ذلك لأنه كما أخبر الله عنه حليم أواه منيب ، ولكن الحلم له حد ينتهي إليه وإذا لم ينفع الحلم كانت الشدة ألزم ليذوق المجرم وبال أمره ويكون موعظة لغيره ، قالت الملائكة مجيبة لإبراهيم ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ﴾ لأن علمهم من علم الله وقدومهم بأمر الله ووعدوه أنهم ينجونه وأهله المؤمنين فلا ينالهم العذاب وأخبروه أن امرأته الكافرة هالكة مع القوم لأنها كانت تمالئهم على ظلمهم وكانت مشركة فمصيرها مصيرهم ولا ينفعها قربها من لوط وهي له خائنة .

﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى ولما أن جاءت رسلنا أي ملائكتنا المرسلون عبدنا لوطاً سئ بهم وضاق بهم ذرعا ، ذلك لأنهم جاءوه على صورة شباب مرد حسان ليفتن الله بجمالهم قوم لوط الفاسقين عند ذلك خاف عليهم لوط عليه السلام فضاق بمجيئهم على هذه الصورة وسئ بهم وذهبت به المخاوف كل مذهب ، وهو يعلم أن أمرهم لا يخفى على قومه وستخبرهم امرأته العجوز الخائنة فضاق بهم ذرعا ، وقال هذا يوم عصيب .

لقد كان يعلم خبث قومه وضراوتهم فهم لاشك سيهجمون عليه كالكلاب المسعورة يطلبون صائدتهم، فكيف يدفعهم عنهم وليست له قوة ولا أنصار يأوي إليهم لينصروه ويعينوه على دفعهم ، لقد كانت هذه الخواطر تطغى عليه فيضيق قلبه وما أن جاءه الضيوف على تلك الصورة حتى سيىء بهم وضاق قلبه ، ولذا جاء التعبير هنا هكذا ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ﴾ فمجيء «أن» يفيد هذا المعنى فلمجرد مجيء الضيوف أصابه الضيق والقلق لخوفه عليهم من قومه، ولقد علمت الملائكة هذا منه فبشروه وطمأنوه بأن قومه لن يصلوا إليه ولن يستطيعوا أن يتصلوا بضيوفه وأنى لهم ذلك .

﴿وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

قالت الملائكة لنبيء الله لوط عليه السلام : لا تخف ولا تحزن إنهم لن يصلوا إليك ولن يقتحموا حماك فإن حماك حصين لأنه من حمى الله ، وبشروه أنهم

سينجونه وأهله إلا امرأته الكافرة فمصيرها مصيرهم وأن عذاب الله سينزل عليهم آخر الليل ، ولم يذكر نوع العذاب في هذه الآية من هذه السورة وذكر في مواضع أخرى من القرآن ، وقد رمتهم الملائكة بحجارة من سجيل مسومة عند ربك للمسرفين ، وقلبت عليهم أرضهم جعل الله عاليها سافلها ، وذلك جزاء لهم على فسقهم عن أمر الله وانحرافهم عن فطرة الله التي فطر عليها الناس والبهائم والطيور والوحوش والحيتان في البحر ، وجعل الله الذكور من الأزواج تميل إلى إناثها ففسق قوم لوط عن هذه الفطرة ومالوا إلى الرجال شهوة من دون النساء وأصبح هذا دأبهم وطبيعتهم فأهلكم الله وجعلهم للناس آية.

﴿وَلَقَدْ تَّرَكْنَا مِنهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى : ولقد تركنا من هذه القرية ومن إهلاكها آية بينة لقوم ينظرون بعقولهم نظر اعتبار فيتعظون ويتذكرون ، ويقول الله تبارك وتعالى في آية أخرى من القرآن ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر/٧٦] أي وإن هذه القرية على طريق مرور الناس دائما وليست بمكان خفي أو على قمة جبل يشق على الناس الصعود إليه، فهي بسبيل مرورهم في أسفارهم ، فما عليهم إلا أن يعتبروا وينظروا بعقولهم نظر تفكر وإمعان ، وكثيراً ما يخاطب القرآن العقول لأن الإنسان يمتاز بعقله فويل للغافلين الذين لا يعقلون ولا يسمعون ولا تنفع فيهم الذكرى والموعظة ، وويل لمن طغت عليهم الشهوات فأطفأت فيهم نور العقل فهم كما قال فيهم خالقهم : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة/١٨] أولئك شر الدواب وأولئك هم شر البريئة نسأل الله أن ينفعنا بعقولنا ويجعلنا من الذين يتفكرون في آياته البينات فيعتبرون بها .

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

يطوي الله تبارك وتعالى قصة شعيب وقومه مدين في آيتين وقد بسطها في مواضع أخرى من القرآن ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وقد يذكر في آية مالا يذكر في أخرى فتتكامل الآيات ، وهنا يقول : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾

أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا ، ومدين قبيلة ونسبت أرضهم إليهم فسميت مدين باسم القبيلة ، ونسب الله شعيبا إليهم باسم الأخوة لأنه واحد منهم ، ويجيء هذا التعبير في الأنبياء العرب قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وعليهم وعلى سائر أنبياء الله ورسله وسلم ، وهؤلاء هم هود وصالح وشعيب ذلك لأن أسماء قبائلهم معروفة فذكرت بأسمائها وجاءت نسبة رسلهم بالأخوة إليها جريا على طريقة التعبير عند العرب ، يقول أحدهم أخو مخزوم وأخو عدي وأخو هذيل للرجل إذا كانت نسبته لهذه القبيلة وهو واحد منهم فهو أخوهم وكذلك كان شعيب واحدا من قومه .

﴿ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَارْجُواْ الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

أرسل الله عبده شعيبا فى قومه مدين ليدعوهم بدعوة الإسلام فقال لهم : ياقوم

اعبدوا الله ربكم ووحدوه بالعبادة ولاتعثوا في الأرض مفسدين فيها بالغصب والخيانة وقطع السبل وتطفيف المكاييل والموازين ، دعاهم ونصحهم واجتهد فى النصح لهم وخوفهم عاقبة الظالمين من قبلهم ولكنهم كذبوه وسخروا بصلواته وهددوه بالرجم واستضعفوه فصبر على أذاهم وصابرهم ودعاهم بمختلف أساليب الدعوة فكذبوه وطالبوه أن يأتيهم بعذاب الله وقست قلوبهم ، ولما جاء أجلهم نزل بهم عذاب الله، وللمفسرين فى تفسير الرجاء الذي استعمله شعيب في الدعوة ﴿ وَارْجُواْ الْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ أقوال : أنه بمعنى الخوف ، أي خافوا اليوم الآخر، وأقول : إنه اختار الرجاء ورجحه على الخوف لأن قومه كانت طبيعتهم البارزة هي الحرص الشديد وراء المال وجمعه من طرق الحرام فهم يرجون من وراء جمعه المتعة فى هذه الحياة الدنيا والعلو فيها ففيه يتنافسون وبه يتفاخرون فأرشدهم لما هو خير وأبقى وهي الدار الآخرة يرجونها عند الله ففيها النعيم المقيم الذي لاينفد ، وجاء هذا المعنى في غير هذا الموضع من كتاب الله حيث يقول شعيب عليه السلام لقومه ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤمِنِينَ ﴾ [هود/٨٦] فناسب هذا المعنى معهم والله أعلم .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ .

كذب أصحاب الأيكة شعيبا نبيئهم ولجوا فى عتوهم وعنادهم فلما جاء أجلهم المحدد انتقم الله منهم فأخذتهم الرجفة ، والرجفة هي الاهتزاز الشديد ، وفي موضع آخر من القرآن أنهم أخذتهم الصيحة ، وفي موضع آخر أن الله أمطر عليهم مطرا من عذابه ، فهذه أنواع من العذاب اجتمعت عليهم نكالا من الله على شركهم ومعاصيهم وعتوهم على الله ورسوله فاستحقوا هذه الأنواع من العذاب في الدنيا ولعذاب

الآخرة أشد وأبقى ، ونجى الله نبيئه شعيبا والذين ءامنوا معه فلم يصبهم ما أصابهم ، وكذلك ينجي الله المؤمنين وفي هلاك مدين آية أخرى من آيات الله البينات لقوم يعقلون ، فليحذر الذين يجرون ويلهثون وراء الدنيا يجمعون حطامها من أنواع الحرام يأكلون الربا ويبخلون بحقوق الله في أموالهم ، وليعتبروا بمصير هؤلاء القوم المفسدين قال الله تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

أي أخذهم العذاب فأصبحوا جاثمين خامدين صرعى في أرضهم وديارهم لم تغن عنهم أموالهم ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء وكذلك ينتقم الله من الظالمين وبئس مصير القوم المفسدين .

وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ
لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ
أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِالْبَيِّنَٰتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾
فَكُلًّا اخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنَ ارْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُم مَّنَ اخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا
بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنَ اغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ

وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ
لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَدۡعُونَ مِن
دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ
ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾
خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾

يذكر الله تعالى في هذه الآيات أصنافا من الظالمين الذين أشركوا بالله وعصوا رسله ويذكر أنواع هلاكهم في أسلوب موجز له وقعه العميق في النفوس ، ويذكر أن سبب هلاكهم هو ظلمهم لأنفسهم وضلالهم عن بينة بما صدهم الشيطان عن سبيل الله القويم وزين لهم أعمالهم السيئة فلم يعجزوا الله حين أرادهم بالهلاك لما جاء أجلهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود/١٠٢] . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ

السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

أي واذكروا أيها الكفار المشاقون لله ورسوله اذكروا عادا الأولى وثمودا وأنتم تمرون على ديارهم في رحلاتكم إلى الشمال والجنوب وترونها وتتقاصون أخبارها وتعلمون أنهم كانوا ظالمين مكذبين رسل الله ، زين لهم الشيطان أعمالهم السيئة وصدهم عن السبيل ، والسبيل هنا هو السبيل الأقوم الذي يؤدي إلى الجنة ولا سبيل غيره إلا السبل المتفرقة التي تؤدي إلى النار قال تعالى ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ أي وكانت لهم عقول تميز الهدى من الظلال و لم يكونوا بُلْها ولا مجانين ولكنهم ضلوا عن بينة وركبوا شهواتهم واستخفهم الشيطان وأغواهم فأطاعوه فاستحقوا عذاب الله ، واذكروا قارون وفرعون وهامان هؤلاء كبراء الكفار الذين عصوا رسول الله موسى عليه السلام ، وكان قارون من قوم موسى فبغى عليهم بكفره وطغى بماله وأخبارهم معروفة ومبسو طة في مواضع أخرى من القرءان الكريم ، ولقد جاءهم رسول الله إليهم موسى بالبينات فكفروا به عتوا واستكبارا في الأرض وضنوا أنهم مانعهم سلطانهم وأموالهم من الله ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ أي وما كانوا معجزين وما كانوا ليسبقونا ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ أخذهم الله بسبب ذنوبهم وعاملهم بعدله و لم يظلمهم و لم يفلتوا من قبضته قال تعالى:

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾.

ذكر الله تعالى أربعة أنوا ع من عذاب الدنيا التى أهلك بها هؤلاء الأحزاب وهي

الحاصب والصيحة والخسف والغرق وهي الأنواع التي يعتمد الناس عليها في معايشهم ، ومن المعلوم منذ الآف السنين والحكماء والفلاسفة يجعلون عناصر الحياة والقوة في هذا الكون هذه العناصر الأربعة ،- ولا تزال- الماء والنار والتراب والريح ، والريح هو ما تحدثه الصيحة لأن الصوت يحدث تموجات في الهواء وكلما كان شديدا كانت تموجاته قوية تحدث آثارا هائلة في الإنسان والحيوان والبنيان، فانظر إلى حكمة الله كيف أهلك هؤلاء الطغاة بعناصر الحياة التي طغوا بها في البلاد، ذكر الله الصيحة وهي التي أهلك بها ثمود ومدين ، وذكر الخسف وهو الذي أهلك به قوم لوط وقارون، وذكر الله الغرقوهو الذي أهلك به قوم نوح وفرعون وقومه ، وذكر الحاصب وهو الذي أهلك به عادا ومن شاء من عباده ممن لم يقص علينا خبرهم أهلكهم بهذه الأنواع التي ذكرها هنا ، وقد تكون أنواع أخرى من العذاب لم يذكرها لنا ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر/٣١] نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة ونعوذ بالله من مصير الظالمين . ثم بعد هذا يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

نفى الله عن نفسه الظلم بطريقة بليغة في النفي هي نفي الشأن أي ما كان من سنة الله ولا من شأنه أن يظلم أحدا من خلقه ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت /٤٦] ولكن العباد أنفسهم يظلمون بأنواع الظلم ، والمعاصي كلها ظلم للنفس ، والشرك بالله وجحوده أعظم أنواع الظلم وهو الظلم العظيم والافتراء عليه ظلم عظيم، ومشاقة الله ورسله وتكذيبهم ظلم عظيم ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة/٢٥٤] وأمثال هذه الآيات كثيرة في كتاب الله يبرئ الله فيها نفسه عن الظلم تعالى الله عن الجور وقد حرم على نفسه الظلم فأفعاله كلها عدل وحكمة ، وهو المتفضل على عباده

الحليم الكريم الغفار يمن بالرحمة ، ولا يظلم بالعذاب ولا يظلم قرية حتى يبعث فيها رسولا ينذرهم وينصحهم ويصبر على أذاهم فإذا جاءهم العذاب فلأنهم ظالمون يستحقون الهلاك ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ والنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُومِنُونَ ﴾ [يونس/١٠١] ولا يرد بأس الله عن القوم المجرمين ، ونعوذ بالله من مصير الظالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

﴿ مَثَلُ الذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

هكذا يضرب الله تعالى هذا المثل لهؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم ويتعلقون بهم ويزعمون أنهم شركاء لله وأنهم شفعاؤهم عند الله افتراء على الله فجعل الله مثلهم كمثل حشرة العنكبوت اتخذت من نسجها الضعيف بيتا واهنا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت تنفح عليه فيتقوض وتمسه بيدك فينهدم ويزول ، إن عبّاد الأصنام والأوثان وعبّاد الجن وعبّاد الشمس والقمر والنجوم وغيرها وعباد القبور والأضرحة والقباب الذين يرجون نفعها ويخافون ضرها ويعكفون عليها وينذرون لها ويذبحون عندها القرابين ويحلفون بها وعندها كل هؤلاء على ضلال بعيد ، مثلهم في تعلقهم بهؤلاء كمثل من تعلق ببيت العنكبوت ، ومن ذا الذي يتخذ من بيت العنكبوت مسكنا ومن الذي يعتصم به ويستمسك ؟! كذلك الذين اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء مثل هؤلاء كمثل من تعلق بخيوط العنكبوت فهي لا شيء وكذلك الذين اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا من دون الله يحلون لهم فيتبعون ويحرمون عليهم فيتركون ، وتلك هي العبادة كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ جوابا لسؤال عدي بن حاتم رضي الله عنه وكذلك عباد الملوك والسلاطين الذين

يتذللون لهم ويقدمون كلا مهم على كلام الله ، يتركون أوامر الله ويأتون ما نهى عنه ويتبعون أوامر الرؤساء والسلاطين حتى ولو خالفت أوامر الله تبارك وتعالى ، نعم أمرنا بطاعة أولي الأمر منا وهم العلماء والأمراء لكن طاعتهم في معروف ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ، فكلمة الأولياء هنا لها معان واسعة تشمل كل ما عبد من دون الله ، وللناس أنواع من المعبودات يرجون نفعها ويخافون ضرها وهي لا شئ وما مثلها إلا كمثل بيوت العنكبوت وما أبلغ هذا المثل وأدله على المقصود ! فلنمحض عبادتنا لله وحده لا شريك له وليكن له إخلاصنا ودعاؤنا وطاعتنا وخوفنا ورجاؤنا حنفاء لله غير مشركين به ، ولنقل كما علمنا الله أن نقول : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام/١٦٢–١٦٣] ولنتوجه إليه مخلصين له الدين كما توجه إليه أبونا إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام/٧٩] هذا هو الدين الحق وتلك هي الحنيفية المحضة ، وتلك هي فطرة الله ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ التِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم/٣٠] نحيا بهذه العقيدة ونموت عليها ولا نبغي لها بدلاً ولا عنها حولا ، ونعرض عما سواها ولا نطيع من يجادلنا في هذا الباب ويحاول إقناعنا بصواب ما يفعل ويزعم أنه إنما يعبد الله ويدعو الله ويذبح لله في هذه القبور والقباب والمحاريب ونقول لهم إن كنتم إنما تعبدون الله فلم تختارون هذه المواضع لقرابينكم وأنساككم وحلفكم ونذوركم ؟ ماذاك إلا لتلبيس الشياطين عليهم وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام/١٢١] . ثم بعد هذا

المثل الحكيم المضروب لهؤلاء المشركين الضالين ضلالا مبينا يعقب الله تعالى بقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي لو كان هؤلاء يعلمون أو يبصرون بعقولهم لعلموا أن هؤلاء الأولياء الذين يعبدونهم من دون الله لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وما مثلها في الضعف إلا كمثل بيوت العنكبوت الواهنة ، ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون فهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون ، ومن أين يأتيهم العلم وقلوبهم في أكنة مغلقة قد أعماها اتباع الشهوات ورانت عليها الذنوب ، وغلب عليها تقليد الآباء والأمهات فهم عن الحق بمعزل ينادَون من مكان بعيد ، بينهم وبين نور الله حجاب ، وما حجبت القلوب إلا الشهوات والأهواء ، ونعوذ بالله من اتباع الأهواء وتسلط الشهوات وغلبة التقليد .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ .

للمفسرين قولان في «مَا» هذه فمن المفسرين كالزمخشري من يقول إنها نافية يعني أن الله تعالى يعلم أن الأولياء الذين تعبدونهم من دونه ليسوا بشيء ، نفى الله عنهم الشيئية لأنها لا تملك شيئا مما ترجونها له وأكثرها جمادات أورموز لأموات لا يملكون لأنفسهم نفعا ولاضرا فضلا عن أن ينفعوا غيرهم أو يضرونه فهي والعدم سواء ، ومنهم من يقول إن «ما» هذه موصولة أي إن الله يعلم حقيقة هذه الأشياء التي تعبدونها من دون الله وأكثر ما تعبدونه لا تعلمون حقيقته ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءابَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم/٢٣] فهي أو أكثرها جمادات وأموات وما يشعرون بعبادتهم لهم وما يسمعون دعاءهم وهم عن عبادتهم غافلون ، ويوم القيامة

يكفرون بشركهم ، إن الذين يدعونهم عند القباب والقبور أموات غير أحياء ولا يعلمون مصيرهم عند الله وقديما قالوا : كم من قبر يزار وصاحبه في النار، فهم لا ينفعونهم ولو كانوا أولياء لله فقد انقطع عملهم بموتهم ويوم القيامة يكفرون بعبادتهم إياهم ويتبرءون منهم ويضلون عنهم كما قال الله تعالى في موضع آخر من القرآن : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الكَافِرِينَ ﴾ [غافر/٧٣-٧٤] وهذه الآية تؤيد الزمخشري ومن ذهب مذهبه في تفسير «ما» بمعنى النفي فقد أنطقهم الله يوم القيامة أنهم لم يكونوا يدعون من قبل شيئا ، ثم إن الله تعالى يعقب بعد هذه الآية التي وبخهم بها وفند دعواهم بقوله :﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والعزة هي الغلبة والقهر ، والحكمة وضع الأشياء في مواضعها ، وكثيرا ما يأتي هذان الوصفان مقترنين والكمال لله تعالى ، فهو العزيز القوي الحكيم في عزته وجبروته لا يطغى ولا يجور ، ومن كانت هذه صفاته فهو أحق أن يعبد ويخضع له ويخاف ويرجى.

ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ .

الإشارة إلى الأمثال بإشارة البعيد لعظم تلك الأمثال لمن يتفكر فيها ويتوصل إلى العلم ، يضرب الله الأمثال للناس بما عظم من خلقه وما دق ، وفي كلّ آيات بينات وعبر واضحات وما يعقلها إلا العالمون الذين نوّر الله بصائرهم بنور العلم و لم تأسرهم الشهوات والأهواء وتقليد الآباء .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ ﴾ .

يأتي هذا المعنى متكررا في القرآن بأساليب متنوعة فمرة يثبت أن خلق السموات والأرض بالحق كهذه الآية وفي أوائل سورة النحل حيث يقول تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضَ بَالْحَق تَعَالَىَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل/٣] ومرة أخرى ينفي أن يكون خلق السموات باطلا كما في سورة (ص) حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَاَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾ [ص/٢٧] ومرة يجمع بين النفي والإثبات كما في سورة الدخان حيث يقول تبارك وتعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَاَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان/٣٨/٣٩] في آيات متعددة من كتاب الله تقرر هذا المعنى وهو أن الله تعالى لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا ولعبا بل خلقهما بالحق ولحكمة عظيمة ، والحق هو الأمر الثابت المقصود لغاية عليا وحكمة أو حكم بالغة ، وقد مدح الله الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ويهتدون إلى الحق وسماهم أولي الألباب فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَاخْتلاَفِ الَّلَيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِى الأَلْبَابِ الذينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَامَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ..... ﴾ [آل عمران/١٩٠-١٩٥] مدحهم ووعدهم أحسن الجزاء وجعل الويل للكفار الذين يظنون أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا فقال بعد : ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ ﴾ [ص/٢٧] وهنا في هذه السورة يقول تبارك وتعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُومِنِينَ** ﴾ .

أي إن في خلق السموات والأرض لآية عظيمة للمؤمنين تزيدهم إيمانا بتفكرهم في هذه السماوات العظيمة ، وما في أفلاكها من النجوم والكواكب والأبراج ، وفي الأرض العريضة وما فيها من كنوز وأسرار ، وما عليها من جبال وأنهار وأشجار ومخلوقات آية عظيمة تهدي العقول إلى الايمان بالله الواحد القهار، وأنه ما خلق هذا

لهوا ولعبا تعالى ربنا عن اللهو والعبث ﴿ تَبَارَكَ الذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً وَهُوَ الذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ ارَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوَ ارَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان/٦١/٦٢] .

ثم إن الله تبارك وتعالى يوجه الأمر إلى نبيه بأعمال تزيده ومن آمن معه إيمانا مع إيمانهم فقال تبارك وتعالى :

اَتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يأمر الله تعالى نبيه بتلاوة القرآن وإقامة الصلاة وذكر الله ، وهي الخصال التي تنمي الإيمان في قلب المؤمن، وهذا أمر للنبيء ﷺ ولمن معه من المؤمنين ولمن يأتي بعدهم حتى تقوم الساعة، يقول الله تعالى لنبيئه .

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ ﴾ .

هذا الأمر بعد أن كذبه قومه وتمادوا في تكذيبهم وإيذائهم له ولأصحابه فأمره الله أن يستمر في دعوته لهم وأن يتلو عليهم القرآن ولا يبالي بتكذيبهم وإعراضهم ، وهذا نظير قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس /١٠٩] وقوله تعالى في سورة النمل:﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنَ اَعْبُدَ رَبَّ هَذهِ الْبَلْدَةِ الذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وأُمِرْتُ أَنَ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَ اَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلِ اِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾

[النمل/٩١-٩٢] هذا ليستمر في التبليغ والدعوة ولا يسأم ولا يبخع نفسه ألا يكونوا مؤمنين ، وفي العبارة تأكيد أن هذا الكتاب الذي يتلوه عليهم وحي من الله تعالى فليس شعرا ولا سحرا ولا كهانة ولا افتراء، فأمره الله بتلاوته عليهم ليقيم عليهم الحجة ولعلهم يهتدون وليتقرب بتلاوته إلى ربه كما يتقرب إليه بإقامة الصلوات ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ ﴾ أي صل الصلوات الخمس في أوقاتها بطهارتها وخشوعها وإتمام أركانها وسننها وآدابها وتلك هي الإقامة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ .

يخبرنا الله تعالى ويؤكد الخبر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وهي كبائر الذنوب والإثم وما يتسع خطره من المعاصي ، وعبر بالنهي عن الردع، وهو نهي النفس عن الهوى ونهي الصلاة من الداخل وهو النهي الحقيقي، ولا شك أن للصلاة تأثيرا طيبا على القلب وتهذيبا للنفس وهي صلة بين العبد وبين ربه ، يقف بين يديه خمس مرات في كل يوم وليلة فلا يزال على ذكر من ربه، فهو إما في صلاة وإما على أثر صلاة وإما مستقبل لصلاة، وفي كل هذه الأحوال ردع للإنسان عن ارتكاب المعاصي ، ففي كل هذه الحالات يستحي الإنسان أن يركب المعاصي ويأتي الذنوب والمخالفات وهو يتردد على الوقوف بين يدي الله عدة مرات في كل يوم وليلة ، ويخاطب الله تعالى في كل ركعة بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فكيف يذهب بعد هذا الكلام ليعبد الشيطان وقد قطع على نفسه العهد وربما يوقعه الشيطان في بعض الذنوب ولكن سرعان ما يعود ويتوب إلى الله ويرجع عن غيه ، وهذا كله من تأثير الصلوات التي يحافظ عليها المسلم فهو وإن وقع في الذنب لكن سرعان ما تأخذ صلواته بيده وترده إلى طريق الله المستقيم ، وما دام الانسان محافظا على صلواته فارجُ الهداية له

والرجوع، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن لم تنهه صلاته عن المنكر فهو لا شك من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، والمصلون كثيرون والمقيمون قليلون، أما الصلاة التى تنهى صاحبها فهي التي يقيمها على الوجه المطلوب ، هي التى يحافظ على طهارتها وركوعها وسجودها وخشوعها ، والخشوع هو روح الصلاة وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وهي التى يصليها لأوقاتها الموقوتة ولا يقدمها قبل وقتها ولا يؤخرها حتى يفوت الوقت ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلَواةَ إِنَّ الصَّلَواةَ كَانَتْ عَلَى الْمُومِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً ﴾ [النساء/١٠٣] وجاء في الحديث الشريف « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعدا» فإذا لم تنهه عن الفحشاء والمنكر فلأنه ضيعها فضيعه الله ولو حافظ عليها لحفظته، فلنحافظ على صلواتنا ليحفظنا الله من الوقوع في المآثم ، وكلام الله حق وصدق .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ .

ذلك لأن الغاية من الصلاة إنما هي ذكر الله ، قال الله تعالى في القرآن ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَواةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه/١٤] والمؤمنون الصادقون يذكرون الله في الصلاة أما المنافقون فقال تعالى فيهم ﴿ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء/١٤٢] وجاء في الحديث الصحيح: «تلك صلاة المنافقين يجلس أحدهم يتحدث حتى إذا اصفرت الشمس وكانت بين قرني شيطان يقوم فينقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا » والذكر ذكران ذكر باللسان وذكر بالقلب ولا يكمل معنى الذكر إلابهما معا ، ولا ينفع ذكر باللسان والقلب غافل ، قال الشيخ أبو نصر رحمه الله :

وليس خشوع الجسم يوما بنافع إذا غاب قلب في شعاب التدبر

ومقصود الشيخ من التدبر هنا تدبر أمور الدنيا والمعاش أما التدبر في القرآن فهو

المطلوب، وجاء في الحديث الصحيح : قال رسول الله ﷺ : يقول الله عزوجل :

« قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل » وقال رسول الله ﷺ : « إذا قال العبد الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فيقول الله حمدني عبدي، فإذا قال العبد الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فيقول الله أثنى علي عبدي، وإذا قال العبد مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، فيقول الله مجّدني عبدي فيقول العبد إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، فيقول الله هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فيقول العبد اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غيرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِينَ ، فيقول الله تعالى هؤلاء لعبدي ولعبدي ماسأل » هذا كله مع حضور القلب فيكون الذي ينطق به اللسان حينئذ ذكرا حقيقيا نافعا ، والصلاة بهذا المعنى صلة بين العبد وربه . وقال بعض المفسرين :﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ . يعني ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد لربه ، وهذا المعنى وإن كان صحيحا ولكن المتبادر إلى الأذهان هو المعنى الأول وعليه جمهور المفسرين والله أعلم . ثم قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ .

والله يعلم كل أفعالكم وأقوالكم وما تخفيه صدوركم وتضمره قلوبكم لا تخفى عنه خافية وسوف يحاسبكم على كل ذلك فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وجاء في القرآن وفي الحديث الصحيح البيان لمن يغفر له ولما يغفر من أحاديث النفس، وإذا كان الله يعلم ما نصنع فلنجتهد أن نصنع الخير ونضمر الخير وننوي الخير في جميع أفعالنا وأقوالنا ، ولنجتنب أفعال الشر وإضمار الشر والنوايا السيئة وسائر الحيل التى لا تقرها الشريعة ولا تخفى على الله وإن خفيت على الناس ، ففي هذه الآية موعظة لنا وتذكير وحث على الاستكثار من الطاعات واجتناب الفواحش والموبقات والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل . ثم قال الله تبارك وتعالى :

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا
وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ
إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ
وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ
ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ
مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ
يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

بِالْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِاللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ الْعَذَابُ مِن
فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾
يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾
كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ
صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ
رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

ينتقل الأسلوب القرآني من مخاطبة أهل الشرك الوثنين المنكرين للبعث بعد الموت المكذبين بالرسالات كلها الذين يقولون ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام/٩١] ينتقل من مخاطبة هؤلاء والكلام عنهم إلى معاملة أهل الكتاب الذين يؤمنون بالوحي ويؤمنون بالله وباليوم الآخر ولكنهم يفرقون بين رسل الله، يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض وهؤلاء هم اليهود والنصارى ، أرسل الله إليهم الرسل وأنزل

عليهم الكتب ولذا سماهم أهل الكتاب وهو يعلم أنهم بدلوا وغيروا واتبعوا أهواهم إلاقليلا منهم، وكذلك هذه الأمة أمة محمد ﷺ وقع فيها التبديل والتغيير لا في أصل الكتاب لأن الله ضمن حفظه ولكن في التأويل واتباع الأهواء في المعتقدات والفروع، ومن هنا وقع الافتراق والاختلاف ، وقد يقع الاختلاف الذي ينشأ عن تفاوت المدارك والفهوم ، وقد تسربت إلى هذه الأمة بعض معتقدات أهل الكتاب وتحدرت إليها من فلسفات اليونان والرومان بعض النظريات التي امتزجت بعلم الكلام وخاض فيها المتكلمون وأهل الفلسفة والجدل كما دخل في الاسلام بعض أهل الكتاب وأدخلوا في وسط المسلمين من إسرائيلياتهم ، منهم من فعل ذلك لقصد تضليل المسلمين والكيد للإسلام ، ومنهم من فعل ذلك لغير قصد ، ودخل منهم على عقائد المسلمين وتصوراتهم لواقع الإسلام ضرر كبير ، وبعض كتب التفاسير مشحونة بالاسرائيليات، وجاء في الحديث الشريف « إذا حدثكم بنو إسرائيل فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وفي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كفاية لمن طلب العلم والهدى ، ولا حاجة لنا إلى الخوض فيما أدخلوه علينا من الجدل والفلسفات . يرشد الله نبيئه إلى نوع معاملة أهل الكتاب خاصة دون ملل أهل الشرك لأن أهل الكتاب يؤمنون بالأصول الثلاثة : الإيمان بالله والرسل والبعث بعد الموت ، فهم ليسوا كغيرهم من المنكرين أهل الشرك والوثنيات فلهم نوع خاص من المعاملة . قال الله تعالى :

﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُواْ ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ .

ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، أي أدعوهم إلى الإسلام بالتي هي

أحسن وردوا على مقالتهم التي تخالف الحق بالتي هي أحسن لأنهم ءامنوا بالأصول الثلاثة الكبرى فاستحقوا بذلك أن يجُادلوا بالحسنى إلا الذين ظلموا منهم بنسبة الولد إلى الله ، أو بمحاربة المسلمين ونقض العهود و المواثيق فأولئك يعاملون بالتي هي أخشن ويحاربون ويُنزل عليهم من العقاب ما يستحقون كما وقع لقبائل اليهود الذين كانوا بالمدينة وذلك جزاء الظالمين . ثم قال تعالى :

﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِالذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.

وهذا من المخاطبة بالحسنى ، أرشدنا الله إليه وذلك أن نقول لهم آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم لا نفرق بين أحد من رسل الله وكتبه فنؤمن ببعض ونكفر ببعض بل نؤمن بها جميعا ، وإلهنا وإلهكم واحد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوًا احد ، ونحن له مسلمون وبه مؤمنون وموقنون وله مخبتون ، فأسلموا كما أسلمنا ووحدوه وءامنوا بجميع أنبيائه ورسله يؤتكم الله أجركم مرتين وتفوزوا في الدارين، وفي هذه المخاطبة استدراج لهم وتلطف في جلبهم إلى الإسلام ، وقد أسلم من النصارى جماعة من أهل نجران وقدم وفدهم إلى النبي ﷺ ، وأسلم من اليهود من علمائهم من أراد الله به خيرا ولا يزال المسلمون على مر العصور يعاملون أهل الكتاب بالتي هي أحسن ويستوصون بأهل الذمة خيرا وتوجد اعترافات من كثير من اليهود والنصارى أنهم نعموا بالعدل والإحسان في حكم المسلمين ما لم يحظوا به في حكم غيرهم . ثم قال الله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُومِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُّومِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ﴾ .

أي وكما أنزلنا التوراة والإنجيل والزبور على أهل الكتاب من قبلك أنزلنا عليك

القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فآمنوا به يا أهل الكتاب كما صدقتم بما أنزل الله على موسى وعلى عيسى وعلى داود، ولا تكونوا أول كافر به فهو من عند الله ، كما أن تلك الكتب التي عندكم من عند الله .

﴿ فَالذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُومِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَن يُّومِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الكَافِرُونَ﴾ .

من المفسرين من يقول إن المراد بالذين ءاتيناهم الكتاب هم أهل الكتاب عامة، وقوله تعالى ﴿ يُومِنُونَ بِهِ ﴾ يعني به الذين ءامنوا منهم كعبد الله بن سلام والذين معه ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَن يُّومِنُ بِهِ ﴾ .

هم الذين ءامنوا من قريش قوم النبي ﷺ وهم قليل و﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض ، ومنهم من يقول إن المراد بقوله تعالى : ﴿ الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُومِنُونَ بِهِ ﴾ .

هم أنبياء الله ورسله الذين آتاهم الكتاب وبشروا به أقوامهم وأخذ الله عليهم العهد ليومننّ به كما قال تعالى في سورة آل عمران ﴿ وَإِذَ اَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيئِينَ لَمَا ءَاتَيْنَاكُمْ مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُومِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران /٨١] وكما هو مذكور في التوراة والانجيل بشّر به موسى وعيسى عليهما السلام ، وقوله تعالى ﴿ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُّومِنُ بِهِ ﴾ أي من أهل الكتاب الذين شهدوا مبعث النبئ محمد ﷺ والذين من بعدهم منهم من يؤمن به وهم الذين هداهم الله وطهر قلوبهم من الحسد وكتب لهم السعادة فإنهم يؤمنون بهذا النبيء الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، وهذا المعنى الأخير هو الأرجح والأظهر من معنى الآية ، ثم قال تعالى : ﴿وَمَا يَجْحَدُ بَئايَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ﴾ .

الجحود هو إنكار الشئ بعد إدراكه والعلم به ، وما يجحد بآيات الله بعد قيام الحجة البالغة إلا الكافرون الذين أعمى الله أبصارهم فهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون ، والكفر هو تغطية الشئ أو محاولة ذلك بعد ظهوره،أولئك هم الكافرون الذين يريدون أن يطفئوا نور الله حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فهم الكافرون الذين أعد الله لهم عذابا أليما . ثم قال تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ بَل هُوَءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَد بآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ .

أي وما كنت يا محمد تتلو من قبل هذا القرآن كتابا ولا تخطه بيمينك ، لقد كان رسول الله أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة وقد بقي أميا لا يكتب ولا يقرأ المكتوب حتى مات ، وهذه معجزة كبرى أن يظهر العلم في رجل أمي لا يكتب ولا يقرأ ، ولو كان يكتب أو يقرأ لارتاب المبطلون وشكوا وقالوا هذا من آثار الكتب السابقة التقطه وألّفه، أما المحقون المنصفون فلا يرتابون لأن القرآن معجز لا يقدر الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله ، وقد تحداهم بذلك فعجزوا كلهم فهو يعلو ولا يعلى، ومن قرأه بتدبروإمعان علم أنه كلام الله العلي الحكيم ، وقوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ .

فيه تأكيد عموم النفي بـ ﴿ مِنْ ﴾ أي ما كنت تتلو من كتاب لاعربي ولا أعجمي، أي لو كان يتلو كتابا ولو أعجميا لقال المبطلون نقل معانيه إلى العربية وقوله :

﴿ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ .

فيه نكتة لطيفة وذلك أن الكتابة تكون باليمين لا بالشمال ثم قال تبارك وتعالى:

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ .

أي بل ليس الأمر كما يقولون أو يجحدون بل القرآن المنزل عليك آيات بينات من عند الله محفوظة في اللوح المحفوظ ومحفوظة لأن الذين أوتوا العلم من المؤمنين يحفظونها في صدورهم حفظا عن ظهر الغيب ، وجاء في الحديث الشريف « أناجيل أمتي صدورهم» فهو محفوظ في السطور وفي الصدور لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ضمن الله حفظه ولن يزال محفوظا إلى يوم الدين وفيه أن من أوتي القرآن فجمعه في صدره فقد أوتي العلم ومن أوتي العلم يعلم يقينا أن هذه الآيات البينات وحي من عند الله لا يشك في ذلك أبدا ، ثم قال تبارك وتعالى:

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وفي هذه الآية الكريمة إنكار من الله عليهم لجحودهم لما هو الحق البين ، وما يجحد مثله إلا الكافر الظالم المتمرد على الله أقسى الذي لج في طغيانه ونفوزه وكفره فهو يستحق من الله أقسى أنواع العقوبات ، وفي هذا تعريض بأولئك الكفار من قوم النبيء ﷺ الذين ظهر لهم الحق ورأوا المعجزات فأنكروها وكفروا بالحق والكافرون هم الظالمون. ثم قال تبارك وتعالى:

﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيه ءَايَاتٌ مِّن رَّبِهِ قُلِ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقال هؤلاء الظالمون الكافرون بلهجة العناد والتعنت لولا أنزل على هذا الذي يزعم أنه رسول من الله لولا أنزل عليه آيات من ربه ، أي هلا أنزلت عليه معجزات تدل على صدق نبوءته ذلك لأن كفار قريش كانوا يسألون أهل الكتاب فيقولون لهم وقد علموا أنه رسول حق ولكنهم يجحدون الحق حسدا من عند أنفسهم فيقولون

لقريش هلا جاء بالمعجزات التي جاءها موسى وعيسى كالعصا واليد وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فرد الله عليهم فأمر رسوله أن يقول لهم .

﴿ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أي لست إلاهًا ولا أملك مما تطلبونني شيئا ولست إلا بشرا رسولا أرسلني الله إليكم نذيرا مبينا أنذركم وأبين لكم طريق الهداية والرشد فمن اتبعني اهتدى ومن أبى ذلك فقد ضل وغوى ، والحق أن سؤالهم هذا سؤال تعنت وإلا فقد لبث فيهم عمرا قبل رسالته يعرفونه ويعرفون أمانته وصدقه وكان يكفي من تدبر كلامه وفهمه بقلب سليم أن يدرك أنه الحق لامرية فيه ، ومن تأمل الكلام الذي جاءهم به علم أنه كلام رب العالمين فهو آية الآيات في علو بلاغته وظهور حكمته وإعجاز ألفاظه ومعانيه.

قال الله تعالى :

﴿ اوَلَمْ يَكْفِهِمُ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾.

سؤال استنكار لعنادهم واستفهام تعجب لحالتهم ، أي أعموا و لم يكفهم هذا الكتاب المعجز الذي أنزلناه عليك تتلوه عليهم ، وفي قوله تعالى :

﴿ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَاب ﴾ .

تثبيت لقلب النبيء ﷺ ولقلوب المؤمنين معه ودفع لإنكارهم ومكابرتهم إذ يقرر الله تبارك وتعالى إنزاله بنون العظمة وكل المعجزات قبل القرآن أصبحت في خبر كان إلا معجزة القرآن فهي باقية ما بقي القرآن ولا تزال تزداد قوة وظهورا كلما

تقدمت العلوم والاختراعات ، ولا تزال المغيبات التي أخبر بها القرآن أو أخبر بها رسول القرآن تظهر يوما بعد يوم فتكون سببا في إسلام كثير من الناس وصدق الله العظيم الذي يقول ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت/٥٣] والآيات عند الله ونزول الآيات المقترحة لا يكون إلا بإذنه وإذا أنزلت ولم يؤمن بها المقترحون جاءهم الهلاك وحقت عليهم كلمة العذاب ، ولذا يقول تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء/٥٩] أما نزول القرآن وهو المعجزة الكبرى فهو رحمة للناس جميعا ورحمة خاصة للمؤمنين .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وذِكْرَى لِقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾ .

إن في نزول القرآن وتلاوته لرحمة من الله وذكرى وموعظة لقوم يومنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهم الذين يستمعون لكلام الله وينتفعون به ويتبعون أحسنه .

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالذِينَ ءَامَنُواْ بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُواْ بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وأمر نبيئه بعد هذا الإنذار المبين أن يقول لقومه المكذبين :

﴿ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ .

كفى بالله ربي شهيدا هو الحكم بيني وبينكم هو أكبر شهادة وهو الذي أنزل هذا الكتاب بعلمه وأمرني أن أبلغه إليكم وإذ كذبتموني فالله يشهد أني بلغت وأنكم مكذبون وكفى بشهادة الله العليم الخبير .

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ .

السموات والأرض خلقه وملكه يعلم ما في السموات وما ينزل منها وما يعرج فيها ويعلم ما في الأرض وما يخرج منها ويعلم ما في صدور العالمين ، وهذه كلمة حق يقولها الداعي إذا كذبه قومه و لم يعد ينفع البرهان الساطع ، يقولها الداعي متوكلا على الله معتمدا عليه نابذا خصامهم وعنادهم هاجرا لهم هجرا جميلا ، ثم يأتي حكم الله الفصل وقضاؤه المبرم وهو قوله تعالى:

﴿ وَالذِينَ ءَامَنُواْ بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُواْ بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

والذين ءامنوا بالباطل وهو الطاغوت وكل ما عبد من دون الله باطل وضلال ، وعبادة الله وحده هي الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال فالذين ءامنوا بالباطل وكفروا بالله ربهم أولئك هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وأهليهم خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، حكم الله تعالى عليهم بالخسارة وأكد حكمه بتعريف الخبر وضمير الفصل فكأنه حصر الخسارة فيهم فهم الخاسرون على الحقيقة وكل خسارة دون خسارتهم فهي هينة يمكن أن تجبر أو يعقبها ربح أما خسارة أعداء الله الكافرين المكذبين فلا يرجى لها صلاح ،وأي خير يرجى لمن مات كافرا بالله مستمسكا بالطاغوت ، ومن هؤلاء من يذهبون إلى قبور الصالحين يطلبون عندها الحاجات وينذرون لها ويذبحون عندها ويرجون نفعها ويخافون ضرها وهم عن دعائهم غافلون ، كل أولئك خاسرون لأنهم ءامنوا بالباطل واتخذوا من دون الله أولياء فما دعاء الكافرين إلا في ضلال.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَاتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى لنبيئه ويستعجلك هؤلاء الكفار بالعذاب استخفافا وتمردا وعنادا.﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . ويبلغ بهم التمرد أن يقولون كما حكى الله عنهم : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ اَوِايتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ ﴾ [الأنفال/٣٢] هذا غاية الطغيان والتنطع وكان المفروض لو كانت فيهم بقية خير وتعقل أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ولكنهم أعماهم الكبر والطغيان والتقليد الأعمى للآباء فهم يستعجلون نبيئهم بالعذاب استهزاء وسخرية وتكذيبا قال الله تعالى :

﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ .

لولا أجل حدده الله وسماه لجاءهم العذاب الذي استعجلوه ولكن الله حليم يستأني بهم لعل الله يهدي منهم ناسا أو تخرج من أصلابهم من يعبد الله وقد وقع ذلك، وقضى الله أن لا يعم هذه الأمة بالعذاب لأنها آخر الأمم ولكن هؤلاء المستهزئين والمكذبين المستعجلين للعذاب لهم أجل مسمى لا يعدونه ، قال الله تعالى:

﴿ وَلَيَاتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ .

أي ليأتينهم عذاب الله بغتة وهم لا يشعرون بمجيئه فحينئذ يجأرون ولا يستطيعون له دفعا ولا يغني عنهم ما اتخذوا من دون الله شفعاء وياليتهم يتعظون بهذه الآية وإنها لمن قوارع الآيات.

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

كرر الله ذكر استعجالهم العذاب مرتين لأنهم لا يزالون يستعجلون العذاب ويستخفون بكلام الله وإنذار رسوله فقال تعالى :

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ .

إنهم يستعجلون إتيان العذاب وما يدرون أن جهنم محيطة بهم وبأمثالهم من الكافرين ، إن موعدهم فيها لقريب آت لا ريب فيه فكأنها من الآن محيطة بهم لا مهرب لهم منها ولا وزر.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ .

يحيط بهم عذاب الله من جميع جهاتهم فيغشاهم من فوقهم طبقات ويطلع عليهم من تحت أرجلهم ويخسف بهم في أودية جهنم ويأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فلا متنفس لهم ولا يخفف عنهم من عذابها ولا مفر لهم وما لهم من ملجأ يومئذ ومالهم من نكير ومع العذاب يوبخون ويقال لهم .

﴿ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول الله لهم ذوقوا جزاء أعمالكم من تكذيب واستهزاء وإيذاء لله ورسوله وما كنتم تأتونه من الموبقات ولا تكون أعمال الكفار المكذبين إلا سيئة وما كان لهم من أعمال حسنة لا يثابون عليه يومئذ لأنها ذهبت هباء منثورا بسبب كفرهم وشركهم ولا يقبل الله من مشرك عملا أبدا ولو كان صالحا ، والويل لمن كفر بالله ورسله واتخذ من دون الله أوثانا وجحد بآيات الله البينات.

﴿ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ .

يوجه الخطاب لعباده المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالخطاب وينسبون إليه نسبة تشريف ويزاوج الله بين أسلوب التخويف والإنذار وأسلوب التبشير والوعد الحسن وتلك طريقة القرآن الذي أنزله الله مثاني ، ينتقل الخطاب إلى الذين آمنوا بنسبتهم إلى المخاطب نسبة تشريف وتقريب : يا عبادي الذين آمنوا بما يجب الإيمان به إيماناً صادقاً .

﴿ إن أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ .

أرض الله واسعة فإن لم تتمكنوا من عبادة ربكم في بلد فهاجروا إلى غيره حتى تستطيعوا عبادة ربكم وحده ولا يفتنكم الناس عن عبادة ربكم .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

تأتي هذه الآية لمناسبة الهجرة وما يكتنفها من أخطار ومخاوف إذ ربما تتردد الوساوس في صدر أحدهم إذا هو هاجر أن يعترضه قومه في الطريق فيقتلونه أو يموت جوعا وعطشا في الطريق فقال الله تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ .

فلا يقرّب الأجل ركوب الأخطار إنما يموت من حضر أجله ولو كان في بيته ، وليس الموت انقطاعا عن الحياة إنما هو انتقال من حياة إلى حياة أبدية والمؤمن موته خير له فما هو إلا رجوع إلى ربه ليجزيه على إيمانه وعمله الصالح أحسن الجزاء .

﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

أي ثم إلينا لا إلى غيرنا يكون رجوعكم وأنتم أيها المؤمنون تحبون لقاء الله ، والله يحب لقاءكم ، أما الكافر فيكون موته رجوعاً إلى رب عليه غضبان ينتقم منه شر انتقام

ولا يفوته ولا يعجزه ، فالكل راجع إلى الله ، ولكن شتان بين رجوع ورجوع .

﴿ وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

وعد من الله حسن وبشرى للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وغالب ما يذكر الايمان مقرونا بالعمل الصالح والإيمان الصادق هو الذي يثمر العمل الصالح والعمل أحد أركان الإيمان الثلاثة يقول الله تعالى :

﴿ وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ .

وبين هذه الآية والتي قبلها تقابل رائع ومناظرة بديعة ، ففي الآية السابقة يذكر مصير الكافرين المكذبين في أطباق جهنم وهي تحيط بهم والعذاب يغشاهم من فوقهم ويأتيهم من كل مكان ، وفي هذه الآية يذكر مصير المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنهم في غرف مبنية تجري من تحتهم الأنهار يحيط بهم النعيم من كل جهة ومكان وهم في جناتهم خالدون لا يبغون عنها حولاً يبوئهم الله في غرف الجنة أي يسكنهم فيها ويخلدهم في تلك القصور المزخرفة لهم فيها ما تشتهى أنفسهم وتلذ أعينهم ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ ما أحسنه أجراً للعاملين ، وذكر العاملين فيه بيان أن الجنة لا تنال بغير عمل وأن رحمة الله قريب من المحسنين ، والإحسان هو العمل لله تعالى بخشوع وإخلاص

ثم وصفهم بوصفين آخرين فقال جل من قائل :

﴿ الذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

وهما وصفان عظيمان متلازمان ينطبقان على المؤمن الصادق الإيمان فهو يصبر على ما أصابه في سبيل الله ويتوكل على الله فيما يتوقعه من العواقب فينام مطمئنا وقد فوض أمره إلى الله فنعم المولى ونعم الوكيل .

وهذه الآيات مكية نزلت على المسلمين المستضعفين الأوائل وما أحوجهم إلى الصبر والتوكل وهي تطمين لخواطرهم وتبشيرلهم فكأني ببلال وهو في الرمضاء وعلى صدره صخرة يقرأ هذه الآية فيهون عليه العذاب وينقلب إلى نعيم ، وكذلك عمار وياسر وصهيب وغيرهم من المسلمين الأوائل ، والآية منطبقة على المسلمين الصابرين في كل زمان ومكان يصبرون على أذى الكفار والمنافقين وعلى ربهم يتوكلون ولأمره يستسلمون وقد فوضوا أمورهم كلها إليه ووجهوا وجوههم إليه وألجئوا ظهورهم إليه ولاثقة لهم إلا به ولا ملجأ ولا منجى إلا إليه وهو الحي الذي لا يموت .

﴿ وَكَأَيِن مِّن دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

تأتي هذه الآية الكريمة لمناسبة دعوة المؤمنين الأوائل إلى الهجرة إلى حيث يتيسر عبادة الله ليطمئنهم الله على ضمان رزقهم إذ الرزق هو قوام المعاش ، فهم لا محالة تخطر في قلوبهم خواطر في معاشهم كيف يكون في المهجر وهم يفرون تاركين أموالهم وأرزاقهم في مكة ، والآية عامة لهم ولسائر الناس في كل زمان ومكان والشيطان يلقي الوساوس في قلوب الناس ويزين لهم أن يتوسعوا في طلب أرزاقهم من أبواب الحرام ويخيل لهم أن الحلال وحده لا يكفيهم ويعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء والبخل فأنزل الله هذه الآية حتى يطمئن كل مؤمن صادق الايمان إلى وعد الله وينظر ما حوله من الدواب تعيش في فضل الله ولا تحمل أرزاقها قال تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ .

كأين للتكثير أي ما أكثر الدواب وهي الحيوانات والوحوش والبهائم والطيور والحشرات التي تعيش من فضل الله غادية رائحة تدب على أرض الله أو تطير في فضاء الله أو تسبح في بحاره وقد تسافر إلى مكان بعيد وهي لا تحمل معها الزاد ، والله يرزقها في مستقرها ومستودعها وفي أسفارها كما يرزقكم يابني آدم ، وقد يتسبب الإنسان في حراثة الأرض وبذر الحب ولكن الله هو الزارع فالق الحب والنوى مخرج النبات من الأرض ، والثمار من الأشجار ، مسخر الأنعام وغيرها مما أحل الله صيده من البر والبحر ، وفي النظر إلى تلك الدواب التي يتكفل بأرزاقها وأرزاق بني ءادم ما يكفي للاعتبار ، وما يقوي اليقين في قلوب المؤمنين حتى يزدادوا توكلا على مقسم الأرزاق الذي له خزائن السموات والأرض .

﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وصفان من أوصاف الله ربنا يذيل الله بهما هذه الآية ليبين لنا أن هذا الرب العظيم المتكفل بأرزاق مخلوقاته سميع لأصواتهم المختلفة عليم بلغاتهم كلها بل عليم بما في قلوبهم فهو يستجيب لمطالبهم التي ينطقون بها والتي تجيش في قلوبهم قبل أن تنطق بها ألسنتهم وحناجرهم لا يخفيها عنه بعدهم ولا يحجبها حجاب ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء « لم يخلق الله مخلوقاً يضيعه » وجاء في الحديث الشريف «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » ثم تأتي الآيات الباقية في هذه السورة الكريمة في محاورة هؤلاء الكفار الذين اتخذوا من دون الله أوثانا يعبدونهم من دون الله ويقرر الله فيها الحق ويختم الله

السورة بآية تحمل الوعد الحسن للذين جاهدوا في الله وصدقوا في جهادهم وصبروا من بعد ما فتنوا فكأنها عود على بدء ولله الأمر من قبل ومن بعد وله الملك وله الحمد.

قال الله تبارك تعالى :

وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾
وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ
لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ

كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾
وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

يقول الله تبارك وتعالى: ولئن سألت مشركي قومك من الذي خلق العالم العلوي والعالم السفلي وما فيهما من مخلوقات عجيبة ، ومن الذي سخر الشمس والقمر دائبين لمصلحة العباد يجريان بنظام دقيق ليقولن الله فأنى يؤفكون وأنى يصرفون ، وكيف يعبدون غير الله وقد اعترفوا أنه خالق السماوات والأرض مسخر الشمس والقمر بحسبان بديع ، إن مشركي قريش لا يزعمون أن أصنامهم تخلق و ترزق و تتصرف في شئون السماوات والأرض تحي وتميت ، وإنما يعبدونها لأنهم يعتقدون أنها تقربهم إلى الله زلفى لأنها رموز للملائكة أولناس صالحين أو للنجوم والشمس والقمر ، فهي طاهرة مقدسة تقرب إلى الله وهذا هو الظلم العظيم الذي لم يأذن به الله ، فكيف وهم يقرون بالربوبية لله وحده ثم يعبدون معه غيره . أنى يؤفكون ! ومشركوا قريش وإن كانوا ضالين باعتقادهم ولكن مشركي اليوم أضل منهم فهم لا يعتقدون بوجود الله ولا بخلقه السماوات والأرض ولا بالغيبيات بل يقولون إنما هي الطبيعة والدهر ، الأرحام تدفع والأرض تبلغ فلا بعث ولا قيامة ولا حساب ولا جزاء ، ينكرون كل شيء وراء المادة والشرك ظلمات بعضها فوق بعض وهؤلاء الذين يدعون الموتى ويذبحون عند القبور والقباب ويعكفون عندها يرجون خيرها ويخافون ضرها

ويتوسلون بها إلى الله ما أشبههم بهؤلاء ! كل في ضلال مبين ، والحق الذي لا غبار عليه أن الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر أحق أن يوحد بالعبادة لا إله غيره وكل ما سواه محتاج إليه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولاموتا ولا حياة ولانشورا .

ثم وصف الله نفسه بما هو أهله وليس ذلك لغيره فقال :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

الله وحده يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له أي يوسع لمن يشاء ويضيق على من يشاء ومجرى الأرزاق كلها بيده ، وقد تجري الأرزاق بأيدي من يشاء ولكن مجريها ومقسمها هو الله تبارك وتعالى قد ضمن لكل مخلوق رزقه وحدد له أجله ولن يموت قبل أن يستكمل رزقه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض عليم بعباده عليم بأرزاقهم وآجالهم عليم بحوائجهم عليم بكل شيئ ومن كانت هذه أوصافه فهو أهل لأن يعبد ويعبد وحده لا شريك له .﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب /٤].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة شديدة الارتباط بالتي قبلها فهي تبين طريقة بسط الله رزقه على سائر مخلوقاته ، هذا الرزق الذي ذكره وألفتنا إليه في الآية السابقة ، فالمناسبة

بينهما قوية ولذا جاء هذا السؤال لهؤلاء الكفار المكذبين .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ .

آيتان عظيمتان من آيات الله يشهدونهما دائما ، ونعمتان عظيمتان من نعم الله وهم يعترفون أنهما من الله ، وأن منزل الماء من السماء ومنبت الطعام من الأرض هو الله فما لهم أنى يؤفكون ، ويأتي هذا المعنى في غير موضع من القرآن ففي سورة يس يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يس / ٣٣-٣٥] وفي إحياء الأرض من بعد موتها آية للمعاد إذ كذلك يخرج الناس من قبورهم وترجع إليهم الحياة من جديد .

وفي التعبير بالإحياء من بعد الموت نكتة بلاغية للمتذوقين القرآن ، وإذ يعترف هؤلاء المشركين أن فاعل ذلك هو الله وحده جاء الجواب المحكم بقوله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾.

أي الحمد لله الذي هداني إلى الدين الحق وأخرجني من الظلمات إلى النور، و لم يجعلني كهؤلاء الذين ضلت عقولهم بعد العلم فهم لا يعقلون ، وهذه الكلمة .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

تنبع من قلب المؤمن حين يتلو هذه الآيات وينطق بها لسانه اعترافا بأن الحمد كله لله منزل الماء من السماء، ومنبت الطعام من الأرض، وهادي عباده إلى صراطه المستقيم، ومن لا يهتدي بعد ظهور هذه الآيات فقد خرج من دائرة العقل

فهو كمن لا يعي ولا يعقل ، قال الله تعالى :

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ .

إن قول الله حق ، وحكمه عدل ، فحكم على أكثرهم و لم يحكم عليهم كلهم، لأن منهم من علم الله أنه يعقل وسيهتدي إلى الإيمان وما يمنعه من ذلك إلاعوارض وعوائق ستزول ، وحقا إن الذين يشاهدون آيات الله البينات في الأكوان، وتتلى عليهم آياته في القرءان ثم لا يهتدون ، ويصرون على شركهم وعنادهم لا شك هم قوم لا يعقلون ، ومن كان له عقل ثم لم ينتفع به فهو كمن لا يعقل ، قال تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان/٤٤] ومن أضل ممن يشاهد آيات الله ويتمتع بنعمه ثم يذهب يدعو غيره ممن لا يستجيب دعاءه وهو عن دعائه غافل وعن نفعه عاجز ضعيف !

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَواةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

يضرب الله المثل لهذه الحياة الدنيا الفانية وللحياة الآخرة الأبديه ، وما يعقل أمثال الله إلا العالمون ، يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَواةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ .

يأتي الوصف لهذه الحياة الدنيا على طريقة القصر وهو كذلك ، فليست هذه الحياة التي هي خالية عن العمل للآخرة ليست إلا لهوا ولعبا ، ويراد بها حياة هؤلاء الكفار الذين فتنتهم الحياة بمالها وجاهها وسلطانها وشهواتها ، وهذه المفاتن هي التي منعتهم في الحقيقة عن الايمان بمحمد ﷺ وبما جاء به لأنهم

يخشون على سلطانهم ولذاتهم أن تزول ، والمناسبة قوية بين هذه الآية والآيات التي قبلها والتي بعدها، فضرب الله مثلا لحقارة هذه الدنيا التي تمسكوا بها وصرفتهم عن الإيمان، ولعظم الدار الآخرة التي استبعدوها وأنكروها ونسوها ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، تلك هي نظرتهم الزائغة وذلك هو اعتقادهم الفاسد ، شغلهم الفاني عن الباقي فخسروا أنفسهم وذلك هو الخسران المبين ، يصف الله هذه الحياة الدنيا بأنها لهو ولعب فما هو اللهو وما هو اللعب ؟ هل هما كلمتان مترادفتان ؟ لابل لكل منهما معناه ومدلوله فاللهو كل ما ألهاك وشغلك عن الشئ فهو لهو ، واللعب هو الاشتغال بالأمر الذي لا طائل تحته لأنه يفنى ويذهب كما تلعب الصبيان بأنواع من اللعب من بناء وغرس وتراب وماء تلهو بذلك يوما أو بعض يوم ثم تفسده وتذهب وتتركه ، فكذلك متاع الحيواة الدنيا الفاني ما هو إلا كلعب الصبيان وإن طالت مدته قليلا ولكنه يذهب ويتلاشى أو يذهب صاحبه ويموت ويتركه، ومن هنا سمي لهوا ولعبا، فهو لهو لأنه يلهيك عن العمل لآخرتك الباقية ، ولعب لأنه لابقاء له فهو يذهب ويتلاشى ويفنى ويفنى أصحابه .

﴿وإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

سمى الله الآخرة دارا لأنها هي المستقرونعم المستقر للأبرار، أما الدنيا فلا يسميها دارا لأنها معبر لا يستقر فيه المارون فليست لهم بدار ، وسمى الله الدار الآخرة بالحيوان وأكد التسمية بلام الابتداء ،والتعبير بالحيوان فيه تأكيد لمعنى الحياة لأن زيادة الحروف تؤذن بزيادة المعنى، ذلك لأن حياة الناس في تلك الدار الآخرة هي الحياة الأبدية التي ليس بعدها موت ولافناء ،وحياة المؤمنين العاملين في دار الكرامة في جوار

ربّ العالمين هي الحياة الحقيقية التي ليس كمثلها حياة فينبغي للعاقل أن يقدم لتلك الحياة ، وعقب الله الحكم بقوله ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ولو حرف امتناع لامتناع ذلك لأن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة الحياة الباقية في الدار الآخرة فهم يلهون بهذه الحياة الدنيا الفانية ويفرطون في العمل لحياتهم الدائمة، وما ذلك إلا لجهلهم بحقيقتها فهم لا يعلمون ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم /٧] والمراد بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ هم الكفار المكذبون والمنافقون الذين أعماهم حب الدنيا عن الآخرة، أما أولياء الله المؤمنين فهم يعلمون بما علمهم الله ويعملون بما يعلمون وذلك هو العلم النافع ، نسأل الله أن يهب لنا العلم النافع آمين .

ثم قال تبارك وتعالى :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَاهُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً امِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُومِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ .

يقيم الله تعالى الحجة الثالثة على هؤلاء الكفار ليفند بها ضلالاتهم وتناقضاتهم فيقول تبارك وتعالى :

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الْفُلْكِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَاهُمْ يُشْرِكُونَ﴾ .

أي إن هؤلاء الكفار يخلصون لله عند الشدائد فهم في تناقض كبير في أحوالهم،يشـركون بالله ويكفرون به عند الرخاء حتى إذا أحاط بهم البلاء أخلصوا له الدعاء وكفروا بآلهتهم ، فإذا ركبوا في الفلك وجرت بهم في لجج البحار وأحدقت

بهم الأمواج فهم حينئذ ينسون أصنامهم ويخلصون دعاءهم لله خالق البحر والرياح، مالك الأمر كله ينادونه يا رب يا رب ، وهذا نظير قوله تعالى في سورة يونس :﴿ هُوَ الذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَاهُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ .. الآية﴾ [يونس/ ٢٢] إن هؤلاء أمرهم لعجيب فهم يعلمون أن أصنامهم لا تغني عنهم شيئا في الشدائد فلم يعبدونها إذا في الرخاء،وضرب الله لهم مثلا في ركوبهم البحر وهو قريب منهم وهم يركبونه ويعرفونه، قال الله تعالى :

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

اللام هنا لام أمر وليست لام تعليل، وهذا ما أختاره وهو قول الجمهور، والأمر أمر تهديد ووعيد شديد، أي ذرهم يكفروا بنعم الله ويتمتعوا في هذه الدنيا الفانية فسوف يعلمون سوء عاقبتهم يوم يأتيهم العذاب ، وفي هذا تقريع لمن كان في قلبه بقية من عقل لعله يتذكر أو يخشى ثم يأتي الاستفام الإنكاري العجيب يلقيه الله تبارك وتعالى بصيغة الغائب لأنهم في سفههم وجهلهم وإعراضهم عن الحق لم يعودوا أهلا للخطاب .

﴿ أَوَلَمْ يَرَواْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ .

أعمي هؤلاء القوم و لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم بالقتل والسبي وتنهب أموالهم، ألا يكفيهم هذا عبرة فيخافوا هذا الرب الذي خصهم

بهذه المزية العظمى فيعبدوه ، هذا وهم يشاهدون ما يقع حولهم من الاختطاف لا في الطرقات فحسب بل حتى من منازل الناس التي يسكنونها وينزلون عندها لا يأمنونعلى أرواحهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم ، بينما يقع هذا حول بلادهم المحرمة تراهم فيها آمنين مهابين محترمين لا يخافون لأن الناس عندما يقتربون من الحرم يغمدون أسيافهم وينصلون أسنة رماحهم ، وقد علموا أن حرم الله لايمكن أن يخفر وقد شاهدوا آيات الله البينات فيه، فقصة الفيل لا تزال على ذكر من الناس فمنهم من شاهدها ولا يزال حيا عند نزول القرآن، ومنهم من سمع نبأها ممن رآها وقد أهلك الله جندا من أعتى الجنود لا قبل للعرب بمقاومته ، جاء ليهدم الكعبة حتى إذا اقترب منها وهو في واد من أودية حرم الله أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ماكول، فلم يغن عنهم جمعهم ولا عتادهم وهزمهم الله وحده وحمى بيته وحرمه وقريش تشهد مهلكهم عن كثب، أفبعد هذا المشهد القريب زمانا ومكانا تكفرون بالله ورسوله وآياته البينات ! قال الله تعالى :

﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ .

أفبالطواغيت يؤمنون ويتبعون الباطل ويؤثرونه على الحق وبنعمة الله يجحدون كفرا وتمردا وعنادا، ونعمة الله هي ما جاءهم من الهدى والبينات والنور، وتفسير النعمة هنا هو المقصود مما جاء في سورة الضحى وهي قوله تبارك وتعالى:﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .

وهي الهدى والحكمة والوحي الذي أنزل إليه من ربه، ولقد كانت تكون عليهم نعمة لو آمنوا بها وشكروها و لم يكذبوا بها ولكنهم بدلوها كفرا وأحلوا قومهم دار البوار.

ثم يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَنَ اظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ .

أي لا ظلم أعظم من افتراء الكذب على الله، فهم بافترائهم الكذب على الله ظالمون لأنهم ذهبوا يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا و لم يأذن به الله،ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ويحلون ويحرمون ويشرعون، وتلك هى العبادة، وذلك هو الشرك والافتراء، وكلما كان المفترى عنه عظيما كان جرم المفتري أعظم، فكيف بالافتراء على الله تعالى، ومثل الافتراء التكذيب بالصدق من عند الله، وهؤلاء افتروا على الله وكذبوا رسل الله الذين جاؤوهم بالصدق من عند الله، فكيف يكون مصير هؤلاء المفترين المكذبين لرسل الله، لا شك يكون مصيرهم عذاب الله العظيم ، قال تعالى :

﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ .

والمثوى هو المكان الذي يمكث فيهم نازله أبدا، والاستفهام هنا للتقرير، أي إن هؤلاء المفترين المكذبين الكافرين بنعمة الله بالباطل لا شك يكون مثواهم فى جهنم حيث يلاقون فيها أنواعا من العذاب الأليم لايخفف عنهم ولاهم ينصرون . جاء الوعيد على صيغة الاستفهام كما جاء وصفهم بالظلم على صيغة الاستفهام الذي قصد به النفي والتعجب ليكون الحكم أشد وقعا في نفوس السامعين ، واختير لشؤم مصيرهم لفظ جهنم ليدل على جميع أنواع العذاب الأليم، وكفى بالثواب فيها عقابا،

وفي هذا تخويف لهؤلاء الكفار وإنذار لهم، وفيه تسلية لقلوب المؤمنين الذين استضعفوهم فهم يلاقون أنواع السخرية والأذى منهم يعجبون كيف يمهل الله هؤلاء على ظلمهم وكفرهم، فسلاهم الله تعالى بقوله :

﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ .

فاصبروا أيها المؤمنون ولا تتعجبوا ولا تستعجلوا لهم فإن لهم أجلا مسمى هوآت لاريب فيه، وكأنهم يوم يأتي أجلهم ويرون العذاب لم يلبثوا إلا ساعة من نهار.

ثم قال الله تعالى :

﴿ وَالذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يختم الله السورة الكريمة بمثل ما بدأها به، فكأن سور القرآن حلقات ذهبية آخذ بعضها ببعض لشدة المناسبة التي بين أوائلها وأواخرها، وللمناسبة التي بين أواخر السور وأوائل التي تليها، ولذا كان رائعا وبليغا ومعجزا وما لبث الجن حين سمعته أن قالت : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ .... الآية ﴾ [الجن /١-٢]

يذكر الله تبارك وتعالى هنا جزاء المجاهدين في الله الصادقين الذين يخرجون من الفتن منتصرين لأن الله معهم وهو الذي هداهم وأعانهم وأمدهم بنور منه ، قال الله تعالى :

﴿ وَالذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

أي جاهدوا أنفسهم في المفاتن من أجل الله جاهدوا الأهواء والشهوات والشياطين ، شياطين الإنس والجن وما أكثر هذه الفتن التي يتعرض لها الإنسان

ولا يقوى عليها إلا المجاهدون المداومون للجهاد الأكبر ، فإذا علم الله من عبده صدق الجهاد هداه سبل السلام وأعانه على أمره ويسر له ما كان عسيرا ، فما على المؤمن إلا أن يتوكل على الله ويجاهد النفس في سبيله فإذا صدق عزمه جاءه العون من الله وهداه الله وجعل له نورا يمشي به ، ومكنه من سبل الخير والرشاد تمكينا ، وقد جاء هذا المعنى في غير موضع من كتاب الله منها ، قوله تعالى :﴿ وَالذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد/١٧] وقوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الذِينَ اهْتَدَواْ هُدًى ﴾ [مريم/٧٦] وقوله تعالى في خاتمة سورة النحل ﴿ إِنَ اللَّهَ مَعَ الذِينَ اتَّقَوْاْ وَالذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل/١٢٨] والإحسان جاء تفسيره في الحديث الصحيح « هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم لكن تراه فإنه يراك» فإذا أحسن العبد في العبادة أحسن الله جزاء ه في الدنيا والآخرة ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمان/٦٠] وقد علمنا تبارك وتعالى أن ندعوه بهذا الدعاء : ﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة/٢٠١] وقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ إِنَ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف/٥٦] ومعية الله تشمل كل معنى من معاني التأييد والحفظ والعون والإرشاد إلى حسن العواقب . قال موسى لما أشرف على البحر وأقتربت منه جنود فرعون وقال له قومه : ﴿ إِنَا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِي ﴾ [الشعراء/٦١-٦٢] فهداه الله ونصره ونجاه وأهلك عدوه ، قال تعالى :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيم وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَى ومَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الشعراء/ ٦٣-٦٦] وقال رسول الله، وخاتم النبيئين سيدنا محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين قال حين وقف أعداؤه على باب الغار الذي آوى إليه ، قال لصاحبه أبي بكر رضي الله

عنه وقد حزن وخاف عليه . قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة : ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة/ ٤٠] تلك معية الله التي إن اكتنفت ضعيفا لم تطقه الأقوياء

قوة الله إن تولت ضعيفا تعبت في مراسه الأقوياء

ومعية الله من ظفر بها كان يوم القيامة من السعداء نسأل الله أن يجعلنا من المحسنين الذين يكونون في معيته ، ويفوزون برضاه ، وينعمون بجواره في دار كرامته آمين والحمد لله رب العالمين .

تم تفسير سورة العنكبوت وبالله التوفيق

سورة
الـروم

تفسير سورة الروم وهي مكية وءاياتها ٦٠

أَلَمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ
بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ
مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ
ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥
وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦
يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ
غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ
وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ
كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ
مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ
عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ
بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ۝١١

السورة مكية والسورة المكية كما هو معلوم تعتني بالعقيدة وتركيزها في قلوب المؤمنين، ودعوة الناس إلى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، وإلى التأمل والتدبر في آيات الله في الكون وتقيم الحجج للناس ليعلموا صدق ما يأتي به الأنبياء والرسل ،وتسمى السورة باسم الروم ، والأسماء توقيفية وسميت بهذا الاسم لذكر الروم وما وقع لهم وما سوف يقع لهم من الغلبة بعد غلبهم وهو خبر غيبي يشهد أن الكلام كلام الله علام الغيوب ،وما محمد إلارسول مبلغ صادق أمين، وقد وقع ما أخبربه القرآن الكريم فى موعده ، وتفتتح السورة بالحروف المقطعة وعلم حقيقتها عند الله تعالى ،والذي سبق أن رجحناه من كلام المفسرين فيها أنها رموز إلى إعجاز القرآن الذي ألفه الله بنفس الحروف التي ينطق بها العرب في لغتهم بيد أنهم عجزوا جميعا أن يأتوا بسورة من مثله، ومن المفسرين من يقول إنها لتنبيه السامعين إلى أهمية ما سيقال بعدها ، وعدد السور التي افتتحت بهذه الحروف تسع وعشرون سورة منها ست وعشرون يذكر بعدها القرآن أو الكتاب المنزل ، ومنها ثلاث ذكر بعدها أمور مهمة عظيمة الأهمية ، سورة مريم ويذكر فيها المعجزة التي وقعت لنبيء الله زكريا بعد

إذ نادى ربه نداء خفيا فاستجاب الله له ووهب له يحيى وأصلح له زوجه ، وسورة العنكبوت التي ذكر الله في أولها ابتلاء الله تعالى لعبيده بأمانة التكليف حتى يعلم الصادقين من الكاذبين ، أي يظهر علمه فيهم بعد فتنتهم وامتحانهم حتى يجازي كلا بما يستحق بعد أن حسبوا أنهم لا يفتنون ، وهذه السورة التى يذكر الله في أولها خبرا هو من أخبار الغيب ليكون هذا الإخبار شاهدا على صدق الرسول ﷺ ، وليعلم الناس أن الكلام الذي يتلى عليهم حق وصدق وأنه من عند الله . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

بعد الحروف المقطعة فى أوائل السورة يخبر الله تبارك وتعالى بنبأ الروم ما وقع لهم وما سيقع بعد بضع سنين ، والروم أمة عظيمة لها دولة كبيرة يومئذ عاصمتها القسطنطينية وأمبراطوريتها تشمل بلاد الشام وأوروبا ، وهم مسيحيون نصارى كان وقع لها حرب مع دولة الفرس التى هي مثلها في العظمة والقوة وعاصمتها المدائن ، ولايزال إيوانهم بالقرب من بغداد وتشمل أمبراطوريتها العراق وإيران والجزيرة وخراسان وما والاها وظهرت آنذاك على الروم فغلبتها وفرحت قريش بغلبتها وتطاولوا على المسلمين بذلك لأن الفرس مجوس عباد النار ليسوا أهل كتاب ، فهم لا يؤمنون بالأنبياء والرسل ففرح أهل الشرك بدولتهم واعتبروها انتصارا للوثنية على أهل الكتاب فحزن المسلمون بذلك ، فبشرهم الله أن دولة المجوس ستدول وأن أهل الكتاب سينتصرون عليهم وسيغلبونهم في بضع سنين ، والبضع ما بين الثلاثة إلى التسعة وقوله تعالى : ﴿ فِي أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ .

قيل أدنى الأرض إلى بلاد العرب أي أقربها إليهم ، وقيل أدنى الأرض إلى أرض

العدو أي غلبت في معركة في أرضها المجاورة لأرض الفرس و لم يغلبوا فى سائر بلادهم، وفي هذا تخفيف لوقع الخبر على المسلمين ، ويريد الله بهذه الحروب بينهم أن يشغل بعضهم ببعض حتى لا يتوجهوا إلى المسلمين قبل أن يتقوى أمرهم وحتى يضعفهم فيغزوهم المسلمون فينتصروا عليهم ويفتحوا بلادهم ، ولله فى خلقهم شئون والله لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم . ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى : لله الأمر لا لغيره من قبل كل حادث ومن بعده ، و لم يضف لفظ قبل وبعد إلى مضاف حتى يؤذن ذلك بالعموم وليذهب الفكر المتأمل كل مذهب، والله على كل شيء قدير وبكل شيء محيط ، فغلبة الفرس على الروم كانت أيضا بأمر الله وقضائه وقدره ، والأمور كلها بيده ولاتجري إلا بما يريد سبحانه هو الواحد القهار. ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى : ويوم ينتصر الروم على الفرس ويغلبونهم يفرح المؤمنون بنصر الله الذي أنزله على أهل الكتاب ويعتبرون ذلك نصرا للدين على الوثنية ، وقد صدّق المؤمنون كلهم بهذا النبإ السارحتى أن أبا بكر رضي الله عنه راهن أبي بن خلف الجمحي بعشر نياق إلى ثلاث سنين وذلك لشدة تصديقه لوعد الله ، ولكن النبىء ﷺ أرشده إلى تمديد مدة الرهان لأن البضع ما بين الثلاث والتسع فماده الرهـان وزاد فى عدد النياق ورفعه الى مائة فربح أبو بكر رضي الله عنه الرهان بعد سبع سنين . قال الله تعالى :

﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

تذييل مناسب لوعد الله بنصرهم فيه إشارة إلى أن الله قادر على نصر المؤمنين على ضعفهم ، وما النصر إلامن عند الله وبمشيئة الله وهو العزيز الذى لا يغالب والذى لا يَذل من يُعز ولا يَعِزّ من يُذِل ولو كان قويا ، الرحيم الذى وسعت رحمته جميع خلقه

وسيكتبها يوم القيامة لأوليائه المتقين وما ضرهم يوم يرحمهم الله أن مسهم الضر في الدنيا ، فتعرضوا أيها الضعفاء لرحمة ربكم بالصبر والإحسان . ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف / ٥٦] . ثم قال الله تعالى :

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ يَعْلَمُون ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ .

وعد الله بالفتح أي وعد الله وعدا مؤكدا لايخلفه ، وأظهر الله مكان الإضمار حتى يقرر العقيدة فى قلوب المؤمنين أن الله لا يخلف وعده وأن الذين يخلفون وعودهم إما لضعف عن الوفاء وعجز وإما لظلم وكذب وإما لنسيان وإما لأنهم بدت لهم بدوات فى وعودهم فأبطلوها ، وربنا تبارك وتعالى منزه عن الخلف لأنه لا يضعف عن الوفاء ولا يفتقر ولا يعجز ولا ينسى ولا تبدوله البدوات فإذا وعد وفَّى به لميقاته المحدود فهو أحق أن نثق بوعده وأن نتوكل عليه ، وهو نعم المولى ونعم الوكيل .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

إن الله إذا حكم على الناس بحكم فهو يعدل فى حكمه ولا يعمهم بحكم إلا أن يستثني بعد ذلك فقال هنا أكثر الناس و لم يقل كلهم ، لأن من الناس من يعلم بما علمه الله ، وقد قرر هنا أربع قواعد يعلمها أولياء الله المؤمنون ويعتقدونها ولكن لا يعلمونها، القاعدة الأولى هي: ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ .

فالأمر لله كله قبل غلبة الدول وانتصارها وبعد أن تدول دولتها وتزول ، لا يقع شيء من ذلك إلا بأمر الله فهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

القاعدة الثانية: ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾ فالنصر بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

القاعدة الثالثة: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ العزيز الذي لا يغالب والذي ذلت لعزته جميع خلقه ، الرحيم الذى سبقت رحمته غضبه ورحمته شملت عبيده فى الدنيا واختصها لعباده المؤمنين في الآخرة وكذلك كان ابتلاؤه إياهم فى الدنيا رحمة لهم لينالوا درجات الصابرين عنــده يــوم القيامة.

القاعدة الرابعة: ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ .

إذا وعد الله وعدا فإن الله لايخلف الميعاد وما ينبغى لله أن يخلف وعده ، والله لا تبدوله البدوات .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق ، نفى عنهم العلم لغفلتهم على الآخرة وإعراضهم عنها كما سيذكر بعد ، ثم أثبت لهم نوعا من العلم وهو معرفة ظواهر من هذه الحياة الدنيا فقال تعالى :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ .

قال يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا و لم يقل يعلمون ظاهر الحياة الدنيا وهذه نكتة يجب أن نتنبه لها و« من » هذه تبعيضية فهم لا يعلمون من ظاهر الحياة الدنيا إلا أجزاء قليلة هي بمثابة القشور، وليس هذا حطا من قيمة العلم أوتزهيدا في طلبه إنما هو ذم للذين يقتصرون على هذه الظواهر ولا يتأملون فى لب العلم وهو الحكمة من خلق الله هذه الحياة الدنيا وجعل الإنسان خليفة فى الأرض مسلطا عليها وعلى من فيها وما سواه مسخر لخدمته، والحكمة من وراء هذا عظيمة سامية وهي أن الإنسان خلق لعبادة

ربه وسوف يجزى فى الآخرة على أعماله الجزاء الأوفى أما هؤلاء الناس الذين يذكرهم الله فيعلمون علم المعاش كيف يحصلون أرزاقهم من هذه الأرض وكيف ينتفعون بأنعامها وحيواناتها ونباتها ، وكيف يستخرجون معادنها وكيف يتزينون بزخارفها ويعلمون علم الفلك والطبيعة ، ويغوصون في البحار يستخرجون كنوزها ويتعلمون علم الطب لمعالجة الأبدان ، وكل هذا ظواهر من هذه الحياة الدنيا وسميت دنيا لدنوها أو لدناءتها ، ولا مانع من تعلم هذه العلوم بل ينبغي تعلمها لكن المحذور هو الاقتصارعليها والغفلة عن الآخرة ، والمحذور هو التمتع بالنعم والغفلة عن شكر المنعم فهم يظنون أنهم خلقوا عبثا ليتمتعوا فى هذه الدنيا ثم لا بعث ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب ، ما أبعد هذا الظن عن الصواب ، وتلك هي الغفلة التي وصفهم الله بها .

﴿ وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُون ﴾ .

ومن تأمل فى هذه الحياة الدنيا وتقلباتها علم أنها دار غرور وليست دار الحق ، وأنها دار مرور وليست دار بقاء واستقرار ، فالغفلة عن الآخرة وشدة الحرص وطول الأمل فى الدنيا هي التي صرفت العقول عن حكمة سر الحياة إلى الاغترار بظواهرها قال الله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية /٢٢] أثبت الله لهؤلاء الناس العلم ببعض ظاهر الحياة الدنيا فلم يفدهم ذلك شيئا مع الغفلة عن الاستعداد للآخرة وذلك ناشىء عن جهلهم بحكمة الخلق وسر الوجود وإعراضهم عن كلام الخالق ، ولو تدبروه لعلموا أنه الحق وأنه يهدي إلى صراط مستقيم . وفي هاتين الآيتين إنذار وتذكير ووعظ من الله تعالى لعباده المؤمنين أن لا تصرفهم زخارف الحياة الدنيا الفانية عن حقيقتها الحقيرة وغايتها

التي هي الفناء وليعلموا أنما هي دار ابتلاء وامتحان خلق الله فيها عباده ليعبدوه وليتزودوا منها لدار البقاء ، وفيها ذم الغفلة والغافلين عن الآخرة وأنهم لغفلتهم وإعراضهم عن الحق هالكون خاسرون ، ونعوذ بالله من الخسار والهلاك فى دار القرار.

ثم بعد هاتين الآيتين تأتي الآيات التالية تدعو إلى التفكر والنظر والاعتبار فى أنفسنا ، وفي هذا الكون العريض الذي هو كتاب من الله مفتوح لأولي الألباب ، قال الله تعالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمِ لَكَافِرُونَ أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

هذاالاستفام التعجبى موجه إلى هؤلاء الغافلين عن الآخرة إما لإنكارها وإما لغلبة شهواتهم عليهم ، فهم يؤمنون بها ولكن أعمالهم أعمال من لا يؤمن كما قال الشيخ أبو نصر الملوشائى النفوسى رحمه الله :

نرى الأمرعن علم اليقين تيقنا ونعمل أعمال الذي شك فى الأمر

وكذلك الذين لا يعلمون حكمة خلق السموات والأرض ولا يتفكرون فى أنفسهم تفكرا يهديهم إلى الرشد ، ينكر الله على هؤلاء جميعا ويدعوهم إلى التفكر

والنظر ليهتدوا إلى الرشد والسداد . يقول الله تبارك وتعالى : أعمي هؤلاء و لم يتفكروا فى أنفسهم ولو تفكروا لهداهم التفكر إلى العلم النافع الذي يدلهم على طريق السعادة فى الآخرة ، ولو رجعوا إلى أنفسهم واستعملوا أفكارهم لأدركوا الحق ولعلموا أنه ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، ولقد جاءتهم الأنباء الصادقة مع رسل الله وأنبيائه الأمناء .

﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى : إن كثير من الناس يكفرون بلقاء ربهم أي بالبعث بعد الموت للحساب والجزاء فهم يعيشون في هذه الحياة الدنيا كالأنعام لا يتفكرون فى خلق السموات والأرض ، وغاية مصيرهما ومصير من فيهما ولا يستمعون إلى أنبياء الله ورسله الذين ينذرونهم بلقاء الله فهم يكفرون إماكفر جحود وإماكفر نعمة وفسوق عن دين الله بأنواع المعاصي والفواحش يتبعون أهواء نفوسهم وتجتالهم الشياطين عن صراط الله المستقيم بعد أن بين لهم ربهم وأرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين ، أكد الله الخبر باللام ليبين لنا أن ضلالهم كان بعد إذ جاءهم الهدى ، وذلك منهم كفر لنعمة الله وأنهم استحبوا الكفر على الإيمان ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ومن كان كذلك فهو يستحق العقوبة وهو ظالم لنفسه وما ظلمه الله ، ويحذرنا الله تعالى من الكفر بنوعيه كفر الشرك والجحود وكفر النفاق والفسوق وما من حق الناس أن يكفروا بالله ربهم بعد أن خلقهم ورباهم وأنزل عليهم نعمه الظاهرة والباطنة ، واختار الله هنا كلمة الرب فقال بلقاء ربهم ليقيم الحجة على الناس الذين كفروا بلقاء ربهم بعد أن شهدوا آيات ربوبيته وتمتعوا بنعمه وعرفوا أنه الخالق الرازق المحيى المميت الفعال لما يريد .

يقيم الله الحجج على خلقه والبينات ، ويدعوهم إلى النظر فى آياته وإلى السير في الأرض والتأمل فى أطوار البشر فيها .

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يدعو الله الناس إلى السير فى هذه الأرض العريضة والنظر فيها وفي سكانها نظر اعتبار واستبصار، يقول تعالى : أعمي هؤلاء الكافرون و لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم وهلكوا بذنوبهم ، لقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا وأطول أعمارا وأثاروا الأرض وعمروها أي بالحرث والزراعة والحفر لا ستخراج الكنوز والمعادن، وعمروها بتشييد البناء وشق الطرق والترع وحفر الآبار والعيون ، واستجلاب البضائع والأرزاق ، والاستيلاء على العباد وتسخيرهم في الخدمات ، لقد عمروها أكثر مما عمرها هؤلاء الكفار من قريش ، وفي هذا تهكم بهم أنهم لم يفعلوا شيئا من عمارة الأرض ونظام الملك فبم يفخرون ؟ ! وأنى يستطيلون عليك يا محمد وهم ضعفاء فى أرض قفرة ليست بذات زرع ، لقد كان اللائق بأمثالهم أن يسارعوا إلى الإيمان بالله الذي مكنهم من حرم آمن و يتخطف الناس من حولهم ، لقد كان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الايمان بالرسول الذي بعثه الله منهم وجاءهم بالكتاب الذي فيه ذكرهم وفخرهم وعزهم ، ولكنهم أعماهم الكبر وحب تقليد الآباء واتباع الأهواء ، ولو ساروا فى مناكب الأرض ونظروا فى آثار الذين كانوا من قبلهم نظر اعتبار ونظروا فى عواقبهم لأ غنتهم العبر واستفادوا علما ينفعهم ، وعقلا

يردعهم، لقد ملئت هذه الأرض بالآثار الناطقة عن قوافل البشر التى مرت عليها وأثرت فيها عبر العشرات من القرون ، ولا يزال العلماء الباحثون فى آثار الماضي حيارى فى عظمة آثارهم ومتانة بنيانهم وشدة تمكنهم من عمارة الأرض واستخراج خيراتها ومعادنها ، وكيف سخروا الآلاف من شعوبهم فى البناء والحفر ورفع الأثقال وزراعة الأرض ، عندما ينظر الإنسان إلى هذه الآثار يذهب الفكر مذاهب يقول : أين هؤلاء الأقوياء الأجسام ، الطوال الأعمار ، الممكنون فى الأرض ؟ كيف ذهبوا وتركوها وبادوا وهلكوا وخربت ديارهم وبقيت آثارهم تدل عليهم ؟ وأين ذرياتهم وكيف بادوا و لم يعقبوا أسلافهم فى أرضهم وديارهم أم أين ذهبوا ؟ أين حضارة اليونان والرومان ؟ وأين حضارة البابليين والأشوريين وقدماء المصريين والفينيقيين ؟

أين عاد أقوياء الأجسام ؟ وأين ثمود الذين جابوا الصخر بالوادى ونحتوا من الجبال بيوتا واتخذوا من سهول الأرض قصورا ؟ وأين فرعون ذو الأوتاد الذي بنى وشاد واستعبد العباد واستعمر البلاد ؟ وأين الفراعنة من قبله ومن بعده ؟ كل هؤلاء وغيرهم جاءتهم رسلهم بالبينات فصد أكثرهم عن سبيل الله وكذبوا برسل الله فأهلكهم الله بأنواع الهلاك والدمار ولما جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

ينفي الله تعالى عن نفسه الظلم نفي الشأن أي ما كان من شأنه ظلم عباده ما كان ليهلك أمة حتى يبعث فى أمها رسولا ينذرهم ويصابرهم مدة حتى إذا لم يعد ينفعهم الإنذار وعلم الله منهم الإصرار جاءهم الهلاك والدمار وما ظلمهم الله حينئذ ولكن

كانوا أنفسهم يظلمون ، ورجع ظلمهم وكفرهم على أنفسهم ، وفى هذا الكلام إعذار من الله للناس وفيه إنذار للظالمين أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء الذين لم يغن عنهم قوة بأسهم ولا كثرة عددهم ولا أموالهم شيئا لما جاء أمر ربك و لم تغن عنهم أوثانهم وآلهتهم شيئا لما كذبوا بآيات الله البينات .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ أَسَاءُواْ السُّوأَى أن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى ثم كانت العاقبة السيئة جزاء الذين أساءوا بكفرهم بالله وتكذيبهم رسل الله الذين جاءوهم بآيات الله البينات واستهتارهم بأوامر الله واستهزائهم بآيات الله ، وتلك عاقبة المستهزئين بالحق وأهل الحق فى كل زمان ، ولن يفلتوا من قبضة الله ولن ينجوا من عذابه وهو نازل بهم وبأمثالهم إن لم ينتهوا من تكذيبهم واستهزائهم برسل الله وأقبح ما ينتهي إليه الكفار الاستهزاء والسخرية بآيات الله البينات وبرسله ، إنهم يستهزئون وما يدرون أن الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ، وتأتي عاقبة السوأى فى هذه الآية مقابلة إساءتهم جزاء وفاقا كما جاءت الحسنى عاقبة المحسنين فى قوله تبارك وتعالى فى سورة يونس ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس/٢٦] ويأتي ذكر الزيادة فى الحسنى ولا يأتي فى السوأى إلى مثلها لأن ربنا عادل يمن بالرحمة من فضله ولا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما والتكذيب بآيات الله الذي كان سببا فى العاقبة السوأى على نوعين نوع منه هو التكذيب بالإنكار والجحود والاستهزاء وهو الأشد ، ونوع يكون بالأفعال السيئة والانحراف بها عن الأقوال ، قال الله تعالى فى سورة الصف . ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف/٣] والسوأى مؤنث

أسوأ كما أن الحسنى مؤنث أحسن فعاقبتهم إذن أسوأ العواقب كما أن عاقبة المحسنين أحسن العواقب فليس كعقاب الله عقاب وليس كثواب الله ثواب ،وفي آيات الله تعالى موعظة للمتقين.

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

حكم عام وصارم وحق يحكمه الله تبارك وتعالى يبين فيه ثلاثة شئون من شأن الله وحده لا يشاركه فيه أحد أولا : بدء الخلق ، ثانيا: إعادته بعد الموت والفناء ، ثالثا: حشر الناس ورجوعهم إلى ربهم للحساب والجزاء لا يفلت منهم أحد ، فإن قال قائل: كيف يعيد الله الخلق بعد أن رمت العظام واختلطت بالتراب وامتصتها الأشجار وذرتها الرياح ؟ فالجواب سهل وبسيط جاء في القرآن الكريم :﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء/٥١] قال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء/١٠٤] والإعادة أهون ولكن يستوي في قدرة الله الخلق والإعادة وهو الخلاق العليم ، وقضية البدء والإعادة تتجدد دائما في جميع الأجسام تفنى منها ذرات وتتجدد في كل لحظة والله هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وكل من ينظر إلى الخليقة نظر اعتبار وتأمل يدرك هذا، وهو ما يقرره علماء الطبيعة وعلم الأحياء ،بعد أن اطلعوا على تجدد الخلايا في جميع الأجسام ، ويقر الله هذه الحقيقة بنون العظمة ليدل الكلام على كمال قدرة الله على ذلك ، وأن الأمور كلها منقادة له خاضعة لأمره وسلطانه له الملك وله الأمر ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هكذا يقرر الله حقيقة البعث بعد الموت والرجوع إلى الله بهذه الكلمة الموجزة المحكمة الدالة على المقصود دلالة واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، ويأتي التعبير ببناء الفعل للمفعول ليفيد أن هذا الرجوع بأمر

الله وحكمه لا إرادة لنا فيه ولا اختيار ، فهو رجوع إجباري شامل لجميع الإنس والجن لا يشذ منهم أحد وما أضعفهم يومئذ ، وقد تجرد أهل السلطة والملك من ملكهم وافتقر الأغنياء وذل الأعزاء وخضعت الرقاب وخشعت الأصوات ، وعنت الوجوه للحي القيوم ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر/١٦] لقد اغتر الناس في الدنيا بما مكنهم الله من الحرية والاختيار فهم يظنون أنهم على قدرة من أمرهم ، يقول الواحد :أريد وأريد وأفعل وأترك وأعطي من أشاء وأمنع وما يدري أن الأمر كله لله، ويوم القيامة يأتون مجردين من كل إرادة وحول، والأمر يومئذ لله ، يعلم ذلك البر والفاجر ويومئذ يؤمن الكافر يوم لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ، يقرر الله حكم الرجوع للحساب ليستعد المؤمنون لذلك اليوم قبل مجيئه وليطمئن المستضعفون من المؤمنين إلى عدالة الله في اليوم الحق الذي يأخذ فيه للمظلوم من الظالم ، ولا يضيع فيه أجر الصابرين المحسنين. فإلى الله وحده يرجع الناس ليجزي كل نفس بما كسبت ومن أراد الله به خيرا فهو يستعد لذلك اليوم بالإيمان والعمل الصالح والتوبة من الذنوب، واجتناب الظلم جليله ودقيقه والظلم ظلمات يوم القيامة، وقد خاب من حمل ظلما، وما قوَّم سلوك المؤمن مثل الإيمان بيوم البعث والنشور والرجوع إلى الله ، فلا يزال ذلك الإيمان ينهاه عن الغي ويأخذ بيده إلى ما فيه نجاته وفوزه يوم الرجوع إلى الله ، أما من كفر بذلك اليوم فهو سادر في غيه سالك سبيل الشيطان حتى يأتيه الأجل المحتوم فيومئذ ييأس من كل خيرولا تنفعه شفاعة الشافعين .

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ۝١٢ وَلَمْ
يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ۝١٣
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ
فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾

يقول الله تبارك وتعالى ويوم تقوم الساعة أي ساعة البعث والحشر بعد فناء هذه الدنيا ومن فيها يومئذ يبلس المجرمون ، والإبلاس هو اليأس الذي فيه الحيرة والحزن والحسرات لا اليأس الذي فيه راحة القلب فإن الإنسان ربما يلح في طلب الشيء ثم ييأس من تحصيله فيرتاح من التعب الذي كان فيه وينفض يديه ، والعرب تقول : اليأس أحد النجحين ، وهذا حق إذا كان الشيء الذي طلبته ثم أيست منه ليس ضروريا ولا تتوقف عليه حياتك أو حياة من يعز عليك فقده ، فقد تطلب مثلا تزوج امرأة، أوشراء دار أوحانوت أومتاع ثم يفوتك وتيأس منه فترتاح من الأتعاب والمصاريف وهذا أحد النجحين ، أما يأس الكفار يوم القيامة من النجاة وإيقانهم بالعذاب المؤبد فهو إبلاس .

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

والمجرمون على نوعين : مجرمون بالانحراف في العقيدة كالشرك بأنواعه

والنفاق الكبير، ومجرمون بالانحراف في الأعمال بارتكاب الكبائر والإصرار عليها وبتضييع الفرائض وإتيان المآثم والمظالم فهؤلاء أيضا مجرمون يحق عليهم العذاب وييأسون من النجاة يومئذ فهم مبلسون. ثم قال تعالى :

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُواْ بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ .

نادوا شركاءهم الذين عبدوهم من دون الله يومئذ ليشفعوا لهم فلم يستجيبوا لهم وكفروا بشركهم فلم يكن لهم منهم شفعاء كما كانوا يظنون ويزعمون ، وكان لهم أيضا شركاء في كفرهم وإجرامهم يتبعونهم ويقولون لهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وتعلقوا بالخيوط العنكبوتية فلما رأوا العذاب تقطعت بهم الأسباب وتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وكفر كل فريق بآخر ولعن بعضهم بعضا و لم يغن عنهم ذلك من الله شيئا، تلك هي عاقبة المجرمين وما أسوأها عاقبة يصيرون إليها وبئس المصير. ثم قال تبارك وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ .

تكرر الكلمة .

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ .

وليس فى المعنى تكرار لأن الكلمة الأولى جاءت لتدل على عاقبة المجرمين خاصة وما يجري لهم من الخزي والندامة ، وهنا تجيء الكلمة لتدل على مصير الناس عامة وتفرقهم إلى شقي وسعيد ومصير كل من الفريقين ، فلكل من الكلمتين مدلولها ووقعها .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ .

تكرر كلمة اليوم لأهمية ذلك اليوم وشدة هوله يومئذ يتفرق الناس ويمتاز فريق عن فريق وشتان بين الفريقين .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ .

وتصدر الجملتان بأمّا لرهبة الموقف وعظم الفرق بين الفريقين فأما الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وآمنوا بما يجب الايمان به إيمانا صادقا وعملوا الأعمال الصالحات التي هي ثمرة الايمان الصادق ،ولا يتم إلا بها والمؤمنون المتقون يجمعون بين الايمان والعمل الصالح .

﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ .

إنهم يوم القيامة في روضات الجنات والروضة هي الجنة التى فيها المياه فلا تيبس أنهارها ولا تنقطع ثمارها فهي ذات منظررائق وأريج عطر فائق ، وظل ممدود وثمار كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، تلك هي الروضة التى هي مثوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،وفيها قصور وخيام عامرة بالحور المقصورات القاصرات الطرف،وفيها من النعيم مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهم فيها يحبرون، والحبور هو السرور مع الشعور باللذة ، لهم فيها ما تشتهي أنفسهم وهم فيها خالدون، فهم ينعمون بأنواع الحبور والملذات والنعيم .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى : وأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ بالله ورسله وكذبوا بآياتنا البينات

وكفروا بلقاء الله فى الآخرة و لم يؤمنوا بلقاء جزاء أعمالهم فيها فأولئك محضرون فى العذاب الأليم ولكلمة محضرون وقع شديد فى النفوس فهي تدل على أنهم يجرون ويسحبون فى السلاسل ويلقون فى العذاب صاغرين مدفوعين لا يفلت منهم أحد ، كل هذه المعاني توحي بها الكلمة، وجاءت كلمة أولئك فى جملة الخبر وهى إشارة للبعيد لبعدهم ودنو منزلتهم وخستها ولإبراز جملة الخبر في مدلولها الفظيع ليكون أشد تأثيرا في نفوس السامعين له وقعه الخاص ،وفى مقابلة هاتين الجملتين روعة في بلاغة التعبير تقشعر منها جلود الذين يخشون ربهم وينتفعون بالذكرى ،وفيهما ترهيب ووعيد شديد للكافرين وإنذار بسوء المصير إن استمروا في كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ولقاء الآخرة، والعذاب مصير كل كافر ومكذب بالعقيدة أو بارتكاب المعاصي والمخالفات مع الإصرار والتمادي على الكبائر وكل ذلك كفر وتكذيب بلقاء الآخرة .

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا
وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ
مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ
تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ

أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ
خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم
بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا
رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

بعد هذه الحقائق التى قررتها الآيات السابقة من شئون يوم القيامة وافتراق الناس فيه إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، والآيات التى قبلها فى بيان عواقب المكذبين الذين كفروا بلقاء الله وكانوا بآياته يستهزئون ، بعد هذا كله يأتي الأمر بالتسبيح لله وحمده وأنه الذي يحمده أهل السماوات والأرض يأتي الأمر مربوطا بالفاء التي هي للتعليل أي فإذا كان الأمر كما علمت فسبح بحمد ربك واتخذه وكيلا وصل له واعبده ولا تكن من الغافلين .

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ .

فسبحوا الله تسبيحه الذي يليق به وقدسوه واذكروه في كل صباح وكل مساء،وجاءت العبارة بصيغة الفعل لأن الإنسان إذا أمسى ينتقل من حال إلى حال ، وكذلك إذا أصبح ، فهو إذا أمسى يرجع إلى وكره بعد أن أنهكه تعب النهار، فيحتاج إلى الراحة والنوم ليسترد ما فقده في ساعات الكدح الطوال فيستسلم للنوم العميق ، والنوم هو الموت الأصغر ولا يدري كيف تكون حاله بعد هذه النومة الطويلة ، ولعل

روحه حين يسلمها لباريها يقبضها ولا ترجع أليس الله يقول ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالتي لَمْ تَمُتْ في مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرسِلُ الأُخْرَى إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر /٤٢] فكان ينبغي للإنسان المؤمن بربه قبل أن يستسلم لهذا الموت الأصغر وما يدري لعله الموت الأخير أن يسبح ربه ويحمده ويؤدي له الصلاة ، وعند الإمساء يتجدد حال الكون إذ يخرج من نور النهار الساطع شيئا فشيئا ويخيم ظلام الليل الدامس، ولا أحد يستطيع أن يدفع هذا الظلام فهو من سلطان الله، وفي مشاهدة هذا التحول ينبغي للمؤمن أن يسبح ربه ويصلي له ويحمده،وهو أهل للحمد في السموات والأرض ، وكذلك في الصباح عند تجدد حال الكون عندما يسلخ ثوب الليل ويلبس ثوب النهار المشرق عندما يظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ينبغي للمؤمن أن يسبح الله ويحمده ويصلي له وقد هب من نومه وزاده الله يوما جديدا في عمره وهو عازم أن يدخل معترك الحياة ليكدح في طلب الرزق أو ليضرب في الأرض يجب عليه قبل الشروع في العمل أن يسبح الله ربه ويحمده ويصلي له، وهذان الوقتان علامتان على حضور وقت الصلاة الأول للمغرب فالعشاء والثاني لصلاة الصبح ثم يأتي بقية الصلوات في قوله تعالى :

﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ في السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِياً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ .

القرآن بطريقته الحكيمة المعروفة يقحم بعض الكلمات في وسط الكلام على موضوع من المواضيع فيها موعظة وذكرى، وهنا في أثناء الأمر بالتسبيح الذي هو إشارة إلى مواقيت الصلوات بين اليوم والليلة يقول الله تبارك وتعالى :

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ .

يثبت الله الحمد المطلق لنفسه وهو أهل للحمد والثناء الحسن الجميل ، وفي هذه الجملة المعترضة فوائد كثيرة منها فائدتان نذكرهما ، أولا : يبين الله فيها مكان الحمد بعد تبيين الزمان فكأنه يقول إحمدوه في كل زمان ومكان وجدتم فيه ، في البر والبحر والجو كما يحمده أهل السموات في السموات السبع ويحمده الذين يحملون العرش ومن حولهم ، الفائدة الثانية : يقول الله إن الله غني عنكم فهو المحمود فى السماوات ولكن حمدكم يرجع إليكم فهو لأنفسكم ولن يزيد فى ملكه شيئا كما أن معصية العصاة لا تنقص من ملكه شيئا وسيجزي الله الحامدين الشاكرين لله خير جزاء ، فسبحان الله والحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه. ثم يقول تعالى :

﴿وَعَشِياً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ .

أي وسبحوهُ عشيا ، والعشي وقت صلاة العصر حين يبدأ نور الشمس يضعف وتميل الشمس إلى مغربها ، وحين تظهرون أي حين تدخلون فى وقت الظهيرة وهو بعد زوال الشمس وفيء الظل، وحينئذ يرجع الناس إلى بيوتهم بعد أن أمضوا صدْر النهار فى كدحهم وأعمالهم يرجع الفلاح من حقله ونخله ، ويرجع التاجر من تجارته والموظف من وظيفته ، فينبغي للمؤمن حينئذ أن يسبح الله ويحمده ويصلي له ويشكره وقد أعانه على عمله وحفظه في عقله ودينه ودنياه ، وتلك هي صلاة الظهر يؤديها العبد لربه تعالى ، فتلك خمس صلوات بين اليوم والليلة من جاء بهن تامة لم يضيع شيئا من حقهن استخفافا بهن فله عند الله أن يدخله الجنة ، نسأل الله تبارك وتعالى أن يعيننا على المحافظة عليهن ويتقبلهن منا ويغفرلنا تقصيرنا فيها وغفلة قلوبنا آمين .

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

يلفتنا الله تبارك وتعالى في هذه الآية إلى قضية خلق الحياة في الأموات وإماته الأحياء وإخراج الواحد من الآخر، وهي قضية تتجدد في كل وقت وفي كل مكان ونشاهدها في جميع الأشياء في الحيوان وفي النبات وفي البر والبحر وفي أنفسنا ، يخرج الله الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها، وإحياء الأرض يكون إذا أنزل الله عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، وقد كانت بذور النبات مختلطة بتراب الأرض لا ترى ولا تعرف لدقتها حتى إذا نزل المطر فلقها فالق الحب والنوى عن نبات تحمل كل نبتة منه خصائص بذورها فكذلك يكون بعث الأجسام بعد فنائها واختلاط رفاتها بالتراب قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أي وكذلك يكون خروجكم يوم البعث والنشور من قبوركم كما ينبت النبات من البذور التي ضلت في التراب وقد روي في الحديث أن جسم ابن ادم يفنى كله إلا عجم الذنب فمنه يبعث ، فمن استبعد قضية البعث فلينظر إلى خروج نبات الأرض من بذوره والقادر على الخلق الأول هو القادر على إعادته والله على كل شيء قدير .

﴿ وَمِنَ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ .

لله تبارك وتعالى في هذه الأكوان آيات كثيرة ومن آياته الكبرى هذه الآيات التي في أنفسنا في تكويننا وخلقه إيانا أطوارا ، والآية هي العلامة الكبرى الدالة على وجود الخالق وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته ، يقول الله تعالى ومن آياته التي تهديكم إليه خلقه إياكم من تراب الأرض ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، وفي قوله ﴿ ثُمَّ ﴾ إرشاد لنا إلى

تأمل الأطوار التى يتطورها الإنسان من خلقه الأول حتى يصير بشرا سويا يدب على الأرض يدب عليها ويبطش ويعمل بإرادته .

﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ .

ثم إذا أنتم أعداد ضخمة وناس كثيرون تنتشرون في مناكب الأرض تملئون الدنيا وتسخرون ما فيها من الحيوانات والأشجار والنبات ،وتبنون وتحفرون وتصنعون وتركبون السفن التي تمخر البحار والأجواء، كل هذا وأصلكم الأول من تراب الأرض وإلى تراب الأرض تعودون ومن ترابها تتغذون تتكون أجسامكم الترابية ،وأبوكم الأول آدم مخلوق من تراب فتناسلت منه الملايين والملايين، ولا تزال الخليقة تزداد يوما بعد يوم ،أليس فى تأمل هذه الآية الكبرى ما يدعو إلى تسبيح الله وحمده وعبادته وحده سبحان ربنا الخلاق العليم . ومن تأمل فى أطوار هذا البشر رأى من آيات الله الكبرى عجبا وفي ذلك ما يدعو إلى الايمان ويزيد إيمان المؤمن تمكنا ورسوخا فى قلبه ومن أحب الله أحب أن يطلع على آياته فيزداد له عبادة وبه تعلقا . وقد جرى العمل عندنا فى مساجدنا أن الأيمة يتلون هذه الآيات بعد صلاة الصبح لأنه ورد فى الحديث أن من قرأ .

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ .

إلى قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قرأها فى الصباح عوضه الله ما فاته من العبادة في الليل ومن قرأها فى المساء عرضه الله ما فاته من العبادة في النهار أي من نوافل العبادات أما الفرائض فلا يعوضها شيء وفى الحديث القدسى : «ما تقرب إلي عبدى بمثل ما افترضته عليه ». وأيمتنا يزيدون هذه الآية من كتاب الله وفي زيادتها خير،

نسأل الله تعالى أن يتقبل منا ومنهم ما تلوناه من الآيات والذكر الحكيم .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى : ومن آيات الله التي ينبغي أن تتفكروا فيها أن الله خلق لكم من أنفسكم أزواجا أي من جنسكم لتسكنوا إليها ، فأنتم متحدون جنسا مختلفون نوعا ولكن الاختلاف ، لم يكن أبداسببا للنفور بل كان سببا للسكون النفسي ، ولايجد الإنسان هذا السكون مع امرأة أخرى إلامع زوجه ، وقد يدخل الإنسان بيته وهو مضطرب النفس بسبب ما يلقاه خارج البيت من المشاكل والأتعاب فإذا دخل بيته ووجد فيه امرأته المؤمنة الصالحة فإن نفسه تسكن وينسى ما كان خارج البيت من الهموم ، وتلك نعمة كبرى من نعم الله علينا وآية من آيات الله ، نوعان من جنس واحد لكن بينهما فروق غير أن أحدهما يسكن إلى الآخر ويطمئن إليه وهذا موضع التفكر والتدبر والاعتبار. ثم قال تعالى :

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ .

وليست المودة هي الحب ، بل الحب ميل قلبي إلى المحبوب لا دخل للكسب فيه ولايملك له زيادة ولا نقصا وقد يكون فى الحلال وقد يكون فى الحرام أما المودة فلا تكون إلى مع الأزواج الحلال ،وهي ميل قلبي عميق يكتسبه الإنسان وينميه بعقله وقديما قالوا : نصف العقل التودد إلى الناس ، فالرجل يتودد إلى امرأته وكذا المرأة تتودد إلى زوجها ، ويجدان هذه المودة من أول يوم ثم ينميانها بأفعالهما ،وفي الآية إرشاد إلى إرساء أركان البيوت على دعائم المودة الخالصة وهذا لاينافي الجعل لأن الله هو

الذي جعل لنا فى هذا الزواج المشروع مودة وجعل لنا الاستعداد لتنمية هذه المودة في قلوبنا وهذا كقوله تعالى﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ ازْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل /٧٢] وهذا الجعل لابد له من سبب من عندنا ثم إن الله تعالى يكمل المسببات التي تنتج عن هذه الأسباب، وهو القادر على أن يخلقها بدون أسباب ولكن حكمته اقتضت أن يجعل للأشياء أسبابا والكل من عند الله ، والأسباب منه خلق ومنا اكتساب ،وأحسن ما تنمو به هذه المودة حسن العشرة وصفاء القلوب وحسن الأخـــلاق المتبادلـة بين الزوجين وكثيرا ما يتفوق أحدهما على الآخر في هذه الأشياء فيكسب مودة صاحبه وتتأصل شجرة المودة بينهما وتضرب عروقها في قلبيهما فتدوم العشرة بينهما ولا يفرق بينهما إلا الموت، وحتى الموت لا يفرق بينهما إذا بنيت مودتهما على تقوى من الله ورضوان ، ولا ينبغي لمشاكل الحياة أن تأتي على مودة الزوجين فتكون سببا للشقاق والفراق كما يقع لبعض الشباب الذين لا يفقهون معنى العشرة الزوجية ولا يراعون للمودة حقها فتراهم يسارعون إلى الفراق لأسباب تافهة، وقد يقع هذا من الزوج وقد يقع من جانب الزوجة وهذا من أبغض الحلال إلى الله ،وكان ينبغي لهما الصبر والتحمل ولا تكون عاقبة الصبر إلا الحسنى ، قال اللـه تبـارك وتعـالى : ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيرًا ﴾ [النساء/١٩] و لم يقل وإن كرهتموهن ففارقوهن وكذلك يقال للمرأة ، تصبر على عشرة زوجها ولو ساءت أخلاقه فإن لها فى ذلك أجراً عند الله وعاقبة حسنة ، إن حق أحدهما على الآخر لعظيم ،وإن الإخلاص فى المودة هو ملاك العلاقة الزوجية ، إن حسن العشرة سُداها، المودة ولحمتها الرحمة ولذا جمعتهما الآية فى نسق ، قال تعالى :

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ .

والرحمة هى رقة القلب وعطفه على المرحوم هذا منًا أما من الله تعالى فإرادة الخير واليسر بالمرحوم ،جعل الله فى قلب كل من الزوجين رحمة نحو صاحبه وهذه الرحمة تتحرك وتقوى إذا أصيب أحد الزوجين بضعف أو مرض أو شيخوخة أو آفة من الآفات ، فحينئذ يرحمه زوجه ويخلص فى خدمته وجبر كسره ولا يألوجهدا فى النصح له ولو تكلف ذلك عناء طويلا، وهذا المعنى لا يكون إلابين زوجين تعاقداً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ عقدا صحيحا ليس فيه خلل ولا مخالفة ولا اعوجاج ، فما أعظم مدلول هاتين الكلمتين ﴿ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ ولابد بهما معاحتى يكمل معنى الزواج الحلال وتتم نعمة الله على الزوجين ، وإذا رزقهما الله أولادا فإنهم إن نشأوا فى كنف مودة والديهما ورحمتهما نبتت فى نفوسهما كل معاني الخير والرحمة وسعدوا وسعدبهما الجميع ،ومن رحمة الوالدين بأولادهما أن يجنباهما عذاب الناروذلك بتنشئتهما على الاستقامة والتقوى والصلاح، يرحم الوالدان ولدهما من نار الدنيا وهلاكها فلأن يرحمهما من نارالآخرة وعذابها من باب أولى قال الله تبارك وتعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ﴾ [التحريم/٦] فالأولاد أفلاذ أكباد الأبوين وهي معقد المودة والرحمة بينهما ، وعندما يتعاشر الزوجان بالمودة تسري هذه الروح إلى أولادهما فينشؤون نشأة سليمة فيها سعادتهما وسعادة المجتمع ، وبالمودة والرحمة يدوم سكون أحد الزوجين لصاحبه حتى في حال الضعف والشيخوخة أو المرض وزوال معالم الصحة والجمال ،وفى تدبر هذه الآية ما يزيد إيمان المؤمن بربه وليس كالتفكر غذاء للايمان يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِّقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

في هذه الآية يبدأ الله تعالى بذكر أشياء يقول هي من آيات الله ثم يختمها بقوله:

﴿ إِنَ فِي ذَالِكَ لأَيَاتٍ لِّقَومٍ يَتفَكَّرُونَ ﴾ .

ويؤكد الجملة ويجمع الآيات ففيما تقدم من خلق الأزواج من أنفسنا وفي سكون الزوج إلى زوجه، وفي جعل الله المودة والرحمة بينهما آيات للمتفكرين هي نعم من الله علينا وآيات كبرى تدل على وجود الله وقدرته ورحمته وحكمته وأنه الفعال لما يريد وتأتي العبارات كلها بلفظ الأزواج في هذه الآية وغيرها من الآيات ، يقول الله تعالى في سورة النساء في أولها ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ الذِي خَلَقَكُمْ مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء/١] ويقول تعالى في سورة الأعراف ﴿ هُوَ الذِي خَلَقَكُمْ مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف/١٨٩] ويقول في سورة المؤمنون ﴿وَالذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَو مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون /٥-٦]في أمثالها من الآيات الكثيرة من كتاب الله تعالى وأرى في هذا التعبير سرا من أسرار البلاغة في القرآن وذلك ليشعرنا أن أحدهما مكمل للآخر ، الرجل مكمل للمرأة التي هي زوجه والمرأة مكملة للرجل الذي هو زوجها هذا ما نستوحيه من هذا التعبير القرآني لأن الزوجين من كل شيء متكاملان ومتى خلاأحد الزوجين من الآخر فلا ينفع إلا نفعا ضئيلا ، ونرى في المواضع الذي ينقص فيها سكون أحد الزوجين لصاحبه يأتي التعبير بغير لفظ الزوج ، ففي سورة التحريم مثلا نرى قوله تعالى : ﴿ امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم/١٠] ولا يشذ عن هذا التعبير إلا قوله تعالى في سورة هود في

شأن سيدنا إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة حيث يقول تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴾ [هود/٧١] ولابد أن يكون هنا سر تقتضيه حكمة الله في هذا التعبيرِ والزواج رباط مقدس وميثاق غليظ فيه آيات للمتفكرين ، وهو نعمة كبرى للشاكرين ينبغي المحافظة عليه ولا يجوز التسبب في حل هذا الرباط إلا عند الضرورة القصوى وعند الخوف ألا يقيما حدود الله لو بقيا معا وآخر الدواء الكي، وهذا لا يكون حينئذ إلا بطلب من أحد الزوجين لا من غيرهما، وويل لمن يسعى في التفريق بين زوجين متوادين بأي سبب من أسباب المكر بعمل أوكلام أو سحر ، ونعوذ بالله من شر السواحر والنفاثات في العقد، ومن فعل هذا من النساء أو الرجال فليتب إلى الله وليلتمس لنفسه مخرجا من خطيئته ، والذي ينبغي للعقلاء أن يسعوا في الإصلاح والتوفيق بين الزوجين متى وقع بينهما شقاق كما أرشدنا الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول في سورة النساء ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنَ اَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنَ اَهْلِهَا إِن يُّرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيرًا﴾ [النساء/٣٥] وإن خفنا أن لا يقيما حدود الله و لم يبق في قوس الصبر منزع و لم يكن بد من الفراق فليكن فراق بمعروف وتسريح بإحسان ولا يجوز المكر والكيد لا من الزوج ولا من جانب الزوجة ، قال الله تعالى ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[البقرة /٢٢٩] وليكن مع الطلاق إمتاع للمرأة المطلقة جبرا لخاطرها كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة/٢٤١]وهذا ما يقيه الإحسان مع المودة والرحمة بين الزوجين وإن كان بينهما أولاد فلا بد بواجب النفقة على الزوج وإن كانوا في حضانة أمهم ، وإن رغب الزوج في رد العلاقات بينه وبين زوجه وقد انقضت العدة فلا حق لنا في

المعارضة والعضل متى رضيت الزوجة بالرجوع وذلك بعقد جديد ، قال تعالى :﴿ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾[البقرة / ٢٣٢] كل ذلك حفاظا على رباط المودة والرحمة أو وصلاً لما تصرم من حبلها ورأبا لما تشعب من صدعها وترميماً لبنيان أسرة مسلمة، وليست البيوت تبنى على المحبة الغريزية الجنسية ولكن البيوت تبنى على المودة الصادقة والأخلاق والرحمة، وفي تأمل هذه المودة والرحمة بين الزوجين آيات لقوم يتفكرون ويعتبرون ،والقصد من التفكر في هذه الآيات تغذية الإيمان وشكر نعمة الله وتزكية هذه المودة والرحمة بين الزوجين وتنميتها وتقويتها من كلا الطرفين ومن أهل الزوج وأهل الزوجة ومن كل من يضمر نصحاً لهما والله لا يضيع أجر المحسنين .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ .

كلمات قليلة تتضمنها آية قصيرة ولكنها شاملة واسعة المعاني وهي بحر عميق لا ساحل له لمن ينظر إلى هذا الكون العظيم نظرة اعتبار بقلب شهيد ، وكم في هذا الكون علويه وسفليه من آيات الله فهو كتاب مفتوح تجول فيه البصائر المفتحة وترجع بكنوز وأسرار لا ينتهي العجب منها، ومن جملة تلك الآيات خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتنا وألواننا ، افتح بصرك وانظر إلى السماء كيف رفعت ، وانظر إلى شمسها وقمرها ونجومها وكواكبها وأفلاكها وبروجها ، وكيف تسبح فيها النجوم والكواكب بنظام دقيق به نعلم عدد السنين والحساب ، وفي أشعة الشمس والقمر والنجوم منافع للإنسان والنبات والحيوان والبحار وأحواتها وحتى الجماد ، فمن خلق السماوات ورفعها بغير عمد ، وسير أفلاكها ونور نجومها ،وجعل الشمس سراجا

والقمر نوراً وخلق الظلمات والنور وجعلهما يتعاقبان في حساب دقيق ، وجعل تعاقب الليل والنهار يقرب كل بعيد ويقرب كل موعود ؟ أليس هو الله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور !أليس هو الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها! أليس في خلق السماوات آيات للعالمين تدل على وجود الخالق الرب ووحدانيته وكمال قدرته وعظمته، وأنه الذي يستحق العبادة والشكر وأن لا إله إلا هو له الخلق والأمر ! فتبارك الله رب العالمين ، ثم انظر إلى الأرض كيف بسطها الله ودحاها وإلى الجبال كيف أرساها وجعلها للأرض وللماء خزانات يضع آلاف الأ طنان من الثلوج على رؤوسها فتسري فيها وينزل عليها المياه ثم تنبع في أسافلها عيون تسقي البلاد والعباد ،وينبت عليها وعلى الأرض أنواع الأشجار والنبات والأبّ متاعا لنا ولأنعامنا ولسائر ما خلق الله من الدواب والطيور ، وفي كل ذلك نعم عظيمة لا تحصى وآيات كبرى للعالمين تدل على وجود الرب الخالق الرازق ووحدانيته وعظمته وكمال قدرته وأنه لا إله إلا هو رب كل شئ ومليكه فتبارك الله رب العالمين ، إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب من العالمين الذين ينظرون نظر اعتبار ويتفكرون في خلق السماوات والأرض تفكرا يهديهم إلى الايمان ويزيد المؤمنين إيمانا ، وأضاف الله إلى خلق السماوات والأرض آيات أخرى تدل على عظمة الخالق وكمال علمه وقدرته وإتقان صنعه فقال جل من قائل :

﴿ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

يلفتنا الله تبارك وتعالى إلى آيات أخرى وهي اختلاف ألسنتنا وألواننا ، يقول جمهور المفسرين : اختلاف الألسنة كناية عن اختلاف اللغات واللهجات وهي آيات لله حقا الذي علم مخلوقاته لغات يتخاطبون بها ويتقاضون حاجاتهم ويعبرون عما في

ضمائرهم فسبحان الذي خلق الإنسان علمه البيان ، وفي اختـلاف لغـات الناس مابين عربية وعجمية وبربرية وتركية ورومية وهندية وصينية ويونانية وغيرها من آلاف اللغات آيات للعالمين، والذي أراه أن الألسنة لا تقتصر فقط على اختلاف اللغات واللهجات بل يتعدى ذلك إلى اختلاف نطق الناس في نبراتهم وأصواتهم ،فإن الاعتبار بهذا أعظم والآيات في هذا أكبر ، إن اختلاف الناس في نبراتهم وأصواتهم كاختلافهم في صورهم فلا يتشابه منهم اثنان تمام المشابهة إذ لابد من فرق بين شخص وآخر وهنا يكمن العجب ولا يقدر على هذا إلا الله رب العالمين ، وهذا الاختلاف كاختلاف بصمات الأصابع أمر لا ينتهي منه العجب وهو آية من آيات الله ، والناس منذ أبيهم آدم إلى نهاية الدنيا قرون تمر وفي كل قرن ملايين وملايين ولا يتفق اثنان في لون ولا صوت ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ ليس المقصود منه فقط ألوان البشر ما بين أسود وأبيض وأحمر وأصفر وإن كان هذا أيضا من آيات الله ، بل الذي نراه هو اختلافهم في أشكالهم وصورهم وألوانهم بين كل شخص وآخر منذ بداية وجود البشر على الأرض حتى فنائهم ، وبهذا يتميز الواحد على الآخر ولا يقدر على هذا التمييز إلا الخلاق العليم .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

إن في ذلك الاختلاف لآيات للعالمين عالم الجن والإنس والملائكة ومالا نعلم من العالمين الذين يدركون هذا ويعلمونه ويستدلون به على عظمه الرب الخالق وكمال قدرته وعلمه فسبحان الله رب العالمين .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ومن آيات الله الدالة على وجوده وعظمته وكمال قدرته منامكم أي نومكم باليل والنهار وابتغاؤكم من فضله أي بالنهار والليل أما نوم الليل فمعروف إذ جعل الله الليل سباتا لنسكن فيه، وجعل النهار معاشا نتحرك فيه ونبتغي من فضل الله ، أي نطلب الرزق الذي أذن الله تعالى بطلبه من الطرق الحلال ،وأما نومنا بالنهار فهو نوم القيلولة جعله الله راحة لأبداننا وعقولنا يعوض لنا بالراحة والسكون ما فقدناه من الطاقة بالكد والعمل والمشي في مناكب الأرض ، وأما عملنا وابتغاؤنا من فضل الله فيكون في ضوء النهار وقد يكون بعضه في جزء من الليل وليس ذلك حراماً علينا بعد أن نؤدي فرائض الله تعالى في أوقاتها ، وقد تطيب الأسفار في الليل لا سيما ليالي الصيف والليالي المقمرة وقديما قالوا : عند الصباح يحمد القوم السرى ، وقد يكون الإدلاج في أول الليل ، وفي القرآن إشارة إلى هذا عند قوله تبارك وتعالى في سورة المزمل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ وَطَائِفَةٌ مِنَ الذِينَ مَعَكَ . . . ﴾ إلى أن يقول تعالى : ﴿ وَآخَرُون يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل/ ٢٠] فكثيرا ما يكون الضرب في الأرض وهو السفر في الليل ، وفي منامنا بالليل والنهار واشتغالنا بأعمال النهار آيات لقوم يسمعون ، وهنا جاءت كلمة يسمعون متمكنة أيما تمكن لأن الإنسان بل جل الحيوانات مترددة بين الحركة والسكون ما بين سواد الليل وبياض النهار ، والسمع يدرك الفرق ما بين الحركة والسكون ، فلو أن إنسانا وقف في جوف الليل في سوق من أسواق المدينة أو ميدان من ميادينها والسكون مخيم على الدنيا لبقي مشدوها متحيرا في الفرق الكبير بين الحالتين فأين سكون الليل من ضجيج النهار وضوضائه فسبحان ربنا ، كم لله في خلقه من آيات دالات على عظمته وقدرته ويأتي التعبير في طلب الرزق هكذا : ﴿ وَٱبْتِغَاؤُكُمْ

مِن فَضْلِهِ﴾ ليذكرنا الله تعالى أن الرزق الذي نطلبه ونحصل عليه إنما هو من فضل الله لا في علومنا وحيلنا وجهودنا بل هو بتيسير الله تعالى وفضله ومنّه ينبغي لنا أن نشكر الله على منّه وإنعامه وننفق مما رزقنا الله من فضله والله ذو الفضل الواسع العظيم .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى وَمِنَ آيَاتِهِ ، أي من العلامات الكبرى الدالة على عظمة الله وكمال قدرته ورحمته بخلقه يريكم البرق خوفا وطمعا ، والبرق هو هذا النور الخاطف الذي يشتعل وينطفي في لمح البصر بين يدي السحاب الطالع ، وهو بشير أو نذير أوهما معاً ويصحبه رعد إلا أننا قد نرى البرق ولا نسمع الرعد لبعده ، وقد يصل صوت الرعد متأخراً عن البرق ذلك لأن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت بأضعاف كثيرة ، والناس عندما يشاهدون سحاباً فيه برق يخافون ويطمعون ، يخافون ما يصحبه من الصواعق المحرقة وما يعقبه من البرد الكاسح والرياح الهوج والفيضانات، يخافون على أنفسهم وحروثهم وأشجارهم ودوابهم وأبنيتهم ، وكثيرا ما تقع الكوارث من جراء السحب الثقال ذات البرق الخاطف فهم وإن كانوا يفرحون للسحاب ويطمعون في رحمة الله ولكنهم مع ذلك يخافون ويتضرعون إلى الله أن يصرف عنهم شره ويعطيهم خيره ، وإن الإنسان لحب الخير لشديد وبدأ الله بالخوف لأنه أشد تأثيرا في قلوب الناس وتذكيرا لها بربها فهي تدعوه خوفا وطمعاً ويتضرع إليه حينئذ حتى الذين كانوا نسوه في الرخاء ، هذا وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ الخوف عند أهل السفر والطمع عند أهل الحضر ، وهذا المعنى وإن كان صحيحاً ولكن المعنى الأول أعم وأقوى، ولا يفارق الخوف والطمع لرؤية البرق حضرياً ولا مسافرا

بيد أنه قد يقوى الطمع عند أهل الحضر ويقوى الخوف عند أهل السفر فلنترك المعنى على عمومه، وهذا أمر يدعو أهل العقول إلى التأمل في آيات الله في هذه السحب وما يصحبها من البروق والرعود والصواعق وما يعقبها من الأمطار والبرد والفيضانات فسبحان الذي ينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفتة وهو على كل شئ قدير ، وقد يقول علماء الطبيعة أن البرق أصله قوى كهربائية سالبة وموجبة تتولد عن احتكاك السحب المارة بين السماء والأرض وليست معرفتهم هذه بأسباب البرق بناقصة من عظمة آيات الله وروعتها فكل ذلك من صنع الله وكمال قدرته ، وهل يستطيع الناس دفعا لهذه الأمور أو تصريفا لها ؟ كلا بل يقفون عند مشاهدتها مكتوفي الأيدي معطلي القوى وقلوبهم ترتجف خوفا وطمعا لا حيلة لهم إلا الرجاء في رحمة الله أن يكفيهم وينيلهم ما يرجون. ثم قال تعالى :

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته أنه ينزل من السماء ماء ،والماء هو أصل الحياة وإنزال الماء من السحب آية كبرى من آيات الله تنطق بعظمة الله وكمال قدرته ورحمته بخلقه ،فهو ينزله قطرات حتى لا يهلك نزوله الحرث والنسل، وينزله بقدر معلوم وينزله عذباً فراتا ولوشاء لأنزله ملحاً أجاجاً ، أليس منشأ تلك السحب من البحار المالحة ! إن في ذلك أي في إنشاء السحب وتسييرها وإنزال الماء العذب لآيات لقوم يعقلون ، وفي إحياء الأرض بعد موتها بنزول الغيث أيضاً آيات لقوم يعقلون ، تكون الأرض ميتة هامدة فينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج من أنواع النباتات المختلفة،وتلك هي حياة الأرض وفي حياتها عبرة وذكرى للذاكرين،

وفيها نعمة بل نعم لا تحصى للناس والدواب والأنعام ينبغي للعقلاء أن يعتبروا أو يشكروا لربهم ويزدادوا به إيماناً وله خضوعاً وإذعاناً وهو أرحم الراحمين ،وفي حياة الأرض بعد موتها عبرة لحياة القلوب بنور الكتاب والحكمة النازلين من السماء ، وفي إنبات الله البذور من الأرض آيات لإخراج الأجساد من الأجداث يوم القيامة كما جاء في أوائل هذه السورة .

﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

وآيات إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بالماء آيات عامة يراها الناس في مشارق الأرض ومغاربها ، وفي كل مكان في البدو والحضر، فما عليهم إلا أن ينظروا بعقولهم ويتأملوا تكوّن السحب ولمعان البرق ودمدمة الرعد ونزول الأمطار والثلوج ثم ينظروا بعقولهم ويتأملوا حياة الأرض وإنباتها لمختلف النبات والأشجار والخضار تأملا يزيدهم إيمانا بربهم وحبا له .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وما أحلى التذييل بهذه الآية لأن هذا الأمر يدرك باستعمال العقول لكي تدرك آيات الله العظيمة في هذه الأشياء ولا يدركها الذين يمرون عليها وهم عنها معرضون ، نسأل الله أن يجعلنا ممن يسمع ويعقل وينتفع بآيات الله ويزداد بها إيمانا .

﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾.

ذكر الله في أوائل هذه السورة المباركة الحكمة من خلق السماوات والأرض

وأنه ما خلقهما إلا بالحق وأجل مسمى ، ثم ذكر قبل هذه الآية في معرض ذكر آياته الكبرى خلق السماوات والأرض ، ثم في هذه الآية يذكر قيام السماوات والأرض بأمره ، وفي كل هذه الأحوال للسموات والأرض آيات لقوم يعقلون ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ، وما ينبغي لعاقل أن يغفل أو يعرض عن هذه الآيات الكبرى، قال تعالى :

﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

ومن آيات الله الكبرى أن تقوم السماء وتبقى بأمره ، ويراد بالسماء جملة السموات التي يمسكها الله ويرفعها بغير عمد ترونها ، وكذلك قيام الأرض وبقاؤها واستقرارها فلا تميد بأهلها وكل ذلك بأمر الله أي بقدرته وإرادته ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنَ أَمْسَكَهُمَا مِنَ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر/٤١] فإمساكهما وقيامهما وبقاؤهما إلى أجلهما المسمى كل ذلك بأمر الله العلي القدير ، وكل ذلك من آيات الله الكبرى ومن آلائه العظمى على مخلوقاته التى لا تستغني طرفة عين عن رحمته ولطفه، وفي تدبر ذلك ما ينفد العمر دونه ، ولا يزال العلماء الباحثون في هيئة الفلك علويه وسفليه حيارى في هذه القوة التى تسير هذا الكون بنظام محكم دقيق إلا أن المؤمنين يزدادون إيمانا بربهم وحبًّا له والكفار يقولون : هناك سر من الأسرار ويقفون عاجزين دون معرفة كنهه ولو آمنوا بالله لكان خيراً لهم .

﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ .

يقول ربنا تبارك وتعالى : ثم إذا دعاكم ، والدعوة تأتينا من نفخة إسرافيل في الصور : «يا أهل القبور قوموا إلى ربكم » إذا دعاكم من الأرض أي وأنتم في الأرض

رفاتكم مختلط بترابها إذا أنتم تخرجون من أجداثكم ومن كل مكان في الأرض تخرجون مهطعين إلى الداعي سراعا إلى الحشر لا يفلت منكم أحد ، فإذا الأولى لظرف ما يستقبل من الزمان ، وإذا الثانية للفجاءة والكلمة توحي بالسرعة وتوحى أيضاً أن قيام السموات والأرض إلى أجل معلوم ، ويومئذ تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق/٣-٥] يومئذ بدعوة واحدة يخرج الناس من الأرض ليروا أعمالهم ، فطوبى لمن قدم الخير وويل لمن قدم الشر ، وفي هذه الآية تذكير ووعظ لنا لنستعد ولا نكون من الغافلين .

ثم يقول الله تعالى :

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ .

ولله من في السموات والأرض من الإنس والجن والملائكة خلقاً وملكاً وتصرفاً كل له قانتون أي خاضعون منقادون له طوعاً أو كرها، وهذا هو القنوت الذي يعم الخلق أجمعين العقلاء وغيرهم، أما القنوت الذي هو التذلل والخشوع للخالق الرازق المالك القادر فذلك يختص به الملائكة والمؤمنون من الإنس والجن فهم لربهم عابدون وله قانتون ، ممتثلون لأمر ربهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويوم يخرجون من الأجداث يؤمن الكافر ويومئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، ويقول ربنا تعالى ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ ءَاتِى الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَّقَدَ اَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم/٩٣-٩٥] .

ثم قال الله تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

يقرر الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة ويكرر ذلك في القرآن الكريم مرات كثيرة لأهميتها وليثبتها في القلوب ، وهي العقيدة التي يجب أن ترسخ في كل قلب حتى يستعد ليوم اللقاء ، يوم يخرج الناس من الأجداث يقومون لرب العالمين .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ .

وهو الله لا غيره ومن الذي يخلق إلا الله ، الكلمة فيها حصر ، وهو الله وحده يبدأ الخلق يوجده من العدم ويصنعه على غير مثال ، وهذا البدء والإعادة يقع في الدنيا في كل زمان ومكان ، ألا يكفي هذا عبرة لإعادة الخلق يوم البعث والجزاء بل الإعادة أهون من الخلق الأول ، هذا في ميزان عقولنا وفي تقديرنا أما بالنسبة للخلاق العليم فالخلق والبدء عنده سواء وخلق الناس جميعاً وبعثهم بعد فنائهم كنفس واحدة قال تعالى : ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان/٢٨] ولكن الله تعالى يخاطبنا بما نفهم وتتعوده طبائعنا وعند تقديرنا أن إعادة الشيئ بعد تفككه وفساده أهون على صانعه إذا كانت جوارحه وعقله وقدرته باقية على حالها فكيف يعجز عن إعادته وقد صنعه أول مرة أما عندالله فسواء .

﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى حتى لا نفهم المثل السابق على ظاهره فنسوي الله تعالى

بخلقه فلله المثل الأعلى وله الوصف الأعلى في السماوات والأرض ، أي عند أهل السموات والأرض وهو الخالق القادر وحده على البدء والإعادة أما غيره فلو صنع شيئا أو أعاده فإنما يركب المادة الموجودة ويقلد الصورة وليس ذلك بدءاً ولا إعادة على الحقيقة إنما هو تقليد وتحليل وتركيب، أما المبدئ والمعيد فهو الله وحده تبارك الله أحسن الخالقين ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ يأتي هذان الوصفان تذييلا لما سبق ليبين الله لنا وليقرر في قلوبنا أن العزة والحكمة لله، فهو العزيز القاهر الغالب ذو السلطان القوي المتين ذلت لعزته جميع خلقه وقنت لسلطانه من في السموات ومن في الأرض، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها وبمقاديرها وموازينها جلت أفعاله عن العبث واللهو، ما خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا ، ما خلقهما إلا بالحق وأجل مسمى،وتلك هي الحكمة وهو الذي يعيدهما بعد فنائهما بالحق ويعيد المخلوقات بعد فنائهما بالحق في يوم معلوم وأجل معدود، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فسبحانك ربنا ما أعظم سلطانك وأعز شأنك وأقوى برهانك لك المثل الأعلى في السماوات والأرض وأنت العزيز الحكيم ،تباركت وتعاليت جل ثناؤك وعزت قدرتك وتبارك اسمك ياذا الجلال والإكرام .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ لَكُم مَّثَلاً مِّنَ انفُسِكُمْ هَل لَّكُمْ مِّمَّا مَلَكَتَ ايمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمُ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ بَلِ اتَّبَعَ الذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَّهْدِي مَنَ اَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

يجري التعبير القرآني مجرى التعبير العربي فالعرب تقول للإتيان بمثل ضرب المثل: وكذلك يقول الله تبارك وتعالى : ضرب لكم من أنفسكم ،أي ضرب الله لكم

أيها الناس مثلا من أنفسكم تفهمونه جيداً ولا يعزب عنكم معناه ، هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم !؟ أي هل تتخذون من عبيدكم وإمائكم شركاء تساوونهم بأنفسكم في الشركة !؟ إنكم لا تفعلون هذا ولا ترضونه فكيف تنسبون الشريك لله؟! تتخذون لله من عباده شركاء تعبدونهم من دون الله ، كيف يكون شريكا لله من يملكه الله وما ملك ، إن هذا لظلم عظيم ، إذا كنتم لا ترضون من عبيدكم شركاء فيما رزقكم الله فكيف تتخذون لله أندادا في ملك الله وهم أنفسهم من مخلوقات الله وقال تعالى :

﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

هذه الجملة من تتمة المثل ،أي هل تتخذون من عبيدكم وإمائكم شركاء شركة فيها كل المساواة تخافونهم أن يحاسبوكم في التصرف في مال الشركة كما تخافون شركاءكم الأحرار، ذلك لأن الشريك لا يستطيع أن يتصرف كل التصرف المطلق في المال المشترك أخذا وعطاءكما يتصرف في ماله الخاص ،لأنه يخاف مناقشة شريكه الذي هو مثله في ملكية المال المشترك ، أما ما دون ذلك فقد يأذن المالك لعبده أن يشتغل على أن تكون له حصة معينة من عمله أو شركة ويفوضه في الباقي ويعفيه من المحاسبة ولكن لا يخافه هو أبدا لأنه يملكه وما ملك، فكيف يخاف محاسبة عبد أو أمة هما من جملة ماله وليست تلك الشركة إلا صورية يمنحها المالك لعبده ليريح نفسه من محاسبته اليومية وإلا فهو المدل عليه بما مكنه فيه من التصرف في شئ يملكه ملكية تامة فكيف ينازعه وهو وما يملكه مملوك لمولاه الذي يستطيع في أي وقت أن يجرده من كل ما هو تحت يده ويبيعه في السوق كيف يشاء ، هذا مثل واضح مفهوم لا ينكره

عاقل ، فلم يبق إلا أن يسلم هؤلاء ببطلان ما ذهبوا إليه وتشبثوا به من رجس الأوثان وقول الزور لولا التقليد الأعمى واتباع الهوى والتعصب الممقوت بدين الآباء والأجداد لذا يقول الله تعالى بعد هذا المثل وقوله الحق:

﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ بَلِ اتَّبَعَ الذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَآءَهُمْ فَمَن يَهْدِي مَنَ اَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِين ﴾ .

يخاطب الله تعالى العقول لأنها محط الإدراك الصحيح يقول تعالى كذلك نوضح الآيات ونفصلها تفصيلاً لا لبس فيه لقوم يتفكرون بعقولهم فيدركون أن لا إله إلا الله وأن الذين ألحقوهم به شركاء لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض وأنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا، تعالى الله عما يشركون .

﴿ بَلِ اتبَعَ الذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ .

إن بطلان الشرك والشركاء واضح لا لبس فيه بل الذين تعلقوا بالشرك ظالمون يتبعون أهواءهم في عبادة الشركاء واتخاذ الشفعاء ،اتخذوهم وهم يعلمون أنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئا، ولكنه الهوى يوحي بتقليد الآباء وطاعة الشياطين وحب الإجرام والفجور والتحليل من كل القيود ﴿ بَلْ يُرِيدُ الاِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَه ﴾ [القيامة/٥] وهؤلاء يعبدون القباب والأضرحة ويعكفون عندها يرتكبون أنواع الفجور ويسرعون إليها ويزعمون أن أصحابها يشفعون لهم عندالله ويقربونهم إليه زلفى، وتلك طبيعة العقائد المنحرفة في كل زمان يزين لهم الشيطان سوء أعمالهم ويغريهم بالمعاصي فيتبعون أهواءهم ،ويظنون أن هذه المعبودات الباطلة التي يذبحون لها وينذرون لها تشفع لهم وتذهب عنهم شؤم الذنوب وهذا من إغواء شياطين الإنس

والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

قال تعالى :

﴿ فَمَن يَهْدِي مَنَ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَالَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

أولئك قوم أضلهم الله وأصابهم ببعض ذنوبهم فهم لا يستمعون القول وهم عن الحق معرضون وعن الصراط ناكبون ،وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون، ومن يضلل الله فلا هادي له ،وجاء النفي في هذه في صيغة الاستفهام وهو أبلغ في التعبير ، فمن يهدي من أضل الله ؟ لا أحد يهدي من أضله الله ،وهنا في هذه الآية مزلق للذين يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة ، هؤلاء الجبرية الذين هم يهود هذه الأمة يقولون: لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ، والحق أن الله تبارك وتعالى لم يجبر أحدا من خلقه على معصية ولا على طاعة بل أعطاهم الحرية الكاملة إنما إذا نسب الهداية إلى نفسه فبفضله يهدي من يشاء من عباده إلى صراطه المستقيم هداية إيصال بعد أن هداهم هداية دلالة وإرشاد،وإذا نسب الإضلال إلى نفسه فبسبب ذنوبهم وقساوة قلوبهم ورين المعاصي عليها، ولو شاء الله لهداهم برفع الحجاب عنها بسبب من الأسباب ، ذلك لنعلم أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما ،وأنه لا يقع في ملكه إلاما يريد، فلسنا نعتقد اعتقاد الجبرية ولا نعتقد اعتقاد القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة الذين يقولون إن الإنسان هو الذي يستقل بخلق أفعاله فضلوا وأضلوا بل الخلق لله جميعا والقضاء والقدر من الله حق وللإنسان الاختيار الكسبى وعليه يثاب أو يعاقب، والأمور بيد الله ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام /١٣٧] ونقف عند هذا الحد ولا نتعداه ونكف عن الخوض في القضاء والقدر بعد

إيماننا بأنه لا يقع في ملكه إلاما يريد وكل شئ بقضاء وقدر وصدق الله العظيم ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر /٤٩] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف/٤٣] هذا هو الاعتقاد الحق الذي مضى عليه سلف هذه الأمة والذي عليه أهل الاعتقاد السديد من خلفها إلى يوم الدين .

ثم قال الله تعالى :

﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

أي مالهؤلاء الظالمين الذين اتبعوا أهواءهم بغير علم وأصروا على شركهم ومعاصيهم من ناصرين ينصرونهم في الدنيا ويوم القيامة لا ينصرون ، ذلك أن شفعاءهم الذين يزعمون أنهم شركاء سيكفرون بشركهم ويتبرءون من عبادتهم يوم القيامة ، وأن الشيطان الذي يعدهم ويمنيهم سيتخلى عنهم يومئذ ويكفر بما أشركوه من قبل ، فلا ناصرلهم وتلك عاقبة الظالمين ، ومأواهم النار وبئس المصير وبئس مثوى الظالمين ، وجاء نفي الناصرين في هذه الآية مؤكد العموم بِمَنْ حتى ييأس أهل الشرك والأهواء من كل خير ونعوذ بالله من اتباع الأهواء ومن ركوب الجهالات وأن نقول على الله بغير علم ، ومن يتبع هواه بغير علم فقد ضل وما هو من المهتدين .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ
وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾
وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ
مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا
ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا
فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً
فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا
هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا
الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ
يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن
رِّبًا لِّتُرْبُوا فِي أَمْوَٰلِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم

﴿مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠﴾

بعد أن فصل الله آياته الكبرى لقوم وضرب ما شاء من الأمثال مما فيه هدى لأولي الألباب يأتي بهذا الأمر الموجه لنبيه ولأمته من بعده وهي تدخل معه في هذا الأمر بدليل قوله بعدُ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ وتأتي الأوامر والنواهي بعده بصيغة الجمع ويأتي الربط بالفاء، أي أن هذه الأوامر تأتي بناء على ما تقدم من تفصيل الآيات وضرب الأمثال وعرض أحوال أهل الضلالات يقول الله تبارك وتعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ .

أي فإذا رأيت آيات الله المفصلة وهي كلها دلالات على وجود الله وعظمته وأن دينه الحق ورأيت إعراض الكفار عنها وتمسكهم بالأهواء والجهالات وهي سبب هلاكهم فأقم وجهك ، أي فأخلص قلبك للدين الحق حنيفا أي مائلا إليه عن كل ما سواه والحنف في اللغة هو الميل عن الباطل إلى الحق كما أن الجنف بالجيم هو الميل عن الحق إلى الباطل، ذلك لأن النفس بطبيعتها ميالة إلى الهوى فهو معبودها إلا من عصم الله ، فأمر الله نبيه ومن معه أن يميلوا بها إلى الدين الحق الذي شرعه الله وهو وحده سبب النجاة من الهلاك والفوز بالسعادات ، والتعبير هنا بإقامة الوجه فيه ما فيه من البلاغة لأنه تصوير للمعنوي في صورة المحسوس المرئي وإقامة الوجه هو التوجه بكلك

إلى أمر ذي أهمية كبرى عندك فأنت تقبل عليه معرضا عن كل ما سواه ، ذلك ما يوحي به قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ التِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ .

أي ملازمين فطرة الله التي فطر الناس، أي خلق الناس عليها ، أي ركزها ونقشها في قلوبهم من أول يوم فهم يوم ولادتهم ولدوا عليها كما جاء في الحديث الصحيح :« كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه وفي رواية أويمجسانه » والفطرة هذه هي العهد الذي أخذه الله من آدم وذريته كما جاء في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذَ اَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمُ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف/١٧٢] ففطرهم الله على شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يجدون قلوبهم مفطورة على ذلك إلا إذا نشأ وولد في بيئة متلوثة فإن عقيدته تنحرف وتتلوث حسب نشأته تحت أبوين كافرين يهوديين أو نصرانيين أو مجوسيين أو وثنيين أو تجتاله الشياطين، وقد يرجع إلى فطرته الأولى إذا قيض الله من يرشده ويهديه إلى صراطه المستقيم ، ومن أراد الله به خيرا فقهه في الدين وألهمه رشده . ثم قال تعالى :

﴿ لاَتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَالِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

لا تبديل لخلق الله أي لا يبدل الله فطرته التي فطر الناس عليها ولا يغير خلقته ولكن الشياطين تجتال الناس فيبدلون ويغيرون ، إن الله مخبر وآمر وناه ، يأمرنا أن نستقيم على دين الله حنفاء مائلين عن الباطل إلى الدين الحق الذي هو فطرة الله، وينهانا عن التبديل والتغيير ، وهناك من المفسرين من يقول إن (لا) هذا ناهية يعني أن

الله ينهانا أن نبدل فطرة الله التي فطرنا عليها واختارها لنا ، أي لا تبدلوا خلق الله، واستقيموا على الدين القيم منيبين إلى الله ﴿ ذَالِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ تأتي الإشارة هنا بصيغة البعد تنويها بالمشار إليه ورفعا لشأنه ، ويعرف الخبر ليفهم الحصر فإن دين الله الذي هو الإسلام هو الدين الحق وما سواه من الديانات باطل ، ولا يصح أن تسمى دينا ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَاللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ [آل عمران /١٩] ذلك الدين القيم أي القويم الذي لا اعوجاج فيه لأنه دين الله الذي شرعه لعباده وهو العليم بما يصلحهم وبما يصلح لهم في الدنيا وفي الآخرة . ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

إن الله يعلم ما يصلح عباده ويفضي بهم إلى حسن العواقب ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحق فهم معرضون عن دين الله جاهلون يعمهون في الضلالات فلا تغرنكم كثرتهم ، فاتبع دين الله القيم ولا يوحشنك قلة أتباعه واستقيموا عليه مسلمين وجوهكم ونفوسكم إلى الله مخلصين له دينكم .﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ والإنابة هي الرجوع ، ذلك لأن الله تعالى يعلم الضعف من نفوسنا فكثيراً ما تغفل وتخطئ وربما ترتكب مالا يجوز من الإثم فأرشدنا ربنا إلى التوبة والإنابة إليه كلما تذكرنا بعد الجفوة ، وفي هذا الإرشاد فتح لباب التوبة والقبول ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة/٢٢٢] ويقول الله تعالى في وصف النفوس التقية المؤمنة ﴿ إِنَّ الذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُمْ مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف /٢٠١] وخير بني آدم الخطاءون التوابون ثم قال تعالى:

﴿ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

واتقوا ربكم وراقبوه في السر والعلن واطلبوا رضاه واجتنبوا سخطه وذلك بإتيان الطاعات وأنواع القربات واجتناب المعاصي وأنواع المخالفات ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة/٢٣٥] والتقوى تكون حقيقتها في القلب وثمارها الاستقامة على الأعمال الصالحة والورع في الدين ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ وأوكد الأعمال بعد كلمة التوحيد الإتيان بالصلوات المفروضة على الوجه المطلوب وقلما يأتي ذكر الصلاة في القرآن إلا وتقرن بالإقامة ، والإقامة هي أداؤها في أوقاتها المعينة بإتمام أركانها وتحقيق خشوعها ، والخشوع روح الصلاة ، وكل ذلك لا ينفع إذا لم تكن طهارة كاملة ووضوء سابغ ، والمصلي حين يقف بين يدي الله إنما يناجي ربه فلينظر كيف يناجيه ، وقد ورد في الحديث الشريف « ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها » والصلاة مكيال فمن وفاه وفى الله له ومن طففه فمصيره مصير المطففين ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون /٤-٥] وسميت الصلاة صلاة لأنها صلة بين العبد وبين ربه ، ولا تصله بربه حتى تكون قائمة صحيحة متينة وخير ما يعين العبد على الطاعة ويغلبه على النفس والشيطان إقامة الصلاة فالشيطان دائماً يحاول أن يصرف وجهك إلى المعاصي والغفلات فأقم الصلاة وأقم وجهك لله واستعن بالله ﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة/١٥٣] وفي إقامة الصلاة والمحافظة عليها تقويم وتربية للنفس ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت / ٤٥] ثم قال تعالى :

﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

ينهانا ربنا تبارك وتعالى عن الشرك بجميع أنواعه الجلية والخفية لأن من الشرك ما هو أخفى من دبيب النمل ولأنه لا ينفع مع الشرك عمل ، وقد ضرب الله الأمثال في كتابه الكريم لأعمال الكافرين بربهم فهي كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب وهي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وهي كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف ، فنهانا الله تعالى عن الشرك بعد أن أمرنا بالإنابة إليه وبالتقوى وإقامة الصلاة حتى تسلم لنا هذه الأعمال الصالحة وتضاعف لنا ويتقبلها الله منا ، ثم يصف الله هؤلاء المشركين الذين حذرنا أن نكون منهم بأبشع أنواع الأوصاف وأفضعها، وهو الاختلاف والافتراق لا إلى حزبين اثنين بل إلى شيع وأحزاب يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، وهذا بيان وتأكيد لقوله تعالى فيهم من قبل :﴿ بَلِ اتَّبَعَ الذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَّهْدِي مَنَ اَضَلَّ اللَّهُ وَمَالَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [الروم/٢٩]، فهم أحزاب كثيرة ولا يلتقون على دين واحد بل هي أديان مختلفة وملل متباعدة ولا يجمع بينهم شئ إلا عداوة المسلمين ، فهم يتحزبون كلهم على محاربتهم لأنهم يعلمون أنه لو يظهر الإسلام فهو سيقضي عليهم جميعا ولا يبقى من خرافاتهم شيئا ولا قيام للباطل مع ظهور الحق :﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء /٨١] ولبيان افتراق مللهم يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

وقوله شيعا فيه من البلاغة وقوة الدلالة وعمقها ما فيه، وذلك أن لفظ الشيع يفيد أن هناك أئمة في الضلال وهناك من يتبعهم ويتشيع لهم ، فليست هناك كلمة تفيد هذا المعنى غيرها فلو قال (فرقاً) مثلا لم تفد هذا المعنى الذي هو التعصب والتشيع والتقليد

الممقوت على ملة الضلال، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ .

فيه تعبير عن شدة تعصبهم وإعجابهم بما لديهم من الباطل ،فهم به فرحون وفي طريقه ماضون غير مستعدين لسماع غيره ولو كان حقا ولو كان أهدى مما وجدوا عليه آباءهم ومن كان كذلك لا ينفع فيه الكلام ولا تجدي فيه الحجج والبراهين فهو منغلق قد أصمه التقليد للآباء وأعماه التعصب ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت/٥] إن الله تبارك ينهانا أن نكون من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، وفي هذا النهي دعوى للمسلمين إلى الوحدة والتضامن جميعا على تقوى الله وإقامة الدين وأن لا يتفرقوا في الدين الذي هو شرعة الله ومنهاجه القويم ، الله ربنا والقرآن كتابنا والكعبة قبلتنا ومحمد ﷺ إمامنا وقدوتنا ، وقد تركنا على المحجة البيضاء ففيم التفرق والاختلاف ؟! نسأل الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين ويجمع كلمتهم على دينه القويم وصراطه المستقيم آمين .

ثم بين الله تبارك وتعالى طبيعة مجبولة في الناس تدل على وجود فطرة الله في نفوسهم فيقول:

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُواْ بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول ربنا تبارك وتعالى وإذا مس الناس ضر من فقر أو مرض أو كوارث في بر أو أو بحر أو جو أو زلازل مثلا أو فيضانات أو إعصارات فإنهم حينئذ يرجعون إلى فطرتهم المركوزة في قرارات نفوسهم وقد زالت أغشية المعاصي والأهواء فيدعون الله

مخلصين له منيبين إليه وحده وقد علموا أن شركاء هم لا يغنون عنهم حينئذ شيئا يقولون ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إِنَّا مُومِنُونَ ﴾ [الدخان / ١٢] لقد علموا أن لاكاشف لضرهم إلا الله ، يعرفونه في الشدة وينسونه في الرخاء ويشركون به ، ولو عرفوه في الرخاء لعرفهم في الشدة ، ثم إذا أذاقهم الله منه رحمة وكشف عنهم الضر إذا فريق منهم بربهم يشركون ، وجاءت كلمة إذا الفجائية لتدل على سرعة تقلبهم ونكوصهم على أعقابهم ، وقال الله : ﴿ فَرِيقٌ مِّنهُمْ ﴾ ولم يعمهم الحكم ، ذلك لأن الله حرم الظلم على نفسه وحرمه على الناس ، ومن الناس من لا يشرك بالله شيئا ، وإنكار الله إنما هو على الفريق الذي يشرك بالله ويكفر بآياته وآلائه قال تعالى :

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

اللام للأمر والأمر للتهديد ، أي اكفروا ما شئتم وتمتعوا ما شئتم فسوف تعلمون عاقبة كفركم وتمتعكم ، وقد أبهم الأمر إشارة إلى فظاعة العقوبة والعاقبة فهو عذاب أليم لا يأتي عليه وصف ، وهذا جزاء من كفر بآيات الله التي جاءته وكفر بنعم الله التي آتاه الله إياها وجعل همه من هذه الدنيا التمتع بأنواع الشهوات المحرمة ، وفي هذه الكلمات ضرب من فن البديع في البلاغة وهو الالتفات فبينما يتكلم الله عنهم بصيغة الغياب إذا به يُخاطبهم . ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وهذا أشد وقعا في نفوسهم وأعظم أثرا ، ولا شك أن من أراد الله به خيرا منهم سوف يتعظ بهذا الكلام ويرجع إلى حظيرة الحق فيهتدي بهدى الله ، وفي هذا الكلام أيضا موعظة وزجر للمؤمنين حتى لا تستهويهم متع الحياة الكثيرة فيقعون في الوعيد، والقرآن موعظة وذكرى لمن يخاف وعيد الله .

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ .

أي هل أنزلنا على هؤلاء المشركين سلطانا ، والسلطان في تعبير القرآن يأتي بمعنى الحجة والبرهان ولا يكون البرهان حجة إلا إذا نزل من عند الله ، يقول الله تعالى:أم أنزلنا على هؤلاء سلطانا ينطق بصواب ما هم عليه من الشرك فهم مستمسكون ، أي إن كان ذلك حقا فليأتوا بسلطانهم إن كانوا صادقين في دعواهم، والاستفهام للإنكار والنفي ، أي لا شئ من ذلك عندهم مطلقا ، والذي هم مستمسكون به هو ما وصفهم الله به قبل هذه الآيات حيث قال تعالى :

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ .

إن هؤلاء المشركين بجميع أصنافهم القدامى منهم والمعاصرين كلهم يتبعون أهواءهم بغير علم ولا سلطان مبين كل الذي عندهم أفكار وفلسفات ضالة مضلة يضللون بها الناس ، ويحاولون تشكيك أهل العقائد الصحيحة في عقائدهم ، فحذرنا الله منهم وعرفنا بحقيقتهم أنهم ليس لديهم سلطان نازل من الله يتكلم بشركهم وفلسفاتهم بل إن يتبعون فيها إلا أهواءهم بغير علم ، أولئك قوم أضلهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ، وكفار عصرنا يدرسون فلسفات يزعمونها علما ويلبسون على الناس وهي ليست من العلم في شئ ، بل هي الأوهام والخرافات والأهواء والعلم آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة ، والعلم عند الله ، أما فلسفاتهم فلا تغني من الحق شيئا ، وعلم الدين إنما يكون بسلطان نازل من الله العليم الحكيم ينزله الله على من يشاء من عباده . ثم يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾.

في هذه الآية الكريمة يكشف الله تبارك وتعالى عن طبيعة أخرى من طبائع الإنسان وهي سرعة التقلب في أحواله ما بين نزول الرحمة ونزول المصيبة فتراه يبطر عند النعمة ، ويكفر ويجزع عند المصيبة ويقنط ، ولا يسلم من هذا الطبع إلا المؤمنون الصادقون في إيمانهم فهم يصبرون عند البلاء النازل ويعلمون أنه من الله وأن الله أراد بهم خيرا ليكفر عنهم سيآتهم وينيلهم به الدرجات العلى في الجنة، ويشكرون عند السراء ، ويعلمون أن النعمة من عند الله ليبتليهم بها أيشكرون أم يكفرون فإنهم يشكرون المنعم ويزدادون تواضعا للناس ولا يبطرون ولا يفرحون بإقبال الدنيا الفرح المذموم كما وعظ الذين أوتوا العلم عدو الله قارون حيث قالوا له :﴿ لاَ تَفْرَحِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [االقصص/٧٦] كذلك يفرح الغافلون إذا أذاقهم الله منه رحمة ليبتليهم بها فيأشرون ويبطرون وينسون المنعم ويكفرون به ويتكبرون على الناس ويطغون ويبغون عليهم ، وإن تصبهم سيئة أي مصيبة من عند الله بسبب ما قدمت أيديهم من المعاصي إذا هم يقنطون ويجزعون ويظنون شرا وييئسون من روح الله حتى ولو سلاهم أحد إخوانهم وفتح لهم باب الرجاء وحسن الظن في الله تراهم يوصدونه ويقنطون من رحمة الله ، وهذا انعكاس ما في نفوسهم من المرض والانحراف ، وتلك آثار كفرهم ومعاصيهم ، وكم لنغل القلوب من انعكاسات قائمة على أحوال العصاة وأفعالهم وأقوالهم ، ولا يسلم من هذا إلا من خلص سره لله واتقى الله وخشيه في السر والعلانية وداوم على أداء الصلوات مع المحافظة عليها وإقامتها على الوجه المطلوب ، وفي هذا المعنى يقول الله تبارك وتعالى في سورة المعارج ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُ جَزُوعاً وإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ

دَائِمُونَ .. الآية ﴾ [المعارج /١٩-٣٥] فوصفهم ربهم بالبخل والجزع وسوء الظن بالله واستثنى المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين على صلاتهم يحافظون والذين يتحلون بتلك الأوصاف الخيرة التي وصفهم بها ، والذين استحقوا جوار الرحمن في دار كرامته ، وربما يظن من يقرأ هاتين الآيتين في هذه السورة أن بينهما نوعا من تعارض كلا وحاشا أن يكون في كلام ربنا تعارض أو تناقض ، بل قصور أفهامنا في تأمل المعاني وإدراك أعماقها وأغوارها هو الذي يقف حائلا دون إدراك المراد من الكلام ، ولا اختلاف مطلقا في شيئ من كلام ربنا تبارك وتعالى ، قلت : ربما يتطرق شيئ من الحيرة إلى بعض مدارك قصار الفهم حين يقرءون الآية السابقة التي يقول الله فيها : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ .

وفي هذه يقول : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتَ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ .

فكيف تكون المقابلة بين الإنابة والقنوط ؟ الجواب أن الإنابة تكون في الكوارث الكبرى وفي الزلازل وفي الإعصارات والعواصف الرعدية وما هو مثل ذلك ، ويكون القنوط فيما دون ذلك من المصائب النازلة كالفقر والمرض والضيم وما هو مثل ذلك مما يعتاد الناس فيجزعون له ويقنطون من نيل الفرج وانقلاب العسر إلى يسر ، فهذه أحوال تختلف وليس الاختلاف في الآيتين ، وكذلك قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

قوله : ﴿ وإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ﴾ .

ففي الآية أن الناس إذا فرج عليهم الكرب النازل يرجع المشرك إلى شركه

والمنافق إلى نفاقه ، وفي هذه الآية أن الناس إذا نزلت عليهم نعمة من نعم الله يفرحون فرح طغيان وبطر، فالآيتان يكمل بعضهما بعضا وتكشفان جوانب من أحوال الناس، وقد حاول بعض المفسرين الجمع بين الإنابة والقنوط المذكورين في الآيتين أنها إنابة ودعاء باللسان، وقنوط بالقلب كما ذكر الألوسي في تفسيره أن أحدا من قتلة عثمان كان يطوف بالكعبة ويدعو ويقول في دعائه :(اللهم اغفر لي ولا أظنك تفعل) فلسانه يدعو وقلبه قانط ، والراجح المعنى الأول الذي ذكرناه والله أعلم ثم قال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ألم يروا أي أعمي هؤلاء و لم يروا أن الله هو القابض الباسط يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، أي ويضيقه لمن يشاء وأن بسط الأرزاق والرحمات إنما هو بفضله ، وأما نزول النقمات فإنما هو بعدله يصيبهم بشؤم ذنوبهم ، وإذا كان الله هو القابض والباسط ففيم القنوط وفيم الفرح والطغيان والبطر ، لقد كان ينبغي للمؤمن أن يذكر الله في كلتا الحالتين يذكره بالحمد والصبر وحسن الظن وانتظار الفرج في حالة الفقر والضراء ، ويذكره بالحمد والشكر في حالة الغنى والسراء وتوالي النعم ، وفي كلتا الحالتين حالة القبض وحالة البسط آيات تزيد المؤمن إيمانا بربه وتعلقا به وإنابة إليه فيشكره على نعمه ويتواضع له ويتضرع إليه بالتوبة والاستغفار في حالة الضيق والبلاء توبة من يخاف عذابه ولا ييأس من رحمته ، وإن من دعائم الإيمان الشكر عند النعم والصبر عند الشدائد، ولزوم الاعتدال في كل شئ وتلك حالة أهل التوفيق . ثم قال تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

الخطاب للنبي ﷺ ولأمته وهي له تبع ، أي فإذا آمنتم أن الله هو القابض الباسط الراحم المنعم المبتلي الذي يعاقب عباده بالعدل ويمن عليهم بالرحمة وأنه يثيب الصابرين والشاكرين ويضاعف لهم الثواب ويمن عليهم بالمزيد فتقربوا إليه أيها المؤمنون بشكر نعمه وذلك بوضعها في مواضعها ابتغاء مرضاته ، واعلموا أن لأقربائكم حقوقا في أموالكم وكذلك المساكين وأبناء السبيل ، فآت ذا القربى حقه وهم الوالدان والأولاد والأجداد والإخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولاد الإخوة وأولاد الأعمام كل أولئك لهم حقوق في مالك إن كانوا فقراء تنفق عليهم أقواتهم من مالك ولا تتركهم جياعا ، ومن هنا أخذنا نحن والحنفية وجوب إنفاق ذوي القربى المعدمين منهم وكذلك الإنفاق على المساكين وأبناء السبيل ولا يتركون جياعا ذلك أي إطعامهم وكسوتهم وإيواؤهم خير للذين يريدون بذلك وجه الله أي يبتغون رضاه ولا يريدون منهم جزاء ولا شكورا ولارياء وسمعه ، وأولئك هم المفلحون الذين يفوزون برضوان الله والجنة في الآخرة ويبارك الله لهم في أرزاقهم في هذه الدنيا ويخلف عليهم ويكفر عنهم سيئاتهم ، وفي هذا دعوة إلى السخاء والإنفاق ابتغاء وجه الله وتعريض بالذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل وينفقون أموالهم رئاء الناس ويسيئون الظن بالله ، وشتان بين هؤلاء وهؤلاء لقد فاز الأسخياء المخلصون عملهم لله ، أولئك هم المفلحون الذين فازوا بخير الدنيا والآخرة وللآخرة خير وأبقى ، أولئك هم المفلحون لا غيرهم فتعريف الخبر والإيتان به بعد ضمير الفصل يؤذن بالحصر ، فهم وحدهم المفلحون ، والقابضون أيديهم والمنفقون أموالهم رئاء الناس هم الخاسرون ، وهكذا يحبب الله السخاء والإنفاق لأوليائه ويرشدهم إلى سر

القبول وهو إخلاص كله لله ليكون من المفلحين ، نسأل الله أن يوفقنا لأفضل الأعمال ويجعلنا من المفلحين آمين . ثم يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ اللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ .

هذه الآية نظيرها قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [البقرة/٢٧٦]يقول الله تبارك وتعالى : وما آتيتم من أموالكم أيها الأغنياء تريدون به الزيادة في أموال الناس فلا يربو عند الله أي لا يزداد عند الله بل يمحق الله بركته إن كانت الزيادة حراما كربا الفضل وكسلف جر منفعة ولا يثبت أجره عند الله إن كانت الزيادة حلالا كهدية ثواب أو مقارضة ومضاربة في التجارة ، ذلك لأن الزيادة التي تبتغيها من أموال الناس نوعان :حلال وحرام ، فالزيادة التي هي حلال وهو ما يعطيه الواحد منا لأخيه من ماله يبتغي به العوض في هدية الثواب أو في مضاربة تجارية ، يقول له إضرب لي معك بسهم في الربح فيتفقان على نسبة معينة في الأرباح، فهذا حلال قد يعود على صاحبه بفائدة دنيوية غير أنها لا تربو عند الله يوم القيامة ، والزيادة الحرام التي حرمها الله وشدد في تحريمها هي ربا الفضل وهو ما يقرضه الرجل لأخيه من مال على نسبة معينة مئوية يأخذها عوضا عن هذا السلف أو على منفعة يجرها لنفسه ولو من غير جنس المال الذي أسلفه إياه ، وهذا هو الربا الذي شدد الله فيه وجعل متعاطيه محاربا لله ورسوله ولعن الرسول ﷺ آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه فهو وإن كان عند الناس ربا غير أنه لا يربو عند الله بل يمحقه الله، ويذهب بركته ونفعه المرجو في الدنيا وينزل على صاحبه الوبال في الدنيا وفي الآخرة إن لم

يتب، وتوبته أن يضع الزيادة عن المدين ولا يأخذ إلا رأس ماله كما قال تعالى :﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَتُظْلَمُونَ ﴾[البقرة/٢٧٩]،أما المال الذي يربو عند الله ويبارك الله فيه ويضاعف أجره لمعطيه فهوالذي قال الله تعالى فيه :

﴿ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ .

وما آتيتم من زكاة من أموالكم تؤدونها لمستحقيها تريدون بذلك ابتغاء وجه ربكم الأعلى لا تشركون به شيئا فأولئك هم المضعفون، أي الذين تضاعف لهم الحسنات وتكفر عنهم السيئات ويبارك الله في أموالهم ، وجاءت الإشارة بالبعد إيذانا برفع مقامهم وعلو درجاتهم عند الله ، وفي الآيات إلتفات فقد جاءت العبارة الأخيرة بصيغة الغياب فهو أبلغ في مدحهم من أن لو قال : فأنتم المضعفون وهي من النكت البلاغية في القرآن أن الله تبارك وتعالى يوجه حديثه إلى ملائكته المقربين وخواص أوليائه فيحدثهم عن أحوال هؤلاء الصالحين وأفعالهم وما أعد لهم من الجزاء المضاعف أضعافا كثيرة وفي هذا تنويه بشأنهم ومباهاة بهم وبإيمانهم وإخلاصهم في عبادة الله فهم يريدونه بأعمالهم لا غيره وفي هذا الخبر دعوة لجميع خلقه إلى الاقتداء بأفعالهم وأحوالهم ، وفيه تعريض بمن يريد متاع الحياة الدنيا القليل فهو يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ولو عقلوا لابتغوا ما هو خير وأبقى ، وكذلك يعظنا ربنا تبارك وتعالى بالقول البليغ في الآيات البينات وما يعقلها إلا العالمون.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَل مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَالِكُم مِن شَيءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

أربعة أطوار من أطوار الإنسان يذكرنا الله تعالى بها في هذه الآية ، والمقصود هو

الطور الرابع وهو الحياة بعد الموت للجزاء، فيقرر الله الايمان عقيدة الجزاء والايمان بالله واليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب هو المدار الذي يدور عليه سلوك المؤمن وبه يصلح عمله ويستقيم عليه حاله يقول الله تعالى: الله الذي خلقكم الخلق الأول ثم رزقكم ويأتي هذان الفعلان بصيغة الماضي لأن كل موجود في الأرض وكل مخاطب بهذا الخطاب قد شاهد الأمرين ،ويأتي الفعلان الباقيان بصيغة المضارع لأن الأحياء ينتظرون الموت والبعث بعد الموت وهذا ما سيلاقونه وهو آت لاريب فيه ، الله الذي خلقنا من العدم لا غيره ثم خلق الإنسان من نطفة من ماء مهين ثم تطور أطوارا حتى نفخ فيه الروح ، ثم بعد نفخ الروح تأتي قضية الرزق والله الذي يرزق الأجنة في بطون أمهاتها ثم يرزق المولود منذ ولادته إلى وفاته ، والرزق ليس هو الطعام والشراب فقط بل هو كل المدد الذي يمد الله به المخلوق لبقاء حياته إلى حين وهو في كل لحظة محتاج إلى ذلك المدد ولو يقطع الله عنه المدد ينطفىء كما ينطفىء المصباح الكهربائي حين ينقطع التيار . وفي التفكر في الخلق الأول وأطواره وفي التفكر في الرزق ومجاريه يزداد المؤمن إيمانا ، ويخاطب الله الناس بهذا ويقيم الحجة عليهم ويقول للكفار : هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ،والاستفهام هنا استفهام نفي وتبكيت وتقرير للنفي وهم يعلمون أن شركاءهم التي يدعون من دون الله عاجزون العجز المطلق عن الخلق والإماتة والرزق والإستفهام الذي أريد به النفي يأتي بصيغة العموم والاستغراق وهو ما تفيده (مِن) فهم مجردون من كل قوة ومن كل تصرف ففيم عبادتهم وفيم يدعونهم ويرجونهم ويتخذونهم أندادا لله ؟ أليس الخلق والرزق والإحياء والإماتة لله وحده !

﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ .

أما الإماتة فأمر مشاهد مسلم به من الجميع وأما الإحياء بعد الإماتة فأمر يرتاب فيه الكفار وينكرون أن يحيي الله العظام البالية، ولو تفكروا في خلقها أول مرة لأدركوا أن الإعادة بعد الخلق الأول أهون والكل في قدرة الله سواء ، فما علينا إلا أن نسلم ونؤمن ونصدق كلام ربنا تبارك وتعالى ونشهد شهادة علم ويقين أن كل ذلك حق لاريب فيه وأن الله يبعث من في القبور ليوم النشور .

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

ينزه الله نفسه ويأمرنا أن نسبحه وننزهه عما يشرك الكافرون من أنواع الشرك كلها فمنهم من ينكر الله ويجحده ومنهم من يعبد من دونه شركاء يعتقد فيهم النفع والضر ومنهم من يقول : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر/٣] ومن الموحدين من يتوسل بالمخلوق إلى الخالق وهذا ضلال مبين إلا إذا كان المخلوق حيا فتطلب ممن تظن فيه الخير أن يستغفرلك ، ويدعولك لأن هذا داخل في استطاعته وهو من أفضل القربات أن تدعو لإخوانك المؤمنين والمؤمنات وتستغفرلهم ، وقد جاء هذا في القرآن ومنه قوله تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُم الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيمًا﴾ [النساء/٦٤] أما التوسل بالأموات فهذا لا يصح ولا يجوز مطلقا ولا بالكتب ولا بالمساجد ولا بالكعبة ولا بالملائكة ولا حتى بالصالحين من الجن والإنس أحياء أو أمواتا كأن تقول مثلا « اللهم اغفر لي بجاه فلان أو بحرمة فلان أو بحق فلان» هذا لا يجوز وليس من حقك أن تدخل هذا في دعائك بل ادع الله وحده وتوسل إليه بعملك الصالح الذي أردت به وجهه الكريم كما توسل أصحاب الرقيم بأعمالهم توسل كل أحد منهم بأرجى عمل له عند الله

فاستجاب الله لهم ونجاهم من الكرب وفرج الله عنهم ما هم فيه ، وما توسل أحد منهم برسول ولا نبي ولا ملك ولا بأحد غير الله ، فلنحذر أن نلبس إيماننا بظلم ولنسبح ربنا تعالى عما يشركون ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدا﴾ [النساء/١١٦] والإيمان يجب أن يكون خالصا كاللبن لا يشوبه قذر وبالحليب ضرب المثل لفطرة التوحيد ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أَلاَ لِلَّهِ الدِينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر/٢-٣] فالدين الخالص صلاح للفرد وللمجتمع وبه صلاح البر والبحر كما أن الشرك والمعاصي والفجور فساد في الأرض برها وبحرها وفي هذا المعنى يأتي الكلام في الآية التالية فيقول ربنا تبارك وتعالى :

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

يعظنا الله تبارك وتعالى ويحذرنا بأمثال هذه الآيات في كتابه الكريم لنحذر الشرك وأنواع المعاصي ونتوب إليه من الذنوب كلها ونيب إليه ، وظهور الفساد هو انتشاره وشيوعه في الأرض برها وبحرها بحيث لا يخفى على أحد من الناس فمن لم يشاهده يسمع الأخبار ، وظهوره بسبب ما اكتسبت أيدي الناس من الذنوب والكفر ليذيقهم الله بعض الذي عملوا ويعفو عن الكثير لعلهم يذّكرون ويرجعون عن غيهم وبغيهم وعصيانهم وكفرهم وفسوقهم ، يخبرنا ربنا تعالى بظاهرة أو بظواهر في هذا الكون نشاهدها ويبين لنا علتها ليزيل الحيرة عن قلوبنا ، فما هو هذا الفساد ؟ وما هي

أسبابه ؟ وما موقف المؤمنين منه لينجوا من عقوبة الله في الآخرة لأن الدنيا ربما ينالهم بعض فتنتها وبلائها ، يأتي الجواب على هذه الأسئلة في هذه الآيات البينات في هذه الآية وما بعدها يقول الله تعالى :

﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتَ أَيْدِي النّاس لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

الفساد في البر والبحر هي الكوارث التي تنزل على الناس من قحط وأمراض وزلازل وفساد النبات والغلال وهدم وحرائق وجراد وسائر أنواع المصائب البرية والبحرية منها كجفاف الأنهار والعيون ونقصانها، وإعصارات البحار وما ينتج عنها من غرق السفن وهلاك الناس وضياع الأموال ونقصان ما يستخرج منها من اللآلىء وما يصطاد منها من الأسماك، وذهاب البركات وما ينتج عن ذلك من المجاعات التي تصيب الملايين من البشر والفتن والحروب التي تشتعل بين طوائف الناس فيذيقهم الله بعضهم بأس بعض ، وذلك كله شؤم كفرهم وفجورهم وتضييعهم لأوامر الله فيذيقهم بعض الذي عملوا في الدنيا ويعفو عن كثير لعلهم يستمعون إلى نذر الله فيتوبون ويرجعون إلى الله، وإن لم يتوبوا فإن عذاب الله في الآخرة شديد ، وياليت الناس يعتبرون ويتعظون بنزول المصائب ولكنهم يظلون سادرين في غيهم إلا من رحم ربك وقليل منهم من يتوب ويرجع . قال الله تعالى : ﴿فَلَوْ لاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام/٤٣] هذه حالة أكثر الناس ويبلوهم الله بالشر والخير فتنة ثم إليه يرجعون فينبئهم بما عملوا ويجازيهم الجزاء الأوفى بعدله ويتفضل على المحسنين منهم بعفوه وفضله ولا يظلم الله الناس شيئا ولكنهم أنفسهم يظلمون .

قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن
يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ
كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ
ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ
فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ
مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ

بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾
وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾
فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟
مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ
إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

يأمر الله نبيئه أن يلفت هؤلاء الكفار المكذبين إلى السير فى هذه الأرض العريضة وينظروا فيها إلى آثار الماضين نظر تأمل واعتبار، وهذا الأمر عام لجميع الناس فى كل زمان ومكان ولا تزال آثار المتقدمين ماثلة في مشارق الأرض ومغاربها تشهد بما كان يتمتع به أصحابها من قوة في الأبدان ووفرة في الأموال والأنفس وتسلط في الحكم ولم تغن عنهم قوتهم ولا سلطانهم ولا أموالهم شيئا لما جاء أمر ربك ولم تغن عنهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله وما زادوهم غير تتبيب .

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ .

قل يا محمد لهؤلاء الكفار سيروا في الأرض وانظروا إلى آثار الماضين الباقية وبيوتهم الخاوية انظروا كيف كان عاقبة الذين سبقوكم في هذه الدنيا كان أكثر هؤلاء الهالكين مشركين ، وفي الآية إنذار للمشركين وللعصاة الموحدين كأصحاب السبت من بني إسرائيل فإنه أخبر عن الهالكين أن أكثرهم هلكوا بسبب شركهم وتكذيبهم

لرسل الله وليسوا كلهم بل بعضهم هلكوا بارتكاب المعاصي و لم ينفعهم توحيدهم لما ظلموا أنفسهم بارتكاب كبائر الذنوب والفواحش وسائر أنواع الاثم والمخالفات، كان حبهم للدنيا وأكلهم للسحت وارتكاب المنكرات سببا في هلاكم وخراب ديارهم فاعتبروا بهم يا أولي الأبصار . ليس شيء كالمعاصي يترك الديار خالية والقصور قبورا وإلا فما الذي يفرق تلك الجنود ويبدد تلك الجموع ويوهن تلك القوى ويخرب تلك المدائن إنه الشرك بالله والبغي والظلم وحب الدنيا واتباع الشهوات وارتكاب المنكرات والمكر السّيىء ولا يحيق المكر السّيّء إلا بأهله ، وإذا ظهر الفساد فى الأرض وعمت المعاصي فما المخرج وأين المفر وكيف الخلاص ؟ إنه لا مفر إلا لله ولا ملجأ إلا إليه ولا خلاص إلا فى الاعتصام بحبله المتين ودينه القويم . قال تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ .

جاء الربط هنا بالفاء ليفيد التعليل يعني فإن أردت الخلاص من كل ما تقدم من أسباب الهلاك فأقم وجهك للدّين القيم أي أقم نيتك وقصدك واجعل همك الأكبر التمسك بالدّين القيم الذي لا اعوجاج له ، واستقم على نهجه القويم حنيفا عن كل ملة غير ملة الاسلام ، والأمر للفرد المسلم والجماعة المسلمة لأن الدّين الإسلامي هو الخطة القويمة التي فيها سعادة الفرد والمجتمع وهو الدين المتكامل الذى يشمل كل نواحي الحياة للفرد والمجتمع فلا نجاة إلا بالتمسك بشريعة الإسلام السمحة ، فأمر الله نبيئه وأمته من بعده بالتمسك بالدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له ، وفى الأمر استعجال الامتثال قبل فوات الأوان واليوم آت لامحالة لا مردّ له من الله لا أحد يقوى على رده، ووصف هذا اليوم في القرآن بأوصاف هائلة وهو اليوم العبوس القمطرير ، واليوم العسير ، وهو يوم

يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به، وهو اليوم الذي لا يجزي فيه والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، وهو يوم الطامة والحاقة والقارعة فأمرنا الله بالاستعداد لهذا اليوم قبل مجيئه، أمرنا أن نستعد بالاستقامة على منهج الدين القويم ثم أشار هنا إلى ذلك اليوم بقوله : يومئذ يصدعون كما أشار إليه قبل يومئذ يتفرقون ، والتصدع هو الانشقاق والتفرق بعد الاجتماع ، وفي التعبير بالصدع وقع شديد على النفوس وهو مقصود لعلها تبادر قبل إتيانه بالتعرف على الله ملك يوم الدين بالاستقامة إليه وحسن الاستعداد للقائه فى ذلك اليوم ، وويل للذين لا يتعظون بهذه الزواجر ولا يستعدون لذلك اليوم ويعرضون عن النذر وينسون يوم اللقاء ، إنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون .

ويعلن الله فى الآية التالية بحكمه العادل حيث يجزي كل نفس بما كسبت فيقول جل من قائل :

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ لِيَجْزِيَ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ ﴾. يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ .

من كفر بالله كفر شرك وساوى به غيره أو جحده أو كذب الرسل أو أنكر الوحي والملائكة أو كفر بكتب الله أو كذب بلقاء الله وهوالكفر الأكبر ، أو كفر بارتكاب الكبائر من الأعمال وتضييع الفرائض كفر نعمة وهو كفر دون كفر كما هو عند أهل الحديث وكذلك عندنا فى مذهب أهل الحق والاستقامة، فأي الكفرين كان فصاحبه يستحق الخلود فى النار ، وقوله تعالى : فعليه كفره إيذان أن وبال الكفر إنما

يرجع على صاحبه فى الدنيا وفي الآخرة ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، وهذا تحذير من الله من جميع أنواع الكفر ثم قال تعالى :

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ .

أي ومن آمن بالله وعمل الصالحات فأولئك لأنفسهم يمهدون ،أي يفرشون والمهاد هو الفراش ومعناه أنهم يقدمون لأنفسهم الخير وسيلقون عند الله جزاءهم الأوفى في جنات النعيم حيث تقر أعينهم ، وفي ذكر العمل الصالح هنا مقابل الكفر دليل على أن من أنواع الكفر تضييع العمل الصالح ومن تمام الايمان الإتيان بالعمل الصالح فبدون العمل الصالح لا إيمان ، فإما العمل الصالح وإما الكفر ، والكفر كفر شرك وكفر نعمة وكلا هما في النار والايمان الصحيح الحق هو الإعتقاد والقول والعمل الصالح ثم قال تعالى :

﴿ لِيَجْزِيَ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ هذه اللام في ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ متعلقة بِيَمْهَدُونَ ، و لم يقل ليجزيهم من فضله بل كرر ذكر العمل الصالح ليركز في عقائدنا أن الايمان النافع هو الذي يتبعه العمل الصالح وأن العمل الصالح هو سر الجزاء وأن الله يحب الصالحين من المؤمنين ويجزيهم بالحسنى لأنه جاء بعد هذه الآية ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ أي لا يحب الكافرين الذين لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات ، و لم يحدثنا الله عن نوع جزائهم وإنما أجمله قبل في قوله: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ وكأنهم لهوانهم على الله ومقته إياهم لا يستحقون الذكر إلا بما يوجب المقت واللعن فقوله تعالى :﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ نفهم منه أنهم محجوبون عن ربهم يوم القيامة وأنهم فى جهنم داخرون لا يفترعنهم العذاب وهم فيه مبلسون ،

وهذه العبارة تفيد طرداً وعكسا ، أي إذا كان الله لا يحب الكافرين فهو يحب المؤمنين الذين يعملون الصالحات،وإذا كان الله يجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله فهو يجازي الكافرين بعدله وينزل عليهم ما يستحقون من أصناف النكال والعذاب في دار الهوان ، ونعوذ بالله من مصير الكافرين. ثم قال تعالى :

﴿ وَمِنَ – آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

من آيات الله الدالة على كمال قدرته وحكمته ورحمته بعباده أن يرسل الرياح مبشرات بالسحب والأمطار، ومنذ القديم عرف الناس أنواع الرياح واستدلوا بها على نشوء السحب وتراكمها ونزول الغيث وهي مبشرات تبشر الناس بإقبال الغيث، وهي من آيات الله البينات لأن الله هو الذي يرسلها وينشيء السحب الثقال، والناس يعلمون هذا من فطرتهم ولذلك يتضرعون إليه بالدعاء عند اشتداد القحط ، وما ذاك لأنهم يعلمون أن الأمر بيد الله وحده ، ويريد الله أن ينبهنا إلى أمر لابد بمعرفته وهو أنه كما يبتلي الناس عقابا على بعض ذنوبهم لعلهم يرجعون كذلك ينعم عليهم على معاصيهم ويذيقهم من رحمته لعلهم يشكرون ، قال تعالى :

﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يأتي الخطاب في هذه الآية الكريمة على أسلوب الالتفات المعروف في القرآن وهو من تصريف الآيات ليكون المعنى أشد وقعا في نفوس السامعين وتتلقاه بانتباه بعيدا عن سأم التكرار ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ .

تعريف لنا بما يقع فى النفوس من الشوق إلى رحمة الله قبل نزولها وما يقع فيها من السرور والفرح عند نزول الغيث وعند وصول السفن المحملات الى شاطىء السلامة ، ومن رحمة الله جريان السفن فى البحار بتسخير الله وإ رسال الرياح ولا تجري السفن إلا بأمر الله حتى السفن البخارية ذوات المحركات النارية إنما جريانها بأمر الله وتسخيره ، فلوأرسل الله عليها الريح العاصفة لأغرقتها أو صدتها عن وجهتها وقد تهلكها حتى فى المواني، والأمر بيد الله ورياح المحركات هي أيضا من رحمة الله وتسخيره فلو سكنت لتعطل كل شيء ، وكذلك رياح الطائرات التي هي سفن الجو إنما هي من تسخير الله وصنعه ولا تجري على سمتها إلا بأمره ، وأسفارنا على سفن البحر والجو المحملات بأثقالنا من رحمة الله ومن تيسيره ولنبتغي من فضله أي من رزقه ، يذكرنا الله تعالى بتلك النعم العظيمة لنشكر الله على فضله العظيم ونؤدي له وحده حق العبادة ، من آيات الله إرسال الرياح وتسخير السفن وإنزال الغيث وإحياء الأرض بعد موتها برحمته فما أجدر بنا ونحن نبتغي من فضل الله ونتمتع بنعمه أن نشكر للمنعم وهو الذي وعدنا إن شكرنا أن يزيدنا من نعمه ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم/٧] فمن تمتع بنعم الله وشكر له زاده منها وأثابه في الآخرة ثواب الشاكرين ، ومن كفر نعم الله و لم يشكره سلبها منه وعاقبه في الآخرة عقاب الكافرين ، فسبحان مرسل الرياح المبشرات ومجري السفن المثقلات ومحيي الأرض الموات وله الحمد وله الشكر على نعمه السابغات ورحماته النازلات على خلقه المطيعين منهم والعصاة ، نسأله المزيد من نعمه وأن يلهمنا أن نشكره ويرزقنا ثواب الشاكرين آمين .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤمِنِينَ ﴾ .

جاءت هذه الجملة العظيمة التي فيها ذكر إرسال الرسل بالبينات ونصره للمؤمنين وانتقامه من أعدائهم المجرمين لتسلية قلب النبيء ﷺ ومن معه من المؤمنين ومن بعدهم حتى تقوم الساعة ما دام الصراع قائما بين الحق والباطل ، وتأتي هذه الجملة أثناء الكلام على إرسال الله الرياح المبشرات وإنزاله الرحمات منه ما تقدم ومنه ما يلحق مما فيه ذكر إنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها وذلك أثر رحمة الله لنعتبر بما سبق من الكلام وما يلحق ، ونفهم أن إرسال الله الرسل وإنزال الكتب هو من جنس إرسال الرياح المبشرات ، وإنزال الغيث وأن الله الذي يحيي الأرض برحمته هو الذى يحيي القلوب برحمته النازلة من السماء على رسله ، فرسل الله كالرياح المبشرات وكتبه النازلات هي التي يحيي الله بها القلوب كما يحيي الأرض الميتة بمطر السماء ورحمة الله فى كلتا الحالتين ذات الأثر فعال فى إحياء الموات .

﴿ فَانظُرِ إِلَى أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فالذي يتدبر معنى الآيتين يدرك جليا تمكن هذه الآية التى فيها ذكر إرسال الرسل بالبينات في أثناء الكلام على إرسال المبشرات وإنشاء السحب وإحياء الله الأرض برحمة الله بعد الموت ، وذلك من بلاغة أسلوب القرآن ومن تصريف الله للآيات البينات . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حقًّا علَيْنَا نَصْرُ الْمُومِنِينَ ﴾ .

هكذا يؤكد الله الخبر بلقد ويجيء التعبير بنون العظمة ليذكرنا الله تعالى أنه أرسل رسلا من قبل خاتمهم محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم ، وإن الله لم يترك الناس هملا بل كان طول الزمان يوالي إرسال الرسل إليهم بالبينات كما يوالي إرسال الرياح وإنزال المطر من السحب لإحياء الأرض بعد موتها كذلك كان يرسل الرسل إلى أقوامهم بالكتب والآيات البينات ،وإن من الناس من صدق وآمن ومنهم من كذب وكفر وآذى رسل الله ، فلخاتم الرسل فيهم أسوة فليتأس وليصبر وليعلم أن العاقبة للمتقين ، يقول الله تعالى :

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُومِنِينَ ﴾ .

يخبر الله بنون العظمة أنه انتقم من الذين أجرموا شر انتقام و لم ينتصروا وما كان لهم منه أنصار وكذلك تكون عاقبة المجرمين في كل زمان ومكان ، وفي هذا تحذير وإنذار للكفار لعلهم يرجعون عن غيهم وينتهون من كفرهم .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُومِنِينَ ﴾ .

حقٌ أوجبه الله على نفسه أن ينصر المؤمنين وهو تعبير يحمل معنى القوة والصرامة ، فهو أبلغ من عطف النسق فلو قال مثلا « ونصرنا المؤمنين » لما كان لهذا العطف تأثيره وقوته، كتب الله على نفسه أن ينصر المؤمنين وفي معناه خذلان أعدائه

الكافرين فليثق المؤمنين بنصر الله ينصر من يشاء وليعلم الكافرون أن عاقبتهم الخذلان ولا تغني عنهم قوتهم ولا شركاؤهم من الله شيئا، فما أعظم هذا القرار الرباني الذي يأتي به القرآن الكريم فهم عام لجميع المؤمنين حيثما كانوا ما داموا يسيرون على دربه فلابد سيصلون إلى غايتهم المرجوّة فما عليهم إلا أن يستقيموا ويصبروا والله لايخلف الميعاد ، وفي هذه الآية يأتي ذكر الإجرام مقابل ذكر الإيمان فهما على طرفي نقيض فلا يجتمع الإيمان والإجرام ما دام أحدهما نقيض الآخر وضدّه ، فالإجرام أخو الكفر بل هو أحد الكفرين والإيمان أخو العمل الصالح والاستقامة بل هما جزء من مركب الإيمان الصحيح فهو لايتم إلا بالاستقامة والعمل الصالح ، وعلى هذه الأسس المتينة نبني عقيدتنا .

﴿ اللَّهُ الذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِير سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ فَانظُرِ إِلَى أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يرجع الكلام إلى إرسال الرياح وتجمع السحب ونزول الغيث وحياة الأرض به بعد موتها واستبشار الناس بذلك ، وقد تكلم الله قبل على إرسال الرياح المبشرات ونزول الرحمات بأسلوب آخر ، وتتنوع الأساليب في كلام الله ويصرف الله الآيات لعل عباده يتذكرون ويتذوقون حلاوة التعبير القرآني البليغ . يقول الله تعالى :

﴿ اللَّهُ الذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾ .

يبتدى الكلام بلفظ الجلالة ، الله لا غيره ، الذى يرسل الرياح المثيرة للسحب فهي تثير السحب بإذن الله . ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ .

تثيرها الرياح بأمره فيبسطه في السماء كيف يشاء هو ، ليذكرنا أن كل شيء في السماء وفي الأرض إنما يجري بمشيئته وبأمره ، ويجعله كسفا أي قطعا ثم تتجمع هذه القطع بأمره ومشيئته ويتكون منها سحاب مركوم ويسوقه السحاب بأمره .

﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ .

أي ترى المطر ينزل من السحاب ويخرج من خلاله وهو من صنع الله الذي أتقن كل شيء ، وجاء التعبير بالرؤية لأن هذا أمر نشاهده بأبصارنا دائما ، يطلع السحاب من جهة من الجهات ونرى ذيولا وتلك الذيول هي الأمطار النازلة منه الخارجة من خلاله حتى إذا اقترب منا وشاء الله أن يمطر شاهدنا المطر النازل بين السماء والأرض ، وفي مشاهدته ونزوله سرور عظيم لأن به حياة البلاد والعباد .

﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَاهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .

وفي قوله : ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ .

تنبيه وإيقاظ لضمائرنا أن إصابة السحاب لأرض دون أخرى إنما هو بمشيئة الله وحده، فقد يمطر بلد وتكثر به السيول ويحرم بلد آخر وهو مجدب قد مسه الضر والجفاف والأمر لله ، فإذا أصاب الله من يشاء من عباده برحمته وأرسل عليهم السماء مدرارا إذا هم يستبشرون فرحين بما آتاهم الله من فضله .

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ و ﴿ إن ﴾ .

هذه المخففة من الثقيلة وهى تفيد التأكيد أي لقد كانوا من قبل أن ينزل عليهم الغيث مبلسين ، والإبلاس هو اليأس مع الحيرة والضيق أي إن نفوسهم قبل نزول المطر كانت ضيقة بلغ منها سوء الظن مبلغ الإبلاس وما هي إلا سويعة حتى انقلب إبلاسها استبشارا وسرورا بنعمة الله.

﴿ فَانظُرِ إِلَى أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

فانظر أيها العاقل وتأمل في رحمة الله كيف يحيي الله الأرض بعد موتها وينبت فيها من كل زوج بهيج، وانظر وتأمل كيف يفلق الله الحب والنوى ويخرج منها طعام مخلوقاته إن ذلك لمحيي الموتى يوم البعث والنشور وهو على كل شئ قدير ، لا يعجزه شئ سبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه ، قدرته صالحة لكل شئ وأمره بين الكاف والنون وليس ثمة كاف ولا نون ، ليس ثمة إلا الإرادة والقدرة فإذا تعلقت إرادته بشئ وُجد بقدرته وأمره ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن يفصل الله هذه الآيات وأمثالها لنعلم أن الله على كل شئ قدير، وأن الله قد أحاط بكل شئ رحمة وعلما ، وأن عباده محتاجون إليه في كل شئ فلا غنى لهم عن فضله ورحمته. ثم قال تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ .

لا يزال ربنا تبارك وتعالى يكشف لنا عن طبائع بني آدم وضعف عزائم نفوسهم إلا من رحم ربك، نفوس شديدة الحب للخير تفرح لإقباله ، جزوعة تُبلس عند تأخر نزول الغيث وتكفر إذا مسها شيء من البلاء ، فلولا لطف الله ورحمته بهم لعجل لهم العذاب يقول الله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ .

أي ولئن نرسل عليهم ريحا مهلكة شديدة القر فيها صر ، أو شديدة الحر مع جفاف الأرض ويبسها ، أو عاصفة تحمل التراب أو تحمل جراثيم الأمراض فرأوا نباتهم مصفرا أو ثمارهم مصفرة متصوحة مريضة لظلوا من بعد نزول هذه الآفة يكفرون ويسبون القدر ويسيئون الظن بالله تعالى ، وهذا إنكار من الله لكفر عباده ذوي النفوس الهلوعة التي لا ترضى بقضائه وقدره فهي لا تصبر عند البلاء ولا تشكر عند النعماء ، ولو أنهم آمنوا وصبروا لكان خيراً لهم ، وفي الآية وعظ لنا وتعليم وإرشاد للمؤمنين أن يصبروا عند بلاء الله ويشكروا له عند السراء وتحذير من الكفر وعواقبه فخير لهم أن يرضوا بقضاء الله ويؤمنوا بقدره ويشكروا له ، ويصبروا عند البلاء لينالوا ثواب الصبر والشكر ، والله عنده حسن الثواب. ثم يقول الله تعالى :

﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلاَلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِن بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ .

يخاطب الله تبارك وتعالى نبيه ليسليه ويزيل عنه الغم من كفر قومه وإعراضهم عن دعوته وهو يجتهد في التبليغ فربما يظن أن إعراضهم لتقصير منه في الدعوة والتبليغ فيسليه ربه تعالى بهذه الآية يقول فيها .

﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ وَمَا أَنتَ بِهَادِى الْعُمْيِ ضَلاَلَتِهِمْ ﴾ .

يصف الله هؤلاء الكفار المكذبين بثلاث أوصاف رديئة ؛ وصفهم أنهم موتى

وأنهم صم لا يسمعون النداء وأنهم عمي لا يهتدون بالنور ، فإنك لا تسمع الموتى إن تسمع إلا الأحياء ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، فكيف تسمع الأصم وهو مدبر عنك لأنه لو كان مقبلا كان ربما يفهم إشارة الأيدي أو حركة الشفاه ولكن كيف يسمع وهو مدبر ، وهؤلاء المكذبين الذين تدعوهم موتى القلوب صم الآذان مدبرون غير مقبلين على الداعي ، وهم عُمْيٌ فكيف تهديهم بنورك والأعمى لا يبصر النور فهو لا يرجع عن ضلالته ، وجاء التعبير هذه المرة بالجملة الاسمية المؤكدة .

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِى الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ﴾ .

وهو أبلغ في تقرير الحكم واستشكل العلماء نفي سماع الموتى لكلام النبئ ﷺ مع ماوردت به الأحاديث الصحيحة من تكليمه ﷺ للأموات وإخباره الصحابة رضى الله عنهم أنهم يسمعون غير أنهم لا يجيبون وذلك وقع في غزوة بدر حين نادى أهل القليب الكفار الأموات « يا أبا جهل بن هشام يا شيبة بن ربيعة ياعتبة بن ربيعة يا فلان ابن فلان .... إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » فتعجب الصحابة رضى الله عنهم من ذلك وقالوا : يا رسول الله أتخاطب من قد جيّفوا ؟ ! فأجابهم النبي ﷺ « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لي منهم ولكنهم لا يجيبون » وكذا مخاطبته ﷺ للأمَةِ التي كانت تقم المسجد وهي في قبرها بعد أن صلى عليها سألها : أي الأعمال أفضل ؟ فأجابته قمُّ المسجد ، ذلك لأنها كانت تقم المسجد لا بأجر ولا بأمر ولكنها كانت تفعل ذلك محتسبة عملها عند الله مخلصة به لوجهه الكريم فأراها الله ثواب عملها ذلك أفضل أعمالها ، والجواب على هذا الإشكال أنهم قالوا: تلك خصوصيات للنبئ ﷺ في حالات خاصة ، وقد جاءت الأخبار الصحيحة أيضاً

بحالات أخرى للشهداء ولأولياء الله الصالحين أنهم يسمعون السلام ويردون على أصحابه في حالات وأوقات خاصة ، وما من عموم إلا وقد خصص ولله في خلقه شؤون ، وبعد هذا العموم الذي جاء لينفي سماع هؤلاء المكذبين المعرضين عن الداعي المتعامين عن النور يأتي قوله تبارك وتعالى في مدح المؤمنين الذين يسمعون .

﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤمِنُ بِئَايَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

إن تسمع يا محمد إلا من يؤمن بآيات الله ويبصر النور فهم مسلمون ، وقد أسلموا نفوسهم لله رب العالمين ، وصفهم الله بالجملة الاسمية ليفيد الوصف ثبوت الإسلام في قلوبهم وثباتهم عليه ثباتا لازما فهم لا يرتدون عنه ولا تزايل بشاشته قلوبهم المؤمنة، أولئك الذين يسمعون داعي الله ويهتدون بنور هداه ، والله يهدي لنوره من يشاء ، وأولئك الذين ينتفعون بالذكرى ويستمعون المواعظ لأنهم خاشعون لله منقادون لطاعته.

ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

يبين الله لنا في هذه الآية برهانا من براهين علمه وقدرته الظاهر في خلقه إيانا أطوار طورا بعد طور بعد الموت والفناء ثم بعده البعث والجزاء ، يقول تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن ضَعْفٍ ﴾ .

أي الله الذي خلقكم من ضعف لاغيره فأنى تؤفكون فكيف ترجون غيره ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح/١٣-١٤] خلقكم من ضعف ، وهذا أبلغ في تصوير حقيقة الضعف من التعبير بالصفة فلو قال خلقكم ضعفاء كان التعبير بالصفة أقل دلالة من الوصف بالمصدر ، فكان أصل خلقتنا هو الضعف بعينه كيف لا يكون كذلك وهو قطرة من المنى : بل شُعيرة ضعيفة من ذلك الماء المهين لا ترى بالعين إلا إذا كبرت ألف مرة ثم بعد أربعين يوما يصير علقة ثم بعد مثلها يصير مضغة ثم تصير المضغة عظاما ثم يكسو الله العظام لحما ثم ينشئه خلقا آخر ينفخ فيه الروح ثم ييسر الله سبيله فيولد ضعيفا ثم لا يزال يتقلب في أطوار الضعف يتقوى قليلا حتى يصير شابا ثم يبلغ أشده ، فإذا هو مغتر بقوته وشبابه ، وما يعلم المسكين أنه يحمل في قوته عناصر الضعف الذي ينقلب إليه قريبا ، هذا إن أنسأ الله في أجله و لم يختضر في صعره وكثيرا ما يختضر الأطفال والشباب فى صغرهم وكثيرا ما يختضر الكهول ولا ينظرون إلى الشيخوخة والهرم ، ولا يمر على هذه الأطوار كلها ويأتي على آخرها إلا من أطال الله عمره فعاش طويلا وهم قليلون . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ﴾ .

ثم جعل الله من بعد ضعف الإنسان في منشئه قوة الشباب وبلوغ الأشد ، كل ذلك بصنع الله وقدرته ومدد منه ، فكان ينبغى للإنسان أن لا يغفل عن هذا وأن يعلم أن ما به من قوة فمن الله حتى يعبده ويشكره ويذكره ولاينساه ولكن كثيرا من الناس لا يشكرون وقليل منهم من يتواضع لعظمة الله ويشكر له ويسخر قواه فى طاعته .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعفاً وَشَيْبَةً ﴾ .

ثم جعل الله من بعده قوة الشباب والكهولة ضعفا وشيبة ، وكثيرا ما يبدأ الضعف ويظهر الشيب في طور الكهولة فلا تكاد تكتمل القوى حتى يبدأ النقص فيها ويسرع الوهن وتظهر الأسقام والأوجاع وتلك هي بداية الشيخوخة ، ولا يزال الضعف يلح بالإنسان ويلازمه حتى ينتهي إلى عجز الشيخوخة فالهرم فيضعف عن الحركة ويضعف السمع والبصر ويوهن العظم فتراه قاعدا لا يقوم إلا بجهد ويتوكأ على عصا أو عصيين ويمشي بطيئاً وتلك حالة الشيوخ الكبار تضعف فيهم كل القوى الظاهرة والباطنة حتى الذاكرة تضعف فينسى سريعا ولا يكاد يعقل وذلك كما قال تعالى ﴿لِكَيْلاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ [النحل/ ٧٠] وهذا هو آخر أطوار الإنسان في هذه الحياة فيعقبها الموت والفناء والذي ينبغي لهذا الإنسان وهو يتقلب في هذه الأطوار ألا ينسى مبدأه ونهايته ومصيره بعد الفناء وأن يسلم نفسه لله ويقدره حق قدره ويتواضع له .

﴿ وَهُوَ العَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ .

تأتي هذه الآية متمكنة غاية التمكن بعد الذي تقدم فسبحان الذي وسع كل شئ علما وقدرة وهو العليم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض وهو بكل خلق عليم ، وهو القدير الذي لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء يقول للشيئ كن فيكون ، ومن كان كذلك فهو أحق أن يعبد ويخاف ويرجى ويتوكل عيله وحده وهو نعم المولى ونعم الوكيل .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ

كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ
لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ
وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٥٦ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٥٧ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ
لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ٥٨ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٥٩ فَٱصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠

يختم الله هذه السورة المباركة بهذه الآيات التي فيها الوعظ والتذكير بقيام الساعة وهي نهاية هذه الحياة الدنيا وبداية البعث والنشور فالجزاء العادل ، وقد تطلق الساعة في القرآن ويراد بها فناء الدنيا وما فيها ، وقد تطلق ويراد بها البعث والنشور وبينهما أي بين النفختين نفخة الصعق ونفخة البعث أربعون كما جاء في الحديث الصحيح ولسناندري أربعون عاما أو أربعون ألف عام ، وسميت الساعة ساعة لأنها تأتي بغتة وفي وقت سريع كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل/٧٧] وليست الساعة الواردة في القرآن هي تمام ستين

دقيقة كما نفهم بحسابنا بل الساعة في اللغة العربية هي قطعة من الوقت ، وأطلقت في القرآن على فناء العالم وعلى قيام الناس من قبورهم للحساب ، وفي هذه الآية قصد منها قيام الناس من قبورهم يوم البعث بدليل ما بعدها من الحوار الذي فيه ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ .

ويوم البعث يقسم المجرمون ما لبثوا في قبورهم غير ساعة أو ما لبثوا في الدنيا غير ساعة لأن هول ذلك اليوم ينسيهم المدة التي لبثوها قبل ذلك فيتضاءل في أعينهم ما لبثوا قبل ذلك في الدنيا أو في قبورهم فيبدو لهم في قصره كأنه ساعة من زمان قال الله تعالى : ﴿ كَذَالِكَ كَانُوا يُؤفَكُونَ ﴾ .

أي كذلك كانوا في الدنيا يؤفكون عن الحق وينطقون بالإفك وقد ألفوه من قبل فهم يقسمون على الإفك لأنهم اعتادوه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

الذين أوتوا العلم هم العقلاء من أهل العلم والإيمان وهذا رفع لمقام أهل العلم ، والعلم هنا هو العلم بدين الله وشريعته وهذا مقام عظيم بحيث يؤذن لهم في الكلام ويسمع لقولهم الذي هو صواب ، والعلم شرف لأهله في الدنيا والآخرة يقول الذين أوتوا العلم لهؤلاء المجرمين : لقد لبثتم فيما كتبه الله من سابق علمه وقدره إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث أي فإن كنتم تكذبون بيوم البعث أو تستبعدونه فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون الحق وكنتم تكذبون وترتابون في أمره وتجهلون ، وفي هذا

الرد عليهم تبكيت لهم ولا يعلم إلا الله ما ينالهم يومئذ من الخزي والندامة ولات مندم.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنفَعُ الذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ .

يومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ، الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وبالإجرام والمعاصي وظلموا الناس بأنواع الظلم لا ينفعهم الاعتذار ولا يقبل منهم بل لا يؤذن لهم فيعتذرون وقد انقطعت أعذارهم فلا عذر لهم ولا هم يستعتبون ولا يمكنون من التوبة والاستغفار وطلب الرضا ، أنى لهم ذلك وقد فات الأوان وليس اليوم يوم التوبة والاعتذار ، فأحرى لمن يسمع هذا الكلام وهو لا يزال في الدنيا أن يسارع إلى التوبة والإقلاع عن الظلم والكفر ما دام باب التوبة مفتوحا .

﴿ وَلَقَدَ ضَّرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الذِينَ كَفَرُواْ إِنَ اَنتُمْ إِلاَ مُبْطِلُونَ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يخبرنا الله تبارك وتعالى ويؤكد الخبر ، ويسند إليه نون العظمة أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل واضح مفهوم لا لبس فيه ولا غموض والمثل يكون إما بمناظرة بين صورة معنوية بصورة محسوسة ، ويكون في أمر الايمان والكفر والنفاق ، وفي المؤمنين والكافرين والمنافقين ، أو في أمر العلم والجهل ، أو في حقيقة الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة ، أو في الأعمال التي يقبلها الله من المؤمنين المخلصين وفي الأعمال التي يردها على الكافرين وعلى المنافقين وعلى المرائين ، وفي غيرها من أمور الملك والملكوت ، وقد يكون المثل بعرض بعض الأخبار والقصص التي يراد بها الاعتبار، وهذه الأمثال من رب العالمين تنير الطريق لأولي الألباب المؤمنين ويزدادون بها إيمانا

وإخلاصا لربهم ولكن الكافرين والمنافقين يقولون ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ [البقرة/٢٦] يقولونها بصيغة السخرية والتهكم ويضل الله من يشاء ويهدي من يشاء، أما الذين يستهزئون ويسخرون فقال الله فيهم ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة/١٥] وقال فيهم ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة/٧٩] وهنا يحكم الله عليهم بالطبع فيقول :

﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الذِينَ كَفَرُواْ إِن اَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ كَذَالِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

ولئن جئتهم بآية أنت أومن يأتي بعدك من خلفائك العلماء والداعين إلى الله، وهذا نفهمه من جوابهم الذي جاء بصيغة الجمع فجوابهم ﴿ إِن اَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُون﴾ يقولونه لكل من يتلو عليهم آيات الله البينات ، هذه الآيات تزيد المؤمنين إيمانا وهم يستبشرون بها ولكن الكافرين ينكرونها ، وإذا تليت عليهم زادتهم رجسا إلى رجسهم لقساوة قلوبهم وفساد نفوسهم بما ران عليها من الذنوب التي اكتسبوها فهم يكذبون الدعاة إلى الحق ، ويصمونهم بالباطل بل يقصرونهم على الباطل ، غلوا في اللجاج والتمرد والعناد ، وأخبر الله نبيئه وأكد الخبر أنهم يقولون مقالتهم هذه ، وفي هذا الإخبار تسلية للنبيء ﷺ ولمن بعده من خلفائه الداعين إلى الحق حتى لا يؤسفهم تكذيب أقوامهم لهم وحتى لا يظنوا أن ذلك لتقصيرهم في إبلاغ الدعوة يقول الله تعالى :

﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِئَايَةٍ لَّيَقُولَنَّ الذِينَ كَفَرُواْ إِنَ اَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُون ﴾ .

ويقول الله بعد هذا مخاطبا نبيئه ﷺ ومن يقوم بعده بواجب الدعوة والتبليغ من أمته .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ فَاصْبِرِ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ .

كذلك أي ذلك الطبع على قلوب المجرمين الكفرة يطبع الله على قلوب الذين سلبوا العلم والإيمان بتكذيبهم وقساوة قلوبهم وأبعد الناس من الله القلب القاسي، فمن أين يأتيهم العلم وقد أعمى قلوبهم اتباع الهوى وحب الدنيا والكبر والحمية والميل إلى الباطل فهم لا يعلمون الحق ولا يستمعون لمن يدعوهم إليه ولا يعترفون به ولو استيقنته أنفسهم ظلما وعلوا ، فإذا كان الأمر كذلك فاصبر إن وعد الله حق ، اصبر على آذاهم وتوكل على الله واستمر في نشر الدعوة أنت ومن معك واثبتوا واعلم أن وعد الله بنصر المؤمنين وإظهار دينه وإهلاك الظالمين آت لاريب فيه ، وأن قيام الناس ليوم البعث حق لامرد له من الله .

﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ .

ولا يحملنك على القلق والجزع واستبطاء النصر مكرهم وأذاهم وإمهال الله إياهم فإن لهم موعدا لن يخلفهم وهو مدركهم ولكنهم لا يوقنون ، فهم شاكون خراصون ضالون لا يستغرب ذلك منهم .

هكذا يختم الله السورة بهذه الآية المحكمة التي هي تثبيت للنبيء وخلفائه من بعده ، وكأن الآية جمعت معاني السورة من أولها ، فهي خلاصة لما سبق من تثبيت الله لعباده المؤمنين وتختم السورة بمثل ما بدئت فهي تنفي العلم عمن يعلم ظاهر الحياة الدنيا وهو عن الآخرة غافل كما تنفي العلم عن الكفار المكذبين وتثبت المؤمنين الصادقين بوعد الله بتحقيق نصره لمن يشاء وهو العزيز الرحيم ، فليثقوا بنصر الله

وليصبروا ولا يستخفنهم الذين لا يوقنون والله لا يخلف المعياد ، وليكن لدعاة الحق جميعا أينما كانوا أسوة حسنة برسول الله ﷺ فقد وثق بوعد الله ، واجتهد في تبليغ الدعوة وصبر صبرا جميلا ، وثبت في الطريق إلى نهايته وعبد ربه حتى أتاه اليقين ، وكذلك ينبغي أن يكون ورثته من دعاة الحق في صراط الله المستقيم ، ولا يكون صابرا من يبث شكواه إلى الناس أو يضعف ويثني في بث العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة البدع والضلالات ، وليس صابرا من يميل ولو بعضا إلى أهل الأهواء والزيغ والإلحاد ، وما أكثر دعاة الضلال والإلحاد في عصرنا هذا فليكن دعاة الحق لهم بالمرصاد وليثبتوا على الصراط المستقيم ، وهو المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها والتي تركنا عليها رسولنا ﷺ وترك فينا ما إن تمسكنا به لن نضل أبدا كتاب الله وسنته ، ولنا في هديه أسوة حسنة فلقد قال لعمه أبي طالب حين أرسلته قريش إليه يعرض عليه إغراءاتهم بالمال والسلطان وغير ذلك قال له : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه » ذلك هو الثبات وتلك هي عزيمة الصبر ، لقد حاولوا أن يستخفوه بمختلف الأساليب ولكنه عمل بوصية الله وامتثل أمره وعلم أن وعد الله حق .

﴿ فَاصْبِرِ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ .

والحمد لله رب العالمين

تم تفسير سورة الروم

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

تفسير سورة لقمان وهي مكيه وءاياتها ٣٤

أَلٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ② هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑤
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ
ٱلنَّعِيمِ ⑧ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⑨
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن
تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا
خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١

سميت سورة لقمان بهذا الاسم لأنها امتازت من بين السور بذكر وصايا لقمان لابنه ، وأسماء السور توقيفية ، وقد يكون للسورة أكثر من اسم واحد ، وتسميتها كانت في زمن الرسول ﷺ وأثبتت هذه الأسماء في مصاحف الإمام عثمان التي وزعها على الأمصار وكذلك ترتيب السور توقيفي رتبها رسول الله ﷺ مبلغ القرءان عن جبريل عليه السلام عن رب العالمين ، وأجمع المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على هذا الترتيب منذ أربعة عشر قرنا لاخلاف بينهم في ذلك فنحن ما ضون على هذا الترتيب لا نقبل خلافه أبدا ، وقد حاول بعض أهل زماننا من المستشرقين ووافقهم بعض ضعفاء المسلمين على ذلك وهذا أمر مؤسف وهو غير مقبول ، حاولوا أن يسلكوا طريقة أخرى في ترتيب سور القرءان وذلك أنهم رتبوها حسب زمان نزولها وهذا منهم انحراف عن سواء السبيل ، ذلك لأن الله لم يرتبها لرسوله حسب نزولها بل رتبها ترتيباً آخر ، وبين أواخر السور وأوائل التي تليها تناسق وتلاؤم وانسجام فهي كأنها حلقات ذهبية آخذ بعضها ببعض ، فكل من حاول فك هذا التماسك فقد أساء وظلم ، والله يتولى أمره ، وهذا الترتيب المدون في المصاحف توقيفي مجمع عليه من سورة الفاتحة إلى سورة الناس لا يختلف فيه اثنان ، أما الترتيب المزعوم حسب تاريخ النزول فأمر مختلف فيه فلا معول على أمر فيه اختلاف وليس فيه اتفاق ولا يعارض القطعي بالمظنون ، فلتمسك بهذا الترتيب المجمع عليه المدون في المصحف الإمام .

تفتتح هذه السورة المباركة بالحروف الهجائية المقطعة ﴿ الم ﴾ كسوابقها وتاليتها والذي قلناه هناك في معاني هذه الحروف هو ما نقوله هنا والله أعلم بمراده من ذلك ، ويرد ذكر الكتاب في هذه السورة كأغلب السور المبدوءة بالحروف المقطعة ، وتأتي الإشارة إلى ءايات الكتاب بإشارة البعيد ذلك للتنويه بشأنها ، يوصف الكتاب بثلاثة أوصاف عظيمة ، يوصف بالحكيم وبأنه هدى ورحمة للمحسنين ، وهي أوصافه الأصلية ، وصف بالحكيم لأنه يشتمل على الحكمة ، والحكمة هي وضع الشيئ في موضعه أوكما يقول أهل السياسة : وضع الشيء المناسب في الوقت المناسب في الموضع المناسب ، وكذلك هو لأنه تنزيل من حكيم حميد ، ووصف بأنه هدى وما أبلغه من وصف لأنه وصف بالمصدر فهو عين الهدى كما قال فيه منزله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا القُرآنَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء /٩] وجاء في أوائل سورة البقرة ﴿ الٓمٓ ذَلِكَ الكِتَابُ لاَرَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ هو هدى للناس جميعهم لكن الذين يبصرون هداه وينتفعون هم المحسنون والمتقون وأولئك هم أولوا الألباب والبصائر المستنيرة التي تبصر نور الله فتهتدي به ، أما الذين قلوبهم في أكنة ، وآذانهم صم وعلى أبصارهم غشاوة فأنى يهتدون وبينه وبينهم حجاب ، فالقرآن الحكيم هدى ورحمة للمحسنين، ووصف القرءان بأنه رحمة ، فهو حقا رحمة الدنيا والآخرة ، وكيف لا يكون كذلك وهو منزل من الرحمن الرحيم ، هو رحمة من الله للمؤمنين يريهم طريق السعادة والفلاح فيسلكونه فيرحمهم الله ، وهو رحمة من الله لهم أفرادا ومجتمعات في الدنيا يعلمهم الرضى بقضاء الله فيحسنون الظن بربهم فتطيب لهم المصائب والبلايا لأنهم يعلمون أنها امتحان لهم من الله ليرفع درجاتهم عنده ويجزل لهم

الثواب في الجنة ، ويلطف الله بهم في البلاء لأنهم أتباع القرءان وقراؤه ، وقراءة القرءان أنس ومتعة وروح ، فكم من مريض وكم من مسجون وكم مكروب يقرأ القرآن فينسيه القرآن همه ومرضه ، ويكون شفاء له وطمأنينة لقلبه ويشعر أنه مع الله وأن الله معه فيزول عنه كل هم وقلق ، وفي القرآن يصف الله المؤمنين فيقول جل من قائل : ﴿ الذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد/٢٨] والقرآن رحمة لمجتمع المؤمنين المحسنين.بما يلحم بينهم ويؤلف بين قلوبهم وهم يجتمعون كل يوم خمس في المساجد يصلون جماعات ويقرءون القرآن وينصتون إليه ويتعاونون على البر والتقوى فيكونون بذلك كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وقد علموا أنه لا يؤمن أحدهم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ولا يوجد مثل هذا التحابب والتواد إلا في مجتمع القرآن وكيف لا يكونون كذلك وقد جاء في الحديث الشريف « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » فالقرآن حقا هدى ورحمة للمحسنين ، ومن هم المحسنون؟ جاء تفسير الإحسان في الحديث الصحيح « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ذلك هو الإحسان في العبادة والمحسنون لهم الحسنى وزيادة ولهم البشرى في الدنيا والآخرة جزاء لهم على إحسانهم قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن/٦٠] والمحسنون هم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ، تلك هي أوصاف المحسنين اللازمة لهم ولا يمكن إلا أن يكونوا كذلك ، أما الصلاة فعلى كل مسلم ومسلمة وهي الصلة

بينهم وبين ربهم ، وأما الزكاة فعلى من بلغ ماله النصاب كما جاء ذلك مفصلا في السنة النبوية الشريفة ، وأما الإيقان بالآخرة فهو عمارة قلوب المحسنين وهو رصيدهم من الإيمان الراسخ ، متى قوي الإيمان ورسخ في القلب صار يقينا ليس للشيطان عليه سلطان، وصاحب اليقين يكون من المحسنين ولذلك جاءت هذه الأوصاف متلازمة للذين كان كتاب الله الحكيم هدى ورحمة لهم ، واستشكل بعض العلماء ذكر الزكاة في هذه الآية وهي مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة بعد الهجرة ، والجواب سهل والحمد لله وهو أنه ذكر الصلاة والزكاة مجملا في آيات كثيرة من القرآن المكي منها والمدني وهما الدعامتان للإسلام عند الذين من قبلنا من الأمم ثم يرد تفصيلهما بعد ذلك في أوقاتهما وينسب العلماء تاريخ تشريعهما إلى تلك الأوقات والله أعلم . وأغلب ما يأتي ذكر الصلاة في القرآن مقرونا بالإقامة أو ما في معناها لأن المأمور هو الإتيان بالصلاة قائمة بطهارتها وأركانها وسننها وآدابها وخشوعها في أوقاتها المفروضة أما الإتيان بمجرد الصلاة بدون مراعاة هذه الأشياء فلا ينفع وهو من السهو عن الصلاة الذي جاء فيه الوعيد في القرآن ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون/ ٤-٥] أما الزكاة فذكر الإيتاء فيها مناسب أيضا لأنها مقدار معلوم في مال الأغنياء يؤخذ ويؤتى للأصناف التي ذكر الله تعالى في سورة التوبة من القرآن الكريم ، فلا بد أن نؤتيها من يستحقها من المؤمنين وإلا فلا تقبل، والمحسنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون، سماهم الله محسنين وأكد يقينهم بالآخرة بالجملة الاسمية التي تدل

على الثبوت والدوام ، وقدم ذكر الآخرة لأنها الأمر المقدم عندهم فهي همهم الأكبر ثم جاء بضمير الفصل لتأكيد الخبر، كل ذلك ليفيد أن سر استقامتهم على الصراط المستقيم هو إيمانهم القوي الذي بلغ درجة اليقين، ولا يزال هذا اليقين يزداد قوة في ضمائرهم بمشاهدة آيات الله في الكون وتلاوة آيات الله في كتابه الكريم وفعل الطاعات وسائر أنواع القربات ، ثم قال فيهم :

﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ .

أي أولئك متمكنون من هداية الله تمكن المستعلي على الشئ فكأن الهدى مطية وهم راكبوها وهي تسير بهم في طريق السعادة والفلاح .

﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وفي تكرير أولئك تأكيد للخبر واهتمام بالمخبر عنهم ، ثم جاء بضمير الفصل مع تعريف الخبر بالألف واللام كل ذلك ليفيدنا أنهم أهل الفلاح حقا وأن الفلاح محصور فيهم لا غير فلن يفلح من لم يكن على هذه الأوصاف ، فمن أراد الفلاح فليقتد بهم وليسلك سبيلهم وليحسن في عبادة ربه وليقم الصلاة وليؤت الزكاة وليؤمن إيمانا راسخا بالآخرة يبلغ درجة اليقين ، تلك هي أسباب الفلاح.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

في هذه الآيات يذكر الله طائفة أو طوائف كثيرة من الناس يشتغلون بلهو الحديث ويصدون عن سبيل الله ويتخذونها هزوا ويستكبرون عن آيات الله

ويسخرون من الذين يتلونها عليهم ، ويبين عاقبتهم السيئة أنهم في العذاب المهين وفي العذاب الأليم خالدين فيه ، وهذا كله جريا على أسلوب الترغيب والترهيب ، والقرآن مثاني فهو إما يذكر أولياء الله وأعمالهم وجزاءهم عنده ، يبدأ بهم ويثني بذكر أعداء الله وأعمالهم وعاقبتهم الوخيمة ، وإما يبدأ بذكر أعداء الله المجرمين وعواقبهم يبدأ بهم ويثني بذكر أولياء الله الصالحين وأفعالهم وعاقبتهم الحسنى ، وفي ذلك موعظة وذكرى للمؤمنين وهذ بعد ذكر المحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ، وهم الذين يهتدون بهدى القرآن والذكر الحكيم ، وذكرهم الله بخير ووعدهم الفلاح بعد ذكرهم يثني الله تعالى بذكر نوع آخر من الناس يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فهم يشترون لهو الحديث ليضلوا الناس عن سبيل الله بغير علم ويتخذونها هزوًا ولعبا ، والآية نزلت في المشركين من أهل مكة أعـداء الله ورسـوله أمثال أبي جهل وأمية بن خلف والنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة وعقبة ابن أبي معيط وأمثالهم يشترون القيان وأدوات الطرب والخمر ويتعرضون للذاهبين إلى محمد ﷺ ليستمعوا إلى كلام الله فيتعرضون لهم ويغرونهم بمجالس الغناء والرقص ويأمرون قيانهم أن يغنينهم ويسقينهم الخمر ليضلوهم عن سبيل الله فلا يذهبون إلى محمد ولا يستمعون إلى كلامه خشية أن يتأثروا بحلاوة منطقه وتميل قلوبهم إلى دينه فيجلبونهم إلى مجالس الطرب والغناء بهجاء محمد ودينه وأصحابه والسخرية بهم ، وربما يجلبون القصاص أمثال النضر بن الحارث فيقولون لهم : إذا كان محمد يحدثكم عن عاد وثمود وأخبار الأولين فنحن نحدثكم عن أخبار الفرس والروم والقرون الأولى فيخدعونهم بأحاديثهم الفارغة التي هي كلها سخرية بالدين الحق ودعوة إلى الباطل وقول الزور والرجس من الأوثان يضلون الناس عن سبيل الله بغير علم ، لا شيئ في كلامهم من

حقائق العلم ومن سلطان الحق إن هو إلا الظنون والأوهام والأكاذيب ، فهم ينكرون أنبياء الله ورسله وكتبه والبعث بعد الموت والجنة والنار كما أخبر الله تعالى عنهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية/٣٢] كل ما عندهم من الأحاديث والفلسفات تبني على الظنون وعدم الدراية فهم يتخذون سبيل الله هزوًا يسخرون ويهزءون بالمؤمنين الذين يدعونهم إلى سبيل الله ويهينونهم وينظرون إليهم نظرة ازدراء واحتقار ويؤذونهم ما وجدوا سبيلا إلى إيذائهم وهم لا يراعون في مؤمن إلا ولا ذمة. قال تعالى:

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

الإشارة إليهم بإشارة البعيد لبعدهم عن ربهم ولهوانهم وحقارتهم عنده ، لهم عذاب يذوقون فيه كل أصناف الذلة والصغار والهوان، جزاء وفاقا ، فالإهانة جزاؤهم على كبريائهم واتخاذهم سبيل الله هزوًا ومن اعتز بالباطل في الدنيا أهانه الله في العذاب يوم القيامة . وهذه الأنواع من اللهو التي يشتريها الناس اليوم ليضلوا عن سبيل الله هي كثيرة ومتنوعة ، وهي في عصرنا أكثر منها في عصر النبوءة بأضعاف المرات ، وقد لا يأتي عليها الحصر لكثرتها فإذا ذكرنا منها نماذج فعلى وجه التمثيل لاعلى وجه الحصر فمنها هذه المسارح والسينماءات التي تغيب منها الفضيلة والحياء فضلا عن الدين ، وكذلك ما تعرضه شاشات التليفزيون أغلبه من اللهو الخليع لأن عارضيه ليست لهم الحصانة الدينية فهم لا يقفون عند حدود الشرع بل يتعدونها ، فيجب علينا نحن أن نتحصن منها ونحصن عائلاتنا وأولادنا ومن هو تحت رعايتنا ، ومنها الآلاف من المجلات الخليعة التي تحمل صور النساء المكشوفات والمتبرجات وتعرض هذه

الصور قصدا للتجارة لأن الناس أكثرهم مولعون بشراء هذه المناظر وكذلك ينشرون آلات الطرب وأشرطة الغناء وربما مناظر الجنس التي يستحي العاقل من رؤيتها ، هذه كلها يشتريها الناس ويصرفون الآلاف للسفر بالطائرات لشهود حفلات الغناء والرقص يرتحلون إليها عبر الأقطار البعيدة ويشترون أشرطتها ليعرضوها في سمرهم، هذا ما يكثر اليوم ولسنا ندري ما يأتي به الغد ، ومن غريب أمر الناس أنهم يبذلون في اللهو المحرم الأموال الكثيرة فهم يشترونها بالآلاف والملايين ولهم بذلك شغف وغرام بينما تعرض عليهم أبواب الطاعة والقربات مجانا فيزهدون فيها ، فالمساجد مفتحة أبوابها ومجالس العلم ومجالس الذكر وأبواب الخير مفتوحة ويقل قاصدوها بينما يزدحم الناس على أبواب المسارح والملاهي والسينماءات ويبذرون أموالهم في ديار الخنا والمخامر وبيوت القمار واللهو وهذا كله من تزيين الشيطان وإغرائه وصدق الله العظيم الذي يقول : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَامُرُكُم بِالفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة/٢٦٨] أي الشيطان يعدكم الفقر في الإنفاق في الخير ويأمركم بالفحشاء ويزين لكم الإنفاق في المعاصي والمباهات في تبذير الأموال في الملاهي ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا على الإنفاق في أبواب الطاعات والقربات ، يعدكم الإخلاف في الدنيا من رزقه الواسع الحلال والأجر المضاعف في الآخرة ، وما عند الله خير وأبقى ، وما عند الله خير للأبرار .

ثم يستمر الكلام في وصف هؤلاء المستهزئين المعرضين بعد أن قدم الله لهم الوعيد بالعذاب المهين لاستحقاقهم ذلك وعجل لهم ذكر العذاب قبل أن ينتهي الكلام عنهم لشدة غضب الله عليهم ولتسلية قلوب الدعاة إلى الله وتثبيتهم على جهادهم

حتى لا يملو ولا يسأموا وكفى بجهنم سعيرا وكفى بها عقوبة لهؤلاء المكذبين المستهزئين قال تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

يقول الله تعالى : وإذا تليت آياتنا على أحد هؤلاء المضلين عن سبيل الله ولى مستكبرا وأعرض عن سماعها فكأنه لم يسمعها وكأن في أذنيه صمما فبشره بعذاب أليم وجاءت البشارة هنا بالعذاب وذلك تهكما بهم وتبكيتا لهم على كبريائهم وإعراضهم عن آيات الكتاب الحكيم الذي أنزله الله هدى ورحمة للمحسنين ، ونسبت الآيات هنا إلى نون العظمة لبيان عظمتها وعظمة جرم أولئك الذين يستكبرون عن آيات الله العظيمة فهم يستحقون العذاب الأليم يوم القيامة جزاء على تصاممهم عن سماع آيات الله البينات ، يقول هؤلاء المستكبرون المستهزئون اليوم : الناس طاروا في الهواء وشرعوا في غزو الفضاء بصواريخهم والمسلمون لا يزالون يتكلمون في الطهارات وآداب قضاء الحاجة ، وفي كيفية الوضوء والصلاة وفي الصوم والزكاة وفي الحلال والحرام وهذا الذي تركهم متأخرين وراء قوافل الاختراع ...... إلخ ، وهذا منهم ظلم وإلحاد وكفر وليس الإسلام هو الذي عطل المسلمين عن العلوم والاختراعات بل العكس أقرب إلى الواقع ، فبعدهم عن روح الإسلام وحقيقة الإيمان هو الذي تركهم ضعافا تتداعى عليهم الأمم تداعي الجياع على القصاع ، ولو تمسكوا بدينهم حق التمسك ونبذوا التفرق والاختلاف لبقوا على عزهم وسيادتهم وتمكنهم في الأرض،والإسلام يأمر بالبحث والنظر في الكون علويه وسفليه ، ويخبرنا كتاب

ربنا أن الله سخر لنا مافي السماوات ومافي الأرض جميعا ، وأمرنا أن نمشي في مناكب الأرض ونبتغي من فضل الله، وما يمنعنا أن نكتسب حقائق العلوم مع الاحتفاظ بديننا وصلاتنا وصومنا وزكاتنا، وهل إن طار الناس في الهواء أو غزوا الفضاء وغاصوا في أعماق البحار هل هم يخلدون في هذه الدنيا ولايموتون ولا يبعثون يوم القيامة للحساب والجزاء على أعمالهم ؟ ! إن شيئا من حقائق دين الله الحق لا يتغير لأجل الاختراعات وتقدم العلوم، ومهما تقدمت بهم هذه العلوم فما هي إلا علم بظاهر من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، والدين لا ينهى عن البحث والتعليم والاختراع في شتى الميادين بل يأمر بذلك وهو داخل في قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اَسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[الأنفال/ ٦٠] فهذه العلوم تنفع مع الايمان بالله واليوم الآخر ، وهي وسيلة من وسائل القوة والتمكن في الأرض ، وبدون الايمان والعمل الصالح لا تكون إلاوبالا على أصحابها ، ووسيلة من وسائل التدمير والتخريب والبغي في الأرض بغير الحق .

ثم يرجع الكلام إلى الفريق الأول الذين بدئت بهم السورة وهم المحسنون الذين هم يهتدون بآيات الكتاب الحكيم قال تعالى :

﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ الَّلهِ حَقاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

ذكر الله فريق المحسنين في أول السورة وأثنى عليهم بما يستحقون ، وذكرأنهم مفلحون وأنهم على هدى من ربهم ، وإن سأل سائل فقال ما نوع هذا الفلاح، فالجواب في هذه الآية يأتي بعد وصفهم بالايمان والعمل الصالح، إنهم آمنوا بالله

واليوم الآخر وآمنوا برسل الله وكتبه ، وعملوا الأعمال الصالحات فاستحقوا بذلك الجزاء الحسن من الله ، ولكن الله تفضل عليهم بأكثر مما يستحقون ذلك لأنهم محسنون، وقد قال الله في المحسنين ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس /٢٦] وهنا يقول ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ فهي جنات كثيرة لاجنة واحدة، وفي هذه الجنات أنواع النعيم من القصور العالية ذوات الفرش المرفوعة والأكواب الموضوعة والنمارقة المصفوفة والزرابي المبثوثة العامرة بالكواعب الأتراب كأمثال اللؤلؤ المكنون، ولباسهم الحرير وطعامهم وشرابهم ألوان المآكل والمشارب الشهية في صحف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين وهم فيها خالدون، لا يبغون عنها حولا ، لقد صبروا في الدنيا على مرارة الظلم والسخرية والاستهزاء من أعداء الله فأذاقهم الله ربهم حلاوة النعيم في جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا، كان ذلك من الله وعدا حقا والله لا يخلف الميعاد ، وليس كوعود ملوك الدنيا لأنها تخلف لفقر أو عجز أوموت أو تغير الأحوال والله غني حميد حي لا يموت ، قوي أبدا صادق وعده الحق ، وهو العزيز الذي لا يغالب ، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها فعال لما يريد ، قوله الحق وله الملك ذلت لعزته جميع خلقه ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، ولا يظلم الناس شيئا ، وما ربك بظلام للعبيد ، تأتي هذه الآية الكريمة التي تبين مصير المؤمنين الذين يعملون الصالحات بعد ذكر مصير الكفار المستهزئين بآيات الله ، فليقارن أولوا الألباب بين مصير هؤلاء وهؤلاء وشتان ما بينهما، وليختر العاقل لنفسه ما دام له الاختيار .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن

كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

تتصل هذه الآية بالتي قبلها اتصالا وثيقا فالآية التي قبل هذه فيها ثناء على الله بالعزة والحكمة ، وهذه فيها إسناد الخلق كله إليه وأنه لا خالق إلا الله، الله العزيز الحكيم الذي يخلق جنات النعيم لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ويُعد لهم فيها من النعيم المقيم ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، هو الذي خلق السموات بغير عمد وألقى في الأرض الجبال الرواسي وبث فيها من كل دابة ، وأنزل من السماء ماء بقدر هو أصل الحياة فأنبت به في الأرض من كل زوج كريم ، فهذه خمس آيات عظيمة من آيات الله ينفدُ العمر دون أن ندرك كنهها بل نقف عاجزين أمام هذه القدرة العظيمة ونسبح الله ونسلم الأمر كله لله تعالى. يلفتنا ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية العظيمة إلى خمس آيات كونية يراها ويدركها كل الناس عالمهم وجاهلهم، كبيرهم وصغيرهم ، رجالهم ونساؤهم ، إنسهم وجنهم ، ولا يزالون حيارى في هذه القدرة التي تتصرف في الكون علويه وسفليه فأينما التفت ترى هذه الآيات الكبرى : خلْق السموات بغير عمد ، وإرساء الجبال على الأرض ، وبث الدواب فيها ، وإنزال الماء من السماء ، وإنبات كل زوج كريم من النبات في هذه الأرض ، فمن الناس من ينكر هذه الآيات أو يتجاهلها ويتعامى عنها ، أو يزعم أن أحداً دون الله يخلق شيئا منها يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ .

ارفع رأسك يا ابن ءادم وانظر إلى السماء فوقك وتفكر من خلقها وبناها ورفعها

بغير عمد تراها ،والسماء كلمة صغيرة ولكن لا تزال عقول العلماء عاجزة عن إدراكها واكتناه سعتها وعظمتها ، وكثرة نجومها السوابح في فلكها في نظام بديع ، وسير مطرد، وسرعة فائقة ، هي سبع سماوات لا سماء واحدة، ولا نعلم مادتها ولا مقدار سعتها وسعة ما بينها وعدد ما فيها من الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا الذين يتنزلون بأمر الله، خلق الله السموات وما فيها ورفعها بغير عمد وأمسكها بقوته، يقول الله هنا:﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ لعلماء التفسير قولان في قوله تعالى : ﴿تَرَوْنَهَا﴾ فمنهم من جعلها نعتا لعمدٍ أي خلق الله السماوات بغير عمد مرئية إذ هنالك جاذبية لا ترى، وهذه الجاذبية عماد متين يمسك هذه السماوات الكبيرة وهي من صنع الله وقدرته ولا نعلم من حقيقتها شيئا غير أننا نسميها جاذبية، ومن العلماء من يجعل الضمير في ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ للسموات، أي خلق السموات بغير عمد وأنتم ترونها مرفوعة بغير عمد ولا يمسكها إلا الله تعالى ، وكلا المعنيين صحيح لأن قدرة الله هي التي أمسكت السماوات والأرض وما هذه الجاذبية التي بين الكواكب والنجوم إلاقوة الله، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُوراً ﴾ [فاطر /٤١] سمك الله السموات بغير عمد نراها ، والعمد هو ما يعتمد عليه السقف من الجدران والأعمدة فلا عمد هناك ترى ، وأمسك الأرض أن تميد بنا بالجبال الرواسي، ولولاها لكانت تميد بنا أي تتحرك من جنب إلى جنب فلا يثبت عليها بناء ولا غرس ، ولا يثبت عليها ماش ولاراكب ولا يستقر عليها شيء، فمن رحمته بنا أن بسطها وثبتها بالجبال الرواسي ،وفي الجبال فوائد

أخرى أيضا منها خزنها للمياه التي تنزل من السماء ، فهي خزانات عظيمة تمتلئ بمياه الثلوج والأمطار، وتنبع من جوانبها العيون والأنهار فتجري على الأرض متاعا للدواب والأنعام ، ومنها أنها تعتصر السحب الطالعات من البحار فتطلق مياهها بغزارة وسخاء فتسقي الأشجار النابتات عليها ، وفي ذلك متاع لنا وللدواب والأنعام التي ننتفع بها ومنها غذاؤنا وركوبنا وفراشنا ولباسنا ، وفي إرساء الجبال وشد الأرض بها آيات للسائلين .

ثم قال تعالى ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾.

أي وبث في الأرض وذرأ فيها من كل دابة ، وفي الأرض أقاليم منها حار ومنها بارد ومنها معتدل ، ومنها ما تتناوب فيها الحرارة والبرودة حسب فصول العام ، ولكل أشجاره وزروعه ودوابه التي تعيش فيها، وطيوره وأسماكه التي تعيش في أجوائه وبحاره ، وقد ترتحل من شرقها إلى غربها ، ومن شمالها إلى جنوبها في مواسم معروفة لديها ، وتهتدي في رحلاتها في الأجواء والبحار ويرزقها الله الذي يعلم مستقرها ومستودعها، وفي بث الله هذه الدواب في الأرض المختلفة الأقاليم آيات للسائلين وعبرة للمعتبرين .

ثم قال تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ .

يسند الله الإنزال إلى نون العظمة لأن هذا أمر يختص به الله فلا يقدر عليه سواه،

وكذلك إنبات النبات من الأرض وفلق الحب والنوى ، وبأسلوب الالتفاف البديع ينتقل الكلام من الغيبة إلى المتكلم ، والفاعل دائما هو الله وإنما ينتقل التعبير بالالتفاف من الغيبة إلى المتكلم تجديدا لإقبال المستمعين ونفيا للسأم والملل عن نفوسهم ، ويتذوق أهل البلاغة والبيان هذا الفن من البديع ، ولكي لا ننسى أن المتكلم هو الله تبارك وتعالى ، ينتقل الخطاب إلى نون المتكلم التي يراد بها العظمة فيقول الله تعالى :

﴿ وأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ .

وإضافة إلى ما تقدم من آيات الله إنزال الله الماء من السماء في هيئة مطر أوبرد أوطل أو ثلج ، أنزله الله بالمقدار الذي يريد في البلاد كل بلد وما كتب له ، فأنبت في الأرض من كل زوج كريم من النبات ، والنبات أزواج ، كما أن الدواب أزواج ، والطيور والحيتان أزواج قال الله تعالى ﴿ خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنَ اَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[يس/٣٦] وفي التعبير بالزوج هنا إلفات لنا إلى هذه الظاهرة العجيبة وهي أن النباتات كلها أزواج فيها الذكر والأنثى وبتلاقحهما تتكون الحبوب والثماروختلف الخضار ، وجاء الوصف هكذا ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ .وهو الكثير الفوائد ففي نبات الأرض غذاء ودواء ودهن ومنافع أخرى لا تعد ولا تحصى ، وحتى تصفية الهواء الذي نتنفسه يكون بأوراق الأشجار ، وفي النبات مناظر بهيجة تسر الناظرين ، كما قال تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[ق/٧] في كل ذلك نعم وفوائد ومنافع كثيرة لا تحصى ، وفيها آيات للسائلين وذكرى للذاكرين .

بعدها يقول الله عز وجل:

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾.

الإشارة إلى كل ما تقدم من ذكر مخلوقات الله، هذا خلق الله فأروني أيها الكفار ماذا خلق الذين من دونه من هؤلاء الأنداد الذين تعبدونهم من دون الله، والأمر هنا للتعجيز والتبكيت وهم يعلمون أن آلهتهم التي يدعونهم من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء،ولذلك جاء الجواب من الله تعالى :

﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

بل الظالمون وهم الكافرون لأن الشرك ظلم عظيم بل هم في ضلال مبين ، لقد ضلوا عن طريق الحق والرشد ضلالا بعيدا بيّناً لا لبس فيه ، هكذا يحكم الله عليهم بالضلال المبين بعد إعجازهم وإقامة الحجة عليهم بما تقدم إظهاره من الآيات البينات التي لا ينكرها إلا الظالمون ، ولا يتعامى عنها إلا الضالون المكذبون الذين إذا تتلى عليهم آيات الله ولوا مستكبرين ، أولئك لهم عذاب أليم وأولئك هم الخاسرون، ونعوذ بالله من مصير الظالمين .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ
لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ

أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي
وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي
مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ
وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ١٥ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن
فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ
ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧
وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ
وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩

المناسبة شديدة بين هذه الآيات والتي قبلها فبعد أن ذكر الله تعالى صنف الظالمين المكذبين الذين يستكبرون عن سماع آيات الله ويتخذونها هزوًا ، وذكر أنهم في ضلال مبين ، وذكر أن مآلهم العذاب المهين والعذاب الأليم ، يثني بذكر عبد من عباده

آتاه الحكمة وشكر لله ، ووصى ابنه بوصايا عظيمة ، وضرب الله به المثل لعباده الصالحين وجعل منه أسوة حسنة للآباء المؤمنين كيف ينشئون أبنائهم على التربية الحسنة الدينية والخلقية ، يثني الله على هذا العبد الصالح ويسميه باسمه في القرآن ، ويؤكد الخبر أنه آتاه الحكمة ثم تظهر هذه الحكمة في وصاياه الحكيمة لابنه وهو يعظه، وفي مقابلة هذه الآيات باللاواتي قبلها يظهر الفرق الكبير بين عباد الله الصالحين الذين هم على صراط مستقيم ، ويحاولون تنشئة أولادهم على طريقتهم القويمة ، وبين أعداء الله الظالمين الذين ضلوا عن سبيل الله وعموا عن الهدى ويحاولوا إضلال غيرهم من الناس بلهو الحديث ، فالبون شاسع بين من أوتي الحكمة فهو يهدي بها الناس وبين من أخطأ الطريق فهو يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوًا، شتان ما بينهما وشتان بين مصير هؤلاء ومصير هؤلاء ، فريق قال الله فيهم .

﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وقال فيهم : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وفريق قال فيهم :

﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فليعتبر المعتبرون وليتعظ المتعظون .

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنُ اشْكُرْ لِلهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

لقمان هذا جاءت فيه أخبار كثيرة وأرجحها أنه عبد أسود من نوبة مصر ، وأنه ابن أخت أيوب النبي عليه السلام ، وقيل ابن خالته ، وعاش ألف سنة وأدرك زمان النبي داود عليه السلام ، وآتاه الله العلم والحكمة ، وكان قاضيا في بني إسرائيل وكان

مفتيا فلما بعث سيدنا داود عليه السلام ترك الفتوى ، ووردت عنه وصايا حكيمة لابنه منها ما ذكر في القرآن ومنها ما لم يذكر ورضي الله قوله وذكره في كتابه الكريم ، وأرجح الأقوال أنه لم يكن نبيا بل كان رجلا من الصالحين ، وامتاز بما آتاه الله من الحكمة وأكد الله ذلك تأكيدا ، والحكمة هي كمال العقل وسداد القول والفعل ووضع الأشياء في مواضعها ، وجاء في الحديث الشريف « رأس الحكمة مخافة الله » وتفسير الحكمة ما جاء بعد « أن » التفسيرية ﴿ أَنُ اشْكُرْ لِلهِ ﴾ أمر من الله لعبده الصالح لقمان بالشكر ، والأمر هنا شرعي وتكويني أي كن بإذني شاكرا لله فكان كما أراد الله شاكرا لله ، وتلك هي الحكمة ، والشكر هو الاعتقاد أنه ما من نعمة فمن الله والنطق باللسان الذي هو الاعتراف للمنعم بالحمد والشكر ، ويكون الشكر بالأفعال وهو استعمال النعم فيما خلقت لأجله مع إخلاص القصد لله عزوجل ، ومن يشكر لله بهذه المعاني كلها يكن حكيما ، والحكيم هو العاقل الكيس الحازم ، والكيس الحازم من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، ويذهب الناس في الحكمة مذاهب ويسمون بها علماء الطب والفلسفة والآداب وسائر العلوم النظرية ، ولا نرى للحكمة معنى إلا في مخافة الله وأنى يكون حكيما من لا يخاف الله ولا يطيعه ثم يتعرض لعذاب الله ، هذا بعيد عن الحكمة والعقل ، هو إلى الحمق والخرق والضلال أقرب منه إلى العقل والحكمة والهداية ، لقد كان لقمان حكيما عاقلا كيّسا لأنه كان شاكرا لله مطيعا لأوامره مجتنبا لنواهيه داعيا من هو تحت رعايته إلى طاعة الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، موصيا له بالصبر على ما يصيبه في هذا السبيل قال الله عزوجل :

﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

ومن يشكر لله ويحسن فإنما يشكر لنفسه ويرجع إحسانه إليه ومن كفر أنعم الله وأشرك به غيره أو جحده وكذب رسله فإن الله غني عن عباده لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معاصيهم ، حميد هو أهل للحمد في الأولى والآخرة سواء حمده العباد أم لم يحمده ، وإنما يرجع ثواب حمد الحامدين إليهم فاشكروه أيها العقلاء واحمدوه تفوزوا بثواب الشاكرين وتكونوا من المفلحين .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ باللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

ضرب الله تعالى لنا مثلا بهذا العبد الصالح الذي ليس بنبيء ولا رسول ليكون قدوة للصالحين جميعا في حسن توجيه أبنائهم وبناتهم ومن هو تحت رعايتهم ، وإيصائهم بما يلزم الإيصاء به من الخصال التي ترضي الله تبارك وتعالى ، ولو شاء الله لأوصانا هو بهذه الوصايا ولكن حكمته اقتضت هذه المرة أن يقص لنا خبر هذا المؤمن ليكون قدوة للمؤمنين ، ذلك لأن الله يعلم ما للقدوة الحسنة من بالغ الأثر في نفوس الناس ، فإن هذه الوصايا توحي لنا أنها من عبد مثلنا ليس نبيئًا يوحى إليه ولكنه اهتدى بما هداه الله وعلمه حتى بلغ هذه الرتبة العالية ففي إمكان كل عبد مؤمن أن يحصل على هذه الدرجة التي لا تنال بالوحي بل تنال بالشكر لله وحسن طاعته والإخلاص له ، وروي أن لقمان كان عبداً مملوكاً أسود البشرة فأحسن عبادة ربه الأعلى وأحسن خدمة مولاه ثم أنعم الله عليه بالعتق ورفع درجته حتى صار قاضيا في بني إسرائيل .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

أي واذكر لقمان حين قال لابنه وهو يعظه لا تشرك بالله ، لقد كان لقمان الحكيم يعظ ابنه ويخوفه عذاب الآخرة وكذلك يجب أن يعظ الآباء أبناءهم والأمهات

بناتهم حتى ينشئوا على الصلاح والتقوى لينجوا من عذاب الله وليكونوا قرة أعين لآبائهم وأمهاتهم ، كان في مقدمة وعظ لقمان لابنه أن قال له يا بني لا تشرك بالله ، نهاه عن الشرك الذي هو الظلم الكبير ولا تنفع مع الشرك طاعة ولو عظمت ، وانظروا كيف قدم النداء باسم البنوة حتى يلين قلب الابن لكلام أبيه ويعلم أنه محب له مشفق وهذا من الحكمة التي آتاه الله ، يا بني لا تشرك بالله ، لا تتخذ لله الذي خلقك شريكا ولا تجحده ولا تكذب رسله وكتبه . ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ .

وأي ظلم أعظم من أن تجعل لله ندا وتعبد غيره ، وقد خلقك ورزقك وأنعم عليك بنعم لا تحصيها ، إنه لظلم عظيم أن تترك عبادة خالقك ورازقك ومالك أمرك وتذهب تعبد من لا يسمع ولا يبصر ولا يملك شيئاً وهو ضعيف مملوك لله لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، إن هذا لظلم عظيم ، ومن حكمة لقمان أن قدم في وصيته لابنه نهيه وتحذيره من الشرك لأنه لا تنفعه الوصايا الأخرى إلا بعد أن يتنزه من الشرك ويبتعد عنه ويسلم قلبه من شوايبه والتخلي قبل التحلي كما يقول الحكماء ، ولا نفهم من العبارة أن ابنه هذا كان يشرك بالله ولكن شدة حب أبيه له وإشفاقه عليه جعلته يحذره من الشرك ، والشرك منه جلي وخفي كالرياء ومنه ما هو أخفى من دبيب النمل فحذره من جليه وخفيه خشية أن يقع فيه من حيث يشعر أولا يشعر ولا نظن إلا أنه قد نشأ على التوحيد ، وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها لا سيما وهو ولد لرجل مسلم صالح ، لا شك أن أباه ولربما أمه أيضا قد زكيا هذه الفطرة في قلب ولدهما منذ نشأته الأولى وإنما الوالد المحب المشفق يقوّم ولده بكل أساليب التربية والتقويم ، ينهاه ويعظه ليقيه نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد .

ثم بعد هذه الوصية الأولى وقبل أن تأتي الوصايا التالية يلفتنا الله تبارك إلى عظم حق الوالدين بوصية من عنده يقحمها بين وصايا لقمان لأهميتها فيقول تعالى :

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنُ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنَ اَنَابَ اِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

قد يحتار التالي للقراءن أول مرة في السر في إقحام هذه الوصية التي هي من الله بين وصايا لقمان لابنه فيقول ما السبب في هذا الإقحام ؟ ولكن المتفكر اللبيب يتفطن في السر الكامن هذا وهو من بلاغة القرآن وحكمته ، ومن ذلك أنه من المناسب جدا بعد ذكر الله إشفاق لقمان على ابنه ووعظه له ووصيته له لينجو من عذاب الله ناسب أن يذكّرنا الله تعالى بعظيم حق الوالدين علينا ، ويذكّرنا في أثناء ذلك بما تعانيه الأم من الأتعاب والأوجاع والأخطار طالما هي حاملة جنينها في أحشائها ، وعند الوضع ، وفي مدة الرضاع ، وما تعانيه بعد ذلك من أتعاب التربية والتمريض والحضانة، فذكرنا ووصانا بالوالدين وقرن حقهما بحقه .

﴿ أَنُ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ .

وناسب عند وصف الشرك بالظلم العظيم أنه لا طاعة لأحد حتى ولو كان والدا محبا مشفقا إذا أمر ولده بالشرك بالله وبمعصيته ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق حتى ولو كان حقه عظيما على المأمور بذلك ولو كان الوالد لولده .

قال الله عزوجل : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ ﴾ .

هكذا تأتي الوصية وهي الأمر المؤكد من الله تعالى بعظيم حق الوالدين أن يحسن الولد إليهما إحسانا، ويذكر سبب هذه الوصية وذلك أن أمه حملته في بطنها جنينا في كل أطواره وهنا أي ضعفا على ضعف ، من ضعف الوحم إلى ثقل الحمل إلى آلام الوضع وتوقع أخطاره وضعف النفاس وضعف الرضاع وتحمّل المشقات في حضانة الرضيع مدة الرضاع وبعد الرضاع زمنا طويلا ، وهذه كلها أحوال مشاهدة معروفة يعرفها الخاص والعام ولذا لما سئل رسول الله ﷺ :« من أحق الناس بصحبتي؟ قال : أمك،قال السائل : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم أبوك» في المرة الرابعة وذلك لضعف الأم وتحملها المشاق في بدنها الضعيف ولرقة قلبها وقوة الجانب العاطفي فيها على أن الأب أيضا له حقه وله نصيبه من الحب والشفقة والأتعاب التي ينوء بها والأخطار التي يتعرض لها في طلب الرزق لهؤلاء الفراخ ، وقد يسأل سائل فيقول : تُرى لم ذكر الله هنا ضعف الأم ومعاناتها مشقات الحمل والرضاع و لم يذكر جانب الأب ؟ وهذا الذي كنت تحيرت فيه ثم تذكرت ما سبق من إشفاق لقمان على ابنه ومن وعظه إياه ووصاياه له ليقيه نارا وقودها الناس والحجارة ، وكذلك ينبغي أن يكون سائر الآباء والأمهات وهذا يكفي في عرض جانب الأب ، ولأن يحفظه من نار الآخرة أولى من أن يحفظه من نار الدنيا وهو مفطور على محبته وصيانته من الأذى وهذا لايحتاج إلى تذكير ، ولكن الذي يغفل الناس عنه هو وقاية الأهل والأولاد من نار الآخرة فيتركهم يمرحون وينعمون ولا يعلمهم أمردينهم ، وقد أمرنا أن نأمرهم بالصلاة لسبع ونضربهم عليها لعشر، أما الصوم فمتى أطاقوة وذلك عند البلوغ أو قبله بقليل ، ثم قال عزوجل :

﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ .

أي وتمام رضاعته فى تمام الحولين لمن أراد أن يتم الرضاعة وذلك هو الرضاع الذى يحرّم ، أما بعد العامين فلا يحرم وقد يستغني الرضيع عن لبن الأم قبل هذه المدة لاسيما إذا حملت أمه بولد آخر فإنها تفصله عنها وتعوده الأغذية الخفيفة التى تناسبه، ولا تخلو عادة من ألبان الأبقار والعنوز فيتعود ذلك ويسلو بها عن لبن الأم وإن كان لبن الأم أنفع له ما لم يكن حمل .

ثم يقول الله تعالى : ﴿ أَنُ اَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ .

أن هذه تفسيرية وهي تبين لنا وصية الله تعالى ، وهي الأمر بالشكر لله وللوالدين ، وقرن الله الشكر للوالدين بالشكر له ووصلهما بواو العطف بيانا لعظيم حقهما على الولد ، ولِمَ لا تشكر لله وهو الذي خلقك ورزقك ويحييك ويميتك ويجازيك يوم القيامة على أعمالك كلها قال تعالى : ﴿ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾.

فالمصير لله يوم القيامة وهو مالك يوم الدين ، يجزي المحسنين على إحسانهم والمسيئين على إساءتهم ، أمرنا بالشكر له وهو أحق بالشكر وبالشكر للوالدين وهما أصل وجودك والقائمون على تربيتك وتمريضك إذا مرضت، والذين يشقون لتسعد ، ويتعبون لتستريح ، ويجوعون لتشبع ، فهم أهل للإحسان والشكر بعد الله ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله ، وشكرك لهما يكون أعظم إذا ربياك على الدين ، ولا يسقط حقهما إذا كانا مشركين ودعواك إلى الشرك وألحاعليك وجاهداك على ذلك جهادا ، وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وإن جاهداك أي حاولا بجهدهما أن تشرك بربك ما ليس لك به علم ولا نعلم لله شريكا في السموات ولا في الأرض سبحان الله وتعالى عما يشركون ، فإن أمر الوالدان ولدهما بعبادة غير الله أو بمعصية الله فلا طاعة لهما عليه ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ نهى الله عن طاعتهما فى معصيته غير أنه أمر بصحبتهما بالمعروف وأداء حقوقهما ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ أي وعاشرهما ما عشت وعاشا بالمعروف ، والمعروف كلمة تحمل معاني البر والإحسان وكرم الصحبة ، والأمر بصحبتهما بالمعروف يدل على عظيم رحمة الله بعباده وحلمه عليهم وإلا فكيف يأمر بالإحسان إلى من يشرك به ويدعو ولده إلى الشرك والمعاصي ويجاهدهما على ذلك، وما ذلك إلا لأن الله عادل حكيم يأمر بالقسط وأنه لا تنفعه طاعة عباده ولا تضره معصيتهم .

ثم بعد هذا يقول تعالى :

﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ .

لا تتبع سبيل المشركين والعصاة ولو كانوا أبويك وعاشرهما بالمعروف والإحسان، واتبع سبيل من أناب إليّ من عبادي المؤمنين ثم إليّ مرجعكم جميعا فأنبئكم يوم القيامة بما كنتم تعملون، أي أجازيكم على أعمالكم ، وليست التنبئة هنا مجرد إخبار بل المقصود الجزاء بعد أن يُرَوْا أعمالهم ، وفي هذا السياق ضرب من التعبير البليغ المعجز والقرآن كله معجز بليغ ، وهنا تأتي هذه الحلقات الذهبية آخذ بعضها ببعض كعقد من جمان فهناك شرط وجزاء فنهي فأمران فنبآن في سطرين ، وفي ذلك

إرشاد وهدي ووعظ وتبشير وإنذار ؛ تبشير للمؤمنين المنيبين إلى الله المتبعين سبيله وإنذار للمشركين الذين يعملون المعاصي والذين يدعون أولادهم إلى الشرك بالله ويحاولون إضلال الناس عن سبيل الله ، ومثل الدعوة إلى الشرك والأمر به الأمر بأنواع المعاصي العملية، فهناك آباء يدعون أبناءهم إلى أنواع المعاصي ويأمرونهم بذلك، هناك تجار يأمرون أبناءهم وعمالهم بالغش وأنواع الحيل وبخس الكيل والميزان، وضروب من الربا في المعاملة ، فلا طاعة لهؤلاء في معصية الله ولا بركة في رزق يجمع من سحت ورباً ، والله أحق أن يطاع وسبيل المؤمنين الصالحين أولى بالاتباع ،وهناك آباء يأمرون أبناءهم بالظلم والبغي والحمية الجاهلية ، فلا طاعة لهؤلاء الظالمين البغاة وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

﴿ يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَاتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

هذا مثل يضربه لقمان الحكيم لابنه يعبر فيه عن شيئين عظيمين فى حق الله تبارك وتعالى ، يريد لقمان أن يقرر فى ضمير ابنه وفى عقيدته سعة علم الله تعالى ، وأنه لا يعزب عن علمه شيء ، ثم يريد أن يعبر له عن كمال قدرة الله تعالى فإن الله لا يعجزه شيء ، فهذه ثلاثة أشياء يضربها له في المثل : الصخرة والسموات والأرض ، ويأت التعبير بصيغة العموم المستغرقة ، ويريد بالصخرة صلابتها وانغلاقها المحكم ، وحبة الخردل أي بذرته ، ويريد بالسماوات سعتها وعرضها ، ويريد بالأرض جوفها وظلماتها ، يقول يا بني إنه إن يكن شئ صغير مثل حبة الخردل فيكون في وسط صخرة مغلقة صلبة أو في سماوات عريضة واسعة أو في ظلمات الأرض يأت به الله ، فإن الله

لا تخفى عنه خافية فما من ذرة من خير أو شر إلا وهي في كتاب مبين ، وسوف يراها صانعها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، وتلك هي عدالة الله ، ويعفو الله عن كثير ، وروي أن ابن لقمان ذهب إلى نهر اليرموك في معطف من منعطفاته فألقى فيه حبة من خردل ومكث زماناً ثم ذهب إلى نهر فسأل الله أن يأتيه بها ليطمئن قلبه فجاء بها طائر فوضعها في يده ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ .عالم بخفيات الأمور ودقائق الأشياء ، خبير عالم بأعمال العباد ونياتهم ما كان منها وما سيكون ، ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك /١٤] قد أحاط بكل شيء علما ، يقول لقمان لابنه هذا الكلام ليتقي السيئات ولا يحتقر الصغائر ويتهاون بها ، وليكثر من الحسنات ولا يستصغرها ، وأحسن مثال لهذا خبر الشهداء الثلاثة في غزوة مؤتة الذين حملتهم الملائكة إلى الجنة وهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم ، وكانت جنازتا الأولين مقترنتين وتأخرت الثالثة قليلا لتأخره قليلا عن التقدم بعد سقوط صاحبيه فتأخر نعشه قليلا مقدار تأخره ، وذلك عدل الله تبارك وتعالى :

﴿ يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَواةَ وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾

وبمثل الصيغة التى أوصاه بها سالفا بالنهي عن الشرك بالله يكرر النداء بالبنوة التي توحي بحنان الأبوة،يوصيه بأربعة أشياء هي سر السعادة ، وأصل الإيمان ، وهيكل الإسلام وبرهانه .

أول هذه الأشياء إقام الصلاة التى هي عمود الدين وقلما ذكرت الصلاة فى

كتاب الله وتقرن بالإقامة أو المحافظة أو المداومة أو الخشوع والذكر ، وإقام الصلاة معناه الإتيان بها على الوجه المطلوب في وقتها الموقوت بعد الإتيان بطهارتها الكاملة،والطهور شطر الايمان ، أما من جاء بهيكل الصلاة و لم يقمها إقامة بطهارتها وفي وقتها المعين استخفافا بها فقد ورد فى حقه الوعيد ، قال تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِم سَاهُونَ ﴾ [الماعون /٤-٥]

وقال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَواةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَياًّ ﴾ الآية [مريم /٥٩] والصلاة صلة بين العبد وربه ، فمن ضيعها فقد قطع صلته بالله ، ومن تركها فقد كفر ، ومقام الصلاة عند الله عظيم ولذا أوحى بها إلى عبده فوق سبع سماوات وبدون واسطة وما ذاك إلا لعلو مقامها عند الله ، فمن حافظ عليها فهو المؤمن حقا ، ومن ضيعها استحق الوعيد ، ومن تركها فلاحظٌ له في الإسلام، ومأواه جهنم وبئس المصير ، وجاء في القرآن في حوار أهل الجنة مع أهل النار ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ [المدثر/٤٢-٤٤] والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر نهيا حقيقيا من داخل القلب ، قال تعالى :﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت /٤٥] وهي تقوم أخلاق الإنسان تقويما ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الْشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج / ١٩-٢٣] فهي تصقل نفسه صقلا، وتطهر ضميره وتقوي إيمانه ويقينه ، فما أعظم بركة الصلاة على المؤمن فمن حافظ وداوم عليها في أوقاتها وأكمل طهارتها وأتم خشوعها وركوعها وسجودها فهو من المفلحين حقا ، قال تعالى : ﴿ قَدْ

أَفْلَحَ الْـمُومِنُونَ الذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ...﴾ الآية [المؤمنون /١-٢]
والكلام في الصلاة طويل لاسيما الصلوات فى المساجد جماعة فقد جاء الأمر بذلك أن نجيب داعي الله ، والمؤذنون يدعوننا من المساجد كل يوم خمس مرات حي على الصلاة حي على الفلاح فلنجب داعي الله ، وجاء فى القرآن مدح الذين يعمرون المساجد قال تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ اَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ والآصَالِ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَواةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَواةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ .... الآية ﴾ [الحج / ٣٦-٣٧]
وجاء في الحديث القدسي فيما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل « إن بيوتي في الأرض المساجد ، عمارها زواري فطوبى لمن تطهر في بيته وزارني في بيتي وحق على المزور أن يكرم زائره » وجاء الوعيد في السنة لمن يهجر المساجد وذلك أن النبي ﷺ هم أن يأمر بالصلاة فتقام ويأمر رجالا يأتون بحزم من حطب فيحرق عليهم بيوتهم ، فينبغي للمؤمن أن يحاسب نفسه على عمارة المساجد ولا يمر عليه يوم وليلة دون أن يصلي مع الجماعة في المسجد لا سيما أيام الجمع فقد ورد وعيد لمن يهجر الجمعة ويتخلف عنها، قال الله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَّوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُواْ الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمُ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة/٩] لكل هذه المعاني ولأن الصلا ة عمود الدين أمر سيدنا لقمان ابنه أولا بإقامة الصلاة ثم ثنى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما يصيبه .

﴿ وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ وآنْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وآصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ .

وأمر بالمعروف أي بأفعال الخير والخصال والأقوال التي أمر بها الشرع ،

والمعروف ما عرفه الشرع وأمر به وتعرفه العقول السليمة كالعدل والإحسان وإتياء ذي القربى وإتيان الفرائض والنوافل من العبادات والقربات وفعل الخير، والمنكر ما أنكره الشرع ونهى عنه وأنكرته العقول السليمة كالظلم والبغي والفحشاء وإتيان المعاصي، والقساوة والعقوق وقطيعة الرحم ، والشح وسوء الظن وسوء الصحبة وسوء الأخلاق، وسائر ما نهى الله ورسوله عنه ، ولا يأمر العقلاء بالمعروف إلا بعد أن يفعلوه ولا ينهون عن المنكر إلا وهم تاركوه ، وإذا أمر الآمر بالمعروف ونهى الناهي عن المنكر فهو يتعرض للبلاء من طرف السفهاء ، لذا أمره بالصبر فقال : واصبر على ما أصابك، أي من البلاء في سبيل فعل المعروف والأمر به وترك المنكر والنهي عنه ، ثم قال : إن ذلك من عزم الأمور ، أي إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على البلاء من الأمور التى عزمها الله على عباده عزما أي ألزمها إياهم وأكد عليها ، وهي أيضا من الأمور العازمة القوية التى من فعلها فقد أخذ دينه بالقوة ، وكذلك يجب على المؤمن أن يتمسك باليقين وعزيمة الصبر، وهو دليل رسوخ الايمان فى القلب ، وجاء فى الحديث الشريف : « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسهم الإسلام الثمانية ، وجاء فى الحديث الشريف « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » وجاء فى الحديث الشريف « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » ... الحديث ، والمسؤوليات درجات ودوائر تبدأ من مسؤوليات الإمام الأكبر وتنتهي بمسؤولية الرجل فى بيته ، ومسئوولية الأم مع بنتها وأولادها الصغار، فعلى كل منا أن يقوّم نفسه أولا فينهاها عن هواها ثم يجتهد فى تقويم من حوله حسب معرفته

واستطاعته ، ولا يمنعه خوف الأذى من النهي، فقد أمرنا بالصبر ووعدنا الله عليه جزيل الثواب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر/١٠] وغدا يقال لأهل الجنة : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد/٢٤] والصابرون ترفع درجاتهم فى الجنة بما صبروا على البلاء والأذى فى الدنيا، والصبر نصف الإيمان فما من خصلة من خصال الإيمان إلا وملاكها الصبر قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران/٢٠٠] .

كثير من الناس يضيعون واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اعتمادا على ما جاء فى بعض الآثار فى باب الأمر والنهي أن اليد للأمراء واللسان للعلماء والقلب للعامة وهذا خطأ كبير فى الفهم ، جاء فى الحديث الصحيح : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وهذا الحديث يرد عليهم فهو يخاطب من رأى المنكر من هذه الأمة على العموم و لم يخصص طائفة دون طائفة بل هو يكلفنا على تغيير المناكر حسب استطاعتنا ، أما ما جاء أن اليد للأمراء فهو جريا على الغالب لأن الأمراء بيدهم القوة فهم يقوون على تغيير المنكر أكثر من غيرهم ويزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وكذلك إقامة الحدود فهي للأئمة في إمامة الظهور ، وفي حالة الكتمان قد يقوم الإمام بأنواع العقوبات لزجر الناس عن ارتكاب المعاصي ، وقد يمكنه إقامة بعض الحدود إذا أنس من نفسه ومن جماعته قوة على ذلك ، ومما جاء فى العقيدة وشرحها أن الكتمان يأخذ من الظهور والظهور لا يأخذ من الكتمان ، وبعد هذا يستطيع كثير من الناس تغيير أنواع المناكر

والظلم بأيدهم فإن ضيعوا ذلك فهم مؤاخذون على التقصير والتضييع ، لأن الحديث يخاطب المؤمنين جميعا فهو يأمرهم بتغيير المناكر من استطاع منهم ذلك ومن لم يستطع فبلسانه وليس العلماء فقط مكلفين بهذا وإن كان عليهم القسط الأوفر من هذا، ولكن العوام أيضا كل من رأى منكرا وعلم أنه منكر يجب عليه أن يغيره بلسانه إن لم يقو على تغيير اليد بالقوة ، وصدق الإيمان والغيرة على محارم الله توجب هذا على كل مؤمن وحده إذا رأى منكرا يرتكب وعلى كل جماعة أن يتعاونوا على تغييره أو ينكروا بألسنتهم ويؤيدوا من أنكره باللسان إن لم يستطيعوا تغييره بأيديهم ، فإن لم يستطيعوا بألسنتهم فبقلوبهم وذلك أضعف الإيمان وليس بعده إيمان ، فمن رأى منكرا يؤتى ورضي ذلك و لم ينكر ولو بقلبه فليس بمؤمن وهو شريك لمرتكبه فى الإثم والراضي بالشيءكفاعله .

﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ أي واصبر على ما يصيبك فى سبيل المحافظة على الصلوات وإقامتها وفى سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكثيرا ما يصيب الآمرين والناهين البلاء ولكن أمروا بالصبر لئلا يثنيهم البلاء عن القيام بصلواتهم وبواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفى الصبر على ما يصيبهم في هذا السبيل أجر عظيم، وينبهنا الله تبارك وتعالى بهذه الآية الكريمة أن قيام المؤمن بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعرضه للأذى والمشقات لا يصبر على ذلك إلاذووا العزائم ، وإن الله تبارك وتعالى عزم علينا أن نقوم بواجب الأمر والنهي وبهما بقاء الإسلام ، فالأمر معزوم ومؤكد فلابد بالصبر على ما يتعرض له الآمر الناهي الناصح لأن أغلب الناس لا يحبون الناصحين الذين يأمرونهم وينهونهم بل يقابلهم السفهاء

من الناس بأنواع الأذى ، والمؤمن لا يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، بل يتحمل فتنة الناس في الدنيا بجأش ثابت وعزيمة قوية لينجو من عذاب الله يوم القيامة ، وشتان ما بين فتنة الناس في هذه الدنيا وبين عذاب الله يوم القيامة ، فعلى الآمرين والناهين والداعين إلى الخير أن يصبروا على ما يصيبهم في هذا السبيل . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ والله من ورائهم محيط يدافع عنهم وينصرهم ويقويهم، وإن أصابهم شيء في هذا السبيل فبإذن الله ليرفع درجاتهم عنده وليتخذ منهم شهداء والله لا يحب الظالمين، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، ومن تمام إخلاص النصح من لقمان أن يأمر ابنه بالصبر بعد أن أمره بهذه الخصال الثلاث : إقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ذلك ليتدرع بالصبر فيواصل العمل ولا يفشل عند أدنى إصابة في الطريق والطريق وعر ، وكان مشايخنا رحمهم الله ينصحوننا بطلب العلم والاجتهاد في الصبر على تحصيله ومحاربة الكسل والنوم والتواني ، ويتمثلون في ذلك بالبيت المشهور :

العلم أول ما يكون مرارة فإذا صبرت على مرارته حلا

ويقولون لنا : « العلم أعطه كلك يعطك بعضه » ، وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعين على كل من رأى منكرا يؤتى أو معروفا يترك أن يأمر وينهى حسب استطاعته ، وليس ذلك مقصورا على الأمراء والعلماء فهؤلاء في الناس قليلون لا يوجدون فى كل مكان ، وقد ذم الله تعالى الذين كفروا من بني إسرائيل ولعنهم لعدم قيامهم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَيَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِيسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة /٧٨-٧٩] ذكر أنهم لعنوا

على لسان داود وعيسى بن مريم ، وبين داود وعيسى بن مريم زمان طويل ، ووصفهم بالكفر لعصيانهم واعتدائهم وعدم تآمرهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر وذمهم لتقصيرهم فى ذلك وسماه فعلا فقال : ﴿ لَبِيسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ومدح الله هذه الأمة في القرآن الكريم لقيامهم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير فقال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ تَامُرُونَ بالْمَعْروفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُومِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران /١١٠]وقال تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَىَ الْخَيْرِ وَيَامُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران/١٠٤] الأمر هنا للوجوب «ومِنْ » هذه بيانية لا تبعيضية فالأمر فرض على الكفاية إذا قام به البعض نجا الجميع وإذا تُرِكَ هلك الجميع ، وإذا نزل عذاب الله فى الدنيا فلا ينجو إلا الناهون .

وفى كتاب الله الدليل على ذلك ، قال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ وإِذْ قَالَتُ امَّةٌ مِنْهُمْ لِـمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةٌ إِلى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنْجَيْنَا الذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف /١٦٤-١٦٥] فالمؤمنون حقا هم الذين يتعاونون على البر والتقوى ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويطيعون الله ورسوله أولئك يرحمهم الله ويصرف عنهم العذاب ، وقد ذكر الشيخ اطفيش رحمه الله فى تفسير هذه الآية حديثا موقوفا على أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : «كل بلد فيها أربعة أهلها معصومون من البلاء : إمام عادل لا يظلمهم شيئا، وعالم على سبيل الهدى ، ومشايخ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحرصون

على تعليم العلم والقرآن ، ونساء مستورات لا يتبرجن » إنها حقا أسباب نجاة الأمم وعصمتها ، فلا يعذب الله أمة فيها هؤلاء الأربعة وهم يقومون بأعمال هي كلها من عزم الأمور ، ولا ينفع العالم إلا إذا كان على سبيل الهدى يفتي بالحق ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يخلد إلى الأرض ولا يتبع الهوى ، وما أضر الأمة إلا علماء السوء الذين يداهنون الملوك ويفتون لهم بالهوى ، ويزينون لهم سوء أعمالهم ميلا منهم إلى ما بين أيديهم من زينة الحياة الدنيا ومتاعها ، وإذا زل عالِم زل بزلته عالَم ونعوذ بالله من مضلات الفتن وأهواء النفوس ، ومن الفتن المضلة للرجال فتنة النساء المائلات المميلات الكاسيات العاريات كما جاء فى الأثر الصحيح ، وهن سبب هلاك هذه الأمة كما كن سبب هلاك من قبلنا ، ثم إن العلماء يحددون أحكام الأمر والنهي ويقسمون ذلك إلى أربعة أحكام: الوجوب وسقوط الوجوب والتأكيد والاستحباب ، وهذه الأحكام تدور على حسب أحوال الآمر الناهي والمأمور المنهي :

الحالة الأولى : إذا رأى أحد منكرا وهو قادر على تغييره وإذا تكلم فإن كلامه يُسمع ويمتثل أمره ونهيه ولا يمسه من جراء ذلك ضرر وهو يعلم ذلك ففي هذه الحال يجب عليه وجوبا القيام بواجب الأمر والنهي ، فإن قصر في ذلك فهو آثم .

الحالة الثانية : أن يرى منكرا وهو قادر على تغييره وهو يعلم أنه لو تكلم أو حاول التغيير لمسه ضرر كبير من ضرب أو قتل فإنه في هذه الحال يسقط عنه الوجوب، ولا يأثم بترك ما فيه الضرر ولا يرجى من ورائه نفع ، ولو أنكر فمسه ضرر أو قتل فهو من أفضل أنواع الجهاد .

الحالة الثالثة : أن يرى أحد منكرا فيرجو أن نهيه ينفع أو يغيره بيده ولكنه يظن

أن يمسه من جراء ذلك أذى ، ففي هذه الحالة يستحب له التغيير والنهي ولا يجب عليه ذلك وجوبا ما دام يخاف الضرر ففي ذلك نوع من العذر .

أما الحالة الرابعة فيرى المنكر وهو يقدر على النهي ولكنه يعلم أنه لاينفع نهيه ولا أمره ولا يقبل كلامه وربما يسخر منه ، غير أنه لا يخشى الضرر ففي هذه الحال يسقط الوجوب ويبقى الاستحباب بل يتأكد النهي والأمر، ففي ذلك إنذارلهم وإعذار إلى الله، وهي الحالة التى جاء فيها النص القرآني فى سورة الأعراف حيث يقول الله تعالى: ﴿وإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الأعراف/١٦٤] هذا وإذا نزل العذاب فى الدنيا فلا ينجو إلا الآمرون الناهون كما جاء فى سورة الأعراف ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنَجَيْنَا الذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف / ١٦٥] فواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مطلوب على العموم ، وعذاب الله فى الدنيا لا ينجو منه إلا القائمون به ، وفضلت هذه الأمة على سائر الأمم وكانت خير أمة أخرجت للناس بقيامها بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يعذر أحد أبدا رأى تقصيرا بمعروف أو ارتكابا لمنكر أن يسكت عن ذلك إذا كان يرجو لكلامه أثراً ولا يخاف على نفسه ضررا ، فالأمر والنهي شعيرة من شعائر الدين وربما يكون للأمر والنهي صداهما ولو بعد حين ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ .

وفي الموضوع نكتة مهمة يغفل عنها كثير من الناس ويحكمون فيها خطأ ألا وهي أمر الصبيان ونهيهم قبل البلوغ ، يعتقد كثير من الناس جهلا وخطأ أن الصبيان ما داموا غير مكلفين ولا تكتب عليهم الخطايا فليفعلوا إذن ما شاءوا فلا يجب علينا

نهيهم، وهذا خطأ كبير فالله أوجب علينا تربيتهم ونهيهم ، وحرام علينا أن نسكت عنهم وهم يرتكبون المخالفات ، بل ننهاهم عن كشف العورات ، وعن الظلم والسرقة والشتم ونأمرهم بالحياء والستر والعفاف ، والصدق وسائر الأخلاق الحسنة ، وفى وصايا لقمان هذه لابنه ووعظه له درس لنا وعبرة لمن رغب أن ينشأ أولاده على الاستقامة وحسن الأدب وسلامة الأخلاق ، وليس هذا الواجب مقصورا على الوالدين بل مشاع بين أهل الحي وأهل البلد ، يجب عليهم جميعا أن يغيروا منكرات الشوارع والساحات والأسواق ، ومن ذلك المنكرات التي تظهر من الأولاد الذين لم تكمل عقولهم بعد و لم يعرفوا الخير من الشر ، فلا يعذر من رأى أو سمع منهم منكرا أن يسكت عليه بل يجب عليه التغيير والنهي ، وإذا تعاون أهل القرية كلهم على الإصلاح والنهي صلح أمر هؤلاء الأولاد ونقص الشر واختفت المنكرات وعم الصلاح .

وهناك خطأ آخر في الموضوع يقع فيه الجهال والسفهاء من الناس ويظنون أنهم ناجون من الشر والهلاك وهم واقعون فيه لا يشعرون ، وذلك أن بعض الناس يحضرون في مجالس القمار والفسق وفى المواضع التى تشرب فيها الخمور ويقولون كنا نتفرج ونشاهد ولا نصنع معهم شيئاويتبجحون بذلك ، وهم يحسبون أنهم على شيء وهم شركاؤهم فى الإثم ، لأن الراضي بالشيء كفاعله ومُكثر سواد قوم فهو منهم، ولعنت الخمر ولعن معها عشر كما جاء فى الحديث الصحيح وذكر فيهم الجليس ، فإن أردت النجاة فانههم عن غيهم وإلا فاعتزلهم ولا تجلس معهم ولا تخالطهم ، واحذرهم أن يفتنوك أو تكتب معهم أو ينزل عليهم عذاب فيعمكم جميعا

ولا تكون العافية والنجاة إلا في نهيهم والإنكار عليهم ، أو الإبتعاد عنهم مع إنكار القلب لمن لم يستطع تغيير المنكر وهو أضعف الإيمان ، وليس دون ذلك إيمان ولا رجاء في نجاة ، نسأل الله السلامة والعافية وأن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء من الناس وألا يؤاخذنا بالتقصير فى واجب الأمر والنهي .

﴿ وَلاَ تُصَاعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الآرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الاَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ .

لا يزال لقمان عليه السلام يعظ ابنه ويوصيه بواصاياه الغالية وهنا يقول له : ﴿وَلاَ تُصَاعِرْ خدَّكَ لِلنَّاس﴾ الصعر داء يصيب الإبل فتميل أعناقها، فشبه الله مرضا بمرض، شبه الله مرض الكبر الذي يصيب الناس بمرض الصعر الذي يصيب الإبل ، وفى هذا تقبيح لحالة المتكبرين الذين يعرضون عن الناس ويصاعرون لهم خدودهم ولا يكلمونهم إلا عن جنب مائلين بوجوههم عنهم احتقارا لهم، ولو كانوا يخاطبون الأمراء والسلاطين ومن يعظمونهم لأقبلوا عليهم بكلهم ، واحتقار الناس داء لادواء له.

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الآرْضِ مَرَحاً ﴾ .

ينهي لقمان إبنه أن يمشي في الأرض مرحا ، والمرح هو الفرح والأشر والطغيان ﴿ لا تَفْرَحِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ ﴾ [القصص/٧٦] فرح طغيان لا فرح شكر ، يفرح أحدهم بسلطانه أو ماله أو صحة بدنه أو جمال صورته فيمشي في الأرض مرحا، تظهر مخايل العجب والاختيال فى مشيته ولباسه وحركاته

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ .

إن الله يبغض أهل المرح والفخر والخيلاء، لا يحبهم ولا يوفقهم ولا يرفع أعمالهم ولا تفتح لهم أبواب السماء ، وجاء في الحديث القدسي فيما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن شاركني فيهما أدخلته ناري » وفي رواية « قصمته» ، والكبر داء في القلب إذا تمكن فيه يظهر أثره في الجوارح، وقد بينه الرسول ﷺ بقوله « الكبر غمط الخلق وتسفيه الحق» والكبر داء في النفس ينشأ عن شعور صاحبه بالنقص فيحاول جبر ذلك النقص بالكبر وإنكار الحق واللجاج في المخاصمة ، فيظن هؤلاء المخذولون أن الاعتراف بالحق ينقص من قدرهم عند الناس ، وهم بتمسكهم بالباطل يسقطون عند العقلاء من الناس، ولو أنصفوا واعترفوا بالحق لارتفعت أقدارهم عند الناس وأحبوهم واحترموهم ، ولكن الشيطان عدو الإنسان ينفخ في أنفه فيشمخ بها ويترفع عن قبول الحق وهو يظن أنه يحسن صنعا وهو بذلك يسيئ إلى نفسه ويدخل في سخط الله ، والله لا يحب المستكبرين .

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ .

والقصد هو الاعتدال ، يأمر لقمان ابنه ويوصيه أن لا يتكلف في مشيه فلا يسرع إسراع السفهاء والمجانين ، ولا يختال اختيال الفخورين ، ولا يمشي مشية المتكبرين المرحين ، ولا يتماوت في مشيه كما يفعل بعض المتكلفين الذين يظنون أن الزهد في التماوت ، وقدروي أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها رأت جماعة من الناس يمشون الهوينا فقالت من هؤلاء ؟ قيل لها هؤلاء القراء فقالت : لقد كان عمر قارئا ، وإذ مشى أسرع وإذا كلم أسمع وإذا ضرب أوجع ، وروي أن عمر رضي الله عنه رأى بعض الزهاد يمشون الهوينا متماوتين في مشيهم فقال لهم : لا تميتوا علينا ديننا

أماتكم الله ، ولا يخفى على العاقل مشية الاعتدال فهي دبيباً ولا خببيا مشية طبيعية ليس فيها تكلف ولارياء ولا تصنع .

﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ .

يوصي لقمان ابنه أن يغض من صوته فلا يهرف كما يفعل السفهاء من الناس ، ولا يخافت كما يفعل الضعفاء الذين لا يكادون يسمعون الناس ، وحيث أن أغلب الناس تميل نفوسهم إلى رفع أصواتهم حذره من ذلك وضرب له مثلا من صوت الحمير فقال :

﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

وضرب له مثلا من الحمير التي ترفع أصواتها عند نهيقها وتزعج الناس ، وهم يستنكرونها ولا تعجبهم ولا يطربون لها كما ينتعشون بصهيل الخيل ، ويطربون لأصوات الطيور الصدَّاحة وحيث أن الناس يستنكرون نهيق الحمير ضرب له منها مثلا ليكره إليه رفع الصوت الذي يدل على نقصان العقل وقلة الأدب قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات / ٤] وغض الصوت يدل على كمال العقل واعتدال الأخلاق وسلامة الأذواق، وهي الخصال التي يريد سيدنا لقمان عليه السلام أن يغرسها في قلب ابنه حتى ينشأ على أدب أهل الاستقامة والمروءة ، ولنا فيه أسوة حسنة ينبغي أن نوصي أولادنا بهذه الوصايا ، ونتخلق بهذه الأخلاق ، ونتطبع بطباع أهل المروءة والعقل والأدب ، والله يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها وإنما بعث النبيء ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق ، وتربية الأبناء والبنات على هذا النمط عنوان على المحبة الصادقة لهم .

ثم يتوجه الخطاب الإلهي في هذه السورة الكريمة إلى الناس جميعا ملفتا لهم إلى نعمه العظمى ليتأملوها ، وليشكروا المنعم ويحمدوه ويوحدوه بالعبادة ، يقول الله تبارك وتعالى :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ
اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ
يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ
وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ
الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ
قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

الخطاب للناس قاطبة وينصب على الكفار منكري نعم الله تعالى خاصة وتقدير العبارة هكذا : أعميتم أيها الكافرون الغافلون ولم تروا أن الله سخر لكم ما في

السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، أنتم غارقون في نعمه التي أسبغها أي كمّلها وتممها عليكم أيها الناس ظاهرة وباطنة، ونعمة الهداية إلى الإسلام أعظمها سخر لكم الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وسخرلكم الليل والنهار وأرسل الرياح مبشرات وأنزل لكم من المعصرات ماء ثجاجا وسخرلكم هذا الأثير والرادار الذي ينقل الأصوات والصور آلاف الأميال ، ثم أنتم هؤلاء ترسلون الأقمار الصناعية وتصعدون إلى بعض الكواكب التي بين السماء والأرض وتطمعون أن تحتلوها وتعمروها،وما كان لكم أن تصلوا إلى شيء من هذا لولا تسخير الله لكم هذه القوى التي هي من خلق الله وتسخيره فأنتم تستخدمونها وتسيرونها بتسخير الله إياها لكم ولولا ذلك ما فعلتموه ولا صنعتموه ولا طمعتم في نيل ما نلتموه وبلوغ ما تطمحون إليه أفلا تشكرون نعم الله عليكم ، هذا وسخرلكم ما في الأرض ، سخرلكم الأرض دحاها لكم وجعلها لكم مهادا وألقى فيها جبالا رواسي أن تميد بكم وجعل لكم فيها فجاجا سبلا لعلكم تهتدون، وأنبت لكم فيها أشجارا وأبا متاعا لكم ولأنعامكم وجعلها خزانات للمياه التي أجراها لكم عيونا وأنهارا وجعل لكم من الماء كل شيء حي وجعل حياتكم من الماء وبارك لكم في الأرض وقدرلكم فيها الأقوات والأرزاق وأسكن لكم فيها المياه والمعادن،وسخرلكم بحارها لتجري فيها الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، وسخرلكم ما فيها من أنواع الأسماك والحيتان لتأكلوا منها لحما طريا،وسخرلكم فيها أنواعا من اللآلئ والجواهر والمرجان تستخرجونها من أعماق البحار تكسبون بها الأرزاق الوفيرة، وسخرلكم في أجواف الأرض برها وبحرها بحارا من النفط والغازات وأنواع الزيوت فيها لكم منافع كثيرة

وأرزاق وفيرة أغناكم الله بها ومتعكم بها ما لم يمتع من كان قبلكم أفلا تشكرون نعم الله التي أسبغها عليكم ظاهرة وباطنة ،فأنتم ترون أن هذا الخطاب للناس كافة أوائلهم وأواخرهم ،والقرءان نزل من الله هدى وبينات وذكرى وموعظة للأولين والآخرين لا تختص به طائفة دون طائفة ولا زمان دون زمان ولا جهة من الأرض دون جهة فهو صالح لكل زمان ومكان، وذكرى وموعظة للناس جميعا، نزله خالق السموات والأرض خالق الناس عالم الغيب والشهادة العليم الحكيم ،ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ .

يذكر الله في هذه الآية صنفا من الناس يوجد في كل زمان ومكان يجادل في الله وآياته وكتابه بغير علم ولا هدى ويكذب رسله وهم يشاهدون آيات الله وآلائه ويكذبون بها فهم يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ، ليس عندهم علم ولا هدى من الله ولا يكون الهدى إلا من الله ﴿ قُل إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران /٧٣] ثم قال ﴿وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ والكتاب المنير هو الكتاب الذي ينزل من عند الله ينير لنا طريق الحق ويهدينا إلى صراط مستقيم وكل كتاب من وضع البشر لا يأخذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو كتاب ضلال لا يجوز مطلقا أن نجادل به كتاب الله وهو من الجدال في الله بغير علم ولا هدى ، وقد جاء في كتاب الله في غير هذه السورة الوعيد لهؤلاء، أن الله يذيقهم يوم القيامة عذاب الحريق ، إنهم يشكّون في صدق كتاب الله ورسله وآياته ويكذبون بالآء الله ويجادلون بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، فويل لهم من الله يوم القيامة بما كانوا يكذبون وويل لهم مما كانوا يجادلون وويل لهم مما يكتبون.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

هذه الآية تحذير كبير من ربنا تعالى من التقليد الأعمى ، فهي نص في ذم تقليد الآباء والأجداد وغيرهم من الناس بغير هدى من الله وبرهان ، وما أضل الناس عن الحق المستبين مثل تقليدهم لآبائهم وكبرائهم وساداتهم ، فإذا قيل لهؤلاء المقلدين المتعصبين لأهوائهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه ءاباءنا ، قال الله تعالى:

﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

أي أتقلدون آباءكم وتتبعونهم ولو كانوا على ضلال مبين ولو كانوا في طريق السعير ، أين عقولكم التي جعلها الله لكم لتفرقوا بها بين الحق والباطل ، بين الهدى والضلال ، ما لكم تكفرون بنعمة العقل وتؤثرون العمى على الهدى ، أتتبعون آباءكم ولو كانوا ضالين لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ، إنهم يتبعون آباءهم الضالين ويتبعون علماء السوء الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، هؤلاء الملحدون الفلاسفة الذين يضلون الناس بفلسفاتهم الضالة وهم عن علم الآخرة عمون، قد أضلهم الشيطان وفرحوا بما عندهم من العلم ، فهم على أبواب جهنم يدعون الناس إليها من اتبعهم وقع فيها ، كتاب الله يدعوهم إلى الصراط المستقيم ، وشياطين الجن والإنس تدعوهم إلى عذاب السعير، يحذّرنا الله تبارك وتعالى من اتباع أيمة الضلال ومن تقليد الآباء بغير برهان من الله لنا فيه سلطان مبين ، ويذم هذه الطريقة ويبين أن هذا الطبع يؤدي إلى عذاب السعير ، ونعوذ بالله من عذاب السعير .

ثم يبين الله تبارك وتعالى طريق السلامة والنجاة عند اختلاف الأهواء وظهور البدع فيقول عز وجل:

﴿ ومَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بَالعُرْوَةِ الْوُثْقَى وإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُالأمُورِ ﴾

الإسلام على نوعين : نوع هو إسلام الوجه لله أي إذعان القلب وإقباله إلى الله معرضا عن كل ما سواه حنيفا مسلما كإسلام إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة/١٣١] وقد يعبر بالوجه وهو رمز عن توجه المسلم بكليته ظاهره وباطنه إلى الله معرضا عن كل الطواغيت كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام/٧٩] وكما جاء في الحديث عن النبي محمد ﷺ في دعاء المضطجع يريد النوم في الليل يقول : « اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت ، وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت » هذا الإسلام هو الإذعان الحقيقي لله والخضوع الكلي الباطني والظاهري لأمره وهو الذي يريده الله ويأمرنا به ، ومن يتصف به فقد استمسك بالعروة الوثقى واعتصم بحبل الله المتين الذي من اعتصم به نجا وهدي إلى صراط مستقيم ، والنوع الآخر هو الإذعان الظاهري مع خلو القلب من الايمان وهو الذي جاء وصفا للأعراب في سورة الحجرات قال الله تعالى ﴿ قالَتِ الأعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَّمْ تُومِنُواْ وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات/١٤] هؤلاء الأعراب الذي رأواْ غلبة الإسلام في

جزيرة العرب فأسلموا بظاهرهم أي استسلموا وأذعنوا لسلطان الإسلام ولـمّا يدخل الإيمان في قلوبهم ، ولذا قال الله تعالى لهم : قولوا أسلمنا و لم يقل لهم : ولكن أسلمتم ، لأن الإسلام هو إسلام الظاهر والباطن ، إسلام القلب والجوارح لله رب العالمين ، وليس كل الأعراب كذلك بل منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتقرب إلى الله بأنواع القربات وينفق في سبيل الله ، وقد وعد الله هؤلاء أنه سيرحمهم كما فتح باب رحمته للآخرين حين قال في حقهم ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ، ففي التعبير بلمّا إشعار لنا ولهم أنهم سيدخل الإيمان في قلوب من يشاء الله هدايته منهم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومن يسلم وجهه إلى الله طوعا لاكرها فذلك هو المسلم الحق الذي استمسك بالعروة الوثقى ، وإسلامنا لله طوعا أن نرضى بقضائه ونصبر على بلائه ونشكره على نعمائه ، ولانكذ بالآئه ونحكّم شريعته ثم لا نجد حرجا في أنفسنا ونسلّم تسليما ، ونتوجه إليه بالعبادة وحده وبالدعاء والصلاة والنسك والنذر ، والخوف والرجاء حنفاء غير مشركين بالله ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي سالك في عبادته وإسلامه سبيل الشرع فهو يعبد الله بما شرع الله لا بما شرع غيره من الطواغيت ، وقد وصف الله اليهود والنصارى أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله فسئل رسول الله عن ذلك فقال : « ألم يكونوا يحللون ويحرمون لهم فيتبعون ! قيل بلى قال : تلك هي العبادة » فلا يتمحض الإسلام إذن حتى نعبد الله بما شرع وذلك هو الإحسان المراد بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي متبع شريعة الله مخلصا له الدين كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة/٥] ولا يتحقق هذا الإحسان إلا بالمعنى الذي جاء تفسيره في

الحديث الصحيح عن النبي ﷺ حين أجاب على سؤال جبريل عليه السلام « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فإذا صاحب هذا الإحسان إسلامنا لله رب العالمين فحينئذ نرجو منه القبول .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾.

هذه الجملة العظيمة التي ختمت بها آية الإحسان وعدٌ من الله ووعيد ، فهي وعد حسن للمسلمين المحسنين المستمسكين بالعروة الوثقى ، الذين أسلموا وجوههم لرب العالمين ، وعبدوه بما شرع وأخلصوا له الدين ، وسلموا من الشرك جليه وخفيه ، أولئك لهم جزاء الحسنى وهي وعيدٌ للمتمردين على الله الآبقين ، إنهم لن يفلتوا من قبضته ولا يخفون عليه ، وسيكون لابد مرجعهم إليه فينبئهم بما عملوا ، وإلى الله عاقبة الأمور .

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزِنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

كثيرا ما يخاطب الله تعالى نبيه بهذا النوع من الخطاب الذي فيه تسلية قلبه وتثبيته على أمره فيقول له : ومن كفر من هؤلاء القوم فلا يحزنك كفره فإنك قد بلغت وما عليك إلا البلاغ ، وكفر الكافرين يرجع عليهم وحدهم ، فإلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ، هذا وعيد من الله لهؤلاء الكفار أنهم لن يفلتوا من الله ولن يعجزوه ، فإليه يرجعون جميعا فينبئهم بما عملوا ويجازيهم عليه ، ولا تخفى أقوالهم ولا أعمالهم على الله ، إن الله عليم بذات الصدور، عليم بخلجات القلوب التي في الصدور ، لا تخفى

عنه خافية وإذا لم يعجل الله لهم بالعقوبة فلأن الله حليم يمهل الظالمين ولا يهملهم ، وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، قال تعالى :

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

نمتعهم في هذه الدنيا متاعا قليلا ثم نلجئهم يوم القيامة إلى عذاب غليظ ، وشتان بين المتاع القليل المنقطع الفاني والعذاب الغليظ الدائم، وكيف تكون نسبة القليل المحدود إلى الغليظ الممدود ، وفي التعبير بالغليظ إشعار بمعنى الشدة والألم والخزي والهوان ، وهي صفة تقشعر منها الجلود ، وفي ذكر العذاب. وحده وعيد كبير وإنذار مخيف لمن كان له عقل أوبقية من وعي ، فكيف وقد اقترنبالعذاب الوصف بالغليظ ، ولا يسلم من هذا الوعيد إلا من أسلم وجهه لله وهو محسن وكان من التوابين المنيبين إلى الله ، ولا عصمة إلا للأنبياء ، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ،وأنبياء الله أنفسهم أمروا أن يستغفروا الله لذنوبهم ، فهم يستغفرون الله واستغفارهم من أشياء هي في حقهم ذنوب ، والله غفور رحيم وعذابه أليم وشديد لا ينجومنه إلا التائبون .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول الله تبارك تعالى : ولئن سألت هؤلاء الكفار المعاندين الخصمين لئن سألتهم من خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما وما ينزل من السماء إلى الأرض وما يعرج من الأرض إلى السماء ليقولن الله ، لأن فطرة الإنسان من حيث هو إنسان ذو عقل تعترف بهذا الله إلا إذا بلغ به السفه أسفل سافلين فهو حينئذ ينكر وجود الله الخالق مكابرة وعنادا وميلا للشهوات كما قال تعالى :﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ

﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة/٥] وهم هنا يعترفون بأن الله خالق الكون علويه وسفليه ولذا جاء الجواب . ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قل الحمد ، وهو الثناء الجميل بأوصاف الكمال كلها وإسنادها لله وحده وهو المستحق للحمد ، وحمده مركوز في فطرة مخلوقاته ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء /٤٤] .

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ .

بل أكثر الناس لا يعلمون الحق الذي عليهم نحو هذا الخالق الرازق الحميد فهم يجعلون له أندادا ويعبدون غيره ، ويكذبون رسله ، وهذا منهم جهالة وكفر وجحود وميل للشهوات والجهل من قواعد الكفر، قد اعترفوا بالخالق فلم ينفعهم اعترافهم بل أهلكهم الجهل والكفر ، فهم في غيهم يعمهون هذه حال أكثر الناس ، ومن الناس من يهديه الله فيفيض عليه من علمه فيبصر الحق، وأولئك هم الناجون المفلحون .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن
شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ
وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى
ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ
مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم
مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا
غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا
نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

هو خالقهن وما فيهن ومالكهن وما فيهن ومن فيهن كلهم عبيده وملكه،أمرهم بعبادته والقنوت له لا لأنه منتفع بعبادتهم بل هو الغني ونحن الفقراء ، وإنما أمرنا بعبادته وخلقنا لنعبده لننتفع نحن بذلك في الدنيا وفي الآخرة كما قال العبد الصالح نبئ الله سليمان عليه السلام ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل/٤] وجاء هذا المعنى في غير موضع من كتاب الله فلله الحمد والنعمة

وله الملك وهو مسبغ النعم المحسن إلى مخلوقاته وهو المستحق لجميع المحامد .

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

يتحبب إلينا بنعمه مع استغنائه عنا ونحن نتبغض إليه بالمعاصي مع افتقارنا إليه وهو المستحق للمحامد كلها فويل للكافرين المتمردين وطوبى للمحسنين الشاكرين .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾.

يضرب الله لنا في هذه الآية الكريمة مثلا عظيما ناطقا بعظمة هذا الكون الواسع الكبير وبما يسير هذا الكون من نظام بديع دقيق وبما يتنزل من الأمر بينهن ، بين السماوات والأرضين ولوأن ما في الأرض من شجرة كانت كلها أقلاما والبحار التي هي ثلاثة أرباع هذه الكرة الأرضية أمدتها سبعة أبحر أخرى كانت كلها مدادا لكتابة كلمات الله لفنيت الأقلام كلها ونفدت البحار كلها قطرة قطرة ولا تنفد كلمات الله، وإن العقل ليحار في تقدير سعة علم الله وقدرته وكثرة مخلوقاته ودوران أفلاكه في حساب دقيق وموازين قسط وجاء في الأثر : من أحب الله أحب أن يطلع على آياته ، وكل الذي توصل إليه العلماء ما هو في علم الله إلاقطرة في بحر خضم محيط ، وإذا كان اطلاعنا على آيات الله في الكون يزيدنا محبة لله وإيمانا به وتعظيما فلذكر بعض أمثلة مما اطلع عليه العلماء في هذه الأرض التي قال الله فيها ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات/ ٢٠] وفي الأجرام التي في السموات السابحات في فلك الله الواسع حتى نزداد إيمانا ويقينا بربنا وتعلقا بكتابه وشريعته ، وكتب الله وشرائعه من كلمات الله التي ذكرت في هذه الآية العظيمة ، فلننظر في خلق السموات والأرض

ولنعتبر بما هنالك من آيات كونية تزيد المؤمنين إيمانا وخشية لربهم خالق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما ، سنذكر شيئا مما كتبه علماء الفلك لندرك بعض ما تدل عليه الآية ونؤمن حقا بما تنطق به فهو حق لا مبالغة فيه ، هذه الأرض التي هي مقرنا ومنهاخلقنا وفيها نعود ومنها نبعث والتي يتصارع الناس عليها ويتقاتلون ما هي إلا ذرة في هذا الكون الواسع العريض ، قطرها ما بين قطبيها ١٢٦٤٠ كلم وقطرها ما بين خطي الاستواء ١٢٨٨٦ ودائرة هذه الكرة أربعون ألف كيلو متر تقريبا أما وزنها فقد تكلم فيه العلماء وقدروه بخمسمائة مليون مليون مليون طن وهي نسبة صغيرة إذا قسناه إلى كثير من نجوم هذا الفلك وقد جمد الله قشرتها وغطى ثلاثة أرباعها بالمياه وتنتهي هذه القشرة بعد نحو خمسين كيلو متر إلى جمرة عظيمة من نار ، وقالوا إنها انفصلت عن الشمس فهي من توابعها وبرد الله قشرتها وجمدها وغمر معظمها بالمياه وأرساها بالجبال لتصلح للعمارة وجعل فيها أقوات بني آدم والحيوانات كما قال تعالى ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت/١٠] وهذه الأرض تدور حول الشمس لأنها من توابعها وتبعد عنها بمقدار ١٥٠ مليون كيلو متر، والمسافة الضوئية بيننا وبينها ثمان دقائق لأن الضوء يقطع ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية، والشمس أقرب النجوم المضيئة إلينا ، ولذا تظهر كبيرة وفي النجوم ما هو أكبر منها بالآف المرات وهذه المجرة التي نراها في السماء ويعبر عنها الناس بطريق التبانين لامتيازها بكثرة نجومها وشبهها بطريق جالبي التبن الذين يسقط منهم التبن في تردادهم في الطريق وتسمى عند أهل الفلك المجرة . ما حقيقتها ؟ إنها مجموعة كبرى من النجوم ومنها شمسنا وتوابعها وفي السماء مجرات كثيرة غيرها قدرها العلماء المختصون بمراقبة

سير الأفلاك بمائة مليون مجرة وأقرب مجرة منها إلينا تبعد عن مجرتنا بسبعمائة وخمسين ألف سنة ضوئية، هذا ما توصل إليه منظارهم وما وراء ذلك لا يعلمه إلا الله، ومجرتنا قطرها مائة ألف سنة ضوئية ، وما شمسها هذه وتوابعها فيها إلا قطرة في بحر وتقع في خُمُس هذا البحر الكبير على بعد عشرين ألف سنة ضوئية من طرفها ،ولهذه الشمس تسع توابع تدور حولها، هذا ما توصل إليه العلم وهي : الأرض والزهرة وزحل وعطارد والمريخ والمشتري وأورانوس وبلوتون وهذه الثلاثة الأخيرة اكتشفت عام ١٩٣٠ ميلادية وبعض هذه الكواكب لها توابع كالأرض لها تابع يدور حولها وهو القمر وقالوا إنه انفصل منها فهو يتبعها ويدور حولها دورة في كل تسعة وعشرين يوما وبعض يوم، والأرض تبعد عن الشمس بنحو مائة وخمسين مليون كيلو متر ولذا فضوؤها يقطع هذه المسافة التي بينها وبين الأرض في ثمان دقائق ،والحرارة التي في وسط الشمس قدروها بنحو عشرين مليون درجة والحرارة التي تصل إلينا منها جزء من ألفين ومائتي مليون جزء ولو اقتربت الشمس أكثر قليلا لاحترق ما على الأرض من رطب ويابس ولما صلحت لحياة الحيوان والنبات ، فسبحان الذي قال ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن/٧] وقال : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد/٨] وقال :﴿ وَءَاتَاكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم/٣٤] قال المفسرون : أي ولم تسألوه، وقدر العلماء أن الشمس هذه تفقد كل يوم ثلاثمائة وستين مليار طن بسبب الاحتراق فما هي القوة التي تعوض هذه المادة التي تحترق كل يوم ذلك مالا يعلمه أحد إلا الله ، والشمس ترمي بشهب تقذفها بعيدا عنها ولكنها تذوب في الجو قبل أن تصل إلينا وقليل منها ما يخترق جو الأرض، وجعل الله حياتنا وحياة النبات تنتفع بأشعة

الشمس ،والبحار تبعث بالسحب التي تتبخر منها بحرارة الشمس،وحتى المعادن لأشعة الشمس تأثير عليها، وبين الشمس وبين محورها الذي تدور عليه جاذبية وبينها وبين تابعيها من الكواكب جاذبية ولا نعلم ما حقيقة هذه الجاذبية، إنها قوة الله الخالق الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما أحد من بعده ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة /٢٥٥] .

هذا وإن لله تعالى في كونه الواسع من الكلمات ما تنفد البحار ولا تنفد ولا يسعنا ما نحن بصدده من ذكر جزء قليل مما كتبه العلماء مما توصلوا إليه وهم بعد في ضحضاح على شاطئ خضم كبير يعترفون بالعجز أمامه، فسبحان الذي وسع كل شئ قدرة وعلما ، ويريد الله أن يضرب لنا هذا المثل المعبر عن سعة قدرته وعلمه حتى نزداد له تعظيما وحبا ولا يفتننا هؤلاء الذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلا فافتتنوا بعلمهم وراحوا يفتنون الناس وينكرون الخالق وهم يعلمون أن هذا الكون البديع ما كان ليوجد بطريق الصدفة، ولكن أهواءهم أملت عليهم ذلك ليطلقوا العنان لأنفسهم فتفجُر كما شاءت وراحوا يشرعون للناس شرائع من عقولهم، وافتتن الناس بعلومهم الظاهرة واختراعاتهم الباهرة فعبدوهم من دون الله واتخذوهم أربابا يشرعون لهم فيتبعون ، والعقل البشري مهما بلغ من علوم هذه الحياة الدنيا لا يستطيع أن يضع للناس شريعة تهديهم وتصلح شأنهم ، إنما ذلك لله وحده لا لغيره .﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ جاءت هذه الآية متمكنة أيما تمكن بين ءايتين عظيمتين من آيات الله لتركز في قلوبنا عزة الله وحكمته، فهو العزيز الذي لا يغالب ذلت لعزته جميع خلقه في السموات والأرض،الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها ويشرع لعباده مايهديهم لأحسن

العواقب، ومن يحسن عبادته من عباده يعزه الله ويُفضْ عليه من حكمته ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، وجاء في الحديث الشريف « رأس الحكمة مخافة الله » .

ثم يمضي الأسلوب القرآني البديع في تبيين عظمة الخالق للناس فيقول الله تبارك وتعالى :

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾.

المناسبة عظيمة بين هذه الآية والتى قبلها فبعد أن ذكر الله سعة هذا الكون وأن البحار تنفد دون استكمال كلماته ناسب أن يذكر هذه الأرض التي ما هي إلا ذرة أو هباءة في فضائه فما خلق من عليها وما إفناؤهم في قدرة الله العظيمة إلا كنفس واحدة وهذا بعد إنكار هؤلاء الكفار لقضية الإعادة بعد الموت واستبعادهم لذلك ناسب جدا أن يذكر هنا نسبة البشر على هذه الأرض فما هم في مخلوقات الله الكثيرة وما هم في قدرة الله تعالى إلا كنفس واحدة ، وفي هذا تقرير لقضية البعث بعد الموت ورد على المنكرين الساخرين المتعجبين من الرجوع إلى الحياة بعد الفناء للمحاسبة والجزاء .﴿ إنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يؤكد الله هذا الإخبار بذكر سمع الله وبصره فهو سميع لما خفي من كلامنا وما ظهر لا تخفى عنه خافية بصير بناوبأعمالنا قد أحاط بكل شئ علما ووسع كل شئ سمعا وبصرا وعلما، فما أنتم أيها الكافرون بمعجزين وما أقوالكم ولا أعمالكم بخافية عن الله عالم الغيب والشهادة ، وفى هذا موعظة للمؤمنين وتحذير لهم من الغفلات، وتطمين للعاملين المخلصين منهم أن أقوالهم وأفعالهم في البِّرِ والاحسان لا تضيع عند الله فليحذروا أن يراهم الله حيث نهاهم أو يفقدهم من حيث أمرهم، وليجتهدوا في فعل الخير وأنواع الطاعات والقربات فإن الذي يعبدونه سميع بصير عليم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ذَالِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ .

جاءت هذه الآية الكريمة التي فيها إلفات تعجب واعتبار إلى بعض آيات الكون،جاءت بعد المثل العظيم الذي ضربه الله لنا في سعة الكون وكثرة أجرامه وسيرها في نظام دقيق وما يحدثه الله تعالى كل يوم من خلق وإفناء وبدء وإعادة،بعد هذا جاءت هذه الآية في صيغة استفهام تعجبي فيه تنبيه لذوي العقول أن ينظروا إلى آيات الله في الكون ولا يغفلوا، وكثيرا ما تنشأ الغفلة عن تكرار مشاهدة الشئ البديع والعجيب الذي يدل على قدرة الله العظيمة ، واستمرارها في نظام دقيق هو أدل على علم الله وقدرته وإتقان صنعه فجاء افتتاح الآية هكذا ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وهي كلمة تنبيه وتعجيب يخاطب بها كل تال للقرآن الكريم، أي أغفلت فلم تنظر إلى نظام سير الليل والنهار وإيلاج أحدهما في الآخر، وتسخير الله للشمس والقمر في سير عجيب ونظام مقدر، فيه منفعة عظيمة للبشر ولكل مخلوق في البر والبحر، ولنبات الأرض بل حتى لجمادها، لقد رأيتم أيها الناس كيف يلج الليل في النهار والنهار في الليل وعلمتم أن الله هو الفاعل لذلك،أفلا يكون في هذا معتبر لذوي الألباب ، إن الله قدر سير الليل والنهار في نظام عجيب تحارفيه العقول ، ونحن نعلم أن الأرض كروية الشكل تقريبا وأنها تدور حول نفسها وحول الشمس، ودورانها حول نفسها يتكون منه الليل والنهار، ودورانها حول الشمس يتكون منه دوران الحول ونفهم هذا جليا ، وأصبح الصبيان اليوم في المدارس يتعلمون هذا في الأوليات وبقي لنا أن نفهم سر إيلاج الليل

في النهار وإيلاج النهار في الليل ،أي دخول أحدهما في الآخر وانتقاصه من أوله ومن آخره ما السر في ذلك ؟ أليست الأرض كروية الشكل ونصفها مضئ والنصف الآخر مظلم وهي تدور حول نفسها دورة في كل أربع وعشرين ساعة ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ [الزمر/٥] فإذا كان الأمر كذلك فمن أين تنشأ الزيادة والنقصان الأمر الذي ينتج عنه الفصول الأربعة في المناطق المعتدلة من الأرض والفصلان في المناطق القريبة من القطبين وفي خط الاستواء، إن الله يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا ويولج أحدهما في الآخر في تقدير عجيب وحساب دقيق فيبتدىء ولوج الليل في النهار بعد الاعتدال الخريفي حتى يبلغ الغاية يوم ٢١ ديسمبر ثم ينتصف النهار من الليل فيأخذ من طرفيه حتى يرجعا إلى الاعتدال يوم ٢١ مارس ثم يبتدىء ولوج النهار في الليل حتى يصل نهايته يوم ٢١ جوان ثم ينتقص منه الليل وهكذا على توالي الدهور ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وذلك ناشئ عن هيئة الأرض في دورانها حول الشمس فهي مائلة القطبين بمقدار معلوم وذلك صنع الله الذي أتقن كل شئ .

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

سخر الله الشمس والقمر تسخيراً لنفع مخلوقاته وفيهما من المنافع ما لا يعلمه إلا الله فمنهما الدفء والنور وهما هدى للسائرين ، ومن سيرهما نعلم عدد الشهور والسنين والحساب وفي حساب الأهلة مواقيت للناس والحج ، ولو اقتربت الشمس لما صلح الحيوان ولا النبات على وجه الأرض وكذا لو ابتعدت عما هي عليه ، وللشمس جاذبية للكواكب السيارة حولها ومنها الأرض، والقمر يعكس ضياء الشمس ويرسله إلينا وله جاذبية على مياه البحار يكون بها المد والجزر .﴿ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

أي كل من الشمس والقمر يجري بحساب معلوم إلى أجل مسمى ينتهي إليه وهو قيام الساعة ونهاية الدنيا ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ... الآيات﴾ [التكوير/١–٣] ويقول تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ......الآيات﴾ [الانفطار/١–٣] وهذا إنذارمن الله بأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، فلنستعد للبعث بالايمان والعمل الصالح ، وويل لمن كذب بالساعة لقد أعد الله لمن كذب بالساعة سعيرا . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

يأتي هذا التذييل مؤكدا ليدل على سعة خبرة الله بأعمال عباده وكيف لا يكون خبيرا بهم من خلقهم ويعلم ما يسرون وما يعلنون ، وتدل هذه الآية والتي قبلها على أن الآجال محدودة،والأنفاس معدودة، والأعمال محصاة، فطوبى لمن تزوَّد من هذه للأخرى بالعمل الصالح، وويل لمن غفل عن الأجل ومسيره وأهمل و لم يستعد حتى جاءه الأجل ، وفي الآيتين موعظة وذكرى لأولي الألباب .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

ذلك مما تقدم ذكره من آيات الله منذ قوله تعالى :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

وما بعدها من الآيات الدالات على عظمة الله تعالى وقدرته ، ذلك بأن الله هو الحق ، كل ما رأيتم وعرفتم من آيات الله يشهد بأن الله هو الحق الثابت الواجب الوجود الذي كل ما سواه يقوم بإرادته وقدرته ويحتاج إليه وهو لا يحتاج إلى أحد

سواه فهو المعبود بحق وكل ما سواه من المعبودات باطل لأنه يفنى ويزول ولا يملك نفعا ولا ضرا ، والحق هو الشئ الثابت الذي لا يتحول ولا يتبدل ولا يزول ولا يؤثر عليه مرور الأزمان ولا تغير الأحوال ،وهو واجب الوجود الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو أحق أن يعبد ويعرض عن كل ما سواه من الطواغيت ، جاء التأكيد في الجملة بضمير الفصل وتعريف الخبر بأل ليدل على حصر الألوهية فيه، فهو الحق وقوله الحق وأسماؤه الحسنى ندعوه بها والدعاء مخ العبادة ودعاء غيره شرك وضلال ، وجاء التعريف بأل في الخبر ليفيد الحصر فكل ما سوى الله دعاؤه باطل بل هو عين الباطل ، هكذا جاءت هذه الجملة لتقرر قاعدة التوحيد وتركز عليها في القلوب ومجيئها أثناء عرض آيات الله العظمى له وقعه العظيم في قلوب ذوي الألباب، وهي الحقيقة التي أشرقت بها الظلمات وقامت بها السموات والأرض وهو الله في السموات وفي الأرض ، وهو الله الملك الواحد القهار في الدنيا والآخرة وكل له قانتون ومصير كل شيئ إليه وإلى الله عاقبة الأمور ، وكل ما دعي من دونه الباطل تعالى الله عما يقوله المبطلون ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر/١٤] .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾.

بهذه الجملة المؤكدة يثني الله على نفسه بما هو أهله وله وحده العلو والكبرياء، وجاء في الحديث القدسي الشريف يقول الله تعالى : « العظمة ردائي والكبرياء إزاري فمن نازعني فيهما قصمته » وجاء في هذه الآية الشريفة حصر العلو والكبر في الله وحده والله هو العلي الظاهر الذي ليس فوقه شئ وهو الكبير ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ [الإسراء/١١١] فتذلل لربك الكبير أيها المخلوق الصغير الحقير وكبره وحده ولا تلتفت

لشئ سواه ولا تعظم الطواغيت ولا تحاول إرضاءهم بإسخاط الله فكل ما سوى الله حقير فإذا تقرر هذا المعنى في قلب المسلم فلا يخاف ولا يرجو ولا يدعو إلا الله ولا يتبع شريعة إلا ما شرع الله تبارك وتعالى وهو ما يدل عليه قول : (لا إله إلا الله) فله الملك وله الحمد وله الكبرياء وله النعمة والفضل ومنه المن والإحسان تعالى الله عما يشركون لا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعمَتِ اللّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

تأتى هذه الآية كسابقتها في صيغة التعجب الإستفهامى لتثير انتباهنا وفيها نوع من التوبيخ لنا على كثرة غفلاتنا عن آيات الله في الكون في السماء وفي الأرض ، في البر وفي البحر وفي كل شئ ، يخاطب الله كل عاقل يشاهد آيات الله في السموات والأرض ثم يغفل عنها ولا يعتبر ، ألم ترأن الفلك تجري بنعمت الله على أثباج مياه البحار تمخر عبابها بنعمة الله أي بإنعام الله على عباده، فتكون الباء للسببية أو بنعمة الله أي حاملة لنعم الله الكثيرة مشحونة بها فتكون الباء للمصاحبة، وكلا المعنيين صحيح والمعاني لا تتزاحم ، وفي تأمل السفن وجريانها في البحار وهي عظيمة كالجبال مشحونة بالآف الأطنان ، في تأملها آيات كبرى تدل على عظمة الخالق وعلمه وحكمته بخلقه ، وذلك أنه أجرى في مخلوقاته سننا لا تتبدل ولا تتحول وعلّم بنيء آدم من هذه السنن ما يصلح عليه أمر معاشهم، فهم يسخّرون نعم الله في البحر بسخير الله إياها لهم وعلمهم صناعة السفن وتسييرها بتيارات الرياح إلى الوجهة التي يتوجهون إليها وهم يتمتعون بهذه الرحلات البحرية ويرون بما أراهم الله من آيات الله في البحار

والأجواء والأنواء وفي الأوطان التي يصلون إليها والجزر التي يمرون بها والنجوم التي يهتدون بها . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

إن في كل ما تقدم ذكره لآيات ناطقة شاهدة يعتبر بها كل مؤمن صبار على طاعة ربه وبلائه شكور لنعم الله، بصير بما بصره الله من سنن الله وأسراره في خلقه، ولا تكون هذه البصائر إلا لذوي الألباب الذين هم صبارون عند البلاء صبارون على طاعة الله ربهم، شكورون لنعم الله فأولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب، وأولئك الذين استكملوا خصال الإيمان وحققوه لأن الصبر نصف الإيمان والشكر نصفه الآخر، فالمؤمن بين صبر على بلاء الله وشكر لنعم الله فذلك الذي يفتح الله بصيرته على مشاهدة آيات الله وآلائه مشاهدة تزيده إيمانا على إيمانه ويقينا على يقينه، وما من مقام يحسن فيه ذكر الصبر والشكر مثل هذا المقام لما يتعرض راكب البحر من البلاء والأهوال فيحتاج إلى صبر وتسليم وإخلاص ، وإذا أنعم الله عليه فوصل إلى البر سالما بروحه وبما معه من البضائع فذلك من أعظم نعم الله يجب أن يقابله بالشكر والاستقامه على طاعة الله فناسب جدا أن تذيل هذه الآية العظيمة بهذين الوصفين العظيمين الصبر والشكر . ثم قال تعالى:

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ .

عرض الله علينا في هذه الآية مشهدا مؤثرا من مشاهد البحر وأمواجه وأخطاره وحالة ركاب السفن أثناء الهيجان، ثم حالتهم بعد نجاتهم من أهواله ووصولهم إلى البر سالمين، وفي كل ذلك إلفات للعقول للاعتبار وإقامة للحجة على عباده ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

أي هؤلاء الكفار إذا كانوا في عرض البحر فهبت الرياح وهاجت الأمواج كالظلل السوداء وغشيتهم فأظلم الجو دعوا الله حينئذ مخلصين له الدين ونسوا شركاءهم لعلمهم أنها لا تغني عنهم شيئا فهي أضعف من ذلك فرجعوا إلى الفطرة التي استقرت في نفوسهم فوحدوا الله ودعوه وحده، ولنذكر لمناسبة هذه الآية عكرمة بن أبي جهل حين أهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح فيمن أهدر فخرج من مكة هاربا إلى اليمن، ثم ركب مركبا في البحر من اليمن إلى الحبشة، ولما صاروا في وسط البحر هاج عليهم فغشيتهم الأمواج كالظلل فأشرفوا على الهلاك،وفي تلك الحال نادى عليهم أصحاب السفينة أن أخلصوا فإن آلهتكم اليوم لا تغني عنكم شيئا ، فعلم حينئذ عكرمة أن الأمر لله وأن الطواغيت لا تغني شيئا فإذا لم تنفع في البحر فهي لا تنفع في البر فتبرأ من عبادة الأصنام ووجه وجهه إلى الله رب العالمين مخلصا له الدين وعاهد الله لئن نجاه من هذه الحال ليرجعن إلى مكة وليضعن يده في يد محمد ﷺ فيبايعه على الإيمان والنصرة ففعل ذلك وصدق في عهده وثبت على إيمانه حتى قتل شهيدا في معارك فتوح الشام وكان رضي الله عنه من أبطال الإسلام في طبقة يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة والمثنى بن حارثة والحارث بن هشام وأمثالهم من أبطال المسلمين الذين أبلوا البلاء الحسن في جهاد الكفار وصدقوا ما عاهدوا الله عليه وما بدّلوا تبديلا.

ثم قال الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ .

هذه أحوال الكفار يعرضها علينا في القرآن للاعتبار إذا اشتد عليهم الضر في

البحر أخلصوا دعاءهم لله ونسوا آلهتهم التي كانوا يدعونها من دون الله ووعدوا الله ربهم لئن أنجاهم إلى البر ليكونن من الشاكرين، فلما حقق رغبتهم ونجاهم من الأهوال وبلغهم إلى البر سالمين رجع فريق منهم إلى الحق وسلك سبيل القصد، وعاد فريق منهم إلى شركه وجحوده وهذا ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ هذا بعد قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ الآية تدل على أن كثيرا منهم عاد إلى جحوده وتدل على معنى آخر وهو أنه لا يجحد بآيات الله إلا كل غدار شديد الغدر، كفور شديد الكفر بنعم الله، مكذب برسل الله وكتبه ، أولئك فقط هم الذين يجحدون بآيات الله بعد ظهورها وسينتقم الله من الكفار الجاحدين بآيات الله أولي الختر والغدر والكذب، وسيجزي الله المحسنين وإليه مرجع كل شئ ولله عاقبة الأمور وما كان ربك نسيا ، ففي الآية دراسات لطبائع البشر وفيها للعاقل معتبر .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ
وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ
جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ
مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

يأتي هذا النداء الرباني والأمران والنهيان بعده وما بعدهما خاتمة لهذه السورة الكريمة في جو مؤثر تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم فيزدادون له خشية ولربهم رهبة وتعظيما، هذا كله بعد ما سبق من عرض آيات الله العظيمة في سماوات الله وأرضه وفي البحر ، وبعد تقرير ما هو الحق المستقر في فطر الناس من الرجوع إلى الله والإخلاص له في الدين ودعائه وحده عند نزول الشدائد وغشيان الأهوال فمناسب جدا في حكمة الله أن يوجه الله إلينا هذا النداء المؤثر الواعظ المذكر .

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَاخْشَوْاْ يَوْماً لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾.

نداء للناس جميعا بعده الأمر بتقوى الله وخشية يوم لقائه ، هذا الرب الذي خلقكم وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه، وأجرى لكم الفلك في البحار بنعمته ألا تتقونه ألا تعبدونه ألا تشكرونه وقد سبق إحسانه إليكم وغمركم بنعمه التي لا تحصى، اتقوا الله ربكم واحذروا سخطه وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه واخشوا يوما عبوسا قمطريرا تنقطع فيه الصلات بين الأقارب والأحباب ، يوما لا ينفع فيه الوالد ولده العزيز ولا يحمل عنه سيئة ولا يقضي عنه دينا ولا يزيده حسنة يثقل بها ميزانه ولا مولود هو نافع والده بشئ من ذلك فإن كل واحد مشغول بنفسه ولا يفكر في غيره ولو كان والدا أو ولدا فإذا لم ينفع الوالد ولده فغيرهما أبعد رجاء ونفعا ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس /٣٧] ذالك اليوم الحق الذي يخافه أولوا الألباب ويقدّمون له .

﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾.

يؤكد الله الخبر لأن الناس يشكون في ذلك اليوم الموعود ويستبعدونه ومنهم من يعترف بصدق الوعد بلسانه ولكن أفعاله أفعال الشاكين، ولو كان يقينه صادقا ما صدرت منه تلك الأفعال .

يقول الشيخ أبو نصر رحمه الله :

نرى الأمر عن علم اليقين تيقنا ونفعل أفعال الذي شك في الأمر

وما ذاك إلا الطغيان حب الدنيا ولذاتها في القلوب وتمكن الشياطين منها وقد علم الله تسلطهما على عباده فحذرهم منهما فقال تعالى :

﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ .

احذروا أن تغركم هذه الحياة الدنيا بمفاتنها فيلهيكم حب المال والجاه والملذات عن مصيركم، واحذروا أن يغركم بربكم الغرور الكثير الغرور وهو الشيطان فيخدعكم ويلقيكم في المهاوي ويفتنكم بالمعاصي ثم يعدكم ويمنيكم ووعده غرور وأمانيه باطلة ، هذا ولشياطين الإنس كما لشياطين الجن خداع وتغرير وفتنة ولا شئ أخوف على الإنسان من هذين الاثنين الدنيا والشيطان ، الدنيا بزينتها وشهواتها تغوي الإنسان وتغريه فينطلق في طلب المال والجاه والعلو، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، ويسلك في سبيل التحصيل على مبتغاه سبل الهوى والضلال ويطول أمله في الدنيا فينسى الآخرة ، قال الله تعالى في أهل الدنيا والشهوات : ﴿ ذَرْهُمْ يَاكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر/٣] والشيطان يفتن الإنسان ويغره بالأماني ، يقول له : تمتع بدنياك وشبابك وصحتك ومالك وانس الآخرة فأمرها بعيد وعندها تجد

رحمة الله واسعة ويغفر الله لك ، ويسوف التوبة ويرتاب في الأمر وتغره الأماني حتى يأتي أمر الله وأمر الله ماله من دافع فيندم حينئذ ولات مندم ولات مناص ، وفي هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُواْ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ..الآيات ﴾ [الحديد/١٣-١٤] تلك حال المنافقين المفتونين الذين غرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور ، والنفاق كما هو معلوم عندنا على قسمين : نفاق خيانة ونفاق تحليل وتحريم وكلاهما مهلك ، وكذلك في التحذير من الأماني يقول الله تبارك وتعالى في سورة النساء ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَيَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْأُنثَى وَهُوَمُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ [النساء/١٢٣-١٢٤] ولقد غرت أماني المغفرة كثيرا من الناس وتمسكوا بها وما هي إلا خيوط عنكبوتية وليست مغفرة الله إلا للتائبين قبل أن يدركهم الموت أي قبل الغرغرة ، والتوبة النصوح هي الإقلاع عن الذنب مع الندم والعزم على عدم معاودة الذنب، ومجاهدة النفس حتى لا تقع في المعصية أهون من معالجة التوبة بعد الوقوع .

والله نسأله العفو والعافية ونعوذ به من غرور الحياة الدنيا ومن فتنة المحيا والممات، ونعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه ، وقد أكد الله النهيين لصعوبة الأمر حتى نجتهد ونصبر ونصابر ونكابد ونجاهد النفس والشيطان لعلنا

نخرج من المعركة سالمين ، ومن أراد الله به خيرا غلبه النفس والشيطان وغلب عقله على هواه فذلك هو السعيد الموفق الناجي.

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

ختم الله السورة الكريمة بهذه الآية العظيمة التي جمعت خمسة أمور مما استأثر الله بها وهي من علم الغيب الذي لا مطمع لأحد في معرفته، وذكر أهل التفسير أن سبب نزول هذه الآية أن رجلا من المشركين يسمى الحارث بن عمرو جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن هذه الأمور الخمسة فقال له : يا محمد متى الساعة ؟ وإن بلادنا قد أجدبت فمتى تمطر ؟ وإن امرتي حامل فماذا تلد ؟ وقال:قد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ؟ وأخيرا قال:قد علمت الأرض التي ولدت فيها وهل تستطيع أن تخبرني بالمكان الذي أموت فيه ؟ ولئن كان هذا واقعا ونزلت الآية بعده فالعبرة دائما بعموم اللفظ لا بأسباب النزول ويريد الله أن يعقب هذه السورة بهذه الآية التي تخبرنا عن المغيبات الخمس التي استأثر الله بها وهي من المعجزات العظمى حتى نزداد لله حبا وبه إيمانا وله خشية ونزداد هدى وتقوى .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ .

أي عنده لا عند غيره علم قيام الساعة ، والساعة قطعة من الزمن ولو صغيرة ، هذا في التعبير اللغوي، أما في الاصطلاح القرآني فهو نهاية هذه الحياة الدنيا وبداية النشأة الآخرة، وجاء ذكرهما معا في سورة الروم قال تعالى :﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم/٥٥] وقد تحير الناس في قيام الساعة

فمنهم كافر بها وقليل مؤمنون بها مشفقون منها ، ويتساءل الكافرون متى تقوم هذه الساعة، وهم في الحقيقة خائفون منها، وأجل كل واحد هو قيام الساعة بالنسبة إليه وعلم الساعة العامة لكل الناس وعلم الآجال الخاصة عند الله لا أحد يطمع في معرفته لأنه مما اختص الله به فهو من علم الله، وما أوتينا من العلم إلا قليلا، والإنس والجن المؤمنون مشفقون من قيام الساعة وما منهم من يعلم ولا الملائكة يعلمون متى قيام الساعة سبحان ربنا العلي العظيم الذي عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، والغيث هو المطر الذي به حياة الأرض وخروج النبات ، وقد استأثر الله بإنزال الغيث وعلم أوقات نزوله ومقاديره فلا أحد من خلقه يطمع في هذا والكل عاجزون لا يعلمون من أمر نزول الغيث شيئاً إلا ما يكون من بعضهم من الاستدلال ببعض الرياح والضغوط الجوية على قرب نزول المطر في الأمد القريب لا قبله وقد يتخلف ما يظنون، وكثيرا ما تخطئ استدلالاتهم بحدوث رياح أخرى وأشياء لم تكن في حسبانهم ويمحو الله ما شاء ويثبت، ويفعل في ملكه ما يريد وما موقف البشر من هذه الأشياء إلا مراقبة الأجواء والرياح، وإذا تراكمت السحب فهم يرقبونها خوفا وطمعا وعندما يبطئ نزول الغيث فهم يقنطون والمؤمنون منهم يتضرعون إلى الله ويستسقونه وينتظرون الفرج، ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ... الآية ﴾ [الشورى /٢٧] فالأمر كله إليه.

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ .

ومما استأثر الله تبارك وتعالى بعلمه علم ما في الأرحام من كل حامل من الانس والجن والحيوان يعلم الله نوعه وجنسه وعدده ونموّه وأعصابه وعروقه وما يحمل من

خصائص تندس فيه من آبائه وأمهاته وأشياء كثيرة ، فيعلم الله إن كان شقيا أو سعيدا ويعلم أرزاقها وآجالها ويأمر ملكا بكتابة ذلك عند نفخ الروح فيها فمن من الناس يدعي علم ذلك وما أقصرهم عن ذلك إنما علم ذلك عند الله وحده وهو الخلاق العليم، وهناك من الناس من يزعم أن الطب قد توصل إلى معرفة ما إذا كان الجنين ذكرا وأنثى ولو فرضنا أن ذلك صحيح ولا أظنه، فما معرفة هذَا فيما بقي مطويا عنا علمه ما هو إلا جزء من ملايين التى لا نعرفها ولا نطمع في معرفتها من ملايين الخلايا والأجهزة الدقيقة التي يحتوى عليها الجنين وأنى لهم أن يعرفوا ميوله وأفكاره وأخلاقه وغرائزه وتكونها وتطورها وآجال بقائها وفنائها ، كل ذلك ونحوه علمه عند الله تعالى خالق الأشياء ومقدرها ومعيدها وسع كل شيء علما، وما علم العلماء في علم الله تعالى إلا قطرة في بحر ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء،وسبحان الله رب العالمين .

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً﴾ .

في هذه الآية ينفي الله نفيا باتا عن كل نفس أن تدري ماذا تكسب غداً، ويأتي التعبير بالغد وهو اليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه فأنت تجهل ماذا تكتسب فيه على قربه من يومك بل تجهل ولا تدري ماذا تكسب بعد لحظتك التي أنت فيها، وهل تحدث الأحداث في هذه الحياة إلا بين لحظة وأخرى وإنما يعبر الله تعالى بالغد لأن الناس يخططون ويضعون البرامج والحسابات للغد القريب ولكن لا أحد من الإنس والجن والملائكة يعلم ماذا يقع في الغد القريب ولا في الساعة التي بعد ساعته التي هو فيها، وسئل بعض العارفين.بماذا عرفت ربك ؟ فقال : بنقض العزائم، وكثيرا ما يعزم الإنسان على أعمال وتحركات وينوي فعلها في الغد القريب فتحدث أشياء تنقض عزمه

وتعطله، وكذلك الدول تعلن عن أعمال ومخططات فتحدث فيها أشياء من موت وزلازل وسيول وكوارث تعطل أعمالها وتنقض مخططاتها، وقد تحدث الانقلابات فتغير كثيرا من مقرراتها، وقد تنعكس أمور وتحدث أمور أخرى فلا أحد يدري ماذا يكسب غدا ولا ما يتغير من كسبه وينتقض من عزمه، ومهما تقدمت العلوم والاختراعات فلا مطمع لأحد أن يعلم ما سيقع في المستقبل فذلك أمر طواه الله عن المخلوقات كلها ، وتأتي هذه الآية والتي بعدها في أسلوب النفي البات المعمم فمن يدري إذن ؟ الجواب عن هذا يأتي في ختام السورة وهو قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

فالله وحده هو الذي يعلم ما تكسب كل نفس وما يحدث لها .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ .

وتأتي هذه الجملة على نسق الجملة التي قبلها في سياق النفي المطلق، فلا تدري أي نفس من إنس أو جن أو ملائكة أو غيرهم من مخلوقات رب العالمين ما تدري نفس بأي أرض تموت، ولا في أي وقت من زمن، ولا بأي سبب ولا مطمع لأحد أن يعلم ذلك بل علم ذلك عند الذي يحيي ويميت ، وهو من الغيب الذي استأثر به فلا يُطلع عليه إلاملك الموت في الموعد الذي يريده أو بعض رسله في أوقات خاصة لحكمة يريدها﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ...الآية﴾[الجن/٢٦- ٢٧] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

إن الله واسع العلم لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء خبير بما بطن وما ظهر من شؤون ملكه وملكوته عالم الغيب والشهادة ، ومن كان كذلك يجب أن يعظم ويتقى ويعبد وحده ويشكر ولا يكفر ويذكر ولا ينسى ، والآية مناسبة كل المناسبة لما سبق من ذكر سعة علم الله وما ضرب الله لذلك من مثل الأشجار والبحار تكون أقلاما وحبرا فتنفد ولا تنفد كلمات الله ولو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر ، وخاتمة السورة فيها خلاصة ما سبق من إثبات العلم المطلق والخبرة الواسعة لله رب العالمين، فلا يسع العباد إلا أن يتقوه ويفردوه بالعبادة ولا يغتروا بالحياة الدنيا ولا يغتروا بالشيطان ونعوذ بالله من فتنة المحيا والممات ونعوذ بالله من غضبه وعقابه ومن همزات الشياطين وسبحان من أحاط بكل شيئ قدرة وعلما ، والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة السجدة وهي مكية وءاياتها ثلاثون

الٓمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢)
أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ
أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ (٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ
عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤)
يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ
مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦) ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ
ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ
مَّهِينٖ (٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ
ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ (٩)

السورة مكية وسميت سورة السجدة ، وتسمى أيضا سورة المضاجع لذكر المضاجع فيها عند قوله تعالى ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة /١٦] وهى من السور المبدوءة بالحروف المقطعة الهجائية والكلام فيها تقدم في مثيلاتها والقول الذي نختاره أن هذه الحروف رمز بها إلى تأليف هذا الكلام المعجز بالحروف التي ينطقون بها ولا يستطيعون أن يأتوا بمثله ولا بسورة واحدة من مثله والله أعلم بمراده منها .

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

يقرر الله تبارك وتعالى في هذه الجملة أن الكتاب منزل من عند رب العالمين فليس بسحر ولا كهانة ولا افتراء فهو تنزيل لا ريب فيه من الله رب العالمين الذي خلقهم فهو يهديهم إلى صراط مستقيم ، ومن صفات الرب أنه يهدي مربوبيه ولا يتركهم سدى وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، فالكتاب حقا من الله لا شك في ذلك ، وقد علموا ذلك وعجزوا أن يأتوا بسورة من مثله ولكنهم جحدوه ظلما وعلوا .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

أم هنا للإضراب بمعنى بل ، أي بل أيقولون افتراه ، أيتهمون محمداً بافتراء الكلام من عنده بعد أن علموا صدق محمد وإعجاز الكلام وعلوه وحكمته ، وأم هنا جاءت للتهكم بهم والتعجب من سخافة عقولهم وعقول من يغتر بكلامهم ، وللكلام وقعه في نفوس الذين يتذوقون أساليب اللغة العربية .

﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِكَ ﴾ .

جاء الرد صارما على سخافاتهم بتقرير ما هو الحق في هذا الكتاب الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وحصر الكتاب في الحق وذلك بتعريف الخبر « بأل» فهو الحق لاريب فيه وما هو بافتراء ولا شعر ولا سحر ولا كهانة فهو الحق من ربك يا محمد ، وفي هذا الخطاب الموجه إلى محمد ﷺ إلتفات عجيب فيه إعراض عن هؤلاء المكذبين ونبذ لكلامهم الباطل ، وفيه حفاوة وتكريم وتثبيت لقلب النبي ﷺ كل هذا يفهم من إضافة لفظ الرب إليه .

﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

كلمات من الله حكيمة صريحة تبين الغرض من إنزال هذا الكتاب على محمد ﷺ لينذر بالقرآن قوما غافلين ما أتاهم من نذير من قبله لعلهم يهتدون ، وهؤلاء القوم هم قوم النبىء ﷺ وهم قريش وهم أول من ينذرهم من الناس ثم هو نذير للناس كافة عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم وأحمرهم ، وما أتى قريشا من نذير قبل الرسول ﷺ وإذا كان لكل قوم نذير فهو نذيرهم وهو دعوة إبراهيم عليه السلام حيث يدعو الله ويقول : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة/١٢٩] فهو أي محمد رسول الله ﷺ نذير قريش ومن معهم ثم لكافة الناس ، وهو استجابة لدعوة أبيه إبراهيم عليه السلام ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد/٧] فقد قامت عليهم وعلى الناس كافة حجة الله على عباده ، والنذارة هي الإخبار بخطر مخوف في المستقبل والدعوة إلى أخذ الحذر قبل الوقوع فيه ، فهو نذير للناس كافة ولقومه

وعشيرته خاصة بين يدي عذاب شديد فمن أطاعه نجا من العذاب ومن عصاه وقع في العذاب الشديد ، وفي نذارته ما يدعو إلى الاهتداء بهداه قال الله تعالى :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

لعل هؤلاء القوم يستمعون لإنذارك فيهتدون بهدى الله وقد علم الله أن فيهم من يهتدي وتنفعه الذكرى وفيهم من لا يرفع بذلك رأسا وإنما يقيم الله الحجة برسله على عباده لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ويقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء/١٥] فيكون الذين يعصون رسول الله حينئذ يستحقون عذاب الله .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

هذه الآية واللواتي بعدها تصرح بمضمون الإنذار والتبليغ الذي هو الحق من عند الله والذي يكون به الاهتداء لأولي الألباب الذين يستمعون القول وتعيه قلوبهم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ .

الله لا غيره الذي خلق السموات السبع والأرض وما بينهما على غير مثال سابق في ستة أيام ، أما اليوم فمعروف ولكن ما المقصود بالأيام هنا ؟ هل هي الأيام المعهودة المعروفة عندنا ذات الأربع والعشرين ساعة ؟ لا ، قطعا لأن اليوم عندنا هو دورة الشمس حول نفسها ونور الشمس يتكور عليها من طرف لآخر وهذا لم ينتظم إلا بعد

خلق الأرض ودورانها حول نفسها تجاه الشمس فما مقدار اليوم من هذه الستة الأيام؟ جاء تقدير اليوم من أيام الله في القرآن بأنه ألف سنة كما سيأتي قريبا في هذه السورة وفي غيرها ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج/٤٧] وجاء تقدير اليوم في سوره المعارج في قوله تعالى : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج/٤] فقد يكون مفهوم اليوم من هذه السنة ما كان مقداره ألف سنة أو خمسين ألف سنة أو أكثر أو أقل ، أما عدد الأيام فهي ستة ما في ذلك من شك ، وأما مقدار اليوم فعلم ذلك عند الله تعالى :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ .

الاستواء بالمعنى الذي يليق بجلاله ما في ذلك تكييف ولا تشبيه ولا مطمع في معرفة حقيقة الاستواء هنا ، ومن العلماء من يفهم الاستواءأنه الاستيلاء والقهر جريا على أساليب اللغة العربية ، والقرآن نزل بلسان عربي مبين ، وجاء في الشعر العربي الاستواء بمعنى الاستيلاء والقهر قال شاعرهم :

قد استوى بشر على العراق بغير سيف ودم مهراق

أما الذين يفهمون الاستواء بالمعنى الظاهري المفهوم فهم اليهود لعنهم الله يقولون خلق الله السموات والأرض في ستة أيام الأحد والإثنين والثلاثاء والإربعاء والخميس والجمعة ثم استوى على العرش يوم السبت ويشبهونه في استوائه على العرش بالمخلوقين ويجسمونه لعنة الله عليهم وعلى من قال بقولتهم من المجسمة ، أما الإباضية وأهل السنة كلهم الأشاعرة منهم والماتريدية فهم جميعا ينزهون الله ولا يجسمونه ولا

يشبهونه بخلقه ولا نعلم أحدا منهم فسر الاستواء على ظاهره بل يقولون الاستواء معقول والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فنحن نؤمن به ونكل أمره إلى الله مع التنزيه الكامل والتفويض الكامل ، أو نؤوله بالقهر والاستيلاء ، هو صاحب العرش العظيم خالق السموات والأرض مالكها ومدبر أمرها ، وجاء في آية أخرى ﴿ ثُمَّ اَسْتَوَى علَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الاَمْرَ ﴾[يونس /٣] .

والعرش هو مركز السلطة ومصدر الأوامر ولذا يأتي التعبير بالجلوس على العرش عندما يستولي أحد ملوك الدنيا ورؤسائها على دولة من الدول ، والمقصود منه الاستيلاء والقهر والتصرف وتدبير شؤون الدولة ، أما العرش في الآية فهو خلق عظيم أعظم من السموات والأرض وقد وصفه خالقه بالعظمة فقال ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة /١٢٩] وورد أنه خلق عظيم وراء السموات السبع وفوقهن ولا نعلم مم خلق ولكننا نعلم أنه عظيم ، وأنه كريم ، وأنه مصدر الأوامر الالهية العليا ، وأن من الملائكة حملة العرش وكان قبل ذلك على الماء وأن أولياء الله سيظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله جعلنا الله منهم .

﴿ مَالَكُمْ مِن دُونِهِ مِن وَّلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

ليس لكم من دون الله ناصر ينصركم ولا شفيع ، والشفاعة تكون من الأدنى عند الأعلى فيشفع الأدنى منزلة عند عالي المنزلةرفيع الدرجات فتقبل شفاعته أو ترد، والمعنى هنا ليس لكم من شفيع إلامن بعد إذنه كما جاء في سورة يونس ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الذِي خَلَقَ الْسَّمَوَاتِ وَالاَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الاَمْرَ مَا

مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس/٣] وما فسر القرآن مثل القرآن ولله الشفاعة جميعا فهو يُشَفِّع من يشاء فيمن يشاء ويريد ، فلا ولاية إلا منه ، ولا شفاعة إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، وفي هذا رد على المشركين الذين يزعمون أن معبوداتهم شفعاء لهم عند الله فقال لهم .

﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ .

وهذا من باب المشاكلة لأن الشفاعة كما تقدم تكون من الأدنى إلى الأعلى ففي هذه الآية دفع في صدور الذين يعبدون من دون الله أندادا يتخذونهم أولياء لهم ، فلا شفيع يشفع لكم عند الله إلا الإيمان والعمل الصالح . ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ . أغفلتم أيها الناس أم نسيتم فلا تتذكرون عظمة هذا الرب الخالق رب العرش العظيم ، أفلا تخافونه أفلا توحدونه أفلا تعبدونه وتشكرونه .

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ .

الله تعالى يدبر الأمور ، أي ينزل الأمور المحكمة بقضائه وقدره وهو عالم بنتائجها وعواقبها وما تئول إليه ، والتدبير هو النظر السديد في العواقب وتدبير الله تقديره للأمور وتصرفه فيها وعلمه المحيط بعواقب الأمور ولله عاقبة الأمور ، ويدبر الله الأمر من السماء إلى الأرض وذلك لأن أمور الله تدبر في السماء ثم تنزل بها الملائكة إلى الأرض ثم تعرج الملائكة إلى ربها بالأمور في يوم قال الله فيه .

﴿ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

أي يوم هذا مقداره ألف سنة ؟ تكلم المفسرون في هذا المعنى واختلفوا فيه : فمنهم من قال تنزل الملائكة بالأمر وتعرج إلى ربها في يوم كأيامنا تقطع فيه بين السماء والأرض مسافة مقدارها ألف سنة وقد تكون أكثر من ألف سنة ، وإنما تذكر الألف للتكثير لأن الألف هو أقصى رقم يصل إليه العد بالحساب العربي ، وقد يكون هذا المعنى صحيحا وهو الذي نرجحه والملائكة الكاتبون والحافظون ينزلون أول اليوم ويعرجون آخر اليوم بأعمال العباد فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم « كيف تركتم عبادى» فيجيبون والحديث معروف ، وأول الحديث «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » وكنزول جبريل عليه السلام في قضية فداء إسماعيل حين جر السكين على حلقه أبوه إبراهيم امتثالا لأمر ربه وإسلاما منهما لرب العالمين فأمر الله عبده جبريل أن ينزل بكبش الفداء وقال له : « لئن سبقك السكين إلى حلق إسماعيل لأمحون اسمك من ديوان الملائكة » فنزل جبريل عليه السلام وهو يقول : « سبحانك سبحانك ما أعزشأنك وأعظم سلطانك » فاستوى على العقبة في منى قبل أن يرجع السكين إلى حلق إسماعيل عليه وعلى أبيه السلام ، وكذلك تنزل الملائكة والروح ليلة القدر بإذن ربهم من كل أمر ، وقال بعض المفسرين يدبر الله الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم من أيامه وذلك بعد ألف سنة ، وقد يكون الأمر المدبر النازل هو ما قدر الله وقوعه في مدة ألف سنة يلقيه إلى الملائكة المكلفين بتنفيذه فتنزل به ولا تعرج إلا بعد ألف سنة لترفع الدواوين ثم تنزل بأمور أخرى جديدة ، وهذا يدفعه قوله تعالى في وصف الليلة المباركة وهي ليلة القدر حيث يقول الله تعالى في وصفها : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان/٤] فالأمور تفرق في الليلة المباركة من عام إلى عام

فما هي هذه الأمور التى تفرق في ألف عام ؟ وقال بعض المفسرين وروي عن ابن عباس أن هذا اليوم الذي تعرج فيه الأمور إلى الله والذي مقداره ألف سنة هو يوم القيامة تعرج الملائكة بالدواوين إلى ربها تبارك وتعالى وهذا يرده ما جاء في سورة المعارج ﴿سَالَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج /١-٧] فهذا وما بعده أوصاف ليوم القيامة الذي مقداره خمسون ألف سنة لشدته وهوله وطوله ، وهو يوم عسير على الكافرين غير يسير ، فترجح أن يكون التفسير الأول للآية هو الذي يتعين المصير إليه وهو يدل على قدرة الله وعظمة سلطانه وأن المسافات ولو تباعدت لا تحول دون تدبير أموره وتنزيلها في اليوم وعروجها إليه في الوقت الذي يريد .

ثم يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

ذلك رب العالمين الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وقد سمعتم أوصافه ورأيتم آياته وجاءتكم رسله بالحق يهدونكم إلى صراط مستقيم ذلك عالم الغيب والشهادة يعلم ما ظهر من خلقه وما بطن ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم يعلم ما غاب عنكم وما تشهدونه لا تخفى عنه خافية .

﴿ الْعزيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

العزيز الذي لا يغالب وقد ذل لعزته جميع خلقه وهو الغالب الذي لا يعز من

عاداه ولا يذل من والاه ، الرحيم الذي وسعت رحمته جميع خلقه في الدنيا والآخرة وسيكتبها في الآخرة للذين يتقون ورحمته ليس كمثلها رحمة وهي قريب من المحسنين وقرنت الرحمة بالعزة حتى لا يتوهم أحد أن في عزته وجبروته نوعا من الظلم والقساوة ولا يتوهم أحد أن في رحمته نوعا من الضعف لأن المعتاد في الناس أن من كان عزيزا ربما تحمله عزته على التطاول على الضعفاء فيقسو عليهم ولا يرحمهم ولا يعدل في معاملتهم وأن الذين يشعرون بالرحمة من الناس هم الذين في نفوسهم نوع من الرقة والضعف فلا تجتمع العزة والرحمة إلاعند الذين أيدهم الله بروح من توفيقه وهدايته فتخلقوا بأخلاق الله على أن العزة المطلقة التي ليس كمثلها عزة هي لله والرحمة المطلقة التي ليس كمثلها رحمة هي لله فهو العزيز الرحيم حقا ، ولذا جاء الوصف معرفاً بالألف واللام وهذا المعنى يدركه الراسخون في علم المعاني والبيان والكمال المطلق لله نسأله تعالى أن يعزنا ويمتعنا برحمته التي يكتبها لعباده المحسنين يوم الدين .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

الله الذي أحسن أي أتقن كل شئ خلقه وأحكمه وزوده بالأعضاء التي يؤدي بها مهمته في هذه الحياة وجعلها متناسقة متناسبة وذلك ما يجعلها حسنة في نوعها وجنسها فلو جعل مثلا للجمل رأس قط أو جعل للإنسان رأس حمار لم يكن ذلك حسنا ، فقد أعطى كل جسم ما يناسبه ويحسن فيه ، وبتأمل يسير في الحيوانات والطيور والحشرات والحيتان في البحار ندرك جمال خلق الله وإتقان الله لصنعه

وحكمته وقدرته ورحمته بمخلوقاته فهذا الفيل مثلا جعله الله ضخم الجثة وجعل له رأسا يناسب ضخامته وجعل لرأسه خرطوما يتناول به نبات الأرض وماءها ويترفق به في أغراض كثيرة ، وهذا الجمل جعله الله من بين سائر الحيوانات يبرك للحمل ويقوم وينهض به وزوده بفراسن لاتسيخ في الرمل ، وجعله صبورا على الحمل والعطش والسير وسخره على عظمة جسمة لابن آدم الذي هو أضعف منه وأصغر جثة ، وفي ذلك الحكم ما فيه ، أليس في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[الغاشية /١٧] إلفات للأبصار وتنبيه للعقول للاعتبار ! وفي كل مخلوقات الله تعالى آيات تدل على أنه الذي أحسن كل شئ خلقه ، وليس الفيل في ضخامته أدل على قدرة الله من البعوضة وما فوقها بل الكل صنع الله الذي أتقن كل شئ ، وأحسن خلق كل شئ وسواه على النحو الذى يؤدي به وظيفته في هذه الحياة ، ويحافظ على بقائه ويدافع عن نفسه ، وقد ألّف علماء الحيوان الأسفار الضخمة التي فيها من العجائب ما يكفي ليعتبر ذووا الألباب ، ثم إن الله تبارك وتعالى تعرض لجنس الإنسان فخصصه بالذكر لشرفه وامتازه من بين سائر الحيوان بالقيام بحمل الأمانة العظمى فقال :

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقرر الله تعالى في هذه الآية الكريمة مبدأ خلق نوع الانسان أنه من طين ، وهو عجنة من سلالة من تراب هذه الأرض ، وهذا يدفع في صدور الذين يزعمون أن الإنسان تطور من قرد وكان أصله قردا وهي نظرية داروين ، وقد رد عليه العلماء وبينوا سخافة هذه النظرية وبطلانها ، وكلام رب العالمين هو القول الفصل وهو أحكم الحاكمين .

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ .

ثم جعل أولاده وماتناسل منهم من سلالة استلها واستخلصها من ماء مهين ، من قطرة ماء حقيرة لو وقعت في بدن أو ثوب لسارع صاحبه إلى غسلها وإزالتها ، وتلك القطرة تحمل عشرات الملايين من شعيرات صغيرة لا ترى بالعين المجردة كل شعرة منها إنسان يحمل خصائص أبيه حتى إذا استقرت في بويضة الأنثى تكون منهما النسل الذي يحمل خصائص أبيه وأمه أو جده وجدته استقرت في بويضة الأنثى تكون منهما النسل الذي يحمل خصائص أبيه وأمه أو جده وجدته والعرق دساس ، ويذكر الله هنا مهانة الماء الذي منه خلق الإنسان حتى لا ينسى أصله فيتكبر ويخاصم ربه وينسى خلقه الأول ، وحتى يعلم أن الذي خلقه من قطرة ماء مهين قادر على أن يعيده مرة أخرى بعد فنائه ، وحتى نزداد إيمانا وتعظيما لربنا وخالقنا ونعلم أنه على كل شئ قدير ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات /٢١] وفي التفكير في صنع الله ما يدعو إلى الإيمان وزيادة رسوخه في قلوب المتفكرين ، ولا يزال الكلام مستمرا في تكوين الإنسان وتطوره وهو جنين في أغشية الرحم في ظلمات ثلاث .

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ .

التسوية هنا هي إتقان خلقته وتكوينه بشرا سويا على صورته وهيئته الحسنة ، وذلك في الطور الرابع وقد كان أربعين يوما نطفة ثم أربعين يوما مضغة ثم يخلق الله المضغة عظاما ثم يكسو العظام لحما ثم ينشئه الله خلقا آخر ينفخ فيه الروح فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فهو حينئذ مخلوق جديد مستقل عن أمه بعد أن كان يتطور من طور إلى طور، فتبارك الله أحسن الخالقين ، قال الله تعالى : ﴿وَنَفَخَ فِيهِ

مِن رُّوحِهِ﴾ ولا نعلم من أمر الروح شيئاً ولا كيفية هذا النفخ وهي من أمر الله تعالى ، ونسبتها إليه نسبة تشريف لهذا الإنسان الذي هيئه الله لحمل أمانة التكليف ، والأرواح كلها لله ومن عند الله ومن خلق الله ، وهي صنع عجيب لها شأن جليل ولا مطمع لأحد من الناس في إدراك حقيقتها.

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

يمتن الله تبارك وتعالى علينا بثلاث نعم كبرى متعنا بها وهي السمع والبصر والفؤاد ، ويأتي الكلام هنا في صيغة المخاطبة بعد أن كان يجري على أسلوب الغياب وهذا هو الالتفات الذي هو من محسنات البديع في الكلام البليغ وللالتفات مناسبته وذلك أنه كان يحدثنا عن تكوين الذرات الأولى للإنسان الأول ، وهي من طين ثم عن الشعيرات الدقيقة التي هي الماء المهين ، ثم عن تطورها من طور إلى طور حتى استوى بشرا سويا ونفخ فيه الروح فإذا هو خلق آخر ، فخاطبنا ربنا تعالى ونحن نسمع ونعي ونعقل فقال :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ . وهذه الحواس وإن جعلت أيضاً للحيوانات ولكنها من نوع ليس كأسماعنا وأبصارنا وأفئدتنا ، فأسماعنا وأبصارنا وأفئدتنا ، نوافذ للعلم والإيمان والفقه في الدين والسيادة في الأرض والاستخلاف فيها واستعمارنا فيها ، وتسخيرما فيها من الحيوانات والنبات والجماد لنا وحتى طبقات الفضاء ، لقد عظمت نعم الله علينا في هذه الأجهزة الثلاثة السمع والأبصار والأفئدة وقل شكرنا لها ، قال الله تعالى : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي قليلا شكركم لربكم ، هذا للمؤمنين أما الكافرون فهم يجحدون نعم الله ويكفرون بالمنعم ويجعلون له أندادا

يحبونهم كحب الله ، ومنهم من يؤمن ويلبس إيمانه بظلم كما قال تعالى في وصفهم : ﴿وَمَا يُؤمِنَ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف /١٠٦] فالمؤمنون يقل شكرهم لنعم الله ، وغيرهم يفضي بهم عدم الشكر إلى التكذيب بآلاء الله وكفران النعم ، وجحود الخالق المنعم وتكذيب الرسل المنذرين بالبعث والجزاء .

وَقَالُوٓا۟ أَذَا ضَلَلْنَا
فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾
قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ
رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا
مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ
حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ
إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا
خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ۩

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ
مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا
لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ
أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ
تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ
ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ
ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

بعد أن ذكر الله تعالى أصل نشأة الإنسان الأولى أنه من سلالة من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين يتعرض الله لمقالة الذين ينكرون البعث محتجين بضياع أجسادهم البالية في تراب الأرض فيحكي مقالتهم ويرد عليهم ردا محكما فيه قمع لهم فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ .

المناسبة قوية بين هذه الآية وما سبقها وتتضمن الرد على مقالتهم الواهية وذلك أنهم زعموا أن الله لا يقدر على ردهم للبعث بعد أن ضلت ذرات رفاتهم في تراب الأرض و قالوا ذلك رجع بعيد ، فلو استعملوا عقولهم في النشأة الأولى لرأوا ذلك قريبا ممكنا، والله الذي أنشأهم من سلالة من طين ثم من ماء مهين قادر على أن يجمع ما بلي من عظامهم للنشأة الثانية ، يقولون أإذا ضل رفاتنا في الأرض برها وبحرها أإنا مبعوثون خلقا جديدا ، يتعجبون ويدعون غيرهم إلى التعجب والتكذيب بالبعث والاستبعاد له، وفي إنكارهم واستبعادهم العجب لو كانوا يشعرون ، ويتحول الكلام من الخطاب إلى الغياب في أسلوب الالتفات وذلك للتهكم بهؤلاء المنكرين للبعث والسخرية بعقولهم السخيفة والتعجب من مقالتهم هذه بعد الذي رأوه من قدرة الله التي ظهرت في صنعه الذي أتقن كل شيء ، فهم من الحقارة والمهانة بحيث لا يستحقون الخطاب بل لم تعد عقولهم مستعدة للفهم والقبول .

﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ .

والكفر هنا ليس لعدم قيام الحجة بل لقد قامت عليهم الحجة البالغة ولكنهم كفروا كفرجحود وتنطع ، لقد استيقنتها أنفسهم ولكنهم جحدوا بها ظلما وعلوا وحبا للفجور واتباعا للهوى ، ولذا جاء الإضراب ببل لأن الإضراب نفي للحالة الأولى وإثباتا للحالة التى بعد بل ، فهم ليسوا لم يفهموا الدليل إنهم قد أيقنوا أن الله الذي خلقهم قادر أن يحيي الموتى بل آثروا الكفر والجحود تكبرا أو تعصبا وميلا للظلم واتباعاً للأهواء لأنهم علموا أن الايمان بالرسول يطأطئ رؤسهم من كبريائها ويمنعهم

من الفجور فهم يؤثرون البقاء على كفرهم رغم قيام الحجة عليهم ، وقد جاء هذا المعنى في كتاب الله في سورة القيامة حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ أَيَحْسِبُ الانسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾[القيامة /٣-٥] فقد اتضح معنى الإضراب ببل في هذه الآية وما فسر القرءان مثل القرآن فهم يؤثرون الكفر عن بينة وذلك منهم بغية الفجور فهم بلقاء ربهم والوقوف بين يديه للحساب والجزاء هم بذلك كافرون منكرون ، ويوم لقاء ربهم آت لاريب فيه ، وبهذا المعنى يأتي الحكم القاطع في الآية التالية فيقول الله تبارك وتعالى :

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَّلَكُ الْمَوْتِ الذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ .

قل لهم يا محمد : يتوفاكم عند آجالكم ملك الموت الذي وكل بكم ويقبض أرواحكم ثم إلى ربكم ترجعون يوم القيامة ، هكذا يقرر الله تعالى وفاة الآجال وقد وكل بها ملكاً خاصا يتوفى جميع الأحياء عند حلول آجالها ، ويقرر الله قضية البعث بعد الموت والرجوع إلى الله للحساب والجزاء، يقرر الله خبر المصير بجملة هادئة ليس فيها قسم ولا توكيد وهل يحتاج الأمر إلى توكيد بعد أن وضحت الدلائل وقامت الحجج وصلحت قدرة الله لكل شئ و لم يعد في الأمر شك ولا ريب ، فلا ينكر البعث بعدها إلا متعنت خصيم لدود معاند كفور ، يأمر الله نبيئه أن يبلغهم هذا القرار ليقيم عليهم الحجة وكفى بالله شهيداً ، وكفى برسول الله مبلغا ونذيراً ، فليس الموت فناء مطلقا ليس بعده حياة بل هو انتقال من دار عمل إلى دار جزاء يكون فيها الرجوع إلى الله والوقوف بين يديه ليقضي بينهم بحكمه وهو خير الحاكمين ، فمن شاء بعد هذا فليؤمن ومن شاء فليكفر فالطريق واضح والموعد يوم الدين والله لا يخلف الميعاد.

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ .

جاءت هذه الآية مصبوبة في قالب التعجب والاستغراب لأمر عظيم هائل وهو كلام الحق نزل بالحق وهو الحق ليس فيه مبالغة وتهويل إنما هو وصف لمشهد يوم عظيم، في عرضه موعظة وذكرى لمن يستمع وينتفع بالذكرى ، ولو ترى يا محمد والخطاب بالتبع لكل تال للقرآن ، ولو ترى حين يكون المجرمون موقوفين عند ربهم قد جيئ بهم وأحضروا إحضارا ووقفوا بالرغم منهم عند ربهم ، وبناء الفعل للمفعول يوحي بهذا المعنى فهم ضعاف أذلاء يعلوهم الخزي وترهقهم الذلة و الكآبة والندم ، فهم الآن مؤمنون بربهم خاضعون لعظمته وسلطانه معترفون بربوبيته وألوهيته يستعتبونه ويقولون : ربنا أبصرنا وسمعنا ، أبصرنا ما عميت عنه أبصارنا في الدنيا وسمعنا ما صمت عنه آذاننا من الحق فارجعنا يا ربنا إلى الدنيا نعمل صالحا ونتدارك ما فرطنا فيه إنا موقنون بلقائك مصدقون بكلامك وكلام رسلك وأنبيائك ، آمنا وأيقنا بوعدك الحق ، فهم في موقفهم هذا يعلنون بإيمانهم ويقينهم ويسألون الرجوع إلى الدنيا وأنى لهم ذلك ، وقبل أن يجيبهم الله بما يخزيهم ويزيدهم عذابا يخاطبنا خطابا بليغا فيه تقرير حقيقة ثابتة وهي أن الأمور كلها بمشيئة الله تسير بإرادته وقدرته . يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

هكذا تأتي هذه الجملة المعترضة بين كلامهم وبين جواب الله ، تأتي مبدوءة بنون

العظمة التي توحي بما توحي به من عظيم سلطان الله وقدرته الكاملة الشاملة .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى : ولو شئنا لهدينا الناس جميعا إلى صراط مستقيم هداية توفيق وإيصال ، يقول لنا ذلك حتى نعلم أن الله لا يعصى باستكراه ولا يقع في ملكه إلا ما يشاء ويريد ، فليس عصيان هؤلاء الكفرة خارجا عن إرادة الله بل هو بقدره ومشيئته وليس بإجباره إياهم بل بمحض اختيارهم وبكامل حريتهم ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة/٢٥٦] ولذا كان المطيع مستحقا للمثوبة والعاصي مستحقا للعقوبة ، وهذا ما تقتضيه عدالة الله ويهدي الله من يشاء بفضله وفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وخلق الله دارين إحداهما هي مظهر فضله وموطن رحمته أعدها للمطيعين وهي جنة النعيم ، والأخرى هي مظهر عدله وموطن سخطه ونقمته أعدها للكافرين والمنافقين من الجنة والناس أجمعين وتمت كلمته تعالى ليملأن جهنم من عصاة الجن والإنس ، إنه فعال لما يريد ، هكذا تأتي هذه الجملة المعترضة في هذا المشهد الفظيع المؤثر وهي حقيقة تنخلع لها أوصال العارفين وتبكي عيون الخاشعين رهبة لله رب العالمين ، ويأتي ذكر الوعيد هنا لمناسبة موقف هؤلاء المجرمين ثم يأتي الجواب المنتظر من الله العلي العظيم .

﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

هذه الآية تحمل جوابا قاسيا مؤيسا لهؤلاء الكفرة ولكل من أسرف على نفسه في الإجرام والفجور ناسياً لقاء الله، فذوقوا أيها المجرمون العذاب الأليم جزاء على

نسيانكم لقاء يومكم هذا وتكذيبكم به إنا نسيناكم كما نسيتموه و لم تستعدوا له، وهذا النسيان متعمد مقصود والله لاينسى ، وجاء التعبير بالنسيان للمشاكلة ، والجزاء يشمل كل من نسي لقاء هذا اليوم من كافر ومنافق فاجر بأن كذب به أو ارتاب فيه،ففي الآية موعظة وإنذار للموحدين الذين يرتكبون الجرائم فهم ولو لم يكذبوا بهذا اليوم ولكن أفعالهم أفعال المكذبين الناسين له ، وفي هذا المعنى يقول الشيخ أبو نصر الملوشائي رحمه الله

نرى الأمر عن علم اليقين تيقنا — ونعمل أعمال الذي شك في الأمر

ويقال هذا الكلام لكل الناسين والمرتابين بأقوالهم أو أفعالهم كما قال الله تعالى في سورة الحديد ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الامَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد/١٤] ثم يتكرر الأمر منسوبا إلى عذاب الخلد زيادة في خزيهم وإبلاسهم فلا رجاء في الرجوع ولا في التخفيف ولا في الخروج،

﴿وَذُوقُواْ عذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول الله لهم وذوقوا عذاب الخلد ، فهو عذاب ثم هم فيه خالدون مبلسون مالهم من زوال ، فكفى به زاجر للناسين أن يكون عذاباً وزيادة على ذلك وصفه بالخلود أعاذنا الله من الغفلة ومن النسيان ، ومن أراد الله به خيراً فليذكر دائماً ذلك اليوم وليجعله نصب عينه لاسيما في القيام إلى الصلاة ليكون من القانتين الخاشعين الذين يقول في وصفهم .

﴿إِنَّمَا يُومِنُ بِآيَاتِنَا الذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَيَسْتَكْبِرُونَ﴾ .

تأتي هذه الآية في وصف عباد الله الصالحين على طريقة القرآن بالمزاوجة بين ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وقد يبدأ بهؤلاء تارة وبأولئك تارة وذلك على حسب المناسبات ، وهنا بدأ بذكر مصير أصحاب النار لأن الكلام كان موجها إليهم من أول السورة وبعد هذا ثنى بذكر أصحاب الجنة وأعمالهم ومصيرهم ليظهر البون الشاسع بين هؤلاء وهؤلاء ، وفي ذلك ذكرى للذاكرين ، ووصف الله قرآنه بقوله تعالى ﴿ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر /٢٣] وتبدأ هذه الآية بإنما التي تفيد الحصر ، وفيه تعريض بهؤلاء المجرمين الكفرة الذين لم يؤمنوا بلقاء ربهم إلا في يوم البعث وإنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام /٢٨] أما الذين يؤمنون إيمانا صادقا عميقا تخالط بشاشته قلوبهم فهم هؤلاء الذين إذا ذكروا بآيات ربهم المتلوة في القرآن أو المجلوة في الأكوان تذكروا وتأثروا بها فخروا لله ساجدين بقلوبهم وخرت أجسادهم تبعا لسجود قلوبهم ، وهذا ما يوحي به التعبير بالخرور لأن الخرور هو السقوط من أعلى إلى أسفل فهم لا يتمالكون أن تخر جباههم وأجسادهم تواضعا لله تبارك وتعالى وهم لا يستكبرون ، أي ليس في قلوبهم أدنى رائحة للكبر فهم لا يستكبرون عن طاعة الله وعبادته وتقبل أحكام شريعته قد امتحن الله قلوبهم للتقوى فامتلأت بتعظيم الله وخرت لآياته ساجدة وسبحوا بحمد ربهم ، نزهوا ربهم وقدسوه وأسندوا إليه أوصاف الكمال ، وأثنوا عليه بما هو أهله ولا تزال ألسنتهم رطبة بذكر الله وقلوبهم مفعمة بتعظيم الله ربهم الذي خلقهم فهو يهديهم ، والذي هو يطعمهم ويسقيهم ، والذي يميتهم ثم يحييهم ، وهذا ماتوحي به

كلمة الرب وأضيفت إليهم بالحفاوة والتوفيق والتكريم والتشريف والتقريب ،كل هذه المعاني تستوحى من كلمة ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ فشتان بين ورود هذه الكلمة في أولياء الله وبين ورودها قبل في المجرمين أعداء الله ، ويدرك ذلك أهل المعرفة بمعاني الكلام الذين فتح الله بصائرهم لهذه الأسرار وأرهف حسهم بالتأثر بآيات الله ، أولئك هم أولوا الألباب ، ويضرب الله المثل لهؤلاء وهؤلاء بقوله تعالى في سورة هود : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[هود/٢٤] .

ثم يصف الله أولياءه الذين يخرون له سجدا بوصفين آخرين ملازمين للوصف السابق لاينفكان عنه فيقول تبارك وتعالى :

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ .

في الآية كناية بديعة معبرة عن قيام الليل ومكابدته في العبادة من أناس أطار الخوف والطمع نومهم وأهاج قلوبهم وعواطفهم فحاربوا النوم على شدة حاجتهم إليه .

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ .

أي تتباعد جنوبهم عن الفرش الوطيئة وتفارقها وهو عمل متكرر في كل ليلة كما تدل عليه عبارة ﴿ تَتَجَافَى﴾ والتعبير بالمضجع يوحي بالراحة وجاذبية الفراش ولذة النوم ، وهذا ونحوه تجافوه إلى القيام والعبادة ، فهم يكابدون الليل ويحيونه بالعبادة يدعون ربهم خوفا من سخطه وعقابه وطمعا في رضوانه ورحمته ، وهذا الخوف والطمع هو عمارة قلوب عباد الله المؤمنين بلقائه وهذا يقابل ما سبق في وصف

المجرمين أنهم نسوا لقاء يومهم هذا فاستوجبوا بذلك نسيان الله إياهم واستوجبوا عذاب الخلد ، أما المؤمنون بلقاء الله الذين امتلأت قلوبهم خوفا من سخطه وعذابه وطمعا في رحمته وثوابه فهم يقومون الليل والناس نيام ، ويذكرون الله والناس غافلون، يدعون ربهم في أرجى أوقات الاستجابة حيث تفتح أبواب السماء ، وجاء في الخبر أن الله ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل يقول : « هل من مستغفر فيغفر له .... الحديث » وجاء في القرآن مدح المستغفرين بالأسحار وقال الله تعالى ﴿وَمِنَ آنَاءِ الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ [طه/١٣٠] ثم وصف الله هؤلاء العباد الأبرار بوصف ثان فيه مدح لهم فقال :

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ .

هذا الإنفاق ينصرف معناه أولا إلى الزكاة التي هي حق معلوم ، ثم الإنفاق على العيال ، والإنفاق في وجوه البر ، والإنفاق في الجهاد في سبيل الله ، والإنفاق في إكرام الضيف وواجب المروءة ، وقوله تعالى ومما رزقناهم فيه تذكير لنا أن الأموال التي بأيدينا هي من رزق الله ولو شاء لقبض ما كان مبسوطا ، فالإنفاق منها شكر لنعمة الرزق التي هي من الله والشكر يستوجب المزيد ، والرزق يشمل المال والعلم والجاه وكل ما يتمتع به الإنسان مما يمكن أن يفعل به الخير ويعين إخوانه ويدخل السرور على قلوب الضعفاء منهم والمحتاجين ، ولا يكون هذا الطبع المحمود إلا في قلوب الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، فإن للصلوات أثرها الطيب على القلوب ولذا جاء الوصفان مذكورين معا في نسق واحد ، وفي سورة المعارج ما يدل على هذا المعنى وهو قوله تبارك تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَنَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُ جَزُوعَا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الذِينَ هُمْ

عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ وَالذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ..... ﴾ الآيات إلى أن يقول ﴿وَالذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[المعارج /١٩-٣٤] فلأنواع الطاعات والقربات أثرها الطيب المحمود في طبع المسلم .

﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

كلمة من الله طويت في آية مختصرة ولكن التعبير الشامل الدال على أنواع النعيم التي يتقلب فيها السعداء في الجنة مما لا يأتي عليها حصر ولو بسط الكلام وطال الوصف فلله بلاغة القرآن وروعة أسلوبه المعجز ، ما أبلغ وقع هذه الكلمة في نفوس أولي الألباب فلا يعلم أحد ولا تشعر نفسه بمقدار ما أخفى الله لهؤلاء الأبرار من تحف وهدايا وأزواج من الحور العين تقرُّ بها أعينهم ، وقرة الأعين عبارة عن غاية الفرح والسرور بما يفاجأ به الإنسان من أنواع المفاجآت ، وما أجملته هذه الآية جاء تفصيله في آيات أخرى ، لكن لا تعلم نفس ما أخفي لأهل الجنة مما تقربه أعينهم ورضوان الله أكبر .

﴿جزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول الله هذا تكريما لهم وبيانا لنا أنه لابد من العمل الصالح لمن يطلب الجنة والخلود فيها فالجنة لا تدرك بغير عمل ، والطمع فيها بغير عمل طمع في غير مطمع ومنى خادعة ، وليست السعادة تنال بالأماني بل لابد بالجهاد المتواصل في أداء الفرائض وترك المحرمات ومقاومة نوازع الهوى والصبر على طاعة الله ، وبعد كل هذا ليست أعمالنا هي التي تدخلنا الجنة وإنما الإحسان يدني من رحمة الله ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف /٥٦] والإحسان كما جاء في الحديث هوأن تعبد

الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وموضع الإحسان هو المسارعة إلى الخيرات والمجاهدة بالأعمال الصالحات مع سلامة القلوب وإخلاص نياتها لله تبارك وتعالى ، كل هذا يوحي به قوله تعالى : ﴿جزاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ .

وكثيرا ما ترد هذه الكلمة في القرآن الكريم لتغرس في القلوب قيمة العمل ولتنفي عنها الأماني الفارغة التي لا تنفع شيئا .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُومِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ ﴾ .

بعد ذكر مصير المجرمين ومصير المؤمنين العاملين تأتي هذه الآية على صيغة الاستفهام الذي يراد به النفي ، وفي الآية مناظرة بين الفريقين يراد بها بيان البعد بين فريق المؤمنين وفريق الفاسقين في المحيا والممات ثم يقرر الله بحكمه أخيراً أنهم لايستوون حتى يقطع كل طمع ربما يتمسك به الطامعون ذوو الأماني الفارغة الغرارة، ويناظر الله في هذه الآية بين المؤمنين وبين الفاسقين ، والايمان النافع عند الله هو الاعتقاد الحق والعمل الصالح الذي يحققه هذا الاعتقاد في قلب المؤمن ، وليس الاعتقاد وحده يكفي بدون عمل ففي أول سورة الأنفال يقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وُجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَواةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكِ هُمُ الْمُومِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال/٢-٤] ويأتي مثل ذلك في وصف المؤمنين في أول سورة (المؤمنون) وأمثالها في القرآن كثيرة ، يأتي فيها بيان الإيمان الحق الذي يسعد به صاحبه يوم القيامة ، وكذلك يأتي معناه في أحاديث صحيحة عن النبي ﷺ ، وأما الفاسقون فهم الذين فسقوا عن الصراط المستقيم ،

والفسق هو الخروج تقول فسقت النواة إذا خرجت من التمرة ، وفسقت الجوزة إذا خرجت من قشرتها ، فالفسق هو الخروج عن الجادة بالشرك أو بارتكاب الإجرام والإثم والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والبغي في الأرض بغير الحق ، فكل مخالفة بارتكاب كبيرة تسمى فسقا فيشمل معنى الكلمة هنا كفر الشرك وكفر النعمة فهم لا يستوون مع المؤمنين الصادقين ، هذا حكم الله أنهم لا يستوون فلا محل للأماني ، والذين يتمسكون بها يتمسكون بخيوط العنكبوت فليست شفاعة الرسول ﷺ لأهل الكبائر ولا يغني قول لا إله إلا الله مع ارتكاب الكبائر وتضييع الفرائض والموت على الإصرار بدون توبة ، ونظير هذه الآية قوله تبارك وتعالى في سورة الجاثية ﴿ أَمْ حَسِبَ الذِينَ اَجْتَرَحُواْ الْسَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ الْصَّالِحَاتِ سَواءٌ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية/٢١] فكيف يطمع الفاسقون أن يكونوا كالذين ءامنوا وعملوا الصالحات بعد هذه الآيات الصريحة وبعد قول الله تبارك وتعالى :

﴿ لاَ يَسْتَوُونَ ﴾ .

﴿ أَمَّا الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الذِينَ فَسَقُواْ فمأْوَايهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرادُواْ أَن يَّخْرُجُواْ مِنهَا أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

يبين الله تعالى في هاتين الآيتين مصير الفريقين الذين ينفي استواءهما ، وللاهتمام بالموضوع افتتح كل آية بأمّا فقال .

﴿ أَمَّا الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

كثيرا ما يرد لفظ الإيمان في القرآن مقترنا بالعمل الصالح ، ليفيد أنه لا ينفع الإيمان بغير العمل الصالح والعمل الصالح هو الإتيان بالفرائض والواجبات وأداء الحقوق ، وفعل الخيرات ، وترك المعاصي والمنكرات، واجتناب البغي والظلم والفساد في الأرض ، وذلك لايتم إلا باتباع الرسول النبي الأمي ، ويأتي تفصيل ذلك في مواضع كثيرة من كتاب الله وفي هؤلاء يقول الله

﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

أي أعد الله لهم جنات هي مأواهم الذي يأوون إليه يطمئنون فيه أعد الله لهم فيها نزلا ، والنزل هو الطعام الذي يهيأ ويعد للضيف الوافد وأنواع من التحف التي تهيأ للضيف النازل ، والتعبير بالمأوى يفيد أنها هي المأوى والمستقر الحقيقي وكل ما قبل ذلك إنما هي مراحل انتقال كل مرحلة تؤدي إلى التي بعدها ، والاستقرار إما في جنة يدوم نعيمها أو في نار يدوم جحيمها ، وقوله تبارك وتعالى

﴿ نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

أي أعد لهم هذا النزل الطيب جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا من الأعمال الصالحة ، وهذا من الله توكيد على أن العمل الصالح هو الذي ينفع وهو الذي يتم به الإيمان ، فكيف يطمع في الجنة من ضيع العمل وتمسك بأقوال يرددها والتهى بالأماني.

﴿ وَأَمَّا الذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَايهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنهَا أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

في هذه الآية يأتي الكلام على الفريق الثاني وهم الذين فسقوا عن أمر الله وطغوا

وبغوا وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وظلموا أنفسهم بالشرك أو بما دون الشرك من أنواع المعاصي ، فأولئك مأواهم النار يأوون إليها ويستقرون فيها ويخلدون في عذابها وهم فيها في غم يحاولون أن يخرجوا منه لكن لا يجدون عنه محيصا .

﴿كُلَّمَا أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ .

هذه الإرادة إرادة الخروج لا نعلم كيفيتها وربما يمكنون من الاندفاع في وسط اللهب أو يرفع اللهب أجسادهم ويدفعها نحو أبواب جهنم فإذا اقتربوا منها طمعوا في الخروج فتعيدهم الزبانية إليها ضربا منهم بمقامع من حديد ، وفي اقترابهم من أبوابها وإعادتهم إليها زيادة عذاب نفسي لهم فهو أنكى لهم وأخزى من مكوثهم في وسطها، وجاء هذا المعنى في غير موضع من القرآن تخويفا لهم في الدنيا لعلهم يتوبون أو يذكرون ، وإنذار للمؤمنين الذين يؤمنون بوعد الله ووعيده ووعظا لهم حتى يحذروا الفسوق والعصيان وكل ما يؤدي إلى النار ، قال الله تعالى ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق/٤٥] .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

اختلف المفسرون في نوع هذا العذاب الأدنى في وقته وظرفه فقال قوم هو عذاب القبر ، وقال آخرون هو عذاب المحشر أو هما معا ، وهذا القول يأباه ويرده قوله تعالى لعلهم يرجعون إلا أن نضطر إلى تكلف بعيد في تفسير هذا الرجوع ، وقال الجمهور وهو الذي نرجحه أن هذا العذاب الأدنى الذي يذيقهم الله إياه دون العذاب الأكبر هو عذاب الدنيا، جاءت العبارة مؤكدة بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة ، وجاء الفعل متصلا بنا التي للعظمة ، كل هذا تهديدا لهم بأن الله لهم بالمرصاد وما ربك

بغافل عما يعمل الظالمون ، وقد ينزل العذاب عليهم أنواعاً من القوارع لعلهم يرجعون فيثوبون إلى الرشد ويتعظون بنزول العذاب ، ومنهم من يتعظ ويرجع إلى الصواب ، ومنهم من يزداد قساوة ومكرا ، وجاء مثل هذا المعنى في غير موضع من القرآن الكريم قال الله تعالى في سورة الأعراف في بني إسرائيل ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الأعراف /١٦٨] وقال في سورة الأنبياء ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء /٣٥] كل هذا لأنواع البلاء الذي يصيب الله به الكفرة والفسقة والظلمة في الدنيا لعلهم يتوبون أو يذكرون ، وقد أصاب الله قريشا بالهزيمة يوم بدر وبقتل أشرافهم وساداتهم كما أصابهم بالجذب والمجاعة واستجابة لدعاء نبيئه فيهم فصاروا إلى شر حالة ، وهذا دون العذاب الأكبر الذي ينتظرهم يوم القيامة لمن لم يرجع منهم و لم يتب ، وقد يشكل على بعض الناس إصابة المؤمنين أيضا بأنواع من البلاء ، والجواب على هذا الإشكال أن الله يصيب عباده المؤمنين بأنواع من البلاء تكفيراً لذنوبهم ، وتطهيراً لنفوسهم ، وتربية لهم عندما يرتكبون بعض المخالفات وهذا من الله للمؤمنين رحمة منه في لباس بلاء لأن الذي يعوضه لهم عن هذه المصائب أعظم لهم عند الله مما يصيبه منهم ، فجاء في الحديث الشريف «من يرد الله به خيراً يصب منه» وذلك ليجمع الله لعباده الأبرار ثواب الصابرين والشاكرين ، وفي الجنة درجات لاتنال إلا بالصبر على مصائب الدنيا ، فلا إشكال في هذا مطلقاً .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ .

تأتي هذه الآية الكريمة الشديدة المناسبة لما سبقها من الكلام ليبين الله لنا فظاعة ظلم الذين يذكرون بآيات الله البينات ثم يعرضون عنها مكذبين لها إيثاراً للإجرام

والفساد في الأرض ، يقول الله تبارك وتعالى : لا أحد مطلقاً أشد ظلما وأعظم جرما من هؤلاء الذين ذكروا بآيات ربهم وخالقهم المنعم عليهم فأعرضوا عنها مستكبرين يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ .

هكذا يأتي تهديد الله ووعيده بنون العظمة والجبروت وما تستتبعه من واو الجماعة ونونها ليستقر فى الأذهان أن الله منتقم لا محالة شر انتقام من هؤلاء المجرمين الظالمين وما هم بمعجزين ، ومناسبة الآية لما قبلها أنه ربما يستعظم أحد من الناس إذاقة الله لهؤلاء بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر الذي جاء بعض أوصافه آنفا فجاء الجواب أنهم يستحقون ذلك لإعراضهم عن آيات الله وهم يذكرون بها وتكذيبهم لرسل الله وأنبيائه وارتكابهم أنواع الإجرام فلا أحد أعتى على الله منهم ولا أحد أظلم منهم فاستحقوا هذا العقاب من الله جزاء حسابا على ظلمهم وعتوهم وإجرامهم ، وفي وصفهم بالإجرام تذكير من الله للمؤمنين وتحذير لهم أن لا يرتكبوا المعاصي ويغتروا برحمة الله ويغتروا بالأماني ففي سورة الحديد الموعظة لجميع المؤمنين تحذرهم أن يكونوا من الجاهلين أو يقعوا في النفاق من حيث لا يشعرون ، وذلك بأن يتصفوا بأحد أوصافهم الأربعة التى يقول الله تعالى فيها : ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد/١٤] وقد كانوا فى الدنيا مع المؤمنين فلم تنفعهم تلك المعية لاتصافهم بالأوصاف التي سلكتهم فى صفوف المنافقين الذين مأواهم النار هي مولاهم وبئس المصير ، فليذّكر المؤمن الصادق بآيات الله وليحذر من الإجرام والمجرمين ، ونعوذ بالله السميع العليم من النار ومن الشيطان الرجيم .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى
لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا
صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ
كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ
إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ
أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدَ اتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ... الآية ﴾ .

تأتي هذه الآيات فى الكلام على موسى وبني إسرائيل وما لقي المهتدون منهم

من العاقبة الحسنة ، وفيها تثبيت للنبيء ﷺ والمؤمنين وتسلية لهم عما يلقونه من أذى قومهم الكافرين ومنا سبتها شديدة لما قلبها ، والآيات مكية ولذا ترى فيها بعض الطي والايجاز ولكنها قوية التعبير ، ويفتتح الكلام بالتوكيد بقدْ المسبوقة بلام القسم ، وفيه النهي عن الشك والامتراء فالأمر حق وجدّ ليس بالهزل ، ولقد آتينا موسى الكتاب ، الكتاب هنا هو جنس الكتاب ويشمل ما نزل من الصحف على موسى عليه السلام والتوراة المنزل عليه وهو جنس الكتاب الذي ذكره الله في قوله : ﴿ لَكِنِ الْبِرَّ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيئِين .. الآية ﴾ [البقرة/١٧٧] ويشمل الكتاب جميع الكتب المنزلة من عند الله على رسله ، التي منها التوراة المنزل على موسى والقرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وعلى موسى وعلى سائر أنبياء الله ورسله ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ .

فللمفسرين بعض اختلاف في مرجع الضمير من ﴿ لِّقَائِهِ ﴾ لقاء من ؟ أولقاء ماذا؟ فقال بعض منهم لقاء النبيء محمد لموسى فقد لقيه ليلة الإسراء والمعراج ، وقال آخرون لقاء موسى للكتاب المنزل عليه ، وقال المحققون وهو الذي نرجحه لقاء النبي محمد ﷺ. للكتاب وليس المقصود من النهي هو شخص النبيء بل المقصود أمته الذين ألقي إليهم هذا الكتاب على يده حتى لا يمتروا ويعلموا أنه الحق المنزل من عند الله كما أنزل الله الكتاب على موسى من قبله ، وهذا المعنى قوي ومناسب بعد ذكر الكتاب الذي أوتيه موسى عليه السلام والعرب الذين نزل إليهم هذا الكتاب يعلمون خبر موسى وبني إسرائيل ، ونزول الكتاب إليهم بواسطة نبيئهم موسى فلِم يمترون في الكتاب الذي أنزله الله على نبيئهم محمد الذي يعرفون صدقه وأمانته ﷺ ، ثم يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

أي وجعلنا الكتاب المنزل على موسى هدى لبني إسرائيل وهم قوم موسى ، وكذلك جعلنا القرآن المنزل على محمد هدى لكم فلا تمتروا فيه ، ووصف الله القرآن بأنه ﴿ هدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة /١٨٥] ووصف بقوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لأن المتقين هم الذين يستفيدون بهداه ويسعدون به ، وكذلك أنزل الله التوراة على موسى هدى لبني إسرائيل وقبله أنزل عليه صحفاً فيها مواعظ لهم وذكرى ، وقد لقي موسى من العنت من قومه بني إسرائيل ما لم يلقه من قوم فرعون فصبر على ذلك فنفع الله بهداه من أراد به الخير منهم فكانوا من بعده أئمة للمتقين ، هداة للناس وفيهم يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ .

وجَعلنا منهم أي من بني إسرائيل. من قوم موسى عليه السلام أيمة في الدين يدعون إلى الله ويهدون بأمره أي بهدايته ويحكمون بشريعته ولا يشذون عنها ، وقوله تعالى : ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ .

فيه إشارة إلى ما لقوه من الأذى من أقوامهم كما لقي موسى من أسلافهم ، وهي سنة الله فى خلقه أن الدعاة القائمين بهداية الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يلاقون ما يلاقون من العنت والأذى ويصبرون ويصابرون ويمحص الله الذين آمنوا ويتخذ منهم شهداء ويجعل من الباقين أيمة للمتقين يهدون الناس بأمر الله ، يخلفون أنبياء الله ورسله فى الأرض ويرثون عنهم الهدى والحكمة ويرفعهم الله بذلك عنده درجات ، وقال الله تعالى فى وصفهم .

﴿ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ .

وصفهم الله باليقين واليقين درجة فوق الإيمان يهبها الله لعباده المخلصين ، كان هؤلاء الأيمة ولا يزالون فى كل عصر يوقنون بآيات الله كلما تلوها أو تليت عليهم تزيدهم إيمانا حتى يبلغوا درجة الإيقان وكذلك شأنهم عند مشاهدة آيات الله فى الأكوان يزدادون بها إيمانا ويقينا وثباتا على أمر الله ، ويأتي هذا الوصف لنقتدي بهم ونوطن أنفسنا على الصبر على الأذى فى سبيل الدعوة إلى الله وتبليغ الدين للناس وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر والحكم فيهم بما أنزل الله، وسنة الله ماضية في الناس إلى يوم القيامة والعاقبة للمتقين ولاعدوان إلا على الظالمين.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وهذه الآية أيضا شديدة المناسبة بالتي قبلها وذلك أنه ربما يخطر بالبال الخلاف الذي وقع بين بني إسرائيل بعد ذهاب موسى فكيف يفوزون بهذا المدح مع كثرة الاختلافات التي وقعت فيهم فيقول الله تبارك وتعالى : إن ربك يا محمد هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، ومن بين هؤلاء المختلفين كان أيمة الهدى على الحق قائمين بأمر الله لا يضرهم من ناواهم قال الله في حق هؤلاء ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف /١٥٩] وكذلك سيكون الاختلاف فى هذه الأمة وسيبعث الله فيها أيمة علماء يجددون أمر هذا الدين ينفون عنه انتحال المبطلين وتحريف الغالين ، ثم إن الله هو يفصل بين الناس يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، وبهذه الآية يزول كل ما يمكن أن يخطر في القلوب من تساؤلات والله خير الفاصلين وهو أحكم الحاكمين.

﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾.

أو لم يهدلهم أي أو لم يبّين لهم ؟ أغفلوا ونسُوا و لم يبين لهم ، هكذا تأتي هذه العبارة تستعملها بعض قبائل العرب في التعجب من أهل الغفلات الذين لا يعتبرون ولاهم يذّكرون ، و لم يرد استعمال هذه العبارة في القرآن إلا ثلاث مرات في ثلاثة مواضع ، أحدها هذا الموضع ، والثاني في سورة الأعراف حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف / ١٠٠] والثالث في سورة طه حيث يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ [طه/١٢٨] فهذه الثلاثة مواطن من القرآن تأتي فيها هذه

العبارة لتفيد معناها الذي هو التعجب من الناس الذين يرثون الأرض من بعد أهلها ويمشون في مساكنهم ولا يعتبرون بهلاكهم وخراب ديارهم ولا يسمعون أخبارهم سماع اعتبار وادّكار ، والمعنى واضح مفهوم لكن علينا أن نبحث عن فاعل هذا الفعل ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ ؟ فاعله يستفاد من الجملة التي تليه أي أو لم يهد لهم كثرة إهلاكنا لمن قبلهم من القرون أو لم يتفكروا في الأمم الكثيرة التي أهلكناها قبلهم ألم يسمعوا أخبارهم ، ألم يعتبروا بما سمعوه من تلك الأخبار ؟ لا شك أنهم سألوا عن سبب هلاكهم وخراب بيوتهم وهم يمشون فيها ويمرون عليها ، وربما يسكنون قريبا من ديارهم فكيف لا يعتبرون بهم ويتعظون بهلاكهم ! هنالك أمم كثيرة بادت عماراتها وبقيت أخبارها وآثارها تملأ الدنيا شرقها وغربها وليست جهة إلا وتجد فيها أطلالا

لحضارات ذهبت وفنيت ، أطلالا من صخور عظيمة منحوتة بنيت بها القصور ، أو رصفت بها الطرق ، تدل على قوة أصحابها وشدتهم وقهرهم وتسلطهم على الرعايا، وطول مدة بقائهم وكتاباتهم المنحوتة على الصخور أو المرقومة بالفسيفساء تشهد بذلك ، والناس اليوم يذهبون ويقيمون عندها الحفلات والروايات في مسارحها الصخرية الرحيبة ولكنهم لا يعتبرون بهلاكهم ، بل يلعبون كلعبهم ويلهون كلهوهم ويستمتعون بما يستمتعون فالعجب من هؤلاء كيف لا يعتبرون بهلاكهم والقوارع تصيبهم في كل عام فما لهم لا يكون لهم من هلاك من قبلهم زاجر ، وقد قص الله علينا في القرآن خبر نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وأخبار مدين ونبأ فرعون وقارون وهلاكهما ومن هؤلاء من هو قريب من بلاد العرب وفي سبيل مرورها إلى الشام في رحلة الصيف أو إلى اليمن في رحلة الشتاء ، فكيف يمرون ولا يعتبرون ، قال الله تبارك وتعالى :

﴿ إن فِي ذَلِكَ لأَيَاتٍ افَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ .

إن فى آثارهم وأخبار هلاكهم لآيات معبرات ، أفلا يسمعون أخبارهم سماع اعتبار ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف /١١١] فلا تستعظموا ما أعد الله لهؤلاء الكفار من العذاب فقد استحقوه بكفرهم وإجرامهم وإعراضهم عن آيات الله في القرآن وغفلتهم وعدم اعتبارهم بآيات الله في إهلاك القرون الأولى التي يمشون في مساكنهم ولكن قلوبهم قاسية لا تلين فتعتبر بأخبار من مضى من القرون وتركوا آثارهم عبرة للمعتبرين وموعظة للمتقين .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا اَنّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الاَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخرِجُ بِهِ زَرْعاً تَاكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ

وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾.

يقول الله تعالى أغفلوا ونسوا و لم يروا إلى الأرض الجرز وهي الأرض الجرداء القاحلة التي قطع نباتها و لم ينبت ، والأرض إذا مسها الجدب يقطع ما فيها من نبات وترعاه الدواب ولا يعود ينبت فتبقى جرداء، ويضرب الله المثل لإعادة الحياة بالأرض الجرز التي تعود إليها الحياة فتخرج زرعا من البذور الضائعة في ترابها ولكنها لا تضل عن ربها ولو طال زمن الجفاف ، ولنا فى إحيائها عبرة لإحياء الله رفات الأموات ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت/٣٩] يقول الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ﴾ .

أو لم ير هؤلاء الكفار الجاحدون للبعث أن الله يسوق الماء إلى الأرض الجدبة القاحلة إمّا يسوق السحاب ليمطرها أو يمطر بعيدا عنها فيسوق إليها سيول الشراج والأودية فتسقيها فتحيا بالماء فيخرج الله منها أنواعا من الزروع من البذور المغمورة فى ترابها أو من البذور المبذورة فيها كل بذرة تخرج نوعها زرعا ، وفي هذا عبرة لإخراج الموتى وآية كبرى على قدرة الله المبدئى المعيد العليم القدير، ثم يصف الله الزرع بقوله :

﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ .

فهو آية ونعمة لهم تأكل منه أنعامهم التي منها يأكلون ولهم فيها منافع كثيرة ، وبدأ هنا بذكر الأنعام لأنها هي التى تأكل من الزرع أولا قبل بني آدم ، ثم قال وأنفسهم وذلك إذا أدرك الزرع واشتدت حبوبه ثم قال تعالى :

﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

أفلا يبصر هؤلاء المنكرون للبعث آيات الله فى نبات أنواع الزروع ونموها وتكون حبوبها المتراكبة فيكون لهم بهذا معتبر ، واختار الله هنا كلمة الإبصار لأن حاسة البصر هي التي تدرك بما تشاهد من تحول الأرض من جدب إلى خصب ، ومن نبات الزرع ونموه وإدراكهِ ، وفي الآية السابقة جاءت كلمة السماع لأن حاسة السمع هناك هي التي تستعمل فى تلقي أخبار القرون الهالكة وكيف ومتى كان هلاكها وأسباب استحقاقهم لعقوبة الله فلكل مقام ما يناسبه ، ويراد بالسماع والإبصار سماع القلب وإبصاره في حالة اعتباروتذكر وتعقل وازدجار ، ولكن هؤلاء الكفار المنكرين للبعث لا يسمعون ولا يبصرون بل يسخرون ويستهزئون ويضعون لذلك أسئلة تدل على عدم إيمانهم .

قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

يتساءل هؤلاء الكفار عن يوم الفتح ويقولون متى هو ؟ وهذا منهم سخرية وتكذيب بمجيئه وتكذيب لرسول الله ولكل من أنذرهم به من المؤمنين ويوم الفتح هو يوم الفصل والحكم وفي القرآن ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف/٨٩] أي أفصل واحكم بيننا وبينهم وانصرنا عليهم ، وتارة يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وقولهم إن كنتم صادقين ، فيه تكذيب لكتاب الله ورسوله ، وهذا منهم طغيان وجحود وكفر بما هو الحق وهو آت لاريب فيه فجاء الرد عليهم من الله تعالى بما يلي :

﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنفَعُ الذِينَ كَفَرُواْ إِيمَانُهُمْ وَلاَهُمْ يُنظَرُونَ﴾ .

جاء الجواب من الله رادعا لهم وبطريقة الأسلوب الحكيم التي يعرفها أهل البيان فلم يجبهم بميقات يوم الفتح متى هو لأن هذا لا يعنيهم وليس من شأنهم بل هو شأن من شؤون الله وغيب من غيوبه ، بل أجابهم بما فيه وعظ لهم وتخويف لهم وزجر لعلهم يرجعون عن غيهم قبل أن يفوتهم الأوان فلات حين مناص ، قال الله تعالى لنبيئه ولكل منذرلهم وواعظ: قل يوم الفتح حين يأتي لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ، لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ، ولا يمهلون أي لا يؤخرلهم فى الأجل حتى يستدركوا الفوات بل يؤخذون أخذا وبيلا ، فمن واجب العاقل أن يتفكر في هذه الحال لافي وقت يوم الفتح متى هو فهو آت لاريب فيه وكل آت قريب ، هذا هو الجواب الرادع لهم من الله ، وهو الجواب النافع لمن علم الله في قلبه ذرة من وعي فيسارع بالاستعداد لذلك اليوم قبل مجيئه .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنهُمْ وَانتَظِرِ اِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى لنبيئه ولكل منذر بعده فأعرض عن هؤلاء الكفار الذين يسخرون بوعد الله ويوم لقائه ، ذلك لأن النبي ﷺ يغيظه تكذيبهم ويحزنه استهزاؤهم وسخريتهم بعدما رأوا الآيات فسلاه الله والمؤمنين بهذين الأمرين ، فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ، انتظر يوم الفتح فهو آت لاريب فيه ولا تستعجل لهم فأنه آتيهم ليس مصروفا عنهم، إنهم منتظرون ينتظرون عذاب الله وانتقامه ويومئذ

يعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ويحيق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وهذا من الله تهديد للكافرين وتثبيت لقلوب المؤمنين ، وما أشد وقع هذه الكلمة في ختام هذه السورة الكريمة التي تعرضت لتكذيب المجرمين بالرد عليهم وتقرير ما هو الحق في قضية البعث بعد الموت، وأخيرا بالإعراض عنهم لأن الأمر واضح لاريب فيه ولا لبس بعدما جاءتهم البينات من ربهم في كتاب لاريب فيه من رب العالمين، وما أشد مناسبة آخر السورة بأولها فكأنها حلقة ذهبية مفرغة ، فإذا كان الكتاب منزلا لاريب فيه من رب العالمين وقامت الحجة عليهم بإعجازه وصدقه فلا ينكره إلا مكابر مجرم ، فلا يحزنك أيها الرسول تكذيبهم فاصبر على أذاهم وصابرهم حتى يأتي وعدالله ، وأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون، وسيبقى هذان الأمران من الله جل جلاله عاملين في قلب النبىء ﷺ والدعاة إلى الله بالتثبيت والتقوية ريثما تأتى النداءات التي في السورة التي تلي هذه السورة وهي سورة الأحزاب ، وما أشد اتصال المناسبة بين آخر سورة السجدة وأول سورة الأحزاب ، والكل كلام رب العالمين تنزيل من حكيم حميد نزّله الذي يعلم السر في السموات والأرض، آمنا به إنه الحق من ربنا والحمد لله رب العالمين .

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية وءاياتها ثلاث وسبعون

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ
ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى
تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ
قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾
ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ
فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن
مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ
مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ
بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟

إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦

نزلت هذه السورة المباركة بالمدينة حيث بدأت تتكون دولة المسلمين ولذا نرى فيها هذا النمط من الشريعة التي تكوّن نظام العلاقات بين الأسر، وبين أفراد الأسرة، وبين أفراد الدولة الإسلامية، وبينها وبين غير المسلمين من محاربين ومعاهدين، نرى فيها إرساء دعائم الأسرة المسلمة على أسسها المتينة وصيانتها مما يسيئ إليها ويهدد بناءها بالتقوض والانهيار، وكذلك صيانة دعائم الدولة بعد إرسائها على أسسها الراسخة القوية ووضع نظم الحرب والسلم ومعاملة الأعداء والمنافقين بما يستحقون ، وفيها الأمر بالحجاب للمرأة المسلمة والأمر بالاستئذان على الرسول والتأدب معه في بيته، والأمر بالصلاة عليه والتسليم عليه والنهي عن إيذاء المؤمنين ، وقد افتتحت هذه السورة بنداءات من الله تبارك وتعالى لنبيئه وهي نداء لأمته من بعده بالتبع ، وتحول الخطاب بعدها للأمة بصيغة الجمع على طريقة الالتفات المعروفة في القرآن .

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ .

نداء من الله تعالى لنبيئه والنداء لنا جميعا وأمر له أن يتقي الله وهومتق لله، ولكن ليستمر في هذه التقوى ويزداد تقى، وليتقي الله كل مخاطب بالقرآن، والتقوى تكون في القلب وهي عمارته بمحبة الله ومراقبته في السر والعلن، وطلب رضاه واتقاء سخطه، وإخلاص العبادة له وعبادته بما شرع ، وبعد الأمر بتقوى الله يأتي النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين لأن أهل الكفر والنفاق أعداء لله أعداء للمؤمنين فهم

يحسدون المؤمنين ويحاولون أن ينتزعوا نعمة الإيمان منهم ويطفئوا نوره فلو أن المؤمنين أطاعوهم ولو في بعض الأمر لتعرضوا بذلك لسخط الله، فلا طاعة لكافر ولا لمنافق ولا حكم إلا لشريعة الله .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ .

يأتي هذا التذييل مناسبا لما تقدم ولما سيأتى ، فالذي نؤمر أن نتقيه ونتبع شريعته ولا نطيع أعداءه هو العليم الحكيم ، العليم بما يصلح عباده يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، عالم الغيب والشهادة عليم بذات الصدور ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولافي السماء ، وسع كل شيء علما ، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويشرع لعباده ما يناسبهم ويجري مع مصالحهم الدنيوية والأخروية ، فلنستمع إلى كلام العليم الحكيم ولنتبع دينه وشريعته ولنعرض عن كل ما يخالفها ولنتوكل عليه وحده وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ .

بعد أمر الله نبيه بتقوى الله يأمره باتباع ما يوحى إليه من ربه ، والأمر له ولأمته بالتبع واتبع ما يوحى إليك من ربك ، واتبع تشريع ربك وأطع أوامره واجتنب نواهيه ولا تخالف أمره ووحيه ، فهو الذي خلقك ورباك وأحسن إليك وأنعم عليك نعما لا تعدها ولا تحصيها فكما أحسن إليك في الدنيا بتربية بدنك وعقلك كذلك هو المحسن إليك بإنزال وحيه عليك هدى منه لك ولأمتك .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ .

إن الله الذي يوحي إليك كان بما تعملون أيها الناس خبيرا ، والخبرة أدق من العلم فهو خبير بأعمالكم ونياتكم وسيجازيكم على أعمالكم وما هو بغافل عما تعملون ، فاتقوه واستقيموا إليه واخشوا عقابه واتبعوا سبيله ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، وفي هذا الأمر وهذا التعقيب إشارة للنبيء ﷺ والمؤمنين إلى ما سيلقى إليهم من أحكام هي من الله تشريع حكيم فيه قوانين عادلة بها صلاح أمر الدنيا والآخرة ، يقول الله تعالى : فاتبعوها ولا تتبعوا أهواء الكفار المنافقين وإن أبدوا لكم المودة والنصيحة فلا تطيعوهم واتهموهم فى مودتهم ونصحهم ، وفى مثل هذا المعنى جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [البقرة/١٢٠] وجاء أيضا في سورة البقرة ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة/١٤٥] ، ويحذر الله نبيئه والمؤمنين فى غير موضع من كتابه الكريم من اتباع أهواء الذين لا يعلمون ومن طاعتهم ولو في بعض الأمر ، ويجعل ذلك موجبا لسخطه ومسببا لعقابه ولو بميل القلوب وركونها إليهم .

ثم إن الله تبارك وتعالى يأمر نبيئه والمؤمنين بالتوكل على الله حتى يكون ذلك تقوية لهم على تمسكهم بالحق ودعوة الناس إليه فيقول تعالى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ .

وفوض أمورك كلها إلى الله وليكن اعتمادك عليه وسكونك واطمئنان نفسك

إلى أحكامه وقضائه وقدره ، وحسن ظنك به ، فهو القوي القاهر فوق عباده الفعال لما يريد ، وهو الحفي بالمؤمنين ، الرحيم بهم اللطيف لما يشاء ، بيده الأمر وإليه عاقبة الأمور ، فاعبده وتوكل عليه وكفى بالله وكيلا ، كفى بربك وكيلا إذا توكلت عليه يكفيك أمور دينك ودنياك وآخرتك ، ومن ذا الذى تتوكل عليه مثل الحي الذي لا يموت ، هو وحده الحي الذي لا يموت ، القوي الذي لا يضعف ولا يعجزه شئ ، الغني الذى لا يفتقر ولا ينقص من ملكه كثرة مسائل خلقه وافتقارهم إليه ، فهو وحده الملجأ المقصود والرب المعبود ، الكافي من استكفاه ، الهادي من استهداه، فاستمسك بالذي أوحى إليك من الهدى ولا تبال باستهزاء الكافرين والمنافقين وإعراضهم وإيذائهم ، ودع أذاهم وتوكل على الله ، كل هذه التوجيهات من الله لنبيئه ليشد من عزمه ويربط على قلبه حتى يبلّغ أمر الله وينفذ شرائعه ولا يبالي بكلام الكافرين والمنافقين ولا يخالج قلبه شئ من الميل إلى ما يعرضون من حلول ، وهذا توجيه من الله لنبيئه ولكل داع إلى الهدى من بعده من أمته وقد علم الله أنه ستكون فتن وضلالات ودعاة يدعون الناس إلى سبل الشياطين ، وقد تفننت فى زماننا أساليب دعوتهم وتنوعت وسائل إغرائهم وإغوائهم وقد انخدع لها كثير من الناس ممن لم ترسخ في قلوبهم معرفة دينهم و لم يتفقهوا في علم شريعة ربهم فتاهوا وضلوا وأضلوا من هو على شاكلتهم من أقوامهم، ونعوذ بالله من مضلات الفتن ومن مكايد أهل الأهواء والضلالات ، ونسأل الله مقلب القلوب أن يثبتنا على دينه ويثبتنا على طاعته واتباع كتابه وسنة نبيئه ويعصمنا من الزيغ والضلال آمين.

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّائِي تَظَّهَّرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ

وَمَا جعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ .

ينفي الله تبارك وتعالى في هذه الآية ثلاثة أشياء من أقوال الجاهلية وهي من الباطل ويثبت الله ما هو الحق فى ثالثها ويجعل حلا للثاني في سورة المجادلة ، وفي نفي الأول إثبات لضده ، وقيل نزل فى رجل كان يدعي أن له قلبين يعقل بهما أفضل من عقل محمد ، وكان أهل الجاهلية يصدقونه لما كان عليه من العبقرية والدهاء ، وأرى أن الآية أعم من هذا ، وأن لهذا النفي حكمتين ، حكمة تتصل بما تقدم من أول السورة، وحكمة أخرى نفهمها من اقتران النفي الأول بالذين بعده وسأذكره بعد ، ولنرجع إلى المعنى الأول الذي فيه الحكمة والحكم وتعالى الله العليم الحكيم ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ .

الحكم مؤكد التعميم لورود النكرة في سياق النفي وللإتيان بمن بعد ذلك ، فأفاد العموم أن الله لم يجعل ولن يجعل لأحد من الناس قلبين في جوفه فهذا أمر مستحيل في إرادة الله وحكمته لا وجود له في خلقه،والقلب كما جاء في القرآن مركز العقل والفقه والتقوى وهو الذي يعقل عن الله الأوامر والنواهي والتشريع ، والقلب العامر بالتقوى يسمع ويطيع ويعي ويفقه ، ولا يجتمع الضدان في قلب واحد ، طاعة الله ورسوله وطاعة إبليس وجنوده وأوليائهم من الإنس وهم الكافرون والمنافقون ، ولا يوجد شخص واحد أو أشخاص للواحد منهم قلبان قلب يطيع به الله وقلب يطيع به

الشيطان ، فإذا كان الأمر كذلك فليس للمؤمن الصادق في إيمانه إلا أن يطيع الله ويتبع ما يوحى إلى رسوله ولا يطيع الكافرين والمنافقين ، أما أن يطيع الله في بعض شريعته ويطيع أعداءه في بعض الأمر فهذا ما لا ثبات له في دين الله وشرعه ، فإما أن يطيع الله ورسوله في تشريعه كله وإما أن يطيع الطواغيت ، هذا ما يريد الله تعالى أن يقرره في دينه ويثبته في قلوبنا إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، والتقية بالقول وببعض أفعال يأتي بيانها في كتب التفسير والفقه على اختلاف العلماء فيها ، أما أن يميل قلب الرجل إلى بعض ما يخالف شريعة ربه فهذا قلب منافق لا استقرار للإيمان فيه ، ويقرر الله هذا المعنى بعد الأمر بطاعة الله وحده واتباع وحيه والتوكل عليه ، وهذه أوامر تأتي في مطلع هذه السورة التي سيبين فيها كثيراً من الأحكام والآداب والشرائع ، والقلب يتلقاها بالقبول والتسليم .

ثم يأتي النفي الثاني من هذه الآية .

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللاَّئِي تَظَّهَّرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ .

ينفي الله هنا كون الأزواج المظاهر منهن أمهات ، بل الأمهات هن الوالدات وهو ما يقرره الله تعالى في سورة المجادلة حيث يقول ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمُ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً ﴾ [المجادلة /٢] ويفرض الله تعالى عقوبة قاسية لهؤلاء الذين يعبثون بألفاظ الظهار ويتعدون حدود الله ويصف قولهم هذا بالمنكر ، وهو أفظع أنواع المعاصي ، والزور وهو ما ازورّ أي انحرف ومال عن الحق إلى الباطل ، فكيف يسوون أزواجهم الحلال بظهور أمهاتهم أو أخواتهم أو عماتهم أو خالاتهم ، وهذا كمن يسوي الربا بالبيع ، أو يسوي الخمر بالنبيذ غير

المنكر ، فيسميه نبيذا ويشربه ، ويسمي القمار ربحا ويسمي الرقص فنا ورياضة ، وجاء في الحديث الشريف: « سيشرب فريق من أمتي الخمر يسمونها بغير أسمائها» ولهذه التسمية الفضيعة وهي مخالفة للحقيقة فرض الله على هؤلاء المظاهرين عقوبات بالعتق أو بالصيام إن لم يجدوا العتق شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع منهم الصيام ولا العتق فإطعام ستين مسكينا من قبل أن يتماسا ، فإن مضت أربعة أشهر و لم يكفروا عن ذنبهم هذا المنكر بانت منهم نساؤهم بالحرمة المؤبدة عقوبة لهم من الله وعذاب الآخرة أشد لمن لم يتب و لم يعد إلى طريق الله ، ثم يأتي النفي الثالث من هذه الآية وهو نفي كون الأدعياء أبناء ، وكانت من عادة العرب قبل الإسلام أنهم يتخذون من عبيدهم ومواليهم أبناء ينسبونهم إليهم كما ينسبون الأبناء ، فأبطل الله هذا التبني وقرر ما هو الحق المطابق للواقع ، وقرن نفي هذه الأشياء الثلاثة في نسق ليبين أن سننه في تشريعه لا تتبدل ولا تتغير ، وأن الحق لا يتبع أهواء الناس ولو تواطئوا على الباطل وطال أمد استمساكهم به ، فإن الباطل لا يرجع حقا بطول الزمن والتفاف الناس حوله، فكما أنه لا وجود لقلبين في جوف رجل فكذلك لا وجود لزوجة تصير أما ، ولا لدعي يصير ابنا ، فلنفقه هذا العطف في الآية لهذه القضايا الثلاث ولنفهم حكم الله وحكمته فيه .

﴿ذَالِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ .

ذلكم أي التبني قولكم بأفواهكم لا ثبات له ، فليس مجرد النطق بالفم كافياً في إثبات ولد لرجل يكون له ما لأولاده من حقوق وواجبات ، والله يقول الحق ، والحق الشيئ الثابت الذي لا يزول ولا يتغير وهو يهدي السبيل ، أي هو الله لا غيره يهدي

السبيل القاصد القويم ، فإن أردتم الهدى والنجاة فاتبعوا سبيله تهتدوا .

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾.

يأمرنا الله تبارك وتعالى أن ندعو هؤلاء الموالي إلى آبائهم الحقيقيين فهو أقسط عند الله، والقسط هو العدل والحق ، فإن لم نعلم آباءهم فهم إخواننا في الدين وموالينا فيقال: أخو فلان أو مولى فلان بن فلان وكان زيد بن حارثة عبدا لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها فوهبته لزوجها محمد رسول الله ﷺ فأعتقه وتبناه ، فكان يسمى زيد ابن محمد ، وكان التبني شائعا آنذك ، فلما نزلت الآية امتثل رسول الله والمسلمون أمر الله فنسب زيد إلى أبيه الحقيقي وهو حارثة بن شراحبيل الكلبي فهو زيد بن حارثة الذي أمّره رسول الله على جيش مؤتة هو وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة على هذا الترتيب واحد بعد آخر ، فاستشهدوا كلهم في تلك المعركة وشيعت الملائكة أرواحهم إلى الجنة رضي الله عنهم ، وهو الذي ذكره الله في القرآن باسمه في هذه السورة وسيأتي ذكره وقصته في موضعها .

ثم إن الله تبارك وتعالى يضع عنا إثم الخطأ في هذه المسألة كما رفعه عن هذه الأمة في سائر أمورها رحمة منه لنا فقال تعالى :

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

رفع عنا بهذه الآية الكريمة الجناح والإثم فيما أخطأنا به فيما ننسب هؤلاء الموالي

إلى آباء ربما نكون أخطأنا فيهم رحمة منه بنا ولكن ما تعمدت قلوبنا ، والعمد إنما يكون بإرادة القلب وقصده لا بسبق اللسان وخطإ في النطق وكان الله غفورا كثير المغفرة ، رحيما شامل الرحمة ، يغفر للمؤمنين الخطأ والنسيان ، ويرحم ضعفهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم إذا تابوا منها وطلبوا المغفرة ، والغفر هو الستر وعدم المؤاخذة وهكذا يتودد الله إلى عباده مع قوته وعزته واستغنائه عنهم ولو شاء لحاسبهم على النقير والقطمير من الخطإ والتقصير ، وفي هذا إرشاد لنا أن نتعامل فيما بيننا بأخلاق الله والراحمون يرحمهم الرحمن والذين يعفون ويصفحون هم الذين يغفر الله لهم ومن ذا الذي يسلم من التقصير والخطإ والعمد ولكن لابد للعمد من توبة وإقلاع ، فهذان تشريعان من الله فيما يخص قانون الأسرة في الإسلام ، ويريد الله أن يرسي دعائم الأسرة على أسس متينة قوامها الحق وميزانها القسط ، فليست الزوجة أماً ولا يصح أن تشبه بالأم ظلما وزورا ، وليس الدعي إبنا ولا يجوز أن ينسب لغير أبيه ، وجاء في الحديث « من انتسب لغير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

ثم تأتي الآية الأخرى تبين منزلة النبيء ومقامه في جماعة المؤمنين ومنزلة وشيجة الأرحام ومتانتها عند الله ، فيقول تعالى :

﴿ النَّبِيءُ أَوْلَى بِالْمُومِنِينَ مِنَ اَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُواْ الاَرْحَامِ بَعْضُهُمُ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُومِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُواْ إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ .

يحكم الله تبارك وتعالى أن النبيء أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهذه ولاية

تشريف وتكريم من الله وتعظيم لحقه على المؤمنين وولاية محبة ورحمة ورأفة فهو أرحم وأرأف بالمؤمنين من أنفسهم ، فهو يبذل كل عزيز عليه في سبيل إنقاذهم من النار ، وهي ولاية حقوق وواجبات ، فعلى المؤمنين أن يسمعوا ويطيعوا ولا يعترضوا عليه فيما ولاه الله عليه من أموالهم وأنفسهم ، فهو ولي أمورهم كلها في دينهم ودنياهم وعليهم أن يؤثروه على أنفسهم ويدافعوا عنه كما يدافعون عن أنفسهم بل يفدونه بأنفسهم ويتلقون الردى والموت دونه ﴿ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ [التوبة/ ١٢٠] فهم لهم بمنزلة الوالد من أولاده بل حقه أعظم من حق الوالد ومنزلته أعلى وأشرف وأمكن .

ثم قال تعالى :

﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ .

أي وزوجات النبيء أمهات للمؤمنين أمومة تشريف وتعظيم لحقهن وتحريم لنكاحهن وما سوى ذلك فهن نساء أجنبيات يحرم منهن ما يحرم من النساء ، وسيأتي قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ .

يريد الله أن يعظم حقهن ويعلي درجتهن لأنهن زوجات نبيئه وحاملات دين وفقه لما يتلى في بيوتهن من آيات الله وحكمته ولما يُفتى في بيوتهن وعلى مشهد منهن من أحكام وعلوم فهن يحفظنها ويعينها ويبلغنها للمسلمين والمسلمات .

ثم قال تعالى :

﴿وَأُولُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُواْ إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ .

أولو الأرحام هم ذووا القرابات مطلقا ليس كاصطلاح الفقهاء في المواريث يطلقون هذا اللفظ على ذوي القرابات من جهة الأم ، هذه الآية تبين حقوق الأقارب بعضهم على بعض في الولاية والإرث وغير ذلك وتنسخ ما كان يجري من التوارث وغيره بين الذين آخى بينهم النبي ﷺ قبل الهجرة وبعدها من المؤمنين والمهاجرين وكان ظرفا خاصا ، جعل الله فيه هذه الأخوة كأخوة النسب لها من الحقوق والواجبات مالأخوة النسب ، فلما كثر المسلمون رجعت الأمور إلى الأقارب والأرحام كما هو في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿ كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ .

فولاية أهل الأرحام أولى من ولاية المؤمنين والمهاجرين ، ولاية الدم وولاية النكاح وولاية الإرث وولاية المال على السفهاء وعلى اليتامى حتى يرشدوا وبهذا تنتظم أحوال الأسر والعشائر التي هي خلايا المجتمع الكبير ، فإذا صلحت أمورها صلح المجتمع وإذا انحلت فسد المجتمع وانحل ، ويريد الله بتشريعه أمور ديننا ودنيانا ، وبعد ما أحكم الله أمر هذه الولاية ورجع الإرث إلى نصابه كما هو في كتاب الله المسطور يستثني فعل المعروف والإحسان لأولياء الإيمان والهجرة والإيواء والنصرة فيقول تبارك وتعالى :

﴿إِلاَّ أَن تَفْعَلُواْ إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ .

إلا أن تفعلوا أي تحسنوا إلى أوليائكم المهاجرين والأنصار وتسدوا إليهم معروفا بالهبة أو بالايصاء لهم فإن ذلك جائز بل مرغب فيه ، يقضي به الوفاء بأخوة الإسلام عامة وبأخوة الهجرة والإيواء والنصرة خاصة ، فأهل العلم بالفقة والأحكام يقولون إن المقصود بالآية هم الذين يوصي لهم الهالك من غير الورثة بما دون الثلث إما لواحد أوجماعة ، أو يهب لأحد من الناس أو جماعة أو يتصدق عليهم إن كانوا من أهل الفقر والمسكنة ، أو يوصي لهم بما دون الثلث وقد يكونوا من ذوي الأرحام والأقارب غير الوارثين ، أما الوارثون فقد جعل الله لهم حظهم وفصله في كتابه تفصيلا وجاء في الحديث الصحيح : « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » فالمتبع لشريعة الله يكون قائما بالقسط على صراط مستقيم لا يظلم ولا يجور ولا يتجانف الإثم والقطيعة ، والله يأمر بالعدل والإحسان وفعل المعروف إلى الأولياء ، والقيام بالإحسان والله يحب المحسنين .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ

وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ
الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾
وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ
لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ
إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾
وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا
وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ
مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾
قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا
لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ
إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ
وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ
أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ
سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا
فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ
الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ
فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن
كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾
مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ
اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ

عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ
وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ
وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

يذكّر الله نبيه في مقدمة هذه الآيات بالميثاق الغليظ الذي أخذه على أنبيائه أن يبلغوا ما أنزل إليهم من ربهم ، ويخصص منهم خمسة بالذكر وهم أولوا العزم منهم ويبدأ بعد ذكر النبيئين بذكر كاف الخطاب التي هي ضمير المخاطب بالآية وهو خاتمهم نبيئا محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم تسليما ، يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَ اخَذْنَا مِنَ النَّبِيئِينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى آبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقاً غَلِيظاً لِّيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً آلِيماً ﴾ .

اذكر يا محمد إذ أخذ الله العهد الموثق والغليظ من النبيئين ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ليبلغوا إلى الناس ما أنزل إليهم من ربهم وليقيم الله الحجة بهم على عباده ليسأل يوم القيامة الصادقين المؤمنين عن صدقهم في إيمانهم وتصديقهم لأنبيائهم ويجازيهم على ذلك ثوابا عظيما ،

وليسأل الكافرين المكذبين لأنبيائهم وأعد لهم عذابا أليما ، يذكر الله الميثاق ويصفه بالغلظة لعظمه ومتانته ويثني ذكره لمزيد الاهتمام والتأكيد ، ويخصص الله من بين النبيئين خمسة ، قال جمهور المفسرين هم أولوا العزم من الرسل الذي أمر نبينا بالتأسي بهم ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف/٣٥] وأولوا العزم هم أهل الجد والاجتهاد وتحمل عظائم الأمور في سبيل الدعوة إلى الله وتبليغ رسالاته يخصصهم الله بالذكر تنويها بشأنهم ويقدم في الذكر نبيئنا عليه وعليهم السلام أجمعين إشارة إلى شرفه وعلو مقامه ورتبته ، ثم قال تعالى :

﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ .

أي الصادقين من أممهم في إيمانهم وليجازيهم على صدقهم أفضل الجزاء وقال :

﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ .

وذلك بعد أن يحاسبهم ويسألهم على كفرهم ، وهذا مفهوم مما سبق وهذا من إيجاز القرآن ، يذكر في قسم من الكلام أول الحكم وفي القسم الذي يليه آخر الحكم اكتفاء بذكر أول الحكم في أول القسمين واكتفاء بذكر آخر الحكم في آخر القسمين وهذا من بلاغة القرآن وإحكامه ، وفي ذكر العذاب الأليم تخويف للكافرين المكذبين الذين يردون شريعة الله ولا يحكمونها ، وفي التذكير بالميثاق هنا تقوية لقلب النبيء ﷺ حتى يقوم بتبليغ ما أنزل إليه من ربه من الأحكام التي جاءت في هذه السورة الكريمة مما تقدم وما سيلحق ، وفي ذكر سؤال الصادقين وتعذيب الكافرين إعداد لنفوس المؤمنين لتقبل ما أنزل من الأحكام التي تجري على خلاف ما ألفه الناس من قضايا التبني والموالي والظهار والإرث والحجاب وغير ذلك مما تشتمل عليه هذه

السورة وغيرها من أحكام الله وتكليفاته فلنكن صادقين في قبول شرائع الله محكمين لها مطمئنة نفوسنا لها مسلّمين لربنا تسليما .

ثم بعد هذا تأتي النداءات المتتالية في سائر السورة وأولها نداء المؤمنين باسم الإيمان في حادثة هي من أهم الحوادث التي يمتحن الله بها المسلمين في دار هجرتهم وهي غزوة الأحزاب التي تقع في السنة الخامسة من الهجرة وبعدها مباشرة غزوة بني قريظة من اليهود وهي آخر قبائلهم بقاء في المدينة .

﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمُ إذْجَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً إِذْ جَاءُوكُمْ مِن فَوْقِكُمْ وَمِن اَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الاَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحَنَاجِرَ وتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ اَبْتُلِيَ الْمُومِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ .

الآية تفتتح بنداء من الله لنا معشر المؤمنين باسم الإيمان ، وفي ذلك تشريف لنا أن نذكر نعمة الله علينا ونشكره عليها والنعمة المشار إليها هنا هي نصر الله للمؤمنين يوم الخندق حين تحزبت جموع الكفار وجاءت إلى المدينة يهجمون عليها من جميع جهاتها ، وتظاهرهم يهود المدينة على غزوهم هذا . يقول تبارك وتعالى :

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِن فَوْقِكُمْ وَمِنَ اَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ .

إذ جاءتكم أحزاب الكفار من قريش وكنانة والأحابيش وفزارة وغطفان من فوقكم أي من شرق المدينة ومن أسفل منكم أي ومن غربها ، أو المقصود أنهم جاءوكم من جميع الجهات وقد كان المسلمون خندقوا على مدينتهم وهذا بإشارة سلمان

الفارسي رضي الله عنه وعبأهم النبي عليه السلام ما بين الخندق وجبل سلع وعدتهم ثلاث آلاف ، وكان الكفار أضعافهم خمس مرات ، قال الله تعالى:

﴿ فأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ .

فأرسلنا على جنود الكفار ريحا عاتية وجنودا أي ملائكة لم تروها وكان الله بما تعلمون بصيرا لا يخفى عليه أمركم ، بصيرا بأعمالكم ونواياكم بصيرا بأعمال أعدائكم ومقاصدهم ، هو الذي أنزل نصره عليكم وأنزل الرعب والهزيمة على جموع أعدائكم .

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِن فَوْقِكُمْ وَمِنَ اَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمومِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ .

في الآية تصوير واضح لوفرة جموع الأعداء ومواقعها حول المدينة، وتصوير دقيق لمبلغ تأزم الأمر واشتداد الكرب وعظم الابتلاء فقد تزيغ الأبصار من شدة البأس، وزيغها ميلانها عن سمت نظرها من شدة الحيرة وتوقع الهول، وزالت القلوب عن أماكنها وبلغت الحناجر لشدة الخوف، وظننتم كل الظنون التي تثيرها هواجس النفوس عندما تسوء الأحوال وتشتد الأهوال، فكأن القلوب لشدة توقعها المكروه بلغت الحناجر، هنالك في تلك الحال العصيبة ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، والزلزال عبارة عن الاضطراب الشديد وزاد فوصفه بالشدة لنتصور هول حالتهم تلك وما بلغت إليه من العنف والزعزعة فكأن الأرض تزلزل من تحت أقدامهم، هذه حالة المؤمنين في تعبير القرآن الدقيق البديع ، أما حالة المنافقين ومرضى القلوب فيقول الله

تعالى فيهم .

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ .

وحينئذ يقول المنافقون وما أكثرهم في المدينة ومن حولها، والذين في قلوبهم مرض وهي حالة تقرب من النفاق ، يقول هؤلاء ما عدنا الله ورسوله إلاغرورا فهم يشكون في وعد الله المؤمنين بالنصر ويصفونه بالغرور، وهو الأمر الذي تتخيله ولا طائل تحته يمنيك ولا حقيقة له، والغرور هو الخداع والباطل من القول ، ذلك ظن المنافقين والذين لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم ، وذلك حين كبّـر النبيء ﷺ لما ضرب الصخرة فانقدحت النار مضيئة وقال : ظهرت لي قصور الشام وأخبرني الله ربي أن ملكي سيظهر على تلك البقاع ، وكبر ثانية حين أضاءت النار وقال : إن الله أخبرني أن ملكي سيظهر على قصور الحيرة في العراق، وكبر ثالثة حين أضاءت النار وانفلقت الصخرة في الخندق وقال : إن الله بشرني وأظهر لي قصور اليمن وأخبرني أن ملكي سيظهر عليها، ففرح المؤمنون وكبروا أما المنافقون فجعلوا من هذه الوعود سخرية وكذبوا بها وقالوا : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ففضحهم الله بهذه الآية والآيات التي تليها وكان الله بما يقولون مطلعا خبيرا وبما يعملون بصيرا .

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأَهْلَ يَثْرِبَ لاَمَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَاذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيءَ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنَ اَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَةَ لأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا إِلاَّ يَسِيراً وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الاَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾ .

إن هؤلاء المنافقين ومرضى القلوب أنواع وطوائف بعضهم شر من بعض فطائفة منهم تنبعث في الشر والعصيان ولا تخاف في ذلك لومة لائم وهم الذين بدأ الله بذكر عصيانهم في هذه الآية ، وطائفة أخرى يتسللون لواذا لضعفهم وجبنهم، وطائفة أخرى أجبن منهم فهم يخترعون الأكاذيب ويختلقون الأعذار الواهية حتى يحصلوا على الإذن من النبيء ﷺ فلا يلاموا على انخذالهم وما علموا أن الله الذي يعلم سرهم ونجواهم سيفضحهم .

فلنبدأ بالطائفة الأولى منهم : قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ ﴾ .

كانت طائفة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض يخذّلون أشكالهم من الناس يقولون يا أهل يثرب لا مقام لكم، لا ينفع خروجكم إلى القتال، ولا يتحقق وعد النصر فارجعوا إلى بيوتكم فهي أسلم لكم ، فهم يبثون دعاية الهزيمة في الناس ، وتسميتهم المدينة بيثرب فيه انحراف عن أمر الرسول ﷺ فقد غير اسمها لأنه من التثريب وهو اللوم وسماها المدينة وسماها طيبة ولكنهم يميلون إلى تعبير الجاهلية ، وبودهم لورجع الناس إلى بيوتهم ليضعف أمر المسلمين ويتقوى جانب الكفار واليهود فأهواؤهم تميل إليهم .

﴿ وَيَسْتَاذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيءَ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾.

ومنهم فريق آخر يود أن يفر من القتال ولكنهم جبناء لا يتحملون اللوم فهم

يختلقون الأعذار المكذوبة، يستأذنون النبي في الرجوع إلى بيوتهم يدعون أنها عورة فهم يخافون على نسائهم وأموالهم أن يتسلل إليها اليهود لأنها متطرفة وهم يزعمون ذلك وكذبهم الله فقال : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾.

أي وليست بيوتهم معرضة للخطر ولا يريدون إلا الفرار من قتال الكفار بأسلوب مهذب حتى لا يكون عليهم تثريب ولكن الله البصير بنياتهم فضحهم وكشف عن نواياهم وجبنهم حتى قال فيهم :

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ .

ولو دخلت عليهم بيوتهم من أقطارها أي من جهاتها وقيل المدينة والأول عندي أرجح ، ثم سئلوا الفتنة لأتوها ، أي لوسئلوا الانضمام إلى الكفار في قتال المسلمين لتسارعوا إليهم وما تلبثوا في بيوتهم إلا قليلا فهم متثاقلون عن جهاد الكفار ولكنهم أخفاء إلى الفتنة لما طبعت عليهم نفوسهم الخبيثة من الميل إلى الشر والفتنة ، ولاخير في مثل هؤلاء الأصناف من الناس ، ولا يزال الكلام مستمرا فيهم ، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ .

يضيف الله إلى خصالهم الخبيثة خصلة أخرى هي من أشنع خصال الرجل وهي نقض العهد ، يقول : ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل بعد غزوة بدر وبعد غزوة أحد أنهم لا يولون الأدبار بعدها أبدا فنقضوا عهدهم وسيسئلون عن ذلك وسيعاقبون على نقضهم ، وكان عهد الله مسئولا عنه ومعاقبا على نقضه شر أنواع العقوبات .

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ .

قل يا محمد لهؤلاء لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل لن يؤخر آجالكم ساعة فراركم ولن يقدمها نزولكم إلى الميدان وثباتكم في أماكنكم ، فالأجل محدود ، والأنفاس معدودة ، والموت مدرككم أينماكنتم ولن يفلتكم الفرار من قدر الله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء/٧٨] يقول تعالى : ﴿ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

أي إن فررتم من الموت رغبة في الحياة فإنكم لا تمتعون بالحياة إلا قليلا ثم قال :

﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ .

قل لهم يا محمد من ذا الذي يمنعكم من الله إن أرادبكم سوءا ومن ذا الذي يمنع عنكم الرحمة إن أرادها لكم أي لا أحد يقوى على ذلك ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ينصرهم ويلي أمورهم ولا يجدون لهم من دون الله نصيرا يستنصرونه ويتوكلون عليه فما لهم أنى يؤفكون .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

يكشف الله تعالى في هذه الآية واللتين من بعدها عن طائفة من المنافقين دنيئة خبيثة يصفها بعشر خصال ذميمة تجعلهم في الدرك الأسفل من الشر ، وهذه الخصال

تلازمهم في الشدة والرخاء ومعظمها يكشف عنها البلاء ويبتلي الله الناس ليمحص الذين ءامنوا وليميز بين الخبيث والطيب ، وبين الصادقين والمنافقين الكاذبين حتى يجازي كلا بما يستحق ، فكأن البلاء نار والناس معادن تعرض عليها فتتميز عند عرضها على النار ويظهر رديئها من جيدها وذلك هو الإمتحان ، وكذلك يمتحن الله قلوب عباده فتكشف المحنة عن حقائق أصنافها وأشكالها .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

يخبرنا الله تعالى عن علمه المحيط بعباده ، ويؤكد الخبر بقد التي هي هنا للتحقيق فالله خبير بهذا الصنف من الناس عليم بهم وبأقوالهم وأفعالهم وهم المعوقون الذين يفرون من الزحف ويعوقون الناس الذين هم على شاكلتهم ، يحاولون منعهم عن الجهاد بكل أسلوب ويقولون لهم هلّم إلينا فهم قد انحازوا جانبا ويدعون إخوانهم من مرضى القلوب والمنافقين أن ينحازوا إليهم ليسلموا على زعمهم من خطر البأس لأنهم جبناء فهم يدعون الناس إلى الجبن والخبال، قال الله فيهم ﴿ وَلاَ يَأتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ لا يأتون القتال إلا قليلا حين لا يجدون ملجأ أو مدخلا يلوذون به فحينئذ يخرجون رياء لا رغبة في الأجر لأن قلوبهم خاوية من الإيمان ، وربما يتبجحون بخروجهم حينئذ فيغتر بهم بسطاء الناس فكشف الله على حقيقتهم ووصفهم بالخبث وشح النفس والهلع فقال :

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ .

يصفهم الله تعالى بالشح وهو أقبح من البخل ، والبخل فرع من فروعه ، وشح النفس شدة حبها للحياة وما في الحياة الدنيا ، ومن أجل حب الدنيا قتل الناس بعضهم بعضا وركبوا الشهوات واقترفوا الجرائم والمحرمات ومنعوا الحقوق وبغوا وبخلوا بأموالهم .

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ .

أي بالمودة والنصح والمواساة لأنهم يبغضونكم لا يريدون لكم الخير ولا يقفون إلى جانبكم في البأس .

﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾.

يصفهم بالجبن والخور ، فإذا جاء الخوف في حالة البأس والقتال رأيتهم ينظرون إليك بأعين بادٍ عليها الجزع والهلع فهي تدور ولا يستقر نظرها كنظر الذي يغشى عليه من الموت وقد يغشى عليهم من شدة الخوف .

﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ .

فإذا ذهب الخوف وزالت أسبابه رموكم بألسنة حداد وكلام فيه عتب ولوم وانتقاد ، تلك حالة لئام النفوس أراذل الناس يغيبون عند الشدة والبأس ، ولا يظهرون إلا قليلا ويرجفون ويتكلمون بعبارات تزيد ضعاف الناس خبالا ، وعند الأمن والرخاء يرجفون بالدعاوى ويطعنون بألسنة حداد في أصحاب المسؤوليات أئمة الناس وقاداتهم في الخير ، وهذا الصنف من الناس موجود في كل زمان فحذرنا منهم ومن خصالهم الدنيئة .

﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ .

زاد فوصفهم الله بالشح مرة ثانية فهم أشحة على الخير لا يصدر منهم إلا الشر يبخلون بأنفسهم وبأموالهم بينما المؤمنون الصادقون يجاهدون بأنفسهم وبأموالهم يبذلونها في سبيل الله يبتغون بها وجه الله والدار الآخرة ، أما أولئك القوم فلم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم وإن كانوا يظهرون مع المسلمين ويقولون آمنا ولكنهم لم يدخل الإيمان في قلوبهم فأحبط الله أعمالهم وأبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم وشكهم والله لا يتقبل إلا من المتقين أهل الصدق والإخلاص في إيمانهم ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ أي وكان إحباط أعمالهم سهلا هينا عند الله فهي لا تزن عنده جناح بعوضة وما ذلك إلا لهوانهم على الله وخبث نواياهم فلا ينفع معها عمل ولو بدا في ظاهره صالحا ولكنه لا يقبل ما دام يصدر عن قلوب نغلة مريضة مظلمة .

﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً ﴾ .

يكشف الله في هذه الآية عن مبلغ جبنهم وهلعهم حتى أنهم بعد ذهاب الأحزاب وانكشاف جموعهم عن المدينة لا يطمئنون بل يحسبونهم لم يذهبوا بل قد يكون ذلك دسيسة من دسائس الحرب ثم يكرون راجعين وما علموا أن الله هو الذي أرسل من ريحه وجنوده ما يردهم بغيظهم خائبين يجرون أذيال الهزيمة إلى غير رجعة، والمؤمنون الصادقون متوكلون على ربهم وهم على أتم استعداد ولسان حالهم يقول : إن عادت العقرب فالنعل حاضرة ، وهم واثقون بنصر الله للأحياء ، وبالشهادة للأموات فهم دائما ينتظرون إحدى الحسنيين ، ثم يكشف الله عن طبيعة أخرى من

طبائع هؤلاء المنافقين ومرضى القلوب فيقول تعالى :

﴿ وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

وإن يات الأحزاب مقبلين إلى المدينة يود هؤلاء الجبناء الخونة أنهم بادون في الأعراب بعيدون عن المدينة يسألون عن أنبائكم لا سؤال مهتم بكم ، بل سؤال متربص بكم الدوائر يتمنى لكم السوء ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا العدو إلا قليلاً ، فلا حاجة لكم إليهم ولا ينفع وجودهم فيكم بل ربما يضر فيكونون موضع ضعف في صفوفكم ويدعون إلى الهزيمة ويبثون أقوال الفتنة والخبال ، ولا يقاتلون إلا قليلا رئاء الناس حيث لا يجدون مفرا من القتال ، تلك حالة المنافقين والذين في قلوبهم مرض يكشف عليها العليم الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ثم ينتقل الكلام إلى وصف المؤمنين الصادقين في إيمانهم الموفين بعهدهم الذاكرين الله كثيرا ، الذين نصروا الله ورسوله واتبعوا النور الذي أنزل معه ، فهم قدوتنا في الإئتساء والاقتداء برسول الله والتوكل على الله والاعتصام به . يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً وَلَمَّا رَأَى الْمُومِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً مِنَ الْمُومِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ

أَوْيَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ .

بعد ذكر أحوال المنافقين والذين في قلوبهم مرض وبعد سرد أوصافهم القبيحة التي ينفر منها العقلاء يذكر الله طبائع الأخيار من عباده الصالحين وإمامهم رسول الله ﷺ إمام المتقين وخير الخلق أجمعين يقول الله تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ .

لقد كان لكم أيها المؤمنون في رسول الله الذي جعله لكم هاديا وإماما وأسوة حسنة ومثل أعلى تحتذونه وتأتسون به في أخلاقه وأفعاله وأقواله وصدق إيمانه ، وصف الله الأسوة بالحسنة لأن الأسوة قد تكون في الخير وقد تكون في الشر ، والرسول ﷺ أسوة المؤمنين الحسنة يقتدون به ، وأفعاله وأقواله كلها حسنة وكلها خير وهدى يقتدي بها من كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ، ويأتي الرجاء بمعنى الطمع ويأتي بمعنى الخوف والمعنيان مرادان هنا ، وهما سر الاستقامة والعمل الصالح، والرسول ﷺ أسوة المؤمنين الحسنة لأنه لا يأمرهم بأمر إلا وهو أول الفاعلين ولا ينهاهم عن شر إلاوهو أول التاركين ، وعند البأس يتقدمهم إلى الميدان وهو مبتسم هادئ الأعصاب يذكر الله وثيق بوعده ، وأصحابه الصادقون على مثل شعوره ملتفون من حوله ، قال الله فيهم .

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُومِنُونَ الاَحْزَابَ قَالُواْ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ .

بهذه الآية الكريمة والتي بعدها تتم المقابلة الرائعة المميزة بين الفريقين ، فريق المؤمنين وفريق المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، فبينما يقول هؤلاء ما وعدنا الله ورسوله إلاغرورا ويفرون من القتال ، نرى المؤمنين الصادقين في إيمانهم يثبتون عند مجيئ الأحزاب ويدافعون ويقولون : هذا ما عدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الروع إلا إيمانا وتثبيتا ، وحسن ظن بالله ربهم واستسلاما لأمره ، إن الله وعد المؤمنين أن يبتليهم ويفتنهم حتى يعلم المجاهدين ويعلم الصابرين ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران /١٤٢] وقال : ﴿ آلَـمّ اَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت /١] في أمثالها من الآيات الكثيرة في هذا المعنى وفي سورة البقرة يقول تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمُ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَاتِكُمْ مَّثَلُ الذِينَ خلَوْاْ مِن قَبلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة/٢١٤] فوعد الله للمؤمنين أن النصر يأتيهم بعد تضحيات وبعد جهاد مرير بالأموال والأنفس ، ولذا لما اشتد البأس وتأزم الموقف وتحزبت الأحزاب قال المؤمنون هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله و لم يشكُّوا في صدق وعد الله بالنصر والتمكين ، بل زادهم ذلك إيمانا وتصديقا لله ورسوله وتثبيتا في إيمانهم ، وعلموا أنهم حينئذ على سواء الطريق الذي يؤدي إلى نصر الله ، هذا وصف المؤمنين حقا وتلك حالتهم عند البأس فهم صابرون مفوضون أمرهم إلى ربهم ملتفون حول نبيئهم سامعون مطيعون له يجودون بأموالهم وأرواحهم في سبيل الله ما أبعدهم عن شح المنافقين وريبهم .

﴿ مِنَ الْمُومِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَاعَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلا﴾ .

يبدو أن ﴿ مِن﴾ هذه في هذا الموضع بيانية لا تبعيضية فهي تبين أن الفئة الصادقة هم المؤمنون ثم إنه وصفهم فقال ﴿ رِجَالٌ ﴾ إشارة إلى صدق أوصاف الرجولة فيهم فهم رجال أبطال صبر في الحرب صدق في اللقاء عاهدوا الله أن يثبتوا فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وفي وصفهم بصدق العهد تعريض بالمنافقين ومرضى القلوب الذين خاسوا بعهدهم ونقضوه ، قال فيهم :

﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الاَ دْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾ .

فهي مقابلة بديعة بين الضدين ، وشتان بين الصادقين الموفين بعهدهم وبين الناكثين ، وسيجزي الله الصادقين بصدقهم ويحبط أعمال الخائنين الأشحة ، ثم قسم هؤلاء الصادقين إلى قسمين فقال تعالى :

﴿ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ .

النحبُ هو النذر ، قضى نحبه يعني وفى بنذره ، واستعمل للموت لأنه كالنذر المحتوم لابد أن يقضيه كل حي مخلوق ، فمنهم من قضى نحبه أي من هؤلاء الصادقين من لقي حتفه وقضى أجله ، ومنهم من لا يزال ينتظر وما بدلوا من كلامهم أيَّ تبديل بل ثبتوا وصدقوا ووفوا والله يحب الموفين الصادقين ، ويجعل منهم أسوة حسنة لإخوانهم المؤمنين ، وقيل نزلت الآية في حق أنس بن النضر الذي عاهد الله على الصدق في لقاء العدو بعد أن فاتته غزوة بدر فأبلى البلاء الحسن في غزوة أحد واستشهد فيها رضي الله عنه بعد أن طعن بضعا وثمانين طعنة في بدنه ، والآية وإن

كان هو سبب نزولها أو من أسبابها ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهي تعم المؤمنين أهل الصدق والوفاء في كل زمان ومكان . قال الله تعالى :

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْيَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ .

ليجزي الله الصادقين « اللآم » لام العاقبة أي لتكون عاقبة أهل الصدق الجزاء الحسن بسبب صدقهم ووفائهم وتكون عاقبة المنافقين الناقضين الكاذبين العذاب إن لم يتوبوا من نفاقهم ، وإن تابوا فإن الله يتوب عليهم ويغفر لهم ويرحمهم إن الله كان غفورا كثير المغفرة ، رحيما واسع الرحمة ، يشمل برحمته من يشاء من عباده ، وهذا باب من الرجاء يفتحه لأهل الكبائر عسى أن يتوبوا إلى ربهم قبل أن يأتيهم العذاب ثم لا ينصرون ، ففي الآية ترهيب وترغيب لمن شاء أن يتوب ، ومن تاب تاب الله عليه ، ومهما يكن الذنب عظيما فرحمة الله وعفوه أعظم منه والحمد لله رب العالمين .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُومِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ .

ورد الله بقدرته ولطفه على المؤمنين ورحمته بهم رد الذين كفروا من قريش والأحزاب القادمة معهم والذين جاءوا من شرق المدينة من فزارة وغطفان وغيرهم ردهم بغيظهم لم ينالوا من المؤمنين خيرا ، وقد جاءوا وقلوبهم ممتلئة غيظا على المسلمين معجبين بقواهم وعددهم ، وكانوا يظنون أنهم يشفون غيظهم بالقتل والنهب ويرجعون منتصرين فردهم الله مدحورين خائبين لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، لم يكن يومئذ قتال إلا تراشق بالنبال قليل عند محاولة بعض من الكفار أن

يخترقوا الخندق مثل عمرو بن عبدو من الكفار ، وقد صدهم المؤمنون وقتلوا عمروا وكان رُميَ سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم كان سببا لاستشهاده بعد أيام بعدما شفى غيظه من الكفار ومن بني قريظة فأكرمه الله بالشهادة وكان من الذين أرادهم الله تعالى بقوله :

﴿ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ ﴾ .

وكفى الله المؤمنين أمر الكفار فردهم عنهم بغير قتال :

﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ .

كانت قوة الله هي الغالبة وأمره هو النافذ ، وهو القوي القاهر فوق عباده العزيز الذي لايغالب كتب عزته لرسوله وللمؤمنين ، وفي هذا التذييل بهذين الوصفين امتنان من الله على عباده المؤمنين المتوكلين عليه ، وتقوية لقلوب المؤمنين في كل عصر ومصر ليزدادوا به إيمانا وعليه توكلا ، وهو حسبنا وناصرنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير.

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ .

يقول الله تعالى ممتنا على عباده المؤمنين : وأنزل الذين ظاهروا هؤلاء الأعداء وأعانوهم من أهل الكتاب من حصونهم التي ظنوا أنها مانعتهم من الله فقذف في قلوبهم الرعب فلم تغنهم صياصيهم فنزلوا منها أذلة صاغرين ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ، يقول تعالى : وأورثهم لأن الميراث هو تملك تركة

الموروث الميت ، وهؤلاء اليهود قتلوا وورث المسلمون أموالهم وسبوا نساءهم وذراريهم وقال تعالى :

﴿ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا ﴾ .

قيل هي أرض خيبر التي سيفتحها الله على المسلمين بعد عام ونيف ، وعطفها بصيغة الماضي لتحقق هذا الإرث عند الله ، وقيل هي الأراضي التي سيظهر عليها المسلمون على العموم .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ .

وهذا تذييل قوي المناسبة لأن قدرة الله الصالحة لكل شئ تتجلى هنا في رد الكافرين بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وإنزال اليهود من صياصيهم أذلة جبناء مقهورين بعد أن ظنوا أنه لن يدخلها عليهم أحد فأظهر الله في كلا الفريقين عجائب قدرته فناسب التذييل بالقدرة الشاملة في مثل هذا الموضع ، وأهل الكتاب هؤلاء المذكورين هنا هم بنو قريظة القبيلة الباقية في المدينة بعد إجلاء بني القينقاع وبني النضير منها ، وذلك أن بني قريظة نقضوا عهدهم في غزوة الخندق وأعانوا قريشا في عدوانها وحرضوهم على ذلك تحريضا وعزموا على فتح باب لهؤلاء الهاجمين من جهتهم وعلم الله منهم ذلك فعاقبهم بما عاقبهم به في الدنيا والآخرة ، نزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بعد أن وضع لأمته وسلاحه فقال له : وضعتم أسلحتكم والملائكة لم تضع أسلحتها إن الله يأمركم بغزو بني قريظة فأمر النبي ﷺ مناديا ينادي في الناس : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلايصلين العصر إلا في بني قريظة » فتسارع الناس إلى تلبية النداء

حسب استطاعتهم ، فمنهم من أدرك العصر في بني قريظة ، ومنهم من لم يدركها إلا بعد غروب الشمس ، ومنهم من صلاها قبل أن تغرب الشمس واستأنف طريقه،وفهم أن المقصود من النداء المسارعة ، وفتح يومئذ للصحابة باب للاجتهاد وأقرهم النبي ﷺ على اجتهادهم و لم يخطئ هؤلاء ولا هؤلاء ، ثم إنهم حاصروا بني قريظة وبعد أن طال الحصار واستحكم اضطر أعداء الله إلى النزول على حكم الله ورسوله وطلبوا أن تكون المفاوضة على يد حلفائهم من الأوس ووقع الاختيار على أبي لبابة أولا ثم على سعد بن معاذ رضي الله عنهما فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتغنم أموالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم بعد أن أخذ العهد من النبيء ﷺ والأوس والناس أن ينفذ فيهم حكمه ، وقبل أن يحكم قال : آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم فحكم بما حكم ، وقال له رسول الله ﷺ « لقد أصبت فيهم حكم الله من فوق سبعة أرقعة » فنفذ حكمه فيهم وأورث الله أرضهم وديارهم وأموالهم للمسلمين ، والعاقبة للمتقين ولاعدوان إلا على الظالمين ، والله لا يهدي كيد الخائنين ، ولا يزال المسلمون إلى يومنا في بلاء شديد من كيد اليهود ولكن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا، فعلى المؤمنين أن يتمسكوا بشريعتهم ويراجعوا منهاجهم القويم ويعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا ، وما ضرهم إلا تفرقهم وابتعادهم عن شريعتهم ، نسأل الله العفو والعافية واللطف بعباده المسلمين .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا
جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ
ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ
لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾
وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا
مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾
وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ
وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ

وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

نداء من الله تبارك وتعالى لنبيئه يأمره أن يوجه الكلام لأزواجه يخبرهن في البقاء معه وإيثار الله والدار الآخرة أو الرغبة في الحياة الدنيا وزينتها ومتاعها الزائل الفاني ، وفي هذا أدب عال لهن ولنساء المؤمنين ولهن في نساء النبيء أسوة حسنة ، كما أن في النبيء للمؤمنين أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وفي هذا النداء تأديب ربات البيوت في أمر النفقات ليرضين بما يتيسر لأزواجهن في أمر المعاش ، وفي ذلك صلاح لهن ولبقاء العلاقات بينهن وبين أزواجهن ، والمجتمع الكبير صلاحه بصلاح الأسر وهن خلايا لجسم المجتمع ، ويأتي هذا النداء بعد ما فتح الله على رسوله من الغنائم من يهود قريظة فطمع أزواج النبيء أن يمتعهن وتآمرن واجتمعن عليه وحوله وقلن له : بنات قيصر وكسرى يتمتعن بالحلي وحلل الحرير ونحن على ما ترى من خشونة العيش وقد فتح الله عليك من الغنائم فمتعنا بما فتح الله عليك ، فشق عليه طلبهن وهو عن الدنيا في غنى وإنما رغبة فيما عند الله فاعتزلهن و لم يخرج إلى الصحابة كعادته فتساءلوا عن السبب فاستأذنوا عليه فلم يأذن لهم ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا عليه فوجداه متأثرا منهن واجدا عليهن فقاما لتأديب ابنتيهما فنهاهما ثم إن الله تبارك وتعالى أنزل عليه هذه الآيات الحكيمة التي تحمل من الأدب العالي ما تحمله ،يقول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيءُ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَواةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ .

لما أنزل الله هذه الآية على نبيئه ﷺ خاطب عائشة رضي الله عنها بها أولا وقال لها : يا عائشة إني أعرض عليك أمرا لا عليك أن تعجلي حتى تستأمري أبويك ثم ردي علي ماذا تختارين فقرأ عليها الآية وقال لها لا عليك أن تستشيري أبويك فقالت: أفيك أستشير ؟ لا أختار أحدا على الله ورسوله ، وهل والداي يختاران لي غير الله ورسوله ؟ إني أريد الله ورسوله والدار الآخرة وما عند الله خير وأبقى ، ثم إن الغيرة تحركت في نفس عائشة فقالت لا تقل لأزواجك ماذا اخترت فقال لها النبيء ﷺ : إن الله لم يبعثني متعنتا لئن سألنني لأخبرهن ثم إنه تلا عليهن ما أنزل عليه من ربه في هذا الشأن فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة رضي الله عنهن ، وفي هذا الاختيار تأديب لنساء المؤمنين جميعا ولهن في نساء النبيء أسوة حسنة لمن كان منهن يرجو الله واليوم الآخر فهل تتأدب نساؤنا بهذا الأدب العالي ويجعلن من أزواج نبيئهن قدوة حسنة ؟! نرجو لهن ذلك فعسى أن يكنّ من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، تلك هداية القرآن يهدي الله بها من يشاء من عباده وبيت رسول الله ﷺ هو البيت المثالي الذي يريد الله أن يطهره ، ويجعله نموذجا لبيوت المسلمين ، ويبين لنا أن صلاح البيوت ليس هو بوفرة أطايب الأطعمة والأشربة والزخارف وألوان الزينة وأنواع الحلي ولو كلف ذلك إعنات الأزواج والآباء إنما صلاح البيوت برغبة صواحبها في الله واليوم الآخر والرضى بالموجود ، والقناعة بالعيش الكفاف ، والصبر والتعاون على البر والتقوى ،

وتربية البنين والبنات على الدين والأخلاق القويمة، ذلك هو صلاح الأسر وتلك هي اختيارات الذين يريدون الله ورسوله والدار الآخرة ، ولنرجع إلى معنى الآيتين الكريمتين يقول الله تعالى لنبيه : قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها وترغبن في المتاع القليل الفاني فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحا جميلا ، يعني يطلقهن بالمعروف وهو طلاق المؤمنين ويمتعهن متعة الطلاق تطييبا لخواطرهن وهي حق على المحسنين ، ويذهبن لحالهن ويطلبن الحياة الدنيا وزينتها في غير بيت النبيء ، وإن كنتن تردن الله ورسوله وهذا لا يكون إلا مع الزهد في الدنيا، والقناعة بالكفاف من القوت رغبة فيما عند الله وتلك هي الدار الآخرة ، فإن اخترتن هذا فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ، والأجر العظيم خلودكن في الفردوس الأعلى والفوز برضوان الله ورفقة نبيئه هنالك أبدا ، وفي قوله تعالى : ﴿ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ ﴾ .

حث لهن على الإحسان في العبادة والإخلاص في العمل حتى لا يتكلن ولايأمنّ عذاب الله ، ولا تكفي إرادة الدار الآخرة إلامع السعي لها والإحسان في العمل ، والناس في هذا سواء ، وميزان الله تعالى واحد وقد قال في كتابه : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف /٥٦] ففي هذه الآية وعظ لنا وترغيب في الإحسان ، وبيان لجزاء الله للمحسنين والمحسنات ، وقد استمع نساء النبيء كلام الله وأطعن الله ورسوله وامتثلن أمره ومضين في سبيل الاستقامة والزهد في الدنيا وإيثار الآخرة ، فكن يطوين الأيام والليالي على الجوع وإذا ما وقع بأيديهن شئ من الخير فهن يسخون به ويؤثرون ذوي الفقر والمسكنة على أنفسهن لأن إرادتهن لله ورسوله والدار الآخرة كانت صادقة رضي الله عنهن وأرضاهن ، وقد كرمهن الله بعشرة نبيئه في

الدنيا والآخرة ، وحرم على نبيئه استبدال غيرهن بهن أو بإحداهن كما حرم عليه النساء غيرهن ، وسيأتي ذكر هذا الحكم فيما يلي من هذه السورة المباركة .

ثم إن الله تعالى يوجه لهن النداء مباشرة وفي هذا تشريف لهن وتأديب لهن ولنساء المؤمنين ووعظ للجميع يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيءِ مَن يَّاتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً وَمَن يَّقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّوتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيمًا﴾.

يخاطب ربنا تبارك وتعالى نساء النبيء وفي خطابهن تشريف لهن ورفع لمقامهن، كيف لا وهن أزواج رسوله الطاهرات المطهرات المحصنات المؤمنات ، وفي الخطاب وعظ لهن ولنساء المؤمنين بالتبع والاقتداء بهن يقول الله تعالى :

﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيءِ مَن يَّاتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ .

يا نساء النبيء اتقين الله ولا تقربن الفواحش فإن من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها عذاب الله ضعفين أي تعذب مرتين بتقوية نوع العذاب وزيادته على سائر النساء ، قال ابن عباس : يعني بالفاحشة النشوز وسوء الخلق ، وزيادة العذاب يكون على حسب عظم القدر وقرب المنزلة فقربهن من النبيء ﷺ وكونهن في عناية من الله خاصة بهن يقتضي أن يجتهدن في الطاعة ويبتعدن عن المعصية هذا ما يقتضية المنطق السليم ، أما من يظن أن القرب سبب لنيل الشفاعة مع ارتكاب الكبائر فهو ضال بعيد عن الصواب

مطموس البصيرة ، نسأل الله أن يثبتنا على اعتقاد الحق، ثم إن الله يقول :

﴿وَكَانَ ذَلكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ .

أي وكان هذا الحكم وتطبيقه يسيرا على الله لأنه حكم عدل لا ظلم فيه ، وهو الذي يقول : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق / ٢٩] فليرتدع الذين ينتسبون إلى فاطمة الزهراء ويرتكبون المعاصي ويظنون أنها تشفع فيهم يوم القيامة ويتكلون على الزعم الباطل ، هذا إن صدق الانتساب فهو لا ينفعهم بل يكون الحكم عليهم شبيها بهذا الحكم لمن يدنس نسب رسول الله بمعصية الله ورسوله ، روي أن علي بن الحسين زين العابدين كان يطوف بالكعبة فلقيه الشاعر الكميت فقال له : أنتم أهل بيت رسول الله لا تقع ذنوبكم إلا مغفورة ، فغضب زين العابدين وقال : بل نحن أحرى أن يجري فينا ما أجراه الله على أزواج نبيه من الذي تقول ، إن محسننا يضاعف له الأجر ومسيئنا يضاعف له العذاب . هذا كلام ولد بنت فاطمة الزهراء وهو الحق والأشبه بمعنى الآية الكريمة .

ثم إن الله تعالى بعد هذا التحذير الشديد الذي يهز القلوب وبعد ذلك التذييل الذي يقطع الأطماع الباطلة يضفي رحمته على أهل بيت نبيه المحسنين ويضاعف ثوابه لهم ، فيقول :

﴿ وَمِن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُوتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾ .

بهذه الآية تتجلى عدالة الله ، يقول لهن : ومن يقنت منكن لله ورسوله ،

والقنوت : الخضوع والتذلل والطاعة ، أي ومن يخضع منكن لله ورسوله وتؤد له حق الطاعة والانقياد نؤتها أجرها مرتين أجر طاعة الله وأجر طاعة رسوله ، والصبر على القناعة بالكفاف من القوت في بيته فتستحق بذلك رضا الله ورفقة رسوله في الفردوس الأعلى من الجنة ، قال تعالى : ﴿ وأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيما ﴾ .

وهيّئنا للمحسنات رزقا كريما ، أي رزقا حسنا لا منغص فيه ، ذلك هو نعيم الجنة أما نعيم الدنيا فمهما كان وافرا فهو لا يخلو من المنغصات ، ومن أعظم المنغصات خوف انقطاعه وهو لابد منقطع أما رزق الجنة على حسنه وكرمه فهو دائم لا انقطاع له ، نسأل الله أن يمتعنا به آمين .

﴿يَانِسَاءَ النَّبِيءِ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَواةَ وَءَاتِينَ الزَّكَواةَ وأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ – ايَتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾ .

للمرة الثانية يتكرر النداء لنساء النبيء باسمهن تشريفا لهن واختصاصا لهن بفضل العناية الإلهية ، وتأتي ستة أوامر ونهيان يتقدمها ويتخللها خبران يحملان بشارة لهن وكرامة لأهل بيت رسول الله ﷺ ، فطوبى لأهل البيت وهم قدوة للناس ولنساء المؤمنين أسوة حسنة في نساء النبيء رضي الله عنهن ، يقول الله تبارك وتعالى : يا نساء النبيء لستن كأحد من الناس من سائر هذه الأمة إن اتقيتن الله وأطعتنه في امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وفي هذا الخطاب استثارة لهن ليتقين الله وتعظم رغبتهن في طلب رضوانه بطاعته وطاعة رسوله .

﴿ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ .

أي لا تلنّ في الكلام في خطاب الرجال من غير ذوي المحارم بل يشمل ذوي المحارم أيضا ، لأن الخضوع في القول وهو الكلام اللين الذي فيه الأنوثة والانبساط يطمع ذوي القلوب المريضة ، قال تعالى : ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ .

أي إذا خضعت المرأة بقولها في مكالمة الرجال فإن فيهم من يطمعه ذلك فيما وراءه وهم من في قلوبهم مرض من الميل إلى الاتصال الجنسي الغير المشروع وذلك لضعف الوازع الديني ولقوة شهوة النفس العارمة في بعض الناس ، وقد يُفتن بعضهم حتى في محارمهم فليحذر النساء الخضوع بالقول حتى في مخاطبة ذوي المحارم فإن الشيطان للإنسان عدو مبين ، ثم بعد النهي يأتي الأمر من الله مؤكدا لمفهومه فيقول تعالى :

﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴾ .

وهو القول الجدّي الذي ليس فيه ليونة ولا أنوثة ولا ضحك ولا ما يدعو إلى الريبة مطلقا .

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ .

أدب من الله تعالى لنساء النبيء ونساء المؤمنين بعدهن يتجلى في أمر ونهي يحملان تربية عظيمة للنساء المؤمنات اللائي يتكون منهن مجتمع طاهر نظيف ، وتنشأ في حجورهن البنات المسلمات العفيفات ، يقول الله تعالى : ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ .

الأمرصيغ من مصدر الوقر الذى فِعله وقر بمعنى ثقل واستقر ، أي والْزَمن

بيوتكن واستقررن فيها ولا تخرجن إلا لحاجة أكيدة لا كما تصنع النساء الغافلات اللواتي يكثرن الخروج ويخرجن لغير حاجة لازمة ، وإن خرجتن فلتكن متسترات غير متبرجات كما يتبرج نساء الجاهلية الأولى كن يكشفن محاسنهن ويتزين ويتسكعن في الشوارع والأسواق لِيُلفتن الرجال إلى محاسنهن وقد تفنن في هذا نساء جاهلية القرن العشرين بل تفوقن على نساء الجاهلية الأولى بالتعري وإبراز المفاتن ، فليتعظ نساء المؤمنين بهذه الأوامر والنواهي وليخفن الله وليخفن عذاب الله فإن عذاب الله شديد، والقابض على دينه في أيامنا هذه كالقابض على الجمر والاستعانة على ذلك بالصبر والصلاة ، ولذا يعطف الله تعالى على هذه الوصايا الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله والمواظبة على هذه الأشياء خير مُعين على الاستقامة والعفاف والطهر .

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَواةَ وَءَاتِينَ الزَّكَواةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

ثلاثة أوامر يأمر الله بها نساء النبيء ، ونساء المؤمنين لهن تبع وهذه الأشياء واجبات مفروضة على جميع المسلمين والمسلمات ، ويوجه الأمر بها إلى نساء النبيء لفضل عناية الله بهن ولإرادة الخير لهن ، ولابد لنيل هذا الخير من جهاد في الله وقيام بأوامره واجتناب نواهيه .

﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَواةَ ﴾ .

وحافظن على الصلوات بتأديتها بطهاراتها وفي وقتها وتوفية ركوعها وسجودها

ووظائفها ومراعاة خشوعها مع المداومة عليها لأنها عمود الدين ، ولأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

﴿ وَءَاتِينَ الزَّكَواةَ ﴾ .

بتأديتها يوم وجوبها لأربابها المستحقين لها وافرة غير منقوصة ابتغاء وجه الله الكريم ، لأنها طهرة للمال وللبدن ، ولأنها برهان لصدق إيمان مؤديها ﴿ وأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وأطعن الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وأطعن رسوله بامتثال أوامره واتباع سنته ، والقناعة بالقوت ، والصبر على الكفاف من الرزق ، وحسن العشرة له والمسارعة إلى ما يرضي الله ويرضي رسوله ، وفي توجيه هذه الأوامر إلى نساء النبيء وهن أمهات المؤمنين ذوات الفضل والخصوصية ، في ذلك رد على فئة من الصوفية ضلال يزعمون أن هذه الفروض تسقط عمّن بلغ درجة من القرب ، يقولون إن المقصود بأداء الفرائض تدريب العوام على التقرب إلى المعبود فإذا بلغ العابد درجة من القرب سقطت عنه التكاليف والواجبات وهذا ضلال مبين ومروق من الدين ، إن هؤلاء يفهمون الدين فهما منكوسا وفلسفتهم هذه فلسفة ضالة ضلالا بعيدا ، بل الحق أنه كلما ازداد العبد تقربا من ربه ازداد اجتهادا ونشاطا في أداء الواجبات ، والازدياد من النوافل وأنواع القربات كما كان رسول ﷺ يفعل هو والذين معه من أصحابه المؤمنين ومن بعدهم من الأبرار الصالحين .

ثم قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي

يُوتِكُنَّ مِنَ – ايَتِ اللَّهِ والْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾ .

يخاطب الله تعالى نساء النبيء ومن معهن من أهل بيت النبوّة رسول الله وفاطمة وعليا والحسنين الذين شملهم كساء النبيء ﷺ وسلمان الذي هو من أهل البيت ، يقول الله تبارك وتعالى إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس يا أهل بيت النبوءة هكذا بطريقة الحصر أي إن الله لا يريد بكم إلا الخير والطهر ، يريد أن يذهب عنكم أرجاس الجاهلية وأدناسها كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، ولذا أمركن ونهاكن عما نهاكن ليبقى هذا البيت على مر التاريخ نظيفا طاهرا كأنه جوهرة نقية تشع بالمثل العليا لمن أرادأن يقتدي به ويهتدي ، ولابد للمسلمين من مثل أعلى يصنعون بيوتهم على منواله فليكن بيت النبيء المبعوث إليهم هاديا ونذيرا ، فالإرادة هنا قدرية أولا ثم تشريعية بما أوحى إليهم من هذه الأوامر والنواهي المرشدة إلى الأدب العالي النظيف فإذا أطعنها حصل المراد .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾ .

لطيفا خبيرا أي عالما بخفايا الأمور وخبايا النفوس وسرائر القلوب ، عالما بظواهر الأعمال ما وقع منها وما سيقع ، عالما بما يصلح هذه النفوس ويزيل فسادها ويطهرها، فما عليكم إلا أن تتبعوا تشريعه لكم فتسعدوا ، هذا لعموم هذه الأمة ، وفيه معنى اللطف الخاص بآل البيت وبنساء النبيء ﷺ فالله تعالى لطيف بهن علم ما في نفوسهن من الخير والايمان وحب الله ورسوله فسلك معهن هذا المسلك الرفيق في حسن تربيتهن وتأديبهن ، ولو شاء لأمر نبيئه حين غضب بطلبهن أن يطلقهن ويتزوج

بدلا منهن ، ولكن الله لطف بهن فخاطبهن بما يُلين قلوبهن ويعطّف نفوسهّن ووفقهن كلهن فآثرن الله ورسوله والدار الآخرة ، فأثبت لهن الشرف الخالد ببقائهن في بيت النبوءة وجعلهن أزواج نبيئه الدائمات في الدنيا وفي فراديس الجنان ، نسأل الله أن يشملنا بلطفه وعنايته ويفيض علينا من رحمته وفضله آمين ، وفي الآيات إرشاد وتعليم لرجال هذه الأمة ونسائها أن يتلطفوا في حسن المعاملة بينهم لتدوم العشرة الزوجية على ما يرام وفي دوامها صلاح للأولاد ، وفي صلاح الأسر صلاح للمجتمع الواسع الكبير ولله ما أعظم حكمة القرآن وأحسن تأديبه لتاليه والعاملين به، وفي هذا المعنى يأتي قوله تعالى أثناء هذا التوجيه الرشيد الحكيم .

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ – آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ .

واذكرن من الفكر أومن الذكر الذي هو التلاوة والتذكير لغيرهن ، واذكرن ما يتلى في بيوتكن مما ينزل من الوحي وما يقرر من سنة رسول الله ﷺ وفي كليهما الحكمة والرشاد ، وانشرن العلم في الناس بالدعوة وبحسن الأسوة ، ثم يأتي هذا التذييل البديع لهذه الأوامر :

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ .

لا يزال الله خبيرا بعباده لطيفا بهم ، عالما بما يصلحهم يريد الله بهم اليسر والخير، ولا يريد بهم العسر ، يشرع لهم من الدين ما يسعدهم في الآخرة ويحييهم في الدنيا حياة طيبة ، فلنتبع هدى القرآن ولنهتد بهدي النبيء ولنقتد بنبيئه وبآل بيته فهنالك الخير والسعادة وبالله التوفيق .

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ
وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥﴾

يأتي الخطاب بالوعد من ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة مثنى فهو يذكر أوصاف النساء كما يذكر أوصاف الرجال فهوخلاف العادة ، بينما نرى القرآن يستعمل أوصاف الرجال ويخاطب الرجال ويدخل النساء معهم بالتغليب كما هو المفهوم الذي تفيده أساليب اللغة العربية فالعرب يخاطبون الذكور ويصفون بالمذكر في أوصاف التي يشترك فيها الرجال والنساء ويدخل النساء في كل ذلك بالتغليب إلا فيما يختص بالرجال فهم لهم خاصة أو فيما يختص بالنساء فهو لهن خاصة ، فما السبب هنا في الايتان بهذه الأوصاف المزدوجة ؟ ذلك أنه روي أن أمهات المؤمنين والنساء المؤمنات تكلمن وأبلغن ذلك رسول الله ﷺ قلن : إن الله يخاطب الرجال ويتكلم عن الرجال ولا يقيم للنساء وزنا ولا يجعل لهن شأنا ، وما ذاك إلالحقارتهن

وهوانهن على الله ، ولعله غير راض عنهن فهو لا يذكرهن في باب الوعد والبشرى بأوصافهن ، فأنزل الله تبارك هذه الآية تطييبا لخواطر المسلمات المؤمنات وقد كانت هذه الآية في كتاب الله غير أنه ألقى في قلوبهن التشوق إلى معناها والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن حتى إذا نزلت شعرن بعناية الله بهن ونظره للصالحات القانتات منهن . ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ .

عشرة أوصاف تأتي مرتبة متناسقة كأنها حبات لؤلؤ في سلك من تبر يبدؤها الله بوصف الإسلام الذي هو الخضوع الكامل لله رب العالمين إسلام الباطن والظاهر، ويتجلى إسلام الظاهر بالإتيان بفرائض الإسلام كما جاء في الحديث الذي أجاب به النبيء جبريل حين جاءه يسأله ليعلم أصحابه أمر دينهم، سأله عن الإسلام فقال ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ». ﴿وَالْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ ﴾ .

الذين اعتقدوا بقلوبهم وأقرواْ بألسنتهم وعملوا بجوارحهم بمقتضى اعتقادهم فلكل من الإسلام والايمان مفهومه اللغوي أما في الشريعة فإذا ذكر أحدهما وحده فهو يشمل معنى الآخر مع ملاحظة المعنى الذي وضع له وضعا أوليا ، والايمان يضعف ويقوى ويزداد بفعل الصالحات ويقوى في القلب حتى يكون إيمان أبي بكر الصديق لو وضع في كفة ميزان لرجح على إيمان الأمة كلها ولا يعلم أحد إلا الله مقادير الدرجات بين كل شخص وآخر وكلما قوي الايمان في قلب شخص نشطت في العبادة أعضاؤه وخلصت نيته وصفا عنصره وحسنت أخلاقه . ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ .

القنوت هو الخضوع والعبادة ، قال الله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَواةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة/٢٣٨] وقال في مريم ابنة عمران : ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم/١٢] أي كانت من العابدين أولي الطاعة والخشوع . ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾

الصدق صفة تكون في القلب فيكون مخلصا خائفا راجيا ، وتكون في اللسان فلا يقول إلا قولا سديدا ، وتكون في الأعمال فتكون صالحة موافقة للأقوال الحسنة ، ولايكون العبد الصادق إلا مستقيما ويتجنب الكذب والإدعاءات الفارغة ويتحرى الصدق ولو كلفه مشقة أو عقوبة وهو صفة الأبرار ، وجاء في الحديث بعد الأمر بالصدق وملازمته «ولايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق» حتى يكتب عند الله صديقا وضد الصدق الكذب وهو صفة الفجار وهو يهدي إلى النار ، وجاء في الحديث بعد النهي عن الكذب وبيان عاقبته السيئة « ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » وإذا كان الصدق هو الصفة اللازمة للمؤمنين والمؤمنات فإن الكذب هو الصفة اللازمة للمنافقين والمنافقات .

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ .

الصبر نصف الايمان ومدح الله أهل الجنة بالصبر فقال: ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد/٢٤] وقال لأهل النار حين ضيعوا الصبر في الدنيا ﴿ اِصْلَوْهَا فَاصْبِرُواْ أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور/١٦] صفة الصبر تدخل في كل خصلة من خصال الايمان ، فلولا الصبر ما

صلّى مصلّ ولا أنفق منفق ولا صام صائم ولا جاهد ولااستقام مستقيم، والصبر درجات أولاها الصبر على طاعة الله في الإتيان بالأوامر والنوافل والقربات ، ثم الصبر عن إتيان المعاصي والموبقات ، ثم الصبر عند نزول المصائب والبليات ، والرضا بقضاء الله عند الصدمة الأولى ، وكذلك الصبر عند لقاء العدو ، والصبر في كل ذلك على إخلاص النية لله تعالى ، والصبر على كف جماح النفس حتى لا تطغى ، والصبر محمود على كل حال ، وهو يؤدي إلى حسن العواقب في الدنيا وفي الآخرة ، والآخرة خير وأبقى .

﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ الخشوع رقة في القلب تنبع عن صدق الإيمان واليقين، وتثمر التذلل والخضوع لله تبارك وتعالى في كل حال لا سيما عند الوقوف بين يديه في الصلاة ، وفي هذه الآية يذكر الله أركان الإسلام كلها ولا يذكر الصلاة مكتفيا بذكر الخشوع الذي هو روح الصلاة وهو أعلى صفة فيها ، ولذا يبدأ الله به في وصف المؤمنين الصادقين وذلك حيث يقول في أول سورة المؤمنون ﴿ قَدَ اَفْلَحَ الْمُومِنُونَ الذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ .... الآيات ﴾ [المؤمنون /١-٢] فإذا خشع المؤمنون في صلاتهم استحقوا هذا الوصف الكريم واستحقوا المغفرة والأجر العظيم والخلود في الفردوس ، وأن هذا الخشوع ليصاحبهم في جميع أحوالهم ويترك في وجوههم نورا وذلك قوله تبارك وتعالى في وصف المؤمنين ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنَ اَثَرِ السُّجُودِ﴾[الفتح/٢٩] .

﴿والْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتصَدِّقَاتِ﴾ .

والمنفقين والمنفقات أموالهم فيما أمر الله فيه بالنفقة كإيتاء الزكاة وإيتاء ذوي القربى ، وإطعام الفقراء والمساكين واليتامى وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، والمتصدقين في مشاريع الخير وفي سبيل الله ، والمتطوعين بالصدقات الجارية التي يستمر نفعها ويدوم أجرها ولا ينقطع ، والصدقة برهان المؤمن على صدق إيمانه وحبه لله ، وهي تداوي المرضى وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وهي تنمو حتى تثقل الموازين يوم القيامة ، وجاء في الحديث الشريف :«إن الله يربي لأحدكم صدقته كما يربي أحدكم فلوه » ويضاعفها الله أضعافا كثيرة وما نقص مال من صدقة كما جاء في الحديث ، وإذا كان الفضل ثابتا والخلف من الله ففيم البخل؟!.

﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ .

الذين يصومون شهر رمضان ويزيدون النوافل من أيام أخر والذين يصومون عن الطعام والشراب والشهوة وعن أنواع المعاصي التي تفسد الصوم بل يصومون عن الإثم دائما لأن الصوم الصحيح قد عوّدهم ترك المعاصي والآثام والصوم جنة وجاء في الأثر:«لكل شئ باب وباب العبادة الصوم » فإذا أدام المؤمن الصيام فقد دخل العبادة من بابها وإدامة الصيام ليس هو صيام الدهر بل هو صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، والحسنة بعشر أمثالها وصيام الدهر جاء النهي عنه في الحديث الصحيح والصوم خير ما يعين على قهر النفس ونهيها عن الهوى ، وجاء في الحديث الشريف :« إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش » وقال النبيء ﷺ مخاطبا الشباب « من خاف منكم الميعة فليصم فإن الصوم له وجاء » أي

خصاء ، وللصوم فوائد كثيرة في دين الإنسان وصحته وجاء في الحديث : « صوموا تصحوا » وجاء في الحديث « ولو علمتم ما في فضل رمضان لتمنيتم أن يكون السنة كلها » وجماع ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة /١٨٤] والصوم نصف الصبر والصبر نصف الإيمان وثواب الصابرين الجنة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر/١٠] .

﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ .

الذين يحفظون فروجهم عما لم يأذن الله فيه ، فهم يحفظونها إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، ويغضون من أبصارهم ، ويحفظون جوارحهم كلها عما يؤدي إلى الزنا ، والحافظات لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ولا يبدينها إلا لبعولتهن أو آبائهن ... الآية ويغضضن من أبصارهن ومن أصواتهن ولا يخضعن بالقول بل يقلن قولا معروفا ، ويلزمن بيوتهن ولا يخرجن إلا لضرورة متلفعات بمروطهن لا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن فهن المحصنات الغافلات المؤمنات الحافظات للغيب بما حفظ الله .

﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ .

الذين يذكرون الله كثيرا بألسنتهم وقلوبهم سرا وعلانية ، وذكر الله نور وهو حصن يحتصن به المؤمن فلا يضره الشيطان ، فهم يذكرون الله في صلواتهم ودعواتهم ويسبحونه بكرة وأصيلا ، ويذكرونه في بيعهم وشرائهم وكيلهم ووزنهم وأخذهم

وعطائهم ويذكرونه بالحمد والشكر في حال الضراء والسراء ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد /٢٨] وجاء في الحديث القدسي : يقول الله تعالى : « إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي وإذا ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير من ملائه » وبهذه الخصلة التي هي أفضل أنواع الأعمال تتم عشر خصال يصف الله بها أولياءه المؤمنين والمؤمنات ويثبت الله لهم الدرجات العلى عنده . ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَّغْفِرَةً وأَجْراً عَظِيماً ﴾ .

قد هيأ لهؤلاء كرامتين بعد رضاه عليهم الكرامة الأولى : مغفرة ذنوبهم فهو لايحاسبهم عليها ويستر عليهم ولا يفضحهم بها فكأنها لم تقع و لم يرتكبوها ، الكرامة الثانية : الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي أعده الله في دار كرامته الجنة ، وقد عظم الله لهم هذا الأجر وما عظمه العظيم فهو عظيم حقا .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا
أَن تَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ
وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى
نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ
فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ
ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ
ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ
وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

في أثناء هذه السورة المحكمة التي تحمل أحكام شرعية حكيمة تأتي هذه الآية الكريمة التي تنفي عن المؤمنين نفي الشأن أن يعترضوا حكما قضاه الله أو يتخيروا غيره فإن ذلك ينافي أصل الايمان ويضاد الإسلام ، وهما الوصفان اللذان استهل الله بهما هذه الأوصاف العشرة المتقدمة فلا إسلام ولا إيمان لمن يتخير غير الأمر الذي قضاه الله ورسوله .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤمِنٍ وَلاَ مُؤمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنَ أَمْرِهِمْ ﴾

قيل نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش وأخيها عبدالله حين زوجها النبيء ﷺ لمولاه زيد بن حارثة فلم يعجبهم هذا فلما نزلت الآية قالوا رضينا ، والعبرة بعموم

اللفظ لا بخصوص السبب ، والخيرة من تخير كالطيرة من تطير ، وليس من شأن المؤمن الصادق في إيمانه ولا من شأن المؤمنة إلا أن يرضيا بأمر الله ورسوله ولا يتخيران غيره أبدا . ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ .

ومن يتخير غير أمر الله فقد عصى الله ورسوله ، ومن يعص الله ورسوله فقد خرج عن طريق الاستقامة وضل ضلالا بعيدا عن الصّواب ، والضالون هم الغاوون ومآلهم النار وبئس المصير ، ويعظنا الله بهذه الآية وما أحكم نسبتها في هذا الموضع على الخصوص ، وهذا هو الوعظ القرآني الحكيم الذي يهيئ النفوس لقبول أحكام الله والتسليم الكامل لحكم رسوله .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾.

نزلت هذه الآية الكريمة في حادثة هي من أهم الحوادث التي وقعت في زمن النبيء ﷺ وهي من أهم قضايا التشريع الإلهي ، وكان النبيء هو القائم بتطبيقها رغم صعوبتها ، وأراد الله أن يكون هو محل تنفيذها حتى يقتدي به المؤمنون وهي من الأمور التي قضاها الله وليس لأحد من عباده الخيرة فيها، ذلك هو إبطال التبني الذي تقدم حكمه في أول السورة ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ وأراد الله أن يكون نبيئه هو الذي يهدم هذه البدعة ، بدعة التبني لا بإبطال نسبته إليه فحسب بل بتزوج المرأة التي كانت

في عصمته بعد أن تقضي منها وطرا، وكان نزول هذه الآية بعد وقوع هذا الزواج ، ذلك أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ كان قد زوجه النبيء زينب بنت جحش القرشية فجعلت تتعالى عليه فتضايق من ذلك وأراد تطليقها فكان يشكو ذلك إلى النبيء ﷺ ويستأذنه في ذلك فكان النبيء ينهاه عن الطلاق ويأمره بإمساكها ، وكان الله قد ألهمه وأوحى إليه أنه سيتزوجها بعد أن يطلقها زيد ليبطل بذلك قضية التبني ، ولكن النبيء كان يشعر في نفسه بنوع من الحياء فكان يخشى مقالة الناس وبوده لو تأخر هذا الأمر، فعاتبه الله على هذا الشعور وأعلمه أن الله أحق أن يخشى منه ، وهذه الآية من أعظم الدلائل على أن القرآن منزل من عند الله وأن النبيء ﷺ قد بلغه كله إلى الناس ، قال بعض المفسرين لو أن النبيء ﷺ كتم آية من كتاب الله لكانت هذه الآية وحاشاه أن يكتم ما أنزل الله أو بعضه .. والحادثة وإن كانت صغيرة فيما يبدو ولكنها في معناها عظيمة إذ يصعب تغيير عادة تمسك بها الناس واعتقدوها دينا فهم لا شك سيطعنون فيمن يغيرها ويفعل خلاف ما يعهدون ، وقد طعن الكفار والمنافقون وقالوا ما شاء الله أن يقولوا ولا يزال أعداء الإسلام يتكلمون في هذه الحادثة بما يؤذي الله ورسوله ويتهمونه بعشق هذه المرأة وأنه رآها فأعجبته فقال سبحان مقلب القلوب فبلغ ذلك فرغب في طلاقها لينال النبيء مراده منها ، ومن الغريب والمؤسف أن يرِدَ هذا الخبر في بعض كتب التفسير وهو شئ لا أصل له ونبيء الله مبرأ من هذه الأكاذيب ، وقد كان الناس تكلموا في نبئ الله داود عليه السلام بمثل ذلك ونبرأ إلى الله مما قالوا وسنورد ما هو الصواب في هذه القضية عند تفسيرنا الآية بإذن الله .

﴿ وَإِذْ تَقولُ لِلذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي

فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ .

واذكر يا محمد حين كنت تقول لمولاك الذي أنعم الله عليه بنعمة الهداية للإسلام وبنعم كثيرة لا تحصى ، وأنعمت عليه بالعتق ونعم أخرى ، أذكر حين كان يشتكي إليك من عشرة زوجته زينب ويرغب في تطليقها وكنت تقول له :

﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ .

وكنت تخفي في نفسك ما ألهمك الله أنك ستتزوجها بعد أن يطلقها وتعتد ، وهذا أمر لابد أن الله سيبديه وتخشى مقالة الناس وتستحيي من ذلك والله أحق أن تخشاه لا الناس ، وطاعة الله وامتثال أوامره فوق كل اعتبار ، وهذا تأديب لنبيه ولنا جميعا ووعظ لنا وفيه دفاع عنه وبيان أنّ هذا أمر من عند الله لابد بتطبيقه فلا محل فيه لعتاب محمد ولا تثريبه ومن انتقد ذلك أو قال قولا فيه لوم أو عتاب فهو كافر بالله ورسوله وبكتابه وسينتقم الله منه إن لم يتب ويرجع عن قوله ، وقضاء الله لابد واقع وأمره حق وتشريعه مقبول تطيب به نفوس المؤمنين وتسلّمه لله تسليما . أما صيغة الفعل المضارع في الآية فتدل على أن هذا الأمر من النبيء وتلك الشكوى من زيد كانا متكررين ، ونفهم من نزول هذه الآية أنها نزلت بعد تزويج الله نبيه من زينب وإنما كان نزولها للتذكير والوعظ وتنقية قلوب المؤمنين مما ربما يقع فيها من حرج ، وكان المجتمع الإسلامي يتكون تكونا ربانيا بأمثال هذه الآيات التي تنزل تباعا عند مناسباتها، كان زيد عبدا بيع في أحد أسواق مكة فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ثم إن خديجة رضي الله عنها أهدته للنبيء ﷺ فنشأ في بيت النبوءة وساقه قدر

الله إلى أطهر بيت في الأرض ، فلما نزل الوحي أسلم فكان من أوائل المسلمين وكان قبل ذلك قد اختار البقاء في بيت محمد وخديجة وآثرهما على أبويه وأهله وذلك أن أباه وعمه قدما مكة وطلبا من النبيء ﷺ أن يسلمه لهما بالثمن الذي يريده فقالا لهما أوخير ذلك فقالا وما هو ؟ قال نخيّره في الذهاب معكما أو البقاء معنا فرضيا بذلك ولما خيّراه في ذلك آثر البقاء مع محمد وخديجة وخيرهما على والديه وأهليه فذهبا وتركاه لما اختاره راضين ، وحينئذ أشهد النبيء قريشا أنه قد تنباه ونسبه إلى نفسه جزاء له على حسن اختياره وإكراما له وهذا من جملة إنعام النبيء عليه ، ثم لما أبطل الله حكم التبني كان النبيء ﷺ أول من امتثل ونسب زيدا إلى أبيه فصار يدعى زيد بن حارثة ، ثم إن الله أخبر نبيئه أنه سيتزوج من كانت له زوجا ليكون رسول الله أول من ينسخ هذه العادة من النفوس ، وقد وقع مثل ذلك حين أعلن النبيء في خطبة حجة الوداع أن أول ربا يضعه هو رباعمه العباس ، وأول قتيل يلغى ديته من قتلى الناس قبل الإسلام هو دم ابن عمه الحارث بن المطلب بن هاشم وهي سنة يجب أن يقتدي بها كل داع من دعاة الله المصلحين لما أفسد الناس ، المحيين للسنن المميتين للبدع فيبدءون بأنفسهم حتى يتسارع الناس إلى الامتثال ، وكذلك فعل النبيء ﷺ يوم ذبح هديه في الحديبية بعد كتابة معاهدة الصلح وقد أشارت عليه أم سلمة رضي الله عنها فامتثل فكان فعله قدوة لصحابته بعد أن كادوا أن يقعوا في المحذور بعدم امتثال أمره فلما طبق قوله بالفعل لم يبق مجال للتردد فتسارع الناس إلى الامتثال ، وهكذا تطّرد هذه القاعدة في كل زمان ومكان يقوم فيه داع من دعاة الإصلاح: قال نبئ الله شعيب عليه السلام يخاطب قومه ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ ومَا تَوْفِيقِيَ

إلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود/٨٨] فليأخذ المصلحون الدعاة درسا من هذه الآيات ومن سيرة أنبياء الله على نبيئنا وعليهم الصلاة والسلام وليقتدوا بهم ولتكن خشيتهم لله لا للناس فالله أحق أن يخشى ﴿ وَمَن يُطِعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور/٥٢] .

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُومِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وطَراً وكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ .

يذكر الله هنا زيدا باسمه وماذكر صحابي باسمه في القرآن وهذا شرف له ورفع لمقامه عند الله وملائكته والمؤمنين ، يقول الله تعالى:فلما قضى زيد منها وطرا ، أي أصاب منها حاجته مما يصيب الرجل من النساء زوجناها لك يا محمد ذلك ليبين لنا ربنا أن المتبنى ليس ابنا ، والتبني لا يغير أحكام الله تعالى فاللرجل أن يتزوج زوجة متبناه بعد أن يفارقها ولو كان باشرها قبل ذلك وليس عليها إلا أن تعتد بعد فراقه إن كان مسها قبل ذلك هذا حكم الله وأمره ثم قال تعالى:

﴿ لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُومِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وطَراً﴾ .

لكي لا يتحرج المؤمنون بعدك من تزوج أزواج الذين تبنوهم إذا طلقوهن بعد أن يمسوهن وكان أمر الله لابد مفعولا، أمر الله القدري الذي أراد أن يكون وهو تزويج نبيئه من زينب التي كانت زوجة دعيه زيد ، وأمر الله التشريعي لابد يطاع ولا حرج على المؤمنين أبدا في امتثاله ولو تكلم المنافقون والذين في قلوبهم مرض والكفار في اعتراضه وعتبوا على الناس الذين سارعوا في تطبيقه ، وما أعظم هذه الجملة

المعترضة في هذا المقام وأشد مناسبتها لما قبلها وما بعدها ! .

﴿ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ .

بعد أن عاتب الله تعالى نبيه عتابا لطيفا على خشيته للناس وحيائه منهم شرع يدافع عنه ، وفي العتاب نفسه دفاع وبيان أن الأمر من عند الله وأن الله هو الذي زوج نبيه من زينب من غير رغبة سابقة لذلك وهو ما تفيده العبارة . ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ .

ما كان على النبيء من مشقة ولوم فيما قسم الله له وأوجب وليست الأرزاق المادية فقط مما يقسمه الله بل حتى الأمور المعنوية وفي مثلها جاء قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف /٣٢] فإذا كان الفرض والقسمة من عند الله ففيم العتاب وفيم الكلام واللوم .

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ .

أي سن الله في ذلك سنته في أنبيائه من قبله ، أليس لسليمان عليه السلام ثلثمائة زوجة ولأبيه داود عليه السلام مائة زوجة وبنوا إسرائيل يعلمون ذلك ففيم الطعن في هذا النبيء الذي سن الله له سنة الأنبياء السالفين من قبل ، جعل لهم أزواجا ليبلغن رسالات الله مما ينزل من الوحي ومما يُفتى في بيوتهن ويأخذ الناس منهن نصيبا من علم الدين مما يتلى ويفتى ويقضى في بيوتهن.

﴿ وكَانَ أَمْرُ اللّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ .

وكان أمر الله قضاء وقدرا مقدورا وأمر الله لابد واقع لامرد له ولا اعتراض عليه، وجاءت هذه الجملة معترضة بين الوصف والموصوف متمكنة لتدل على معناها لنعلم أن الأشياء الواقعة هي قدر مقدور من الله والله لطيف لما يشاء .

﴿ الذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّهَ وكَفَى بِاللّه حَسِيباً ﴾ الذين خلوا من قبل من أنبيائه ورسله كانوا يبلغون رسالات الله ولا يخشون أحدا إلا الله ، وفي هذا تعريض بنبيئنا وما جال في خاطره من خشية الناس ، يقول الله له إن أنبياء الله ورسله يبلغون رسالات الله ، وفي تكرار لفظ الجلالة وفي الإظهار مكان الإضمار مغزى عظيم ، وفيه غرس تعظيم الله وإجلاله في القلوب حتى لا تخشى أحدا إلا الله ﴿ وكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً ﴾ .

وكفى بالله محاسبا لعباده يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، خبير بما يفعلون، سميع لما يقولون سيحاسبهم ويجزيهم بما يعملون وهو كاف أمرهم في هذه الدنيا ، فليكن توكل أنبيائه ورسله على الله وكفى بالله حسيبا .

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولَكِن رَّسُولَ اللّهِ وَخَاتِمَ النَّبِيئِينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ ينفي الله تعالى في هذه الآية أبوة محمد ﷺ لأي أحد من رجال الناس فلا يجوز أن ينتسب إليه أحد من الرجال وقد كان له أولاد ذكور غير أنهم ماتوا صغارا وكذلك ابنه إبراهيم ، وروي أنه لو عاش لكان نبيئا ونبوة سيدنا محمد ﷺ خاتمة للوحي والرسالات .

﴿ ولَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتِمَ النَّبِيِّينَ﴾ .

ختم الله برسالته نزول الوحي فلا نبي بعده ولا أمة بعدنا حتى تقوم الساعة ، وقد رفع الله ذكره بالرسالة فلا حاجة إلى التبني ولا يضره ألا يكون له أبناء ، وقد خلد الله ذكره الرفيع في كتابه الكريم وفي الأذان كل يوم خمس مرات ، وفي الإقامة للصلوات وفي قراءة التشهد فيها وفي مناسك الحج في الطواف والسعي ، وفي جميع الأدعية يفتتحها الناس ويختمونها بالصلاة على النبيء ﷺ وجعلها من أفضل القربات فمن صلى عليه مرة صلى الله عليها عشرا ومن صلى عليه عشرا صلى الله عليه مائة ومن سأل الله له الوسيلة حلت له الشفاعة ، اللهم آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته .

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .

أحاط علم الله بكل شئ بما كان وما يكون وما هو كائن ، والله عليم بما يصلح حال عباده في الدنيا والآخرة وهو أعلم بهم من أنفسهم ، ويذيل الله هنا بهذه الآية لنزداد ثقة بما شرعه الله لنا فلا نشك في صلاحيته وشموله لجميع الأحوال والأزمنة والأمكنة ولكل الناس ، وهو الذي خلقهم ويعلم سرهم وعلانيتهم وهو عليم بما يصلح أفرادهم ومجتمعاتهم ، هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ، ومن كان كذلك يجب علينا أن نتوكل عليه ونفوض أمورنا كلها إليه ونتقبل شريعته ونسلم تسليما وفي ذلك لا شك سعادتنا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم
مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾
تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

نداء من الله تبارك وتعالى للمؤمنين لما يحييهم وذلك أن يذكروا الله ربهم ذكرا كثيرا ، والذكر ذكران ذكر باللسان وذكر بالقلب ، ولا ينفع ذكر اللسان والقلب غافل، والذكر نور القلب به يبصر الحق ويوفق إليه ويتحصن من شياطين الإنس والجن ، يأمرنا الله أن نذكره ذكرا كثيرا ، والكثرة ليست هي كثرة العدد فحسب بل هي المداومة عليه في جميع الأوقات ، بكرة وأصيلا وفي الليل والنهار ، عند تجدد الأحوال وعند البيع والشراء والأخذ والعطاء وذاكر الله يراقبه في كل حركة وسكون فلا يأتي من ذلك إلاما يرضي الله تعالى .

﴿ هُوَ الذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنِ الظُّلَمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُومِنِينَ رَحِيماً ﴾ .

الله ربكم هو الذي يصلي عليكم ليخرجكم من الظلمات إلى النور، جاء في الأثر أن الصلاة من الله رحمة ومن الملائكة الاستغفار ، أما استغفار الملائكة للمؤمنين فقد جاء به النص في كتاب الله ، وأما تفسير صلاة الله عليهم بالرحمة يبدو أن المعنى لا يقتصر على الرحمة فقط بل لا بد من معنى زائد عليها لأنه جاء في آية الصبر في سورة

البقرة في جزاء الصابرين قوله تعالى ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة /١٥٧] فعطف الرحمة على الصلوات يؤذن أن في الصلوات معنى زائدا هو غير الرحمة ، وهو أن يغمرهم بألطاف ونفحات وأن يؤذن برفع أقدارهم ويجعل لهم ودا في قلوب عباده الصالحين من الملائكة والإنس والجن وينزل عليهم الملائكة تلهمهم وتثبتهم وتؤيدهم وتبشرهم في مقامات الروع والفزع، كيف لا وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فهم يستغفرون لهم ويشهدون لهم عند الله وهو أعلم بهم ، وأما في الآخرة فتتنزل عليهم بالبشارات والتثبيت ويحيونهم بالسلام ، كل هذا من الله للمؤمنين ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وهنا يجئ لفظ الظلمات بالجمع ولفظ النور بالإفراد ، ذلك لأن نور الايمان واحد وصراط الله المستقيم واحد ، أما ظلمات الشرك والنفاق والبدع والأهواء والجهل فهي شتى،

ويصلي ربنا على عباده ويأمر ملائكته بالصلاة عليهم رحمة منه بهم واحتفاء وعناية ولطفا منه ليخرجهم من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور/ ٣٥] تلك رحمة خاصة بالمؤمنين الذين يذكرون الله كثيراً ويسبحونه بكرة وأصيلا ، والتسبيح هو التنزيه باللسان والقلب والتقديس لله عز وجل ، وهو الذي علمنا أن نقول ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات/ ١٨٠-١٨٢] فالمؤمنون الصادقون على ولاية من الله وملائكته وبعضهم أولياء بعض والله ولي المؤمنين ، وفي قوله تعالى ﴿وَكَانَ بِالْمُؤمِنِينَ رَحِيماً ﴾ إشعار بأن هذه الرحمة مقصورة على المؤمنين وأن غير المؤمنين لا يستحقونها فهم منها محرومون وليس لهم منها نصيب ، وسيتركون غدا في

الظلمات ويضرب بينهم وبين المؤمنين الصادقين بسور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، فبينما هم في عذاب الله ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم وهم في رحمة الله .

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ .

يحييهم ربهم بالسلام يوم يلقونه والسلام هو السلامة من جميع البلايا والآفات وسائر المنغصات ، واختار الله للمؤمنين التحية بالسلام في الدنيا والآخرة ، فالعجب ممن يعدل عنها إلى ألفاظ أخرى لمجرد تقليد لغيرنا لا خير فيه ! .

والتحية من الحياة والتحية من المخلوق تتضمن الدعاء بالحياة الطيبة ، والتحية من الخالق هي البشارة بالحياة الطيبة الهنيئة في دار الخلود حيث أعد لهم رزقاً كريما كثيراً طيبا متصلا غير منقطع ، مستمراً دائماً لا ينفد ولا يفنى ، رزقاً هنيئاً مريئاً في دار كرامة ورضوان لا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب ، ذلك ما أعد الله لأوليائه المتقين الذين حققوا إيمانهم بالعمل الصالح والإخلاص فيه ، هكذا يحبب الله إلينا نفسه بألطافه ورحماته مع استغنائه عنا ونحن نتبغض إليه بذنوبنا مع افتقارنا إليه نسأل الله أن يعاملنا برحمته وفضله لا بنقمته وعدله آمين .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ

وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾

آيات كريمة يصف الله تعالى فيها نبيئه الكريم بخمسة أوصاف عظيمة تبين فضله وترفع مقامه وقدره ﷺ ، ويبين الله له في هذه الآيات البينات وظيفته وأنه رسول من الله أرسله بالهدى ودين الحق ليبين للناس ما نزل إليهم ، ويبدأ في تطبيق هذا البيان بنفسه إذا لزم الأمر ولا يلاين ولا يداهن الكافرين والمنافقين ولا يكترث بأذاهم ، وأن على المؤمنين أن يطيعوا الله ورسوله ، ولا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضى ولا تكون لهم الخيرة من أمرهم ، وإذا صدقوا في إيمانهم فسيكون لهم من الله بشارات وفضل كبير ، فهو نداء للنبيء من الله المرسل وهو وعظ من الله وإرشاد لعباده المؤمنين وتطهير لقلوبهم .

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيءُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾.

خمسة أوصاف يصف الله بها نبيئه ﷺ ، أولها وصف الرسالة وهو فوق وصف النبوءة وأضاف الله الإرسال إلى نفسه بنون العظمة ليبين أن هذا الإرسال من لدنه وليس للنبيء فيه تكلف، وليرفع من شأن رسوله وليؤكد له وجوب تبليغ رسالات الله ولا يخشى أحداً إلا الله ، أرسله الله شاهدًا بوحدانية الله العزيز الحكيم ، وشاهداً على أمته بتصديق من صدق منهم وتكذيب من أعرض وكذّب وشاهدًا للأنبياء والرسل من

قبله بأنهم صدقوا وبلغوا رسالات الله إلى أقوامهم، وجاء هذا المعنى في غير موضع من القرآن الكريم فمن ذلك قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ ﴾[النحل/٨٩] وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة/١٤٣] وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾[النساء/٤١] .

وهذه الآيات كلها تفيد أن هذه الشهادة تكون يوم القيامة، ووصف الرسول بالشاهد لما ذكرنا أولا ولأن تحمّل هذه الشهادة تكون في الدنيا فوصف بها الأنبياء والرسل باعتبار تحملها وباعتبار ما سيئول إليهم أمرهم من أدائها يوم القيامة ، فهم شهداء وسيؤدون هذه الشهادات بين يدى الله يوم يسألهم وهو أعلم بهم ويكون جوابهم أول الأمر كما حكى الله تعالى عنهم في سورة المائدة ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ ﴾[المائدة/١٠٩] وقال الله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف/٦] وإنما أشكل العلماء قديما وحديثاً في تسمية الله لهم شهداء وقولهم حين سئلوا ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّم الْغُيوبِ ﴾ كيف وهم شهود حين سئلوا عن أممهم نفوا العلم عن أنفسهم ، أما ابن عباس فكان جوابه حين سئل عن ذلك :إن يوم القيامة يوم طويل فيه مقامات وأحوال وأهوال فعند أول رؤية الرسل لأهواله قالوا لا علم لنا ، ثم إنهم بعد ذلك وبعد أن أتتهم البشارات من الله هدأت نفوسهم وأدوا شهاداتهم ، وهذا وجه من التعليل وجيه ، وقد يقال إن هؤلاء الرسل نفوا عن أنفسهم العلم نفيا نسبياً لا نفيا مطلقاً وذلك

حين سألهم ربهم وهو أعلم بهم تضاءل علمهم في أنفسهم إلى علم الله المحيط بكل جلي وخفي فقالوا : ﴿ لاَ عَلْمَ لنَا إنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ وهذا من حسن أدبهم مع الله ربهم العظيم الذي قد أحاط بكل شئ علماً ثم إنهم بعد ذلك سيؤدون شهاداتهم كما أخبر الله عنهم وهذا الوجه عندي هو الأرجح وهو الأنسب بتأدب رسل الله مع ربهم والله أعلم .

ويحكي الله عن المسيح ابن مريم عليه السلام في مخاطبته لربه يوم القيام :

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة/١١٧] إن رسل الله يشهدون على ما شاهدوه من ظواهر أعمال العباد والله هو الرقيب على ما في قلوبهم وهو علام الغيوب . ﴿ وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾.

البشارة هي الإعلام بخبر مقبل والنذارة هي الإخبار بشر مقبل، وفي الترغيب في أفعال الخير تكون البشارة ، وفي التنفير من أفعال السوء يكون الإنذار ، وجاء الوصفان في مواضع كثيرة من كتاب الله غير أن النذارة فيه أضعاف البشارة ،لأن النفوس البشرية تردعها النذارة وتؤثر فيها أكثر مما تصنع البشارة، والله تبارك وتعالى يعظ عباده وعظا بليغا ويخوفهم بالقرآن حتى ينجوا من عذابه الأليم ويفوزوا بثوابه العظيم وماذاك إلا لرحمته بهم .

﴿ وَكَانَ بِالْمُومِنِينَ رَحِيمًا﴾ .

اللهم ارحمنا برحمتك .

﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللَّه بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ .

الوصف الرابع من أوصاف رسول رب العالمين هو وصف الدعوة إلى الله ، فالنبي هو الداعي إلى الله بإذنه أي يدعو عباد الله إلى الله ربهم يدعوهم بإذنه أي بتيسيره وإرشاده وتشريعه ، يدعوهم بأقواله وأفعاله وأحكامه وهديه ، فالدعوة كلمة صغيرة في الحجم واسعة في المعنى عظيمة القدر عند الله تعالى يقول الله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت/٣٣] ويحتاج الداعي إلى الصبر حتى يتحلم في دعوته ويجزي بالحسنة السيئة وبذلك يكسب قلوب الناس الذين يدعوهم إلى الله ، ولذا يقول الله في سياق موضوع الدعوة ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت/٣٥] والداعي حظه عظيم عند الله لا يعلم أحد إلا الله ما أعدَّ له من جزاء حسن تقرُّبه عينه يوم القيامة ، فليصبر وليصدق وليخلص في دعوته وليكن مثالاً حسناً لما يدعو إليه إن أراد النجاح في أمره، والدعوة إلى الله لا تصح ولا تقبل إلا بإذن من الله ، وعلى الطريقة التي رسمها الله ، وبالشريعة التي شرعها الله ، ولذا يقول تعالى:

﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ .

أي بما شرع وأمر ونهى فليس كل من يدعو موفقاً بل هناك ناس يزعمون أنهم يدعون إلى دين الله وهم يدعون إلى دين الشيطان ، وقديماً قال عدو الله فرعون لقومه:﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر/٢٩] وكذلك كانت قريش في جاهليتها يزعمون أنهم على دين إبراهيم ولما بعث محمد ﷺ صدت

الناس عن دعوته ودعوا إلى الصبر على عبادة الأصنام على طريقة الأجداد وزعموا أن ذلك هو الدين الحق وكانوا يدعون إليه ويدافعون عنه ويزعمون أنهم على سبيل الرشاد وما سبيل الرشاد إلا ما شرع رب العباد ودعا رسوله الحق إليه ، هذه الدعوة التي أذن الله فيها وجعلها أحسن الأقوال والأفعال وأعد لأصحابها أجراً عظيماً ، وأمر بالاستجابة لها وقال :﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف/٣٢] وقال تعالى على لسان عباده الأبرار في كتابه الكريم :﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران/١٩٣] فدعوة الناس إلى الله إنما هي دعوتهم إلى الإيمان بالله ربهم والقيام بطاعته وحسن عبادته ، واتباع الداعي الأول رسول الله الذي أرسله لهذا الغرض . ﴿ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ .

الوصف الخامس من أوصاف رسول الله ﷺ السراج المنير وهو المصباح الوضاء المشع بالنور الذي ينير الصراط المستقيم للمؤمنين السالكين فيه ، الله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه ، يخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، ومن ظلمات المعاصي والفجور إلى نور الطاعة والاستقامة ، فالقرآن نور والصلاة نور وذكر الله نور والوضوء نور والحسنات في قلوب المؤمنين نور على نور ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [النور/٣٥] وقد مضى رسول الله إلى ربه وترك فينا سراجين منيرين لن نضل ما تمسكنا بهما: كتاب الله وسنته الغراء يضيئان لنا المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها ، ووصف الله نبيه بالسراج المنير ومن السرج مالا ينير فضوءه خافت ضعيف ولكن نور الله قوي منير لا ينطفي ولو

حاول الكفار إطفاءه ﴿ وَاللَّهُ مُتِمٌّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف /٨] ربنا أتمم لنا نورنا واغفرلنا إنك على كل شئ قدير .

﴿ وَبَشِّرِ المؤمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِنَ اللَّه فَضْلاً كَبِيراً﴾ .

هذه بشارة خاصة للمؤمنين الذين استجابوا لداعي الله وهي غير البشارة العامة التي تقدمت ، فالله تبارك يأمر رسوله في هذه الآية الكريمة أن يبشر المؤمنين الصادقين في إيمانهم بأن لهم من الله فضلاً كبيراً والله ذو الفضل العظيم ، وفي هذا الأمر لنبيئه الكريم تبشير للمؤمنين الذين تطمئن نفوسهم لقضاء الله وتشريعه ويتبعون السراج المنير بأن لهم من الله فضلاً كبيرا يؤتيهم الله إياه في الدنيا وفي الآخرة ، وهي بشارة عظيمة فيها بيان فضل المؤمنين ودعوة إلى الإيمان الصحيح الذي هو الخضوع الكامل لأوامر الله والتسليم الكامل لحكم الله ورسوله والقبول الكامل لتشريع الله وسنة رسوله الكريم ، اللهم إنا نسألك مما عندك وأفض علينا من فضلك وانشر علينا من رحمتك يا أرحم الراحمين .

﴿ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ اَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ .

في هذه الآية الكريمة نهي وأمران وخبر يحمل حقيقة ثابتة تنطوي عليها قلوب المؤمنين الصادقين ، والنهي والأمران موجهان للنبيء ويدخل جميع أفراد أمته بالتبع لا سيما الدعاة إلى الله ، ينهى الله رسوله عن طاعة الكافرين والمنافقين ولو في بعض الأمر ، وقد تقدم هذا النهي في أول السورة ، وهنا يتكرر النهي لأن المقام يقتضي التكرار لمناسبة ذكر رسالة محمد ﷺ ، وقد كان النهي المتقدم مقترنا باسم النبوءة

والرسول المبلغ يتعـرض للأذى ويتعرض لفتنـة المسـاومات أكـثر من النبيء العـابد ، ولذا فإنهـم لم يعلنوا عليه العداوة والحرب إلا بعد ما صدع بالرسالة يدعو الناس إلى التوحيـد كـمـا أمره الله ، فحينئذ تصـدى لعداوة قومـه ومكـرهـم ومسـاوماتهم فجـاء هـذا النهـي .

﴿ وَلاَ تُطِـعِ الْكَافِـرِينَ وَالْمُنَافِقِـينَ ﴾ .

ذلك لأن الكافريـن الذيـن أظهـروا كفرهـم والمنافقـين الذيـن أضمـروه كانـت لهـم محـاولات في صرف النبيء عن بعض ما أمر الله بتبليغه ولولا عصمة الله إياه لقد كاد يميل قلبه لبعض موافقتهم طمعاً في استجلابهم ولكن الله أبى عليه ذلك وضيق عليه الأمر وخوفه بعقابه الشديد وامتن عليه بتثبيته على الحق، وفي نهيه عن طاعتهم تحذير له ولورثته من بعده أن يميلوا بعض الميل إلى الكفار والمنافقين فالله أحق أن يطاع والله أحق أن يخشى .

﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ .

يأمر الله نبيّه وكل داع إلى الله أن يدع أذى الكفار والمنافقين ولا يبالي بهم ولا يثنيه أذاهم عن تبليغ ما أمر بتبليغه فإنهم لن يضروه إلا أذى والله كافي أوليائه أذاهم، فالأذى هنا من باب إضافة المصدر إلى فاعله وهو الأنسب بالمقام ، ومن المفسرين من يجعله من إضافة المصدر إلى المفعول به وهو وإن كان يصح غير أنه بعيد .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّه وَكِيلاً ﴾ .

يقول الله لنبيه : بلغ ما أنزل إليك ولا تخشى أذى الكفار والمنافقين وتوكل على

الله وكفى بالله وكيلا لمن توكل عليه واعتصم به فإنه كافي من استكفاه وكالي من استكلاه وعلى الله فليتوكل المؤمنون وعلى الله فليتوكل المتوكلون ، ويتكرر ذكر اسم الجلالة فهو إظهار في موضع الإضمار ليتقرر في نفوس المؤمنين ذكر اسم الله العظيم ولتصلح الجملة للاستشهاد والتعقيب وحدها . ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ .

وما أعظم وقعها في نفوس المؤمنين الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله وتثق بقضائه وتؤمن بلقائه وهم يستمسكون بدينهم ولا يضرهم من ناواهم والله يحب المتوكلين والله ولي المؤمنين .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ
مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا
فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٤٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً
مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن
يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا

مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ
لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾
تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ
مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ
وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا
فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ
مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ
إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

يعود الكلام في هذه الآيات إلى تكوين الأسر وتأسيس نظام البيوت والعائلات على منهج القرآن السوي الذي هو تشريع الله خالق البشر ولا يعلم ما يصلحهم إلا الذي خلقهم، وقد كان الحديث في أول السورة في هذا الموضع ثم جاءت آيات في خلال السورة تذكرنا بنعم الله علينا وحفاوته بنا وأنه جل جلاله يصلي علينا هو وملائكته ليخرجنا من الظلمات إلى النور، وأنه أرسل إلينا رسوله هادياً لنا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وأنه أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً ، والذين يهتدون بهداه ويفوزون ببشارته هو المؤمنون المطيعون لله وللرسول ، هذا الكلام كله ونحوه يأتي في

أثناء التشريع لنظام الأسر والعلاقات الزوجية ووشائج القرابات والأرحام ليتقبله المؤمنون والمؤمنات بصدور رحبة لا تشعر بالحرج ، وهي طريقة القرآن وهو كلام الحكيم العليم التي هو بدع من الكلام وهو الذكر الحكيم فيه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة/١٥-١٦] ومن غير الله يستطيع أن يشرّع للناس ما يصلحهم على اختلاف أزمنتهم وأقاليمهم ؟ لن يستطيع البشر هذا ولو بلغوا من الحضارات والعلوم ما اخترقوا به الفضاء وغاصوا البحار وصعدوا إلى الأقمار ولكنهم عن إصلاح نفوسهم عاجزون، تطغى عليهم شهواتهم وتميل بهم أهواؤهم وتغرهم شياطينهم وتتفاوت مداركهم وعقولهم ويغلب عليهم التقليد والجمود على ما ورثوه من الآباء والأجداد ، وقد يثورون على القديم فيقعون في شر منه فهم في ضلالاتهم يعمهون لاصلاح لهم إلا في اتباع هدى الله ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ وجعل الله آدم وبنيه خلايف في الأرض و لم يتركهم هملا كالبهائم ، على أن الوحوش والطيور والبهائم أمم أمثالنا قد ألهمها الله إلى ما يصلح شأنها في هذه الحياة الدنيا ، أما البشر الذي أعده الله لحمل الأمانة العظمى فلا بد لهم من نظام يسيرون عليه ليصلح شأنهم ويتم على أيديهم ما أراد الله من عمارة الأرض وإصلاحها ، وحمل أمانة التكليف ، ونشر هداية الله في الناس ، وإقامة الدين الحق ولا يتأتى لهم هذا إلا إذا صلحت بيوتهم ونشأت أسرهم على أصول متينة من تشريع الله ربهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ

مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ .

النداء من الله للمؤمنين بوصف الايمان لأنهم الذين ينتفعون بالقرآن ويتقبلون أحكام الشريعة ويمتثلون أوامرربهم .

﴿ إِذَا نَكَحْتُم ﴾ .

أي إذا عقدتم على أزواج مؤمنات، وفي هذا إشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن يتزوج مؤمنة فهي التي تصلح له ولأولاده ولا يتزوج كتابية على غير دينه إلا إن اضطر إلى ذلك اضطرار وفي أحوال قاهرة .

﴿ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ .

المراد بالمسيس المباشرة وألحق الفقهاء بذلك الخلوة ، فإذا اختلا بها وقتا يمكنه فيه الجماع فحكمها حينئذ حكم الممسوسة وإن ادعى أحدهما عدم المسيس، حتى ولو لم يكن دخول فلابد بالعدة ، أما إذا لم يكن مسيس وتصادقا على ذلك فليس على المطلقة حينئذ عدة لأن العدة إنما شرعت لاستبراء الرحم وحيث لا عدة فلا يملك الزوج رجعتها ولذا قال تعالى :

﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ .

فليس لكم عليهن حق في عدة تستوفون حسابها صيانة لنسبكم فهن في حل من أمرهن لا جناح عليهن فيما يفعلن في أنفسهن من معروف .

﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ .

متعوهن بشئ من المال تطيبياً لخاطرهن وجبراً لقلوبهن من إزعاج الطلاق لأن الطلاق يزعج المرأة ويحدث في قلبها حزنا ووحشة فأمر الله بإمتاع المطلقات وأمر بتسريحهن سراحاً جميلاً من غير إضرار ولا منع حق ، والمتعة مطلوبة وتجب إذا لم يكن تعيين الصداق وفرضه أما إذا فرض الصداق فتأخذ نصفه في هذه الحالة وإلا أن تعفو إن شاءت أو يعفو الزوج فيتركه لها كله والعفو أقرب للتقوى .

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيءُ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّومِنَةً اِن وَّهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِي اِنَ اَرَادَ النَّبِيءُ أَن يَّسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُومِنِينَ ﴾ .

في هذه الآية فرض من الله لأحوال نبيه الزوجية فيما يتعلق بزواجه ،وتذكر الآية أربعة أنواع من العلاقات الزوجية وبعضها خاص بالنبي ﷺ لا يباح لغيره، وهذه الأنواع هي الأزواج الممهورة ، وما ملكت اليمين ، والقرائب المهاجرات مع النبي ، والنوع الرابع الواهبات نفوسهن لرسول الله إن قبل هبتهن وأراد نكاحهن ، فهذه أربعة أنواع من العلاقات يبيحها الله لنبيه ويفرضها له فرضاً حتى لا يكون عليه حرج وهذه الآية تنزل بعد آية النساء التي تحدد تعدد الزوجات بالأربع فيقول الله تعالى لنبيه .

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيءُ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ .

وكانت عنده بعد نزول آية النساء أكثر من أربع فجاء الحكم من الله أنه أحل له أزواجه الممهورات يبقين عنده ولا يلزم بفراق من هن فوق الأربع كما يلزم غيره بل أحل الله له كل أزواجه الممهورات والواهبات له أنفسهن ، ثم قال .

﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ .

وهن السبايا من الفيء مما أفاء على رسوله من غير قتال وقد يلحق بهن في الحكم المسبيات في القتال ، والإماء المشتراة من السوق والمهداة كمارية ، فالجميع مما ملكت اليمين، وجاء التعبير بالفيء على التغليب وهذا هو النوع الثاني مما أحل الله لنبيه ،أما النوع الثالث فهن قرائبه اللاتي هاجرن معه بنات أعمامه وبنات عماته وبنات أخواله وبنات خالاته المهاجرات ، أما اللواتي لم يهاجرن فلا إلا المستضعفات مثل ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها ، وفي هذه الآية رد على من يزعم ضرورة الإبعاد في الزواج لمن أراد صحة الأولاد ونجابتهم، وإنما قد يطلب الإبعاد في بعض العائلات التي يكون فيها الضعف فيرشدون إلى الإبعاد في النكاح حتى يزول الضعف من أولادهم باختلاط الدماء ،كما أرشدهم سيدنا عمر بن الخطاب إلى ذلك حين قال لبني السائب وقد لاحظ فيهم الضعف والنحافة فقال لهم : «اغتربوا لا تضووا» وهذه أحوال خاصة وقد يطلب إنجاب الأبناء من قوم يعرفون بالنجابة وقد تكون في القرائب خصال لا توجد في غيرهن وقديما قيل: «الغرائب أنجب وبنات العم أصبر » ليس كل الغرائب بل العقائل من بيت النجابة والنبوغ ، وجاء في الحديث الشريف: « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » أما النوع الرابع من النساء اللاتي أحل الله لنبيه فهو المذكور في قوله تعالى :

﴿ وَامْرَأَةً مُّومِنَةً إِن وَّهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيءِ إِنَ اَرَادَ النَّبِيءُ أَن يَّسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُومِنِينَ﴾.

وهن الواهبات أنفسهن للنبيء وقد وقع هذا غير أنه لم يثبت في الخبر أن النبيء

تزوج واحدة منهن ، وقد أحلهن الله له من غير صداق ولا ولي إن شاء ينكحهن لنفسه أو يُنكحهن لأحد من أصحابه ، وقد وقع هذا الأخير وهذا خاص للنبيء ﷺ . ولذا جاء الإظهار بلفظ النبيء في موضع الإضمار، وقد صرح الله بهذا الحكم في هذه الآية حتى لا يجد أحد من الناس مطعن في النبيء من أجل زواجه أكثر من أربعة، وهذا ما ينبغي أن يكون حتى يقمن بتبليغ الأحكام التي يتلوها أو يفتي بها في بيوته وقد قمن بهذا الواجب وتعاونَّ في النهوض بتبليغ الدين إلى المسلمين والمسلمات رضي الله عنهن وأرضاهن .

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِم وَمَا مَلَكَتَ ايْمَانُهُمْ لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّه غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى قد كان بعلمنا وحكمتنا وإرادتنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم وما ملكت أيمانهم من أحكام ، وما أحللنا لنبينا خاصة وأنزلنا ذلك في كتابنا لكيلا يكون عليك أيها النبيء حرج فيما فرض الله لك وخصك به من أحكام .

﴿ وَكَانَ اللَّه غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ .

كثير المغفرة للمؤمنين شديد الرحمة بهم ، علم ما يخطر في قلوبهم فغفر لهم ورحم ضعفهم ، وهذا ما لا يسلم منه إلا النادر من الناس لأن الشيطان يلقي الشبه والوساوس في القلوب فعلم كل ذلك وذيل الموضوع بهذا التذييل المناسب .

﴿ وَكَانَ اللَّه غَفُوراً رَّحِيماً﴾ .

عظيم المغفرة واسع الرحمة وسعت مغفرته ورحمته ما أحاط به علمه مما يختلج

في نفوسكم فتوبوا إلى الله واستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ واللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيمًا ﴾ .

الإرجاء هو التأخير أي تؤخر من تشاء من أزواجك ، تهجرهن لتأديبهن أو تطلق منهن من تشاء وتؤوي إليك أي تضم إليك من تشاء منهن ، فوضه الله تفويضاً كاملاً لا محاسبة فيه ولا حرج بل هو حر في ذلك تمام الحرية في الإرجاء والإيواء .

﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ .

ومن ابتغيْت عزلها بطلاق ثم راجعتها بعد الطلاق فلا تضييق عليك ، أنت حر في عزل من تشاء وارتجاع من تشاء ، وقيل ممن عزلت من الغنيمة تبتغيها لك فلا جناح عليك وكل ذلك إن فعله فإنما يفعله لحكمة ولأغراض سامية يراعي فيها الأصلح لهن أو التأليف بين القلوب أو لتبليغ الدين أو لرفع الحرج كزواجه بزينب بعد زيد .

﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَينَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّه يَعْلَمُ مَا في قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّه عَلِيماً حَلِيمًا ﴾ .

ذلك ، الإشارة إلى هذه الأحكام المتقدمة إذا علم أزواج النبيء أنها من الله تشريع فإنهن يرضين بما آتيتهن ولا يحزن بل تقر أعينهن ، ذلك بعد اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، وبعد أن وعدهن الله في الآخرة أجراً عظيما إن أحسنَّ فكفاهن سعادة وشرفاً أن يكن أزواج رسول الله، وفي بيت يريد الله أن يذهب الرجس عن أهله

ويطهرهم تطهيرا ، فكيف لا تقر أعينهن بما يجعلهن أزواجاً له في الجنة كما كن أزواجاً له في الدنيا رضي الله عنهن وأرضاهن .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيمًا ﴾ .

كانت هذه التشريعات من الله العليم بما في قلوب خلقه وما يجول فيها من خواطر، العليم بما يصلحها، الحليم الذي لا يعجل ، يعلم ما في قلوب عباده من هواجس ويحلم عليهم ولا يحاسبهم عليها ، سبحانك اللهم ربنا لك الحمد على حلمك بعد علمك ولو شئت لحاسبتهم وعاقبتهم عليها ولكن حلمك واسع وفضلك على المؤمنين أوسع، والتذييل بهذين الوصفين في مثل هذا المقام مناسب تمام المناسبة .

﴿ لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنَ اَزْوَاجٍ وَلَو اَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً ﴾ .

تنزل هذه الآية الشريفة على النبيء ﷺ بعد اختيار أزواجه البقاء معه فأكرمهن الله جل جلاله بهذه الآية فهن أزواجه في الدنيا والآخرة فقال الله له .

﴿ لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلاَ أن تَبدَّلَ بِهِنَّ مِنَ اَزْوَاجٍ وَلَو اَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ .

لا يحل أن تتزوج النساء من بعد ولا أن تستبدل بهن أزواجاً غيرهن ولو أعجبك حسنهن ، حسن خلقتهن أو حسن خلقهن ، وقوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدُ ﴾ .

أي بعد اليوم وبعد اختيارهن البقاء معك حبا لله ولرسوله وبعد رضاهن بما فرض الله لنبيه وقرة أعينهن بذلك فأصدر الله هذا الحكم إكراماً لهن ، حرم الله عليه أن يطلق

إحداهن ويستبدل بها غيرها ، وحرم الله عليه أن ينكح عليهن واحدة أخرى ، واستثنى الله تعالى ملك اليمين ، أي ما ملكت يمينه من إماء مثل مارية القبطية التي أهداها له المقوقس ملك مصر مع أختها سيرين ، فآوى إليه مارية التي ولدت له إبراهيم عليه السلام ، وعقب الله تعالى بقوله :

﴿ وَكَانَ اللَّه عَلَى كَلّ شَيْءٍ رَقِيباً ﴾

وهو تعقيب مناسب بعد هذا الحكم وكان الله على كل شئ رقيبا فليحذره المتقون وليقفوا عند حدوده ولا يعتدوها ، والآية وإن كانت تعقيباً لسبب خاص ولكنها موعظة للمؤمنين عامة ، ومن كانت رقابته على كل شئ فهو أولى أن يحذر ويتقى ، ولقد امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه فلم يتزوج عليهن و لم يتبدل بهن واحدة حتى مات ، واجتهد في العدل في القسمة بينهن .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ

أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ
أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا
شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾
لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ
وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ
وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

في هذه الآيات الكريمة أدب عجيب يؤدب الله به صحابة نبيئه ، ينهاهم عن أشياء لا تليق ويأمرهم بأشياء ويعلمهم أشياء ، وتأديبه تعالى للصحابة تأديب للأمة جمعاء وتعليمه لأزواج النبيء تعليم للمؤمنات بعدهن حتى تقوم الساعة ، والآيات تحمل إرشادات لطيفة وتعاليم مفيدة ومناه ومواعظ من الله لعباده المؤمنين .

﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبيءِ إلاَّ أَن يُوذَنَ لَكُمُ إلى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إنَاهُ وَلَكِن إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُواْ وَلاَ مُسْتَانِسِينَ لِحَدِيثٍ إنَّ ذَلِكُم كَانَ يُوذِى النَّبِيءَ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

نداء من الله للذين آمنوا وهم الذين ينتفعون بالخطاب ويستمعون ، يقول لهم : لا تدخلوا بيوت النبيء إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، هذا النبيء الذي يغشى بيته المؤمنون لأغراض مختلفة تقتضيها وظيفة النبوءة لا مناص لهم منها فنهاهم ربهم أن يدخلوا بيوته إلا بإذن ، وجاء التعبير القرآني العجيب هكذا .

﴿ إلاَّ أَن يُوذَنَ لَكُمُ إلىَ طَعَامٍ ﴾ .

والإذن في لغة العرب يعدى بفي ، تقول : أذن له في الدخول، ولكنه هنا عدي بإلى طعام لتضمينه معنى الدعوة فهو يؤدي معنيين معنى الإذن في الدخول ومعنى الدعوة إلى طعام ، وما ذاك إلا لبلاغة القرآن فكأنه قال لنا « إلا إذا دعيتم إلى طعام وأذن لكم في الدخول فادخلوا حينئذ ، أما أن يؤذن لكم في الدخول لأمر غير الطعام فلا تطيلوا الجلوس ناظرين إناه لتأكلوا ،أي منتظرين نضجه فإن ذلك ليس من حقكم ولا هو من الأدب أما هذه الآية فتحمل النهي عن الدخول بغير إذن وعن إطالة الجلوس قبل الطعام رغبة في تناوله وقد تحملهم على ذلك شدة الحاجة والدالة على رسول الله ﷺ وما جبل عليه من كرم الطبع وشدة الحياء ، وأما الآية التالية فتحمل النهي عن إطالة الجلوس بعد الطعام وفيها الإذن بالدخول والأكل والأمر بإجابة الدعوة .

﴿ وَلَكِن اِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُواْ وَلاَ مُسْتَانِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ .

ولكن إذا دعاكم رب البيت إلى طعام فادخلوا وأطعموا فإذا طعمتم فانتشروا ، جاء الأمر بالانتشار لا بالخروج رفقاً بالمؤمنين ، لأن الأمر بالخروج من بيت الكرامة فيه معنى الطرد ، والله حفي بعباده المؤمنين وكذلك جاء التعبير بالانتشار بعد قضاء الصلاة يوم الجمعة ، قال الله تعالى :﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا في الاَرْضِ وَابْتَغُواْ

مِن فَضْلِ اللَّه ﴾ [الجمعة/ ١٠] فمن أداء الصلاة إلى ابتغاء فضل الله في طلب الرزق الحلال، وهنا يقول :

﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ .

أي فقوموا إلى شؤونكم فمن شاء يذهب إلى بيته ومن شاء يذهب إلى عمله ، والأعمال مختلفة فهم إذن ينتشرون في أغراض شتى مما أذن الله فيه .

﴿وَلاَ مُسْتانِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ .

ولا تقعدوا بعد الطعام في بيوت النبيء مستأنسين لأحاديث يحدث بها بعضكم بعضا وكثيراً ما يقع هذا وينسى الناس أنفسهم وصاحب البيت لا يستطيع أن يطردهم من بيته بعد أن كان أكرمهم بدعوته وجاملوه بتلبية دعوته ، ولكن مكوثهم في بيته بعد الطعام يلقي عليهم ظلا من الثقل بعد أن كانوا أضيافا كراما ، والله تعالى يحب أن تكون قلوب المؤمنين متحابة متوادة لا متنافرة ، ولذا فإنه ينهاها عن كل ما يكون سببا في الجفاء أو النفور حتى تبقى صدورنا نظيفة سليمة .

﴿ إِنَّ ذَلِكُم كَانَ يُوذِي النَّبِيءَ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ واللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقّ ﴾ .

إن جلوسكم للحديث كان يؤذي النبي فيستحي منكم ، يمنعه الحياء أن يأمركم بالقيام ويتأذى ببقائكم وله حاجات لا تقبل التأخير منها الاتصال بأهله ، ويروي المفسرون أن الآية نزلت لمناسبة زواجه بزينب بنت جحش أولم عليها ودعا الصحابة فطعموا وجلس بعضهم يتحدثون فخرج وطاف على نسائه ورجع فوجدهم جالسين فتأذى بذلك واستحيا أن يأمرهم بالقيام فنزلت الآية ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وفي الآية تأديب للمسلمين جميعاً .

﴿وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ .

وفي هذه العبارة حفاوة ولطف آخر بالصحابة حيث لم يقل « والله لاَ يستحيي منكم » بل قال : لا يستحيي من الحق ، ذلك لأن للصحابة كرامة عندالله وكذلك المؤمنون ، وفيها إشارة لهم ولنا أن نقبل الحق ولا تنفر نفوسنا من قبوله وإذا لزم أن نصرح به فلا يمنعنا الحياء من ذلك والحق يقال ويقبل، وكم في أسلوب القرآن من نكت ولطائف وإرشادات وهو الأدب العالي من رب العالمين .

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فاسْئَلُوهُنَّ مِن وَّرَاءِ حِجَابٍ ذَالِكُمُ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ .

أدب آخر من آداب القرآن العالية يوصينا ربنا تبارك وتعالى بالتزامه ويبين لنا حكمته وأثره الطيب في قلوب المؤمنين والمؤمنات يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْئَلُوهُنَّ مِن وَّرَاءِ حِجَابٍ ﴾ .

أي وإذا سألتم أزواج النبيء ، وغيرهن تبع لهن في الحكم والحكمة ، ووقع الإضمار هنا لأن الحال ناطقة بهن لأن الكلام على بيوت النبيء ومن فيها من الحُرم وقد ذكرن قبل هذا قريباً فلا حاجة إلى الإظهار ، وفي الإضمار ظل من الستر والإخفاء يقتضيه المقام ، والمتاع هو الحاجة مما يرتفق به كالماعون فليكن السؤال من وراء حجاب وكذلك الحال مع نساء المؤمنين حيث تؤمن الفتنة :﴿ ذَلِكُمُ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ .

الإشارة إلى الحجاب وما فيه من الأدب والحياء للسائل والمسؤول ، أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، الطهارة هي براءة القلوب من الشهوات ونظافتها من الهواجس ، وجاء التعبير بصيغة التفضيل ليدل على أن حكم الله أبلغ في طهارة القلوب ، وأدب الله ليس كمثله أدب ، وصدق الله العظيم وكذب الأفاكون الذين يزعمون ويوهمون بسطاء

الناس خلاف هذا ، إنهم يزعمون باطلا ويقولون ويكتبون زورا وبهتاناً ، يقولون إن رفع الحجاب وبروز النساء يقلل رغبة الرجال فيهن وهذا كذب وزور ، بل بروز النساء يقوي شهوة الرجال وافتتانهم بهن ، إنه يضاعف رغبتهم فيما وراء الرؤية، إنهم بعد النظر والمحادثة يطمعون في الاتصال ، وهذا ما دل عليه الواقع ودلت عليه الإحصائيات في الكليات والجامعات التي يختلط فيها الفتيان بالفتيات ، ونحن نؤمن بكلام الله ولا نشك فيه ونكفر بكلام هؤلاء الفلاسفة الدعاة إلى الفسق والفجور الذين يريدون أن تكون المرأة متاعاً مبتذلا في الشوارع والمدارس والمسارح والمسابح والميادين ، لقد دلت الأرقام في التعليم المختلط على نسبة عالية من الحوامل في الفتيات المتعلمات مع الفتيان في ثانويات أمريكا وجامعاتها بدأ الإحصاء من سنة ١٨٩٠ بنسبة ٦٪ وانتهى في سنة ١٩٤٠ بنسبة ٤٨٪ ولا ندري أين يبلغ الإحصاء بعد هذا ، ولا شك أن النسبة تزداد والقيم الدينية والأخلاقية تنخفض بين هؤلاء المستهترين ، فلا أطهر للقلوب من الرجوع إلى كتاب الله الحكيم والتمسك بما فيه من تعاليم وإرشادات ، والله الذي خلق النفوس وغرايزها وشهواتها ، هو وحده يعلم ما يصلحها ويهديها إلى ما فيه سلامتها في الدنيا والآخرة ، وهو العليم الحكيم الرحيم شرع لنا من الدين ما فيه صلاحنا واستقامة أحوالنا وطهارة قلوبنا من الأدناس والأرجاس .

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُوذُواْ رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنكِحُوٓاْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً ﴾.

وما كان لكم أي لا يصح لكم أن تؤذوا رسول الله ، وهذا أبلغ من النهي وهذه العبارة أبلغ في المعنى من أن لو قال : (وَلاَ تُؤذُوا) فلا ينبغي ولا يليق ولا يصلح أن تؤذوا رسول الله الذي أنقذكم الله به من الكفر وأخرجكم من الظلمات إلى النور ،

فالتعبير برسول الله أبلغ وهو مشعر بهذه المعاني وغيرها فكل ما كان من إيذاء رسول الله إنما هو إيذاء للمرسِل وويل لمن يفعل ذلك .

﴿ وَلاَ أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً ﴾ .

نزلت هذه الآية بعد أن ضرب الحجاب على نساء النبيء وتكلم بعض المنافقين والذين في قلوبهم مرض حتى قال بعضهم : « أننهى أن نكلم بنات أعمامنا إلا من وراء حجاب ؟! والله لئن مات محمد لأتزوجن عائشة » فأنزل الله الآية ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، أي حرم الله عليكم نكاح أزواجه من بعده أبدا لأنهن أمهاتكم ومن ذا الذي يحدث نفسه بنكاح أمه ، وفي هذا الحكم رفع لمقام النبيء حياً وبعد وفاته، وإثبات حرمته وحرمة أزواجه في قلوب المسلمين ، والتحريم مؤبد في الدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً ﴾ .

الإشارة في الآية إلى إيذاء رسول الله وتحديث النفس بنكاح أزواجه من بعده ، فهو أمر فظيع وذنب عظيم عندالله ، وفيه تعظيم لشأن رسول الله ﷺ .

﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْئاً اَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .

في الآية موعظة بليغة وتحذير شديد من ارتكاب الإثم ظاهره وباطنه ، يقول الله تبارك وتعالى إن تبدو شيئاً من الأفعال والأقوال أو تخفوه وتضمروه في نفوسكم أو يناجي به بعضكم بعضاً فإن الله يعلمه ويجازيكم عليه فإن الله كان بكل شئ عليما، وليس المراد هنا مجرد العلم فحسب بل المراد المحاسبة والمجازاة ، ويوجد في اللغة العربية أن جواب الشرط قد يكون ما هو عليه الشئ وسببه ودليله ، وهنا نفهم أن إحاطة علم

الله بكل شئ يقصد منه ما يترتب على ذلك من الجزاء ، والآية تشير إلى ما صدر من بعضهم من الكلام الذي لا يليق بمقام النبيء والذي فيه اعتراض على بعض ما شرع الله مما سبق ذكره ، فالآية وإن نزلت في هذا السبب الخاص غير أن حكمها عام شامل لكل الناس في كل زمان ، فليحذر المؤمنون اطلاع ربهم وعلمه المحيط بأعمالهم وأقوالهم وما يجول في أنفسهم من الخواطر والأحاديث ، وليستغفروا الله ربهم من المخالفات الكبيرة والصغيرة التي لاتكاد تخلو منها نفس .

﴿ لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتَ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

بعد ضرب الحجاب يبين الله تعالى في هذه الآية الأقارب الذين يجوز لنساء النبيء المؤمنات أن يظهرن أمامهم ولا يضربن الحجاب دونهم ، ويحددهم الله تحديداً ، ذلك أنه لما نزلت الآية السابقة في فرض الحجاب تحرج أقارب هؤلاء النساء في الدخول عليهن ، وفهموا أن الحجاب يضرب دونهم وأن الآية تشملهم، فتساءلوا عن الحكم وتحرجوا ، فأنزل الله هذه الآية تستثنيهم من بين سائر الناس الذين تمنعهم الآية من الخطاب إلا من وراء حجاب ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

﴿ لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَآئِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ اِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءَ اِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ اَخَوَاتِهِنَّ وَلاَنِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتَ اَيْمَانُهُنَّ ﴾ .

لا حرج عليهم ولا عليهن في إدخال آبائهن عليهن ويدخل في الآباء الأجداد والجد أب ، ولا أبنائهن وفي معنى الأبناء أبناء الأبناء وأبناء البنات ، ولا إخوانهن الأشقاء أو لأب أو لأم ، ولا أبناء إخوانهن وأبنائهم ، ولا أبناء أخواتهن الشقيقات أو

لأب أو لأم وأبنائهم ، وأمثالهم من الرضاع ، لأنه جاء في الحديث الصحيح : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » ولا نسائهن المؤمنات العفيفات لأن اليهوديات والنصرانيات والمجوسيات والكوافر غير مأمونات على المحصنات المتحجبات العفيفات، فربما يصفنهن للرجال كأنهم ينظرون إليهن وهذا محرم على النساء ، والنساء الكوافر والسافرات لا يتقيدن بهذا التحريم فضَرْبُ الحجاب دونهن واجب .

﴿ وَلَا مَا مَلَكَتَ اَيْمَانُهُنَّ ﴾ .

وهم العبيد الذين يملكنهم ، ولم يذكر الله الأعمام والأخوال في هذه السورة ، وذكر الآباء يغني عن ذكرهم فهم بمنزلة الآباء وقد ثبتت حرمتهم في سورة النساء حيث يقول تبارك وتعالى ﴿ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ ﴾ [النساء/٢٣] وصح مثل هذا المعنى في الأحاديث الصحيحة في النسب والرضاع ، وفي هذه الآيات من هذه السورة وسورة النور وسورة النساء رد على من يريد أن يتحلل من أحكام الله، ويتفلسفون لتحليل ما حرم الله ، والعجب أن من هؤلاء من ينتسب إلى العلم وإلى معرفة الشريعة وما أبعدهم عن الحق بل هم في ضلال بعيد ، إن في هذه الآيات وأمثالها من سورة النور وسورة النساء ردا عليهم وبياناً لأحكام الله بياناً واضحاً لا لبس فيه ، فلا يجوز الاستماع إليهم والاغترار بما يقولون أو يكتبون فكل ذلك من وحي شياطين الجن والإنس ، نسأل الله الثبات على الحق والعصمة من الضلال ، هذا وفي حال الاضطرار كالعلاج والتنجية فيباح من هذا الشأن ما هو محظور، والضرورات تبيح المحظورات ، وديننا والحمد لله يسر ليس بالعسر ، وشريعتنا سمحة لا إصر فيها ، وإنما يجب على أهل التنجية والإنقاذ والأطباء المعالجين والمساعدين في التوليد أن يقوموا

بهذه الأعمال بقلوب بريئة لا ميل فيها إلى الشهوات ، والظروف ليست هي ظروف المتعة والشهوات بل هي ظروف الشفقة والرحمة والإنسانية ، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾ .

جاء هذا التعقيب محكماً متمكناً في هذا الموضع أي تمكن شديد المناسبة لما قبله ، يأمر الله نساء النبيء ومن وراءهن من نساء المؤمنين بتقوى الله وهي الدرع الحصين الواقي من السوء والفحشاء ، هذا بعد أخذ الاحتياطات المتقدمة اللازمة من الحجاب، وعدم الخضوع في القول ، والأمر بغض البصر وحفظ الفروج ، يأتي الأمر بتقوى الله بعد الإذن في المحارم ذوي الأرحام والصهر وما ملكت اليمين ، نعم يأمرهن الله ويوصيهن بتقوى الله بعد الاحتياطات اللازمة وبعد الإذن في الأقارب المخصصين لأن الشيطان للإنسان عدو مبين فقد يوسوس حتى بين ذوي المحارم ، فكثيراً ما سمعنا بوقوع الفاحشة بين الرجل وحليلة ابنه وبين الرجل وابنته وبين الرجل وأخته ، فإذا خلا القلب من تقوى الله فلا يستبعد شيء من ذلك بين الأقارب فجاء الأمر هنا بتقوى الله ومراقبته ضرورة ، وجاء التذييل بهذين الوصفين المناسبين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾ .

والشيء يعم كل حركة وسكون وكل ما خفى وما علن ، إن الله معنا ومحيط بنا علما وشهيدا لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء فأحرى أن يُتقى ويحذر ، ففي هذه الآية موعظة وتذكير للناس ليلتزموا أحكام الله وليجتنبوا باطن الإثم وظاهره والذكرى تنفع المؤمنين .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ
وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ
بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٥٨
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا
يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾

في أثناء الكلام على أحكام بناء الأسرة المسلمة على أسسها المتينة يأتي هذا الإخبار من الله عز وجل بصلاة الله وملائكته على النبيء ، وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه بصيغة مؤكدة ، ويأتي الوعيد من الله باللعنة والعذاب المهين للذين يؤذون الله ورسوله والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، ثم يرجع الحديث إلى بقية أحكام الحجاب الذي يراد به الصيانة والحفظ لأزواج النبيء وبناته ونساء المؤمنين ، ويتوعد الله المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في المدينة بما يتوعدهم به من اللعن

والتقتيل ، كل ذلك ليبين الله لعباده منزلة رسوله عنده وعند الملأ الأعلى حتى نزداد له محبة وتعظيماً واتباعاً لسنته واقتداء به ، ولا نتهاون بأوامره ونواهيه ، فهو إنما يبلغ عن ربه ما أنزل إليه فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله ، ومن آذاه فقد آذى الله ، وفي تخلل هذه الأحكام بآيات الصلاة والسلام على النبيء وقع عظيم في نفوس المؤمنين ، وحكمة بالغة في غرس تعظيمه في قلوبهم حتى نسمع ونطيع ونتقبل ما يُبلغهم من أحكام الله وشرائعه ، إن الله تبارك وتعالى مخبراً وآمراً يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ يَأَيُّهَا الذِينَ ءامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

يأتي الإخبار من الله تعالى مؤكداً حتى لا نشك أن الله وملائكته يصلون على النبيء ويأمرنا أن نصلي عليه نحن الآخرين ونسلم عليه تسليما ، فما هي صلاة الله على النبيء وما هي صلاة الملائكة وما هي الصلاة التي أمرنا نحن بها ؟؟ يقول أهل العلم – ويوجد هذا في شرح عقيدة العزابة – الصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار ومنا دعاء ، وهذا صحيح غير أن الصلاة من الله معنى زائد على الرحمة فلو كان معناها كذلك فكيف يؤول عطفها في سورة البقرة حيث يقول تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة/١٥٦–١٥٧] ويقول سيدنا عمر رضي الله عنه: «نعم العدلان ونعمت العلاوة » والعطف يشعر بالمغايرة أو بمعنى زائد في المعطوف لا يوجد في المعطوف عليه ، وإنما يكون التفسير الذي قاله العلماء معنى تقريبي للأذهان، فلابد أن يكون في صلاة الله على نبيه معنى التنويه والتشريف ورفع لمقام المصلّى عليه زيادة إلى الرحمة، وقال بعض أهل العلم في صلاة الله رفع لمقام النبيء

عند الملأ الأعلى عند ملائكته المقربين ، ولا نصلي على أحد وحده أصالة إلا على نبيء الله ونصلي على آله وصحابته بالتبع ، وآل النبي أهل بيته ويطلق هذا اللفظ على كل مؤمن متبع لسنته ، ملتزم لهديه وطريقته فكيف تكون صلاتنا عليه ؟ بأي صيغة ؟ روي أن الصحابة رضوان الله عليهم لما نزلت الآية قالوا : يا رسول الله ، أما السلام فكما علمنا وأما الصلاة فكيف نصلي عليه ؟ فقال عليه السلام قولوا: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد » ونصلي بصيغة الأمر وبصيغة الماضي فنقول :صلَّى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما هذا إذا ذكر والماضي هنا يفيد معنى الطلب كما نقول: غفر الله لفلان ، ونقول: رحمه الله ورضي الله عنه ، فصلاتنا على النبيء هي أن ندعو الله أن يصلي عليه ، والصيغة الكاملة فيها هي ما علمنا رسول الله ﷺ ، أن نقول : قالوا يا رسول الله : قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك ؟ قال قولوا: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وهل تجب كلما ذكر أو مرة في العمر أو دبر التشهد في الصلاة قبل التسليم ؟ للعلماء في ذلك أقوال ، وإن كنا لا نذهب مذهب المشددين الذين يوجبون الصلاة وجوباً كلما ذكر ولا نحكم بالتخطئة لمن لم يفعل ذلك ولا نتبرأ منه ، فقد تعرض للإنسان الغفلات ولا يكون عاصياً ما لم ينكر فضل الصلاة على النبيء إنكارا ، أما حديث المنبر المشهور في الوعيد على من ذكر عنده اسم النبيء فلم يصل عليه فنتأوله لمن ترك ذلك احتقاراً واستهزاء بالنبيء ﷺ ،

وهذا التأويل مناسب ليسر الإسلام وأنفاس الشريعة السمحة ورأفة النبي بأمته ، ويكفي أن نصلي عليه دبر التشهد في الصلاة قبل التسليم منها ، ونرغب في الصلاة عليه كلما ذكر باسمه محمد أو أحمد ﷺ ، ونستحب ما ذهب إليه شيخنا القطب رحمه الله نستحبه استحباباً ولا نوجبه وهو أن تالي القرآن ينبغي أن يصلي على النبي إذا ذكر باسمه بصوت أخفض من صوت التلاوة وإن لم يفعل ذلك فلا بأس ما دام يدين بالصلاة عليه ويصلي عليه ، وقد ورد في الحديث الشريف « من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا و من صلى علي عشرا صلى الله عليه مائة ومن صلى علي مائة صلى الله عليه ألفاً » وورد فضل إكثار الصلاة عليه يوم الجمعة على الخصوص ، أما السلام عليه فكما علمنا أن نقول في التشهد من الصلاة ، السلام عليك أيها النبيء ورحمة الله وبركاته ، وكذلك نسلم عليه عند المقابلة الشريفة حين نواجه الحجرة الشريفة حيث دفن رسول الله ﷺ ، نسلم عليه ثم نسلم على صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة الكرام أهل الفضل والسبق في الإسلام ونصلي عليه حيثما كنا، فقد جاء في الحديث الشريف : « صلوا عليّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني » . اللهم صل وسلم وبارك على محمد عبدك ورسولك وعلى آله كما صليت وباركت على عبدك إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

﴿ إِنَّ الذِينَ يُوذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّلَهُمْ عَذَاباً مُّهِينًا﴾ .

بعد الأمر بالصلاة على النبيء والسلام عليه يأتي الوعيد الشديد للذين يؤذون الله ورسوله بما تزعزع له القلوب وهو لعنة الله في الدنيا والآخرة لمن فعل ذلك وأعد الله لهم عذاباً فيه الخزي والإهانة جزاء وفاقا، والله جل جلاله أعلى وأعظم من أن ينالـه

أذى المخلوقين إذ لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، ولكن الكفر بالله وبآياته والسخرية بأوليائه ومسهم بأنواع الأذى كل ذلك يعتبر منهم أذى لله سيعذبهم الله عليه وعلى إيذاء رسوله بالتكذيب ورميه بالسحر والشعر والكهانة والافتراء، وهم يؤذون رسول الله في جسده بأنواع الأذى كالضرب والتسميم وأنواع المضايقات ومبارزته بالحرب ويؤذونه في عرضه بألسنة حداد تتكلم فيه وفي أزواجه وأهله ، وجاء في الحديث الشريف في قضية الإفك التي خب فيها المنافقون ووضعوا جاء قوله ﷺ : « من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي» وكان النبي ﷺ يتلقى أنواع الأذى من الكفار والمنافقين ولا يثنيه ذلك عن المضي قدما في تبليغ الدعوة والعمل بما كلفه الله به، ويصبر على أذاهم ويعرض عنه ويصفح ويتوكل على الله كما أمره الله وكفى بالله وكيلا، وكان له من الله عليهم ظهير، ووعده الله أن يعصمه من الناس فهم لن ينالوه في إيمانه ويقينه ولن يبلغ أذاهم صدّ أمر الله فهم أضعف من ذلك وأحقر فهم كما قال الله فيهم :﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَابَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة/٣٢] إن هؤلاء الكفار والمنافقين الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة، واللعن هوالطرد والإبعاد والحرمان ، يحرمون من الألطاف والنفحات والحفظ والعناية التي تكون للمؤمنين ، ويبعدون من رحمات الله التي تخص المؤمنين ، ولا يزالون في ظلمات وقوارع وسخط يؤدي بهم إلى سوء العواقب، وكذلك يلعنهم الله في الآخرة فيطردهم من رحمته ولا يسمع لهم دعاء بل يقول لهم وهم في أطباق جهنم في أشد العذاب:﴿إِخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون/١٠٨] هناك تتجلى لعنة الله في أفظع صورها وقد أعد الله لهم عذاباً مهيناً، يذوقون العذاب

والإهانة وهم فيه مبلسون أذلاء صاغرون ، وهذه الإهانة عقوبة لهم على تعززهم في الدنيا بأموالهم ومراتبهم وتكبرهم وتعاليهم ، وكذلك يقال للواحد منهم وهو في أشد العذاب : ﴿ ذُقِ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان /٤٩] ولا يزال الناس إلى يومنا هذا ولن يزالوا ما بقيت الدنيا يؤذون رسول الله ، ورسول الله منعم بجوار الله منذ أربعة عشر قرناً ، وأذاهم له بالتكذيب برسالته والطعن في شخصه وفي سنته بأنواع المطاعن ، فهم يتكلمون ويكتبون وينشرون الإفتراءات والأكاذيب ، ويُميلون ضعفاء القلوب بزندقتهم وفلسفتهم ، فويل لهم مما تفتريه ألسنتهم وويل لهم مما يكتبون، إن وعيد الله يشملهم وأمثالهم حتى تقوم الساعة ولن تخفى على الله منهم خافية ، ولن يفلتوا من عقاب الله في الدنيا والآخرة ، وكل طعن في شريعة الله وغمز في حدوده وأحكامه وفي أوليائه يكتب عليهم إيذاء لله ولرسوله وينالهم جزاؤه في الدنيا والآخرة .

﴿ وَالذِينَ يُوذُونَ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اَكْتَسَبُواْ فَقَدِ احْتَمَلُواْ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾.

بعد ذكر عقوبة الذين يؤذون الله ورسوله يثني الله تعالى بهذه الآية ليبين عظم مقام المؤمنين والمؤمنات عنده ، وأن منزلتهم تلي منزلة أنبياء الله ورسله ، فالذين يؤذونهم بغير ما اكتسبوا فقد ارتكبوا جرماً فظيعاً واحتملوا بهتاناً عظيماً ، فلينتظروا نفس المصير الذي يصير إليه الذين يؤذون الله ورسوله ، وإيذاء المؤمنين والمؤمنات يكون بالقتل والضرب وأنواع الأذى ، وبالطعن في سيرتهم وسب طريقتهم ، واختلاق أنواع الإفتراءات في أعراضهم ، إنهم يرمونهم بالضلال تارة ، وبالغلو وبالجمود والرجعية ، وقد يرمون رجالهم ونساءهم بالفسق وهم الأعفّاء الطاهرون ، ويرمونهم

بالتخلف وهم الراشدون ويرمونهم بالسفاهة وهم هُمُ السفهاء ولكن لا يعلمون ، ومن غرائب اختلاف الأهواء أنهم كانوا في أول الزمان يرمونهم بالخروج عن طريقة الآباء والأجداد واليوم يرمونهم بالجمود والرجعية والتخلف ، وماذاك إلا لاختلاف أهل الضلال في أهوائهم وأباطيلهم ، أما سبيل الله فهو طريق وسط واحدٌ عليه من نور الحق دليل من الله وبرهان ، والذين يؤذون المؤمنين بغير ما اكتسبوا ، جاء هذا الوصف في ذكر المؤمنين والمؤمنات ليخرج الذين يستحقون الأذى من المؤمنين ببعض ذنوب إذا ارتكبوها فهم يستحقون بها الأذى من إقامة الحدود عليهم وأنواع التأديب ، ومن مقاتلة الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ، وكلام الله حق كله لا اختلاف فيه ، فبقي الوعيد في الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ولكن بظلم وعدوان وافتراء وبهتان فأولئك قد احتملوا بهتاناً عظيماً وإثماً ظاهرا مبيناً ، يستحقون من العقاب ما توعد الله به الذين يؤذون الله ورسوله فويل لهم مما ينتظرهم من سوء العذاب وبئس المصير . وفي هذا الوعيد رفع لمقام المؤمنين والمؤمنات عند الله وتثبيت لهم على ما هم عليه من الحق حتى لا يهنوا ولا يحزنوا ويصبروا على تحمل الأذى وقد وعدهم الله على ذلك وعدا حسنا وقال :﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [آل عمران/١٨٦] وفي الآية تحذير للمؤمنين أن يؤذي بعضهم بعضا بأي نوع من أنواع الأذى ولو بالسخرية والاحتقار ، وجاء في الحديث « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » ففي الآية موعظة للمؤمنين والمؤمنات ، وكل نوع من الأذى فهو مناف لحقيقة الإيمان ، وجاء في الحديث الشريف « المسُلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وجاء أيضاً أنه «لا يُؤْمِنُ من لا يَأْمَنُ جاره بوائقه » فالوعيد في الآية عام لكل من يؤذي

الله ورسوله وكل من يؤذي المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فلنحذر عقاب الله ولنتق سوء العواقب ولنكف أذانا عن المؤمنين والمؤمنات والظلم ظلمات يوم القيامة ، ولنصبر على أذى الناس فإن ذلك من عزم الأمور ، والله نسأله العصمة والتثبيت ونعوذ بالله أن نظلم أو نظلم أو يبغى علينا .

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيءُ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُومِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُوذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ .

نداء من الله جل جلاله لرسوله يأمره بأمر فيه إيجاز بديع يحمل حكما واضحا لا لبس فيه وحكمة بينة فيها العلاج الناجع بل فيه الوقاية الكافية والوقاية خير من العلاج ، وقاية المجتمع المسلم من فتنة المرأة وما ترك الرسول ﷺ بعده فتنة أضر على الرجال من النساء ، ويقيم الله الحواجز بين الرجال والنساء بما يضعه من أحكام وحدود، ولو اتبع الناس تشريع الله ووقفوا عند حدوده و لم يتعدوها لسلم العالم مما يتخبط فيه اليوم من فتن الفسوق والزنا، فهم يحاولون المخرج مما وقعوا فيه ولا نجاة لهم إلا بالرجوع إلى شريعة القرآن ، فهي وحدها الدواء لدائهم ، وهي القانون الذي ينظم العلاقات الجنسية ويحسم البلاء حسما ، يأمر الله نبيئه وقد ناداه باسم النبيء حتى يذكره بمهمته التي هي التبليغ لما أنزل إليه من ربه ، يأمره أن يقول لأزواجه وبناته ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن والإدناء هنا هو الإسبال والسدل وإرخاء الجلابيب على وجوههن وصدورهن ، والجلباب هو اللحاف السابغ الذي يستر المرأة من رأسها إلى قدميها ، وترخيه خلفها شبرا أو ذراعا كما جاء في الأثر الصحيح عن النبيء ﷺ ،

هذا هو الجلباب التي أمرت المرأة بإدنائه وضربه على صدرها حتى يسترها تماماً فتعرف أنها حرة مؤمنة عفيفة ، وليس المقصود أنها تعرف فلانة بنت فلان بل ذلك ينافي الستر والحياء والعفاف بل تعرف أنها متدينة عفيفة فلا يتعرض لها السفهاء من الناس الذين يميلون إلى فعل الفاحشة وهم المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، وهؤلاء لا يخلو منهم زمان حتى زمان النبوة والوحي ، ومتى تسترت المرأة وغضت من صوتها فإن ذلك يؤيسهم منها لأن ذلك من أمارات العفاف والإيمان ، فيعرفون أنها بعيدة المنال فلا يؤذونها بالكلام وما يشبه الكلام من المحاولات ، وقد سارع أمهات المؤمنين وبنات النبيء ونساء المؤمنين إلى امتثال الأمر فألقين عليهن مروطهن وأدنين عليهن جلابيبهن فلا يظهر منهن إلا عين واحدة تبصربها طريقها ، وكن حتى في حالة الإحرام التي تؤمر المرأة فيه بكشف وجهها كن إذا واجهن الرجال يلقين النقاب على وجوههن كذلك جاءت عنهن الروايات الصحيحة ، ولا يزال نساؤنا والحمد لله محافظات على هذا الزي الإسلامي العفيف فليتمسكن بهذه السيرة الحميدة وليمتثلن أمر الله ورسوله .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ .

علم الله أنه لا يسلم أكثر الناس من بعض المخالفات الصادرة منهم في هذا الموضوع إما لجهل وإما لتفريط وتهاون ، وربما يكون بعض العمد فأعلن بمغفرته ورحمته الشاملتين لعباده التائبين المستغفرين ، ففي هذا إرشاد إلى التوبة من المخالفات والإنابة إلى الله وطلب عفوه ومغفرته ، فبين هذه الآية هنا وأختها في سورة النور تكامل وذلك حيث يقول الله تعالى بعد بسط هذه الأحكام في سورة ((النور)) ﴿ وَتُوبُواْ إِلَى اللَّهِ

جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُومِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور/٣١] وما أنسب هذين التذيلين وما أدلهما على سعة عفو الله وعظيم مغفرته ورحمته للتائبين من عباده المؤمنين والمؤمنات! فلولا سعة رحمته ما نجا منهم إلا القليل ، ولكن الله غفور رحيم وباب التوبة مفتوح لعباده التائبين المستغفرين .

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَٰفِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ
بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا
ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي
الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

في الآيات وعيد من الله وتهديد للمنافقين الذين يضمرون الكفر والبغضاء ، ولمرضى القلوب بحب الفجور والزنى الذين يتبعون العورات ويؤذون المؤمنين في نسائهم وبناتهم بالكلام وحب إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، وتهديد أيضاً للمرجفين من هؤلاء وهؤلاء وهم الذين ينشرون مقالة السوء بين الناس في ثلب أعراض المحصنين والمحصنات ، ويشيعون الأراجيف حول غزوات النبيء وسراياه بالطعن وإشاعة الهزيمة، وبث الأخبار المزورة حتى يوقعوا الوهن والخبال في صفوف المؤمنين، والأراجيف : الأخبار التي ترجف القلوب أي تزعزعها وتوقع فيها الشعور بالهزيمة

والضعف ، وهؤلاء موجودون في كل زمان لا يخلو منهم حتى زمان الأنبياء والرسل فتهددهم الله بما تهددهم به وأكد وعيده بلام القسم المكررة ونون التوكيد المشددة حتى يشعروا بغضب الله عليهم وعزمه عليهم ، فينتهوا من كيدهم وفسادهم .

يقول الله عز وجل : لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض الميل إلى الفجور والزنى ، لئن لم ينتهوا عن إفسادهم وإرجافهم في المدينة بإشاعة أقوال الأذى والإفساد وأخبار الهزيمة بين الناس لنغرينك بهم يا محمد ، نحرّشك بهم ونسلطك عليهم ثم لا يجاورونك في المدينة إلا قليلا ، ليتأهبوا للخروج ملعونين مطرودين أذلاء مثلما خرج إخوانهم اليهود ، وفي قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ ﴾ .

إبعادلهم عن جوار رسول الله في الدنيا والآخرة فما أبعدهم عن جواره ولا يستحقون ذلك، أما إن أخفوا نفاقهم فيعرض عنهم في الدنيا وأمرهم إلى الله وليتبئوا يوم القيامة مقاعدهم من النار .

﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُواْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً ﴾ .

مطرودين من رحمة الله مبغوضين ، وهذا الوصف حال من فاعل : يجاورونك أينما أدركوا ووجدوا أخذوا أخذ قهر وغلبة وقتلوا تقتيلا ، والتقتيل أشد من القتل وفيه التنكيل بهم ليكونوا عبرة لغيرهم ، هذا إن لم ينتهوا عن إيذاءهم للمؤمنين والمؤمنات في أعراضهم بالتعرض لحرمهم وإشاعة أخبار الفاحشة عنهم زورا وبهتاناً، وإلقاء الكلام المثبط المفسد للقلوب المرجف للضمائر ، ثم قال تعالى :

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾.

يبين الله تبارك وتعالى حكمه في هؤلاء ويذكر أن ذلك سنته في أمثالهم السالفين من قبلهم، وفي ذلك تثبيت لقلب نبيه والمؤمنين أنهم لايضرهم وجود هؤلاء فهم موجودون في كل زمان وحكم الله فيهم واحد لا يتبدل وهكذا سنن الله ولن تجد لها تبديلا .

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ
سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾
يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ
وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا
فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ
لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

كثر تساؤل الناس عن قيام الساعة وهو فناء الدنيا وانتهاء حياة من فيها فلا يبقى إلا وجه الله الكريم، كثر تساؤلهم عن قيام الساعة منذ أخبرت الأنبياء والرسل بالساعة، إلا أن تساؤلهم على أنواع ، فالمؤمنون يسألون عنها وعن أشراطها وأماراتها سؤال

إشفاق منها حتى يستعدوا لها قبل مجيئها ، والكفار يسألون سؤال استبعاد وتكذيب وسخرية لأنهم يقولون :﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا . . . الآية ﴾ [المؤمنون/٣٧] يكفرون بها ويقولون : الأرحام تدفع والأرض تبلع ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب ، واليهود يسألون سؤال امتحان لأنهم يعلمون أن الساعة لا يعلم موعدها نبيء مرسل ولا ملك مقرب ، فيسألون هذا النبيء عنها وبودهم لو يجيبهم بالتعيين حتى يكذبوه وتكون لهم عليه الحجة والله يعلم ما تكنه صدورهم وصدور الكفار ويعلم مقصد المؤمنين أيضاً فيجيب الجميع ، فيأمر نبيئه أن يقول لهم :

﴿ قَلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ .

قل لهم يا محمد إنما علم الساعة عندالله الواحد القهار لا يعلمها غيره ، ولا مطمع في معرفة موعدها المحدد، هكذا يأتي لفظ الجلالة ها هنا لتعظيم الأمر ولقطع الأطماع عن علمها .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ .

يأتي هذا التساؤل بصيغة المضارع وحين يأتي بهذه الصيغة فلا جواب ، ونعرف من مواضع أخرى من القرآن والأحاديث الصحيحة أن قيام الساعة قريب فعلى المشفقين منها أن يستعدوا لها بالإيمان والعمل الصالح ، ولسنا ندري مقدار هذا القرب ولا تعيين موعدها وكل من ذهب يتكهن لموعدها فهو كاذب يدعي معرفة مالا مطمع له ولا لغيره في معرفته فلنكل أمرها إلى الله ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف/١٨٧] .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاَّ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ ﴾ .

يؤكد الله الخبر أن الله لعن الكافرين وطردهم وأقصاهم من رحمته وأيأسهم منها، والكفر على أنواع : كفر شرك وكفر نفاق ، فالكافرون على اختلاف أنواعهم ومذاهبهم وعقائدهم ومللهم ملعونون أعد الله لهم سعيرا، أي ناراً توقّد ولا ينطفئ ولا يخبو لهيبها ولا يخفف عنهم من عذابها فهم فيها خالدون أبدا لا مطمع لهم في الموت ولا في الخروج منها وذلك الخزي العظيم ، لايجدون وليّاً يمنعهم من العذاب ولا نصيراً يشفع فيهم فيخرجهم منه بعد أن حقت عليهم كلمة العذاب فهم فيه مبلسون .

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ﴾.

أذكر أيها المتعظ بكلام الله ويخاف عذاب الآخرة ، اذكر يوم تقلب وجوههم في النار تشوى ويأتيها العذاب من كل جهة ومكان فهي كاللحم يشوى في التنور أو يتقلب في وسط القدر ، وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب المؤبد وهم أثناء ذلك يصرخون ويجأرون إلى الله يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، يدركون حينئذ سوء تفريطهم في طاعة الله وطاعة رسوله ويودّون لو كانوا أطاعوا الله ورسوله ، ولن تنفعهم ليتُ شيئاً وقالوا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا وهم الملوك والرؤساء والعظماء الذين كانوا يقدمون طاعتهم على طاعة الله ويؤثرون

كلامهم على كلام الله وكلام الرسول في الدنيا كالذين يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف/٢٣] وهو التقليد المذموم الذي يكون حسرة على أصحابه يوم القيامة ولا يزيدهم إلاحسرة ومضاعفة للعذاب ، فهم يدعون الله أن يزيد هؤلاء السادة والكبراء عذابا مضاعفاً يقولون .

﴿ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَثِيراً ﴾ .

يقولون ربنا ءاتهم ضعفين من العذاب على إضلالهم إيانا السبيل الأقوم وليست مضاعفة العذاب على مضليهم بمخففة عليهم شيئاً من العذاب بل يقال لهم : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف/٣٨] يضاعف العذاب على المقلّدين أيضاً جزاء لهم على إهمال عقولهم فلم ينتفعوا بها و لم يميزوا بين الهدى والضلال ، وهذا كفر بنعمة العقل يضاعف الله لهم به العذاب ، فلننظر الحق ولنتبع أهله ولنحذر التقليد الأعمى ، ففي الآية موعظة للمؤمنين يحذرهم من تقليد السادة والكبراء أهل الزيغ والضلال ، وجاء في القراءات السبعة لعنا كثيرا ولعنا كبيرا ومعنى الأول لعنا متكررا لا ينقطع ، ومعنى الثاني لعناً عظيماً شديداً لا رحمة فيه ولا مطمع في النجاة ، والمعنيان صحيحان مرادان ، وهو مشهد فظيع يعرض فيه تخاصم أهل النار وتلاعنهم ، وفي ذلك موعظة وذكرى لنا ونعوذ بالله من مصير أهل الكفر والضلال ، ونسأل الله أن يثبتنا على طاعة الله ورسوله ويعصمنا من التقليد الأعمى بغير هدى من الله .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

يدافع الله تبارك وتعالى عن عبده ورسوله ، فيوجه نداءه إلى المؤمنين ينهاهم أن يؤذوا نبيئه كما آذت بنو إسرائيل نبيئهم موسى على نبئينا وعليه السلام ، ويبين الله مقام عبده ورسوله موسى عنده كما بين مقام ومنزلة عبده ورسوله محمد ﷺ.

﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى: يأيها الذين ءآمنوا لا تؤذوا رسول الله ولا تكونوا كالذين آذوا رسول الله موسى عليه السلام من قبل فبرأه الله مما قالوا ، تُرى ما هو هذا الأذى المقصود هنا ؟ لا شك أنه من نوع الكلام فما هو هذا الكلام المفترى ؟ يذكر كثير من المفسرين قصة هذا الأذى وهي طبعاً من الإسرائيليات ، يقولون إن بني إسرائيل كانوا يصفون موسى بالبرص أو بالإدرة ، والرجل الآدر إذا كان كبير الخصيتين أو إحداهما أكبر من الأخرى وهو نوع من المرض والعيب ، وكانوا يتعرون ويسبحون وموسى كان لا يتعرى وكان شديد الحياء فاتهموه بذلك فبرأه الله من قولهم، وذلك أنه كان يغتسل وقد وضع ثيابه على صخرة فلما أراد أخذ ثيابه هربت الصخرة بإذن الله فتتبعها وهو يقول ثيابي حجر ثيابي حجر ، فمر على قومه عرياناً فرأوه ما به من بأس فبرأه مما قالوا ، يردد كثير من المفسرين هذا القول ويصدقون الرواية الإسرائيلية وأنا أرى بطلانها وأستبعد أن يكشف الله نبيه الوجيه عنده للناس ، والله يأمر بالستر والتستر والحياء ، ولا أرى هذا إلا نوعا من أنواع مطاعن بنى إسرائيل في أنبيائهم وإيذائهم لهم، والعجب من المفسرين الذين يصدقون هذا القول ويتناقلونه وأنبياء الله لهم قداسة عند

ربهم فحاشا لله أن يكشف عوراتهم للناس ، أما الذي نراه فهو غير هذا ، بل نرجح الرواية التي تقول : إن قارون وهو من قوم موسى ومن ذوي قرابته تواطأ مع بغيٍّ من بغاياهم وأغراها بالمال على أن تقول إن موسى راودها وتعلن ذلك في مجمع من بني إسرائيل ،فأعلنت بخلاف ذلك وقالت إن قارون أغراها بالمال على أن تقول إن موسى راودها على الزنا فأخزاهم الله وبرأه الله مما قالوا .

﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ .

وكان له مقام ووجاهة عند الله وملائكته الكرام هذا هو الأنسب بمقام أنبياء الله ورسله ، وهذا الذي نرجحه في معنى الآية ونرى وجاهته وليس الكلام في عيوب الجسم من الأهمية حتى يقع فيه مايقع مما يخل بكرامة أنبياء الله ورسله ، وينهانا الله تعالى عن إيذاء نبينا كما آذى سفهاء بني إسرائيل موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكذلك تكلم المنافقون والكفار واليهود في نبيّنا محمد ﷺ ولا يزالون يطعنون في زواجه النساء وفي نسائه ، وقديما تكلموا في عائشة رضي الله عنها وجاؤا بالإفك وطعنهم في عائشة طعن في النبيء ﷺ لأنها زوجته ، وآذوه بأنواع الأذى ، فقالوا ساحر وقالوا شاعر وقالوا كذاب، وآذوه في جسده غير أن هذا نوع خاص من الأذى كان بالطعن بالكلام من النوع الذي أوذي به نبيء الله موسى على نبيئنا وعليه السلام ، والله مع أنبيائه ورسله في كل زمان ينصرهم ويبرئهم من مقالة الكفار والمنافقين والسفهاء من الناس ، وما كان للمؤمنين الصادقين أن يؤذوا أنبياء الله ورسله فكيف يؤذون من يحبون!

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾
يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ
عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ
مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ
ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ
وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

نداء من الله تبارك وتعالى للمؤمنين أن يتقوا الله ويقولوا قولاً سديدا ، والقول السديد هو الكلام الصواب الصادق الذي أريد به وجه الله ، والكلام الحق الذي يوافق شرع الله ولا يمازجه الباطل ، يأمرنا الله تعالى بخصلتين هما خير الخصال ليجزينا عليهما بخصلتين هما خير الجزاء لنا ، يأمرنا الله أن نعمر قلوبنا بالتقوى والتقوى محلها القلب، ونسدد ألسنتنا بالقول السديد المستقيم فإنه إذا استنار القلب بالتقوى واستقام

اللسان بطيب الكلام وسديد القول استقامت الجوارح كلها كما جاء في الحديث الصحيح وذلك هو صلاح الأعمال، فإذا أصلح الله أعمالنا وغفر ذنوبنا و لم يؤاخذنا بها فذلك هو الفوز العظيم وذلك هو الفلاح المحقق .

﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ .

يأيها الذين ءامنوا بالله وباليوم الآخر اتقوا الله وراقبوه في السر والعلن ، واتقوا سخطه وعقابه وقولوا قولاً سديداً تتحرون فيه الصدق وتريدون به وجه الله ، فإنكم إن فعلتم ذلك أصلح الله أعمالكم أي وفقكم لصالح العمل وأعانكم على إتمامه وتقبله منكم ، وأصلح الله ذات بينكم وألف بين قلوبكم، وكثيراً ما أعان التقوى والصدق على إصلاح ذات البين وسهل الأمر للمصلحين ، وكثيراً ما أخفق المحاولون للإصلاح إذا جانب الخصمان التقوى وأخطأوا القول السديد فحينئذ تضيع جهود المصلحين ، وتمضي الساعات الطوال ويقومون على غير نتيجة ، أو يزداد الأمر تفاقماً ويعظم البلاء وتتسع الشقة بين المتخاصمين ، فإنا بلونا هذه الأمور فوجدنا تقوى الله والقول السديد خير معين على إصلاح ذات البين وإزالة ما بين المتشاجرين من العداوة والجفاء فأصلحوا قلوبكم بالتقوى وألسنتكم بالقول السديد يصلح الله أعمالكم ويغفرلكم ذنوبكم . ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيمًا ﴾ .

يثني الله تبارك وتعالى على أهل الطاعة ويتوعدهم بالفوز العظيم وهو الخلود في الجنة منعمين فيها بنعيمها ورضوان الله ، ذلك بأنهم أطاعوا الله ورسوله ، وهذا في

مقابلة ما أعد الله من العذاب للذين عصوا الله ورسوله ويودون لو أنهم كانوا أطاعوا الله والرسول ، وبهذه المناظرة الرائعة يظهر عظم الفوز العظيم الذي أعده الله للمؤمنين الذين فازوا بطاعة الله والرسول ، وجاء التعبير بالماضي لتحقق الوعد الآتي فكأنه قد وقع .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ .

تكلم أهل التفسير في هذه الأمانة المعروضة على السماوات والأرض والجبال ما هي ؟ وتكلموا في كيفية العرض فقال فريق منهم هي أمانة المال ، وقيل هي العقل وسائر الجوارح ، وقيل هو العهد الذي أخذه الله على آدم وذريته ، وقال الجمهور هي أمانة التكاليف والواجبات التي أوجبها الله على عباده وعلق عليها الوعد والوعيد ، وهو الذي نراه ونرجحه ، وقال فريق في عرض هذه الأمانة أن المراد منه بيان عظم هذه الأمانة وثقلها وأن السموات والأرض والجبال لا تقدر على تحملها بحيث لو عرضت عليهن لأبينها وهو الذي نراه ، فالمسألة فيها تمثيل وتصوير للمعنوي في صورة المحسوس، وقال فريق آخر هو عرض حقيقي على السماوات والأرض والجبال فقالت: يارب ما لمن تحملها وأداها على وجهها ؟ قال : الجنة ومن ضيعها و لم يؤدها فله عقاب الله بالنار ، فقالت لا نستطيع وأشفقن منها ، أي خفن المحاسبة والمعاقبة على تضييعها، والذي نراه في هذا العرض أنه ضرب مثل من الله لنفهم ثقل هذه الأمانة ونفهم تكريم الله للإنسان وتخصيصه بنور العقل وتمييزه بالإرادة والاختيار ، وفي القرآن نظائر لهذا

التمثيل ، ومن ذلك قوله تبارك وتعالى في سورة الحشر :﴿ لَوَ اَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّه ٠٠٠٠ الآية ﴾ [الحشر/٢٢] وقوله تعالى في سورة فصلت : ﴿ قُلَ اِئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ الاَرضَ فِي يَوْمَيْنِ ٠٠٠ إلى قوله: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَىَ السَّماءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلاَرْض اِيتِيَا طَوْعاً اَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت /٩-١١] وقوله تعالى :﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ اِذاَ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل /٤٠] فليس ثمة كاف ولا نون ولكنه تمثيل لقدرة الله إذا تعلقت بشئ فإنه يكون كما أراد الله ، وهذا ليظهر الله ثقل الأمانة ليستعد الإنسان لتحملها وأدائها ، وفي استطاعته القيام بها لما خصصه به الله من نور العقل وأعطاه ملكة التمييز والاختيار، وأرسل الله الرسل وأنزل الكتب هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

﴿ وَحَملَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ .

تكلم أهل التفسير في معنى حمل الإنسان لهذه الأمانة العظمى هل هو جنس الانسان حيث كان ؟ أم هو أبو البشر أبونا آدم عليه السلام فمنهم من قال : هو أبونا آدم عليه السلام عرضت عليه أمانة التكليف العظمى فحملها هو وبنوه ، ومنهم من قال هو الإنسان من حيث هو جنس الإنسان ، ووصفه بالظلوم الجهول لا في تحملها بل في تضييعها وعدم تقديرها حق قدرها إلامن رحم ربك ، حمّلها الله إياه بما كرمه به من نور العقل ومنحه إياه من الاختيار فظلمها و لم يحسن أداءها وجهل حق قدرها فضيعها ، وهذا هو المعنى الذي نرجحه و لم يكن هنا عرض الأمانة على أبينا آدم ولا على أحد من ذريته وإنما هو تكليف من الله لهذا الجنس بما أودعه فيه من الاستطاعة

على ذلك ، وهو أيضاً تشريف له ورفع لمقامه وتهيئة له لينال أفضل الجزاء عند الله إن هو أحسن القيام بها ، هذا ما ظهر لي من معنى الآية ورجحته بعد إعمال الفكر وبعد الاطلاع على بعض التفاسير والله أعلم .

﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا ﴾ .

ختم الله السورة بهذه الآية الكريمة التي هي شديدة الوقع في نفوس المؤمنين والمؤمنات ولها اتصال وثيق ببداية السورة ، ففي بدايتها يأمر الله نبيه بتقوى الله وينهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين ، وفي خاتمتها يبين الله عاقبة الكافرين والمنافقين وعاقبة المؤمنين ، ذلك أن الكافرين المشركين والمنافقين ظلموا وجهلوا و لم يقوموا بأمانة الله وضيعوها فعذبهم الله على ذلك، أما المؤمنون والمؤمنات فقد أحسنوا تحمل الأمانة وحافظوا عليها فتاب الله عليهم وكان الله غفوراً يغفر لعباده المؤمنين التائبين ويرحمهم، ورحمته قريب من المحسنين ، فهم يدخلون جنته برحمته ويتقاسمونها بأعمالهم ، وفي هذه المقابلة بين جزاء الكفار والمنافقين وجزاء المؤمنين والمؤمنات موعظة بليغة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ، جعلنا الله من الذين يلقون السمع وينتفعون بمواعظ القرآن ، وشملنا بمغفرته ورحمته ، وتاب علينا إنه هو التواب الرحيم، وأعاننا على تحمل الأمانة وأدائها على النحو الذي يحبه ويرضيه عنا آمين والحمد لله رب العالمين .

سورة
سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

تفسير سورة سبأ وهي مكية وآياتها أربعة وخمسون

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ
فِي ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ
ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ
مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ

ٱلۡحَمِيدِ ٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ
يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧
أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ
فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ
وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ
أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٩

سميت السورة بهذا الاسم لأنها تناولت أخبار هذه الأمة التي تسمى سبأ ، وهم سكان اليمن وسيأتي بسط خبرهم في أثناء تفسير آياتها، والسورة تتناول أمر العقيدة وأخبار بعض الأنبياء والرسل وبعض الأمم مما فيه العبرة ، وفيها التركيز على الإيمان بالله واليوم الآخر وإلفات العباد إلى آيات ربهم التي تدل على وجوده وكمال قدرته وعلمه وإحاطته بكل شئ ، وفيها التعرض لبعض شبه المشركين والرد عليها ، وفيها الوعد والوعيد والتخويف والإنذار، وهي تعالج المواضيع التي تعنى بها السور المكية، وقد افتتحت السورة بالحمد كالتي تليها :

﴿ **الْحَمْدُ لِلهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** ﴾.

الحمد هو الثناء الجميل على الخصال الكاملة من الفضائل والفواضل ، ويقال تعبداً ويقال شكرا للمنعم على النعم ، والألف واللام للحقيقة لا للعهد فالحمد الحقيقي كله لله وحده، وهو المستحق للحمد وكل حمد لمن سواه إنما هو منبثق من حمده وراجع إليه ، فما اكتسب غيره حمداً وما جبل على محمود إلا بتوفيقه وعونه وتسديده ، فهو الواهب للمحامد لمن شاء وكذلك يقول أهل الجنة حين يصيرون إليها ﴿ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف/٤٣] الذي له ما في السماوات وما في الأرض إيجاداً وخلقاً وتصرفاً وملكاً ، فالكل خلقه وملكه ، له الحمد والنعمة وله الملك .

﴿ **وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ** ﴾ . له الحمد في الأولى تعبداً وقياماً بالواجب ، وله الحمد في الآخرة اعترافاً بالجميل فهو يستحق الحمد على إيصال الثواب لأهل السعادة ، وله الحمد على إيصال العقاب لأهل الشقاوة ، له الحمد دائماً في الدنيا والآخرة .

﴿ **وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾. الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها ، الخبير الذي أحاط علماً وخبرة بجميع الأمور خفيها وجليها ، وكل حكمة أو معرفة في عباده إنما هي قطرة من بحار حكمته وعلمه وخبرته ﴿ يُوتِي الْحِكْمَةَ مَن يَّشَاءُ ﴾ [البقرة/٢٦٩] فهو واهب الحكمة معلم العلم لمن يشاء من عباده.

﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ**

الْغَفُورُ﴾ .

ألفاظ موجزة تحمل معاني عظيمة وكثيرة تجف البحار وتبلى الأقلام وتكل الألسن دون حصرها ، والوقوف على منتهى حقيقتها وأنى لنا أن نحصي ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وإن قال أهل التفسير ما قالوا . قالوا يعلم ما يلج في الأرض من الماء والبذور والأحياء والأموات ، وكذلك ما يلج فيها من أشعة الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب ، وما ينزل من السماء من المياه والأمور والملائكة والوحي والأقدار حلوها ومرها ، وما يعرج فيها من أعمال العباد والدعوات والأرواح والكلمات الطيبات وسائر الأمور التي لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى :

﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ . هو الرحيم الذي وسعت رحمته كل شئ الغفور الذي ما من ذنب عظيم إلا ومغفرته أعظم منه ، وذكر هذين الوصفين مناسب جدا بعد ذكر إحاطة علمه وقدرته بكل شئ ، وقد ورد في الأثر من تسبيح الملائكة « سبحانك وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك سبحانك وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك » ولولا رحمة الله ومغفرته لنا لكنا هلكنا بغفلاتنا عن آيات الله التي نمر عليها ونعرض عنها قال الله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف/١٠٥] جاء هذا التعقيب مناسبا لما سبق من ذكر آيات الله العظيمة وإحاطة علمه بها وكثرة نعمه التي يستحق عليها الحمد والشكر ، ونحن غافلون عن آيات الله، مقصرون في إحصاء محامد الله ، وفي شكر نعم الله ضعفاء على القيام بحقه العظيم ، إن الله هو الغفور الرحيم الذي يعفو عن التقصير ،

ويغفر الذنب الكبير ، ويعامل عباده المؤمنين برحمته وفضله لا بعدله ، ولو عاملهم بعدله لهلكوا ، فما ألطف وقع هذين الوصفين على قلوب المشفقين من عباده أولي الألباب ! .

﴿ وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَاتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَاتِيَنَّكُمْ عَالِمُ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الاَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ لِّيَجْزِيَ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالذِينَ سَعَوْاْ فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِن رِّجْزٍ اَلِيمٍ وَيَرَى الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ الذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .

يذكر الله قول الذين كفروا بالله واليوم الآخر وإنكارهم للبعث ثم يرد عليهم ردا محكما فيه قمع لهم ، وإبطال لافتراءاتهم وشبههم التي يلقونها في الناس ليصدوهم عن سبيل الله والعمل لما بعد الموت ، وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة ، أنكروا قيام الساعة وقالوا لا تأتينا أبدا ، والساعة هي فناء الدنيا عند النفخة الأولى : نفخة الصعق ثم النفخة الثانية وهي نفخة البعث بعد الفناء ، هذا ما ينكره الكفار ويستبعدون رجوع الحياة في العظام البالية ، فرد الله عليهم في آيات كثيرة بأنواع من الردود في كثير منها ضرب الأمثلة التي توضح ذلك وتبيّن إمكان وقوعه ، وهنا يقسم الله فيأمر نبيه أن يقسم لهم بالله .

﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَاتِيَنَّكُمْ ﴾ . قل يا محمد لهؤلاء الكفار المنكرين للبعث بلى وربي لتأتينكم الساعة الموعودة وليأتينكم البعث ، والذي حدد موعدها وأخفاه عن خلقه هو الله عالم الغيب لا يعزب عنه ، أي لا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض

ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، في هذه الآية تصوير غريب لإحاطة علم الله بكل شئ في السماوات والأرض حتى الذرة التي كان الناس يعتقدون أنها أصغر شئ في الوجود ولا يمكن تقسيمها إلى أجزاء ، فجاء العلم الحديث بإمكان تقسيمها إلى أجزاء كثيرة ، وقبلهم ببضعة عشر قرناً يصرح القرآن فيقول .

﴿ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ .

أي كتاب هذا ؟ هو الكتاب الأم وهو اللوح المحفوظ الذي أمر الله القلم أن يكتب فيه ما هو كائن في علم الله ، وفيه سجل موعد قيام الساعة بضبط لا لبس فيه ولا خفاء فهي لا بد واقعة في موعدها المحدد لا يعلم وقتها إلا الله ، والمؤمنون مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ثم ذكر الله الغرض من قيام الساعة فقال :

﴿ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .

ليجزي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من أداء الفرائض والسنن وسائر القربات واجتناب الآثام والموبقات ، وبهذا يتحقق الإيمان ويكمل ولا يتم إلا بالعمل الصالح ، هؤلاء يجزيهم الله ويزيدهم من فضله والساعة تكون لهم موعدا محبوبا ينتظرونه بشوق ، وهم الذين يسعدون بقيامها ، وقد أعد الله لهم مغفرة لذنوبهم ورزقاً كريما في دار كرامته لا ينفد ولا يفنى، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ، هذا بالنسبة للذين آمنوا وعملوا الصالحات أما بالنسبة لغيرهم فلهم ما في الآية التالية من الوعيد الشديد .

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول الله تعالى : والذين سعوا في آياتنا مراغمين ينكرونها ويكذبون بها ويقولون أساطير الأولين ويعرضون عن آيات الله المجلوة في الأكوان أولئك لهم عذاب من أسوء العذاب ، شديد الألم لا يفتر جزاء لهم على معاجزتهم لآيات الله .

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .

يرى بعض المفسرين أن هذه الجملة في محل نصب ، أي وليرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق رؤية علم اليقين عند قيام الساعة وقيام الناس لرب العالمين، وهذا وإن كان وجيها ولكن نرى ونرجح أن تكون الجملة مستأنفة والفعل مرفوع ، أي ويرى الذين أوتو العلم رؤية علم وإيمان في الدنيا والآخرة أن الذي أنزل إليك من الكتاب من ربك هو الحق، وجاء ضمير الفصل هنا لتوكيد الخبر، والذين أوتوا العلم النافع هم الذين أنار الله بصائرهم بما آتاهم من العلم فرأوا الحق رؤية واضحة يقينية وهم العلماء الحقيقيون ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر/٢٨] ثم وصف الله الحق بالهداية إلى الصراط المستقيم فقال :

﴿ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ . كتاب الله الذي هو الحق يهدي من اتبعه إلى صراط الله المستقيم ، صراط العزيز الذي يَغْلِبُ ولا يُغالَب ويقهر ولا يُقهر ، الحميد الذي اتصف بالكمالات المحمود في الدنيا والآخرة، جاء التذييل بهذين الوصفين لصدق دلالتهما على المقصود ، فالصراط المستقيم الذي يؤدي إلى الفلاح لا يضعه إلا العزيز الحميد عالم الغيب ، أما الضعيف المقهور فلا يحسن وضعه لأنه يؤثر عليه

السلطان بالقهر ، فلا يضع إلا ما يوافق هوى من يهابهم ويخشى بأسهم وسطوتهم فلا ثقة مطلقا بتشريعه ، وكذلك الذي في طبعه اللؤم والحسد والمكر وحب الشر للناس فلا يمكن أن يضع لهم من القوانين إلا ما يضرهم ويلقي بهم في المهالك ، لكن الله العزيز الحميد يهدي الناس إلى الصراط المستقيم الذي يكون سلوكه رحمة لهم ونهايته الفلاح المحقق ، والحميد يهدي إلى العواقب الحميدة فالذين يرون كتاب الله هو الحق الهادي إلى صراط العزيز الحميد هم أولوا العلم ، والذين يزعمون أنهم من أولي العلم و لم يهتدوا بكتاب الله أولئك هم السفهاء ، ففي الآية تعريض بهم وذم لهم وحشر لهم في صفوف الجهال وتبّاً لعلم لا يهدي صاحبه إلى الحق ! سيكون حسرة وندامة على صاحبه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ ﴾.

يحكي الله قول الكفرة المنكرين للبعث وهم لفرط مكرهم يوردون على صيغة التهكم والسخرية لإيثار تعجب الآخرين وسخريتهم قالوا :

﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

يقول الذين كفروا لأقوامهم وللناس القادمين إلى مكة هل ندلكم على رجل مجنون ينبئكم بنبإ عجيب ، يزعم أنكم تعودون خلقا جديدا بعد ما بليت عظامكم ومزقت في البر والبحر كل ممزق وبليت واختلطت بالتراب إنه يزعم أنكم تبعثون وتعود فيكم الحياة ، افترى على الله كذبا أم به جنة ، استفهام يراد به إثبات أحد الأمرين الإفتراء أو الجنون أي أهو مفتر على الله الكذب أم به جنون ؟، فرد الله عليهم

وفضحهم وسخّف عقولهم ودافع عن رسوله فقال :

﴿ بَلِ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ ﴾ .

كلا ليس الأمر كما تقولون ، ليس كذابا ولا مجنوناً بل قد عرفتموه عاقلا أميناً صادقاً ، وقد عاش فيكم زمناً طويلاً فليس الأمر كما يزعمون بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ، قرن الله عليهم بين العذاب والضلال البعيد ، أما الضلال البعيد فهو البعد عن الصراط المستقيم الذي لا يرجى رجوعه إلى الحق لإغراقه في البعد ، فإن الضال إذا كان قريباً من الطريق ربما يبصر بعض المارة أو يسمع النداء فيرجع ، أما البعيد فكلما ازداد انقطع منه الرجاء ، أما العذاب فمن المفسرين من يجعله عذاب الآخرة ، وبدأ الله بذكره لأنه عاقبة الضلال فهو متصل به اتصال المسبب بسببه، وللزجر والوعيد كان ذكره مسبقاً ، وأرى أن المراد بالعذاب هنا هو عذاب النفس الذي يلازم الضلال من الكفار والمنافقين ، لأن الكفار تصيبهم الكوارث والرزايا والبلايا ولا يدركون من الدنيا ما يريدون ، ولا يصبرون لها لأنهم لا يؤمنون بالآخرة فيرجون فيها الخلف وحسن العاقبة ، فيلعنون حظوظهم في الدنيا وكثيراً ما يفضي بهم الجزع والهلع إلى الانتحار المادي فيقتلون أنفسهم أو الانتحار المعنوي فيلقون أنفسهم في الموبقات من الفواحش والسكر والمخدرات والانسلاخ الكلي من الأخلاق الإنسانية، فتراهم مثل الوحوش والبهائم متسكعين في الطرقات والساحات ، مشتتين في الزوايا وقد يئسوا من السعادة وسئموا الحياة وسئمتهم ونبذتهم كما تنبذ القمامات في المزابل، وضمائرهم تلعن الحياة وأهلها فذلك هو العذاب ، أما المنافقون فهم معذبون أيضاً لأن ضمائرهم غير مطمئنة لما هي عليه من النفاق فهم يعلمون أنهم في

ضلال وأن عاقبتهم وخيمة ، وقد يضئ نور الحق في قلوبهم وسرعان ما ينطفئ لفساد طواياهم ونغل قلوبهم فينكصون على رؤسهم وينهزمون أمام داعي الحق ، ولا يطيقون حمل أنفسهم عليه لما فيها من انحراف وضلال، فهم المعذبون لأنهم في ظلماتهم يعمهون ، وقد ضرب الله لهم مثلا في أوائل سورة البقرة حيث يقول :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُومِنِينَ ﴾ حتى يقول : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِي اِسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُميٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة/٨-٢٠] وكفى بهذا عذاباً للمنافقين ، إنهم في حيرة وارتباك ويعلمون في قرار نفوسهم أن الله ساخط عليهم ينزل عليهم آيات كما تنزل الصواعق وأن وعيد آيات الله عليهم لا بد واقع إن لم يتوبوا . هذا الذي أرجحه وأراه في تفسير عذاب الذين لا يؤمنون بالآخرة من الكفار والمنافقين ، وكفى بهذا تسلية للرسول ﷺ وللمؤمنين وموعظة وذكرى للناس أجمعين .

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ انَّ فِي ذَلِكَ لأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى : أعمي هؤلاء الكفار فلم يروا إلى مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، أفلم ينظروا إلى آيات الله في السماء وآيات الله في الأرض ، أينما

توجهوا يرونها فهي قدامهم وخلفهم هي محيطة بهم تدل بعظمتها وسعتها وما فيها من آيات الله على عظمة الله وقدرته على كل شئ ، أفلا يكفي ذلك دليلا على قدرة الله على بعث العباد بعد الموت وحشرهم ليوم الجمع ، أفلا يخافون أن نخسف بهم الأرض فتبلعهم أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ، أي نيازك تسقط عليهم وعذاباً يصيبهم من فوقهم أو عذاباً يصيبهم من تحت أرجلهم عقوبة لهم على تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عن نذره . إن في ذلك أي إن في آيات الله في السماء وآياته في الأرض لآية مرشدة لكل عبد منيب ، رجاع إلى الله تواب له أواب ، والإنابة هي الرجوع بعد الغفلة والنسيان وتلك هي طبيعة المؤمنين بالله واليوم الآخر ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المنيبين إليه الذين يتعظون بآيات الله في السماء والأرض .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا
يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ
سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ
وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ

وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ
عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ
مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ
الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

يقص الله على نبيه وعلينا قصة داود عليه السلام في هذه الآيات ويذكره إفضاله وإنعامه عليه كما يذكر إفضاله وإنعامه على ولده سليمان ، كل ذلك ليعلم أهل الكتاب وغيرهم أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وقد أفاض من فضله على نبيه محمد ﷺ فلا ينكره إلا حسود مكابر .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ .

الخبر مؤكد بمؤكدين والفعل مقرون بنون العظمة .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ﴾ .

والفضل من الله لعبده داوود ، فهو ليس أمرا مكتسبا بل هو أمر موهوب من عند الله تفضلا على عبده داوود والله يعلم حيث يجعل فضله ورسالته ، فهذا الفضل هو النبوءة والحكمة وفصل الخطاب ، وتسبيح الجبال والطير معه والصوت الحسن والملك وإلانة الحديد والولد الصالح وهو سليمان ، وقد قال الله فيهما ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً

وَعِلْماً ﴾ [الأنبياء/٧٩] وقالا : ﴿ الذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُؤمِنِينَ ﴾ [النمل/١٥] فقد فضلهما الله تعالى على كثير من عباده المؤمنين لا على كل المؤمنين ، ففضل نبيئنا محمد ﷺ أعظم إذ هو إمام الأنبياء أجمعين ، ورفعه الله ليلة الإسراء والمعراج منزلة لم ينلها ملك ولا بشر ، وكان فضل الله عليه عظيما ، وكذلك يرفع الله بعض أنبيائه درجات ويفضل بعض رسله على بعض ويقول الله هنا :

﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ .

أى يا أيتها الجبال ويا أيتها الطيور رجعي تسبيحك مع عبدنا داوود ، فكان يسبح الله والجبال والطير تسبح معه ، وتجتمع الطير أسرابا فوق رأسه وترجع تسبيحه مسبحة لله ، وليس تسبيح الجبال معه هو رجع الصدى المعروف إذ ليس في ذلك معجزة ولا فضل ، بل هو تسبيح خاص مقترن بتسبيحه ممتثلة بذلك أمر ربها كما تفعل الطير ، أنطقها الله الذي أنطق كل شئ ثم قال تبارك وتعالى :

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ . أي وجعلنا الحديد الصلب ليّنا في يدي عبدنا داوود ليصنع به الدروع السابغات الواقيات البأس عند القتال ، وهذا من الله فضل ونعمة والله على كل شئ قدير .

﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ .

أنْ هذه تفسيرية أي أوحى الله إليه ياداوود اعمل بالحديد المُلان دروعا سابغات تغطي جسم لابسها وتقيه البأس، وقدِّر في السرد ، أي وضيق حلق الدروع المتابعة حتى

لا تنفذ منها السيوف والرماح ، والسرد هو التتابع ، وقد علمه الله هذه الصنعة ليعيش من كسب يده وخير ما أكل الرجل من كسب وصنع يده ، وفي هذا إرشاد من الله لنا إلى العمل لطلب الرزق ، وإلى العمل لاتقاء البأس في القتال وغيره ، وهذا لاينافي التوكل بل هو عين التوكل أن تأتي الأسباب المشروعة ثم تتوكل على الله مسبب الأسباب ، وقيل إن داوود عليه السلام خرج يمشي في الليل يتفقد أحوال رعيته ويعس فوجد رجلين يقول أحدهما للآخر : ما تقول في داوود فقال : نعم العبد لولا أنه يأكل من بيت المال ، وهما ملكان في صورة رجلين فوقع هذا الكلام في قلب داوود فعزم على أن يعمل بيده لكسب قوته، فألان الله له الحديد وعلمه صنعة الدروع ذوات الحلق المسرودة ، وهي أحسن ما استلأم به المحارب تقيه البأس وتطاوعه على الحركة ، فكان داود يصنعها ويبيع وينفق على نفسه وعياله ويتصدق بفضل كسبه على الفقراء والمساكين ، وهذا فضل من الله عليه ونعمة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَاعْمَلُواْ صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

أمر من الله تبارك وتعالى بصيغة الجمع لداود وآل بيته ومن معه من رعيته كما سيأتي بعد قوله .

﴿ اِعْمَلُواْ آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ .

اعملوا صالحا ، أي ليكن عملكم صالحا موافقا للشريعة مما يرضي الله ، واتقوا الله إن الله بما تعملون بصير لا تخفى عليه أعمالكم ، وفي هذا إنذار وتحذير لداود ومن

معه من الطغيان والعصيان ، وهذا نظير قوله تبارك وتعالى في سورة هود مخاطبا لنبيئه محمد ﷺ ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود/١١٢] وما أشد وقع هذا التذييل في قلوب الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر !

ثم قال تعالى :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

أي وسخرنا لسليمان الريح تجري بأمره تحمل بساطه بمن فيه وتسافر به في سرعة غدوها شهر ورواحها شهر ، أي يقطع في سفرته أول النهار مسافة بعيدة تقدر بسير الإبل بمسيرة شهر ، وعند رجوعه في الرواح مثل ذلك، ويقول في موضع من القرآن ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ [الأنبياء/٨١] ويقول في موضع آخر في وصفها ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص/٣٦] فما وجه الجمع بين هذين الوصفين المختلفين ؟ إن أحسن ما يقال فيما يبدو أنهما في حالتين مختلفتين ، فتكون الريح عاصفة في إقلاع البساط من الأرض للطيران ، وتكون رخاء إذا استوت في مسارها في السماء، ولذا يأتي ذكر الجري هنا حيث يقصد سليمان : تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، وكذلك يكون حال الطائرات تحتاج عند إقلاعها إلى قوّةَ عظيمة للدفع تستهلك كمية كبيرة من البنزين وعندما تستوي سائرة في السماء يقل استهلاكها

للبنزين وتنقص من قوى محركاتها فتكون ريحها رخاء ، وكذلك الصواريخ عند إقلاعها تكون عاصفة وعند استواها في السماء لا تحتاج إلى تلك القوى التي تنطلق بها ، وهذا أمر يعرفه الطيارون ، ولا يخفى على من عنده إلمام بالجاذبية وتأثيرها في مختلف أجواء السماء ، وتسخير الريح لنبيء الله سليمان عليه السلام معجزة تناسب عظمة ملكه الذي آتاه الله فقد سخر له الله مع الريح جنودا من الجن والإنس والطير والوحوش تعمل بين يديه ما يشاء تسخيرا من الله ، وأعطاه مع هذه الأشياء تواضع النفس وشكر النعم للمنعم ، وآتاه الله حكما وعلما وجعله من عباده الصالحين ، وجعله الله أسوة حسنة لملوك الأرض ، وأقام به الحجة عليهم أن الملك مهما كان كبيرا فهو لا يشغل صاحبه عن عبادة الله وشكر نعمه والقنوت لله والتواضع لعباده ، فعليه وعلى أبيه داود وعلى نبيئنا محمد أفضل الصلوات وأزكى التسليم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

ثم إن الله تعالى أسال له عين النحاس المذاب قال تعالى :

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾

كل ذلك مسند إلى نون العظمة : تسخير الريح وإسالة معدن القطر المصهور ومن يقدر على ذلك غير العليم القدير ، أمور تناسب عظمة الملك وقد بعث داود وسليمان بالسيف وذلك يقتضي قوة البأس ، وقد جعل الله في الحديد البأس الشديد ومنافع للناس وكذلك النحاس ، وقد يطعم الحديد بالنحاس كما فعل ذو القرنين في بناء السد بين الصدفين ، أوقد النار على زير الحديد ثم أفرغ عليه قطرا ليلتحم ويتماسك فلا

يستطيعوا له نقبا، كذلك سخر الله عين القطر وأسالها لعبده سليمان فضلا منه ونعمة وسخر له الجن ، قال تعالى :

﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ .

أي وسخرنا لسليمان من عبادنا من الجن من يقوم بين يديه بما يكلفه به من أعمال كبيرة كل ذلك بإذن ربه وتسخيره ، ومن يزغ منهم عن أمرنا أي من يعص منهم وينحرف عما أمرناه به نذقه من عذاب السعير عذاب يعذبهم به سليمان ، كان يقيدهم بالحديد ويعذبهم بأمر ربه ، روي أنه كان مع سليمان ملك من ملائكة الله يأمره سليمان بضرب هؤلاء المقرنين في الأصفاد بسياط من نار ، هذا في الدنيا ويعذب الله الزائغين إن لم يتوبوا يذيقهم يوم القيامة من عذاب السعير ، ثم يذكر الله تعالى أنواع الأعمال التي يعملونها في هذه الآية وفي غيرها من الآيات من كتابه ، وهي أعمال عظيمة تناسب عظمة الملك ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ .

سخر الله شياطين الجن يعملون لنبيئه سليمان ما يشاء إنجازه من محاريب ، والمحراب بنيان وبيت العبادة ، وتماثيل وهي صور مصنوعة من نحاس وزجاج أو منحوتة لأناس صالحين ليراهم الناس فيقتدوا بهم ، وكان هذا مباحا في شريعة نبيء الله سليمان عليه السلام وحرم في شريعتنا ، وصح عن النبيء ﷺ أنه قال « لعن الله المصورين والمصورات.... الحديث » وجاء أيضا أنهم يكلفون يوم القيامة أن ينفخوا

فيها الروح وليسوا بنافخين ، وهذا إشارة إلى استمرار العذاب ودوامه عليهم ، هذا في شريعتنا أما شريعة سليمان عليه السلام فكان ذلك مباحا لهم والمحرمات على نوعين : نوع يحرمه الله لخبثه ومضرته للناس ، وهذا يطرد تحريمه في جميع الشرائع ، ونوع يحرمه الله لمعنى من المعاني ولحكمة يعلمها هو فيحرمه في شريعة دون أخرى أو يحله كذلك ، ولله الحكمة البالغة والله يعلم مالا نعلم وهو العليم الحكيم ، ثم قال تعالى:

﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ .

ويصنع الجن المسخرون لسليمان جفانا عظيمة كأنها حياض المياه لكبرها ، وقدورا كبيرة راسيات ثابتات لا تتحرك لكبرها ، تطعم منها مآت الالآف من جنود سليمان ومن الوفود وأعيان المملكة والفقراء والمساكين ، وروي أنه لما أتم بناء بيت المقدس أو لم وليمة ذبح فيها اثنتي عشر ألف بقرة ومائة وعشرين ألف شاة ، وقد يكون هذا صحيحا في حق ملك لا ينبغي لأحد من بعده ، وأنبياء الله معدن السخاء والكرم.

﴿ اِعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُدَ شُكْراً ﴾ .

خطاب من ربنا تبارك وتعالى لآل داود وهم داود وأولاده وأهل بيته يأمرهم أن يعملوا شكرا الله الذي أنعم عليهم بنعمة الإسلام والملك والغلبة والنصر ونعم كثيرة لا تحصى ، وفي هذه الآية تنبيه إلى أن الشكر يكون بالعمل وذلك باستعمال النعم فيما خلقت من أجله حيث يأمر المنعم ، لا بكلام يردده اللسان وإن في ترداد الحمد والشكر باللسان نوعا من الشكر ، لكن الشكر المهم يكون بالأعمال الصالحة وهو برهان على صدق شكر اللسان ، إذلا ينفع كلام اللسان إذا كفر صاحبه في الأعمال ، وما أيسر أن

تردد كلمات ثم تذهب بأعمالك في مذاهب الهوى تتبع خطوات الشيطان ، وربما يكثر الشاكرون باللسان ولكن الذين يصدقون أقوالهم بشكر الأعمال تجدهم قليلا لأن هذا يحتاج إلى اليقين وعزيمة الصبر ولذا يذيل الله الآية بقوله :

﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

وهذا قد يكون في خطابه لآل داود وقد يكون خطابا لنا جميعا وهو الأظهر ، يقول الله تعالى : وقليل من عبادي الشاكرون الذين يسخرون النعم في طاعة الله بل أكثرهم يكفرونها وتراهم يستعملونها في المعاصي أو يهملونها ويضيعونها ، وهذا حكم عام يحكمه الله تعالى يشمل مختلف الأزمنة والأمكنة وسائر المجتمعات البشرية ، فالشكور فيهم قليل ، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلا يقول في دعائه «اللهم اجعلني من القليل » فقال وما تقصد بهذا فقال : أليس تعالى يقول : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ . فقال صدقت . ثم قال يخاطب نفسه : « كل الناس أعلم منك ياعمر ». وروي أن أبا هريرة رضي الله عنه قال صعد النبيء ﷺ المنبر يوما فتلا هذه الآية .

﴿ اِعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

ثم قال « ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود ، قلنا ما هن يا رسول الله ؟ قال : العدل في الرضى والغضب، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السر والعلانية ». وتلك كانت خصال داود وسليمان عليهما السلام ، هذا مع ما آتاهما الله من العلم والحكمة وإصابة الحكم والتواضع والحلم وحسن الخلق ﴿ أُوْلَئِكَ الذِينَ

هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام/ ٩٠] أمرهم الله بالشكر بأعمالهم فامتثلوا أمره.

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَالَبِثُواْ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى : فلما حضر أجل موت سليمان ونفذنا فيه حكم القدر بقبض روحه في الأجل المعلوم وذلك هو القضاء ، لمامات لم يعلم أحد من هؤلاء الجن بموته إلا بعد مدة طويلة قيل عام ، وما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منساته ، والمنساة هي العصا لأن الراعي ينسيء بها الغنم والبقر والإبل أي يدافعها ويؤخرها حين يريد ذلك ، فلما خرَّساقطا على الأرض علموا بموته وحينئذ تبينت الجن أنهم لا يعلمون من أمر الغيب شيئا ، إذ لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا موت سليمان ساعة موته فتخلصوا من العذاب المهين في الأعمال التي كان سخرهم سليمان للقيام بها ، وكانوا يعملون بين يديه في ذلة وهوان و لم يأت بعد سليمان من يسخرهم تسخيره ، فلو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين زمنا طويلا ، وهكذا يقيم الله الحجة على الناس الذين يزعمون أن الجن يعلم من أمر الغيب أشياء ، وكذبوا وكذبت الجن التي توهم الناس ذلك ، فلو كانوا يعلمون الغيب لنفعهم علمهم فتخلصوا من العذاب المهين ، جاء في بعض الروايات أن نبيء الله سليمان عليه السلام أمر الجن أن يصنعوا له محرابا من زجاج يتعبد فيه ليشاهدهم منه وهم يعملون بين يديه وهو يراقبهم ، فصنعوا له محرابا على الوصف الذي يريده فدخل فيه وشرع في عبادة ربه وكان يعتمد على عصا فقضى الله عليه الموت فبقي كذلك لم يخِرّ، وهم يظنونه حيا لا يزال وهم يهابون

أن يكلموه ما دام في معبده، وكانت الأرضة وهي دابة تأرض الخشب كانت تأكل منساته ، قيل عصاه وقيل رجل كرسيه لأنها تشبه العصا فلما أكلت المنساة خرّ ساقطا فإذا هو ميت من زمان، وقيل إنهم حين شكوا في مقدار هذا الزمن وضعوا الأرضة على عصا طيلة يوم كامل فقدّروا ما أكلت في اليوم وحسبوه في منساته فوجدوه مقدار أيام السنة، وقد يكون هذا الخبر صحيحا، فلما خرتبينت الجن أنهم لا يعلمون الغيب، ولو كان لهم به علم مالبثوا في العذاب والإهانة ، فليعلم الناس هذه الحقيقة وليتركوا الاستعاذة بالجن وليستعيذوا بالله رب الإنس والجن فهو وحده القهار له الملك وله الأمر تبارك الله رب العالمين .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا
مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ
ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ
جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا
فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا
بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ

وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ١٩ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ٢١

يذكر الله خبر سبإ ومساكنهم كيف كانت وكيف صارت للاعتبار ، وبين مملكة سبإ وملك سليمان مناسبة واتصال جاء بسط خبرهم في سورة النمل، وسبإ اسم لجد سكان اليمن وسموا باسم جدهم كما هو موجود في نسب قبائل العرب يطلقون اسم الجد على القبيلة المناسلة من أحفاده فيقولون ربيعة مثلا لأبناء ربيعة ومضر لأبناء مضر وهكذا ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ .

لقد كان لقبيلة سبإ في بلادهم ومزارعهم وجناتهم ءاية تدل على ما متعهم الله به من خصوبة الأرض ووفرة المياه وطيب المناخ ومكنهم في الأرض تمكينا يغرسون الجنات ويبنون القصور والمصانع ويملكون الأنعام ، وفي قوله آية دلالة عظيمة على ما وصلوا إليه من رخاء المعيشة والتمكين في الأرض .

﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ .

يذهب الذاهب في الوادي وعن يمينه جنات وعن شماله جنات ويمشي بين الجنتين أياما وليالي وهو في عمران متصل وأنهار جارية .

﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ .

في هذا الكلام الموجز أمران وخبران في غاية البلاغة والإحكام : الأمر الأول أمر تمكين وفيه امتنان على القوم بما رزقهم الله، كلوا من رزق ربكم الطيب المبسوط واشكروا له، وهذا الأمر أمر تكليف ، أي اشكروا للمنعم ولا تكفروا نعمه .

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ .

تلخص الآية وصف بلادهم في كلمة واحدة تشمل طيب التربة وعذوبة الماء ووفرته وطيب المناخ وسلامته من الأوبئة والأمراض ، وقيل إن بلادهم خالية من العقارب والحيات والقمل والبراغيث ، فهي طيبة حقا كما أخبر عنها خالقها .

﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ .

يعفو عن عباده ويغفر لهم تقصيرهم في حق المنعم فهم مهما بالغوا في شكر نعمه لا يقومون بحق الشكر كما ينبغي ، فالرب غفور كثير المغفرة لهم على تقصيرهم هذا إذا اجتهدوا في الشكر والعمل الصالح واستقاموا ، أما إذا كفروا نعم الله فإن عذابه شديد، ولما كان الشاكرون من عباد الله قليلا قال الله بعد ذلك .

﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ

وَشَيْءٍ مِن سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ يُجَازَى إِلاَّ الْكَفُورُ ﴾ .

فأعرضوا عن أوامر الله وصدفوا عن آياته ونذره وكفروا النعم و لم يشكروا المنعم فكانت عاقبتهم الدمار والخراب ، قال الله تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ .

هكذا يسند الإرسال إلى نون العظمة لنعلم أن الله عزيز ذوانتقام لا يعجزه شئ، والعرم قيل هو اسم للوادي كما تقول وادي ميزاب ووادي زقرير ووادي النساء، وقيل هو وصف للسيل المرسل عليهم كان قويا عارما، والعرامة هي القوة والشدة ، وقد يكون هذا المعنى أرجح لأن الله أرسل على سدهم العظيم سيلا لا طاقة له بإمساكه فانفجر وذلك نقمة من الله عليهم وعقوبة لهم على إعراضهم وكفرهم، وقيل أرسل الله فأرة أحدثت في وسط البناء شعبا فكان سبب هلاكه يقول الله :

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ .

بدلهم الله بجناتهم وثمارهم وزروعهم وأنهارهم جنتين من بعض أشجار البراري ذات الأكل المر والحامض وهو الأثل والأراك وشئ قليل من السدر ، أما الجنات المثمرة فقد جرفتها المياه العارمة وأدركها الجفاف بعد أن خرب السد و لم يبق في الأرض إلا بعض أشجار البراري التي نبتت في الأرض الخراب بعد ذهاب العمران، ولما كان في السدر بعض المنفعة قال وشيء من سدر قليل ، كل ذلك عقوبة لهم على طغيانهم وتمردهم على الله وكفرهم لنعمه ، قال الله تعالى :

﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ يُجَازَى إلاَّ الْكَفُورُ﴾ .

ذلك جزاؤنا لهم على كفرهم وعلى طغيانهم، جزيناهم سوء الجزاء وهل يجازى هذا النوع من الجزاء إلا الكفور وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم وكفروا نعم الله، وكذلك من يكفر نعم الله ويطغى يستحق هذا النوع من الجزاء والله عادل يجازي الناس على حسب أفعالهم ويعفو عن كثير، وفي القصر إنذار لكل كفور معرض عن آيات الله ونذره أن يقع في مثل ما وقعوا فيه من شر العواقب .

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ .

في الآية عود على بدء ورجوع على خبر القوم ببعض البسط فيما كانوا عليه من حسن الحال وفيما صاروا إليه من سوء الحال والعياذ بالله، يقول الله تبارك وتعالى :

وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها وهي بلاد الشام ، جعلنا بينهم قرى ظاهرة فما أن يفارق الإنسان بلدة حتى يشاهد أخرى لعمران الأرض، يقول الله: وقدّرنا فيها السير أي وجعلنا السير فيها على مراحل مقدرة ميسرة ، سيروا فيها ليالي وأياما آمنين والأمر هنا أمر تمكين لا أمر تشريع ، أي مكنهم الله أن يسيروا في هذه الطريق العامرة بالقرى والمياه ليالي وأياما آمنين من الجوع والعطش ، ومن الضلال ومن قطاع الطريق، وهذا من الله امتنان عليهم بهذه النعم المتوافرة ليشكروها ولكنهم كفروها ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فحل بهم عقاب الله، كرهوا

تقارب البلدان ورغبوا في تباعد الأسفار وكذلك يمل المترفون توافر أسباب الترف ويرغبون في المشقة والعناء، وما كان ينبغي لهم ذلك بل ينبغي أن يصرفوا هممهم عن ترف الدنيا ويرغبوا فيما عند الله وما عند الله خير وأبقى ، ولذا يقول الله تعالى :

﴿ وظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ .

ظلموا أنفسهم بالإعراض عن الله ونذره وآياته وبالطغيان فاستحقوا الجزاء بالسوءى فجازاهم الله بما يستحقونه جزاء عادلا لا ظلم فيه قال تعالى :

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ .

عبارتان تدلان دلالة فيها كل الشمول والوضوح على ما صاروا إليه من الضياع والتلاشي والخراب وسوء الحال ، جعلهم الله أحاديث والأحاديث جمع أحدوثة وهي ما يتقاصه الناس في سمرهم ومجالسهم من أخبار الماضين والهالكين والبلاد التي أصبحت أثراً بعد عين ، ويقول تعالى:

﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ .

وليست هناك عبارة تدل على ما صاروا إليه مثل التمزيق فكأنك أخذت ثوبا فمزقته خرقا وذلك بعد تخريب سيل العرم لقراهم ومزارعهم تمزقوا في بلاد الله يطلبون المعاش فذهبوا فيها ما بين مشرق ومغرب ، فذهبت خزاعة إلى مكة ، وذهبت الأوس والخزرج إلى يثرب ، وذهب اللخميون والمناذرة إلى العراق ، وذهبت الغساسنة إلى مشارف الشام ، وذهب مالك بن فهم وبنوه إلى عُمان ، وتخلف بعض منهم في اليمن ولعل بني سليم وبني هلال الذين صاروا إلى مصر وشمال إفريقيا من بعض

بطونهم ، ومن المؤرخين من يزعم ذلك والله أعلم ثم يذيل الله القصة بقوله .

﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

أي إن في خبرهم وشأن الله معهم لآيات على قدرة الخالق وفضله وإنعامه وعلى عزته وعدله وانتقامه ، آيات يعتبر بها كل صبار على ابتلاء الله وطاعته شكور لنعمه وإحسانه ، والمؤمن أمره كله إلى خير ، أنعم الله عليه فشكر فأُجر فكان ذلك خيراً له ، وابتلاه الله فصبر فأُجر فكان ذلك خيرا له ، والبلاء ينقلب نعمة بالصبر وحسن الرضا ، والنعم تتوافر وتتزايد بالشكر ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم/٧] ومن أراد الله به خيرا فإنه يعتبر بمثل هذه الأحاديث ويصبر على طاعة الله ويشكر نعم الله فيتقي بذلك مصارع السوء ويصير إلى حسن العواقب .

ثم قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إلاَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُومِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِن سُلْطَانٍ إلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُّومِنَ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ .

للمفسرين قولان في مرجع الضمير في ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ فقال فريق منهم أنهم سبأ خاصة فاتبعوه فيكون الاستثناء منقطعا في قوله تعالى : ﴿ إلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُومِنِينَ ﴾ وقال فريق آخر وهو الذي نرجحه ونراه أن الاستثناء متصل والضمير في عليهم وفي ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ عام يشمل الناس جميعا ، أي ولقد صدق إبليس ظنه على الناس جميعا فاتبعوهُ إلافريقا من المؤمنين عصمهم الله وتاب عليهم ، لقد ظن إبليس أنه يضل الناس وأن الناس يتبعونه وأقسم لله بذلك فاتبعوهُ إلا المؤمنين فصدق ظنه في أكثر الناس ، وأما قوله تعالى :

﴿ إلاّ فريقًا مِنَ الْمُومِنِينَ ﴾

فاختلف المفسرون في ﴿ مِنْ ﴾ هذه فقال فريق هي للتبعيض ، أي إلا بعض المؤمنين وليسوا كلهم ، وقال فريق آخر هي للتبيين أي إلا فريقا هم المؤمنون وهو الذين نراه ونرجحه ، فالمؤمنون إيمانا حقيقيا هم الذين يعملون الصالحات ولا يتبعون إبليس فهم على خير ، وهم الذين تخرجهم الاستثناءات من عموم الناس ، وهم عباد الله المخلصون المذكورون في قوله : ﴿إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ . نسأل الله أن يجعلنا منهم آمين ثم قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُومِنُ بالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى وما كان له أي لإبليس وجنوده عليهم من سلطان أي من قوة يقهرونهم بها ويجبرونهم على اتباعهم إلا مجرد الوسوسة ، وهذا يفسره قوله تعالى في سورة « إبراهيم » على لسان إبليس وهو يعترف بالحقيقة يوم القيامة ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِن سُلْطَانٍ إلاَّ أن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ .. الآية﴾ [إبراهيم/٢٢] وما فسر القرآن مثل القرآن، أما الاستثناء في قوله تعالى :

﴿ إلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُومِنُ بالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ .

فمنقطع معناه « لكن » أي وما كان لإبليس من سلطان على الناس لكن سلطانه عليهم بالوسوسة لنعلم من يومن بالآخرة فيعصيه ممن هو منها في شك فيطيعه ويتبعه ، وقد علم الله ما سيكون من عباده فهو يعلم من يضل عن سبيله ويتبع سبيل الشيطان ،

وهو يعلم المهتدين الذين يتبعون سبيل الرحمن وما ابتلاهم بإبليس وجنوده إلا ليظهر علمه فيهم ولو شاء لهداهم أجمعين ، أي لأجبرهم على الهداية ولو فعل ذلك ما كان للمطيعين فضل وثواب يستحقونه لكن يريد الله ليبلوهم فيصير المطيع منهم إلى ثوابه باستحقاق، ويصير العاصي إلى عقابه باستحقاق ، ويتفضل الله على التائبين بالمغفرة فضلا منه ورحمة ، والذين يفلتون من قبضة إبليس ولا يكون له عليهم سلطان هم الذين يؤمنون بالآخرة لأن إيمانهم بالآخرة يحجزهم منه ويزعهم عن الإثم ويحملهم على طاعة الله ، أما الذين يتبعون إبليس فهم من الآخرة في شك وإن زعموا أنهم يؤمنون ، ولو كانوا يوقنون ما اتبعوه وهم يعلمون أنه عدو لله وعدوهم وأنه يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ، وقد جاء في الحديث الصحيح « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » والسر كل السر هو الإيمان الصحيح بالله وباليوم الآخر ، هذا ما تفيده الآية الشريفة وهي تدعو إلى تركيز العقيدة الصحيحة في قلوب المؤمنين ، وتفيد الآية أن الذين ينجون من وسوسة إبليس ولا يصدق ظنه فيهم هم في الناس قلة وذلك ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤمِنِينَ ﴾ . فمن أراد النجاة فليكن من القليل .

﴿ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ .

يأتي التعقيب بهذه الآية المحكمة ، وربك يا محمد على كل شئ حفيظ ، فهو الرقيب على عباده العليم بما تكن صدورهم ومايعلنون لاتخفى عنه خافية، فإذا كانت الآخرة حقا والله عليم بأفعال عباده حفيظ عليهم سيجازيهم على أعمالهم ، فالغفلة لماذا ؟ فليحذر كل عاقل من وسوسة إبليس وجنوده وليعد عدته قبل أن يلقى ربه .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ
اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾
وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ
عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾
قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾
قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ
الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا
بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً
لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم

مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

الخطاب للنبيء ﷺ يأمره الرب تبارك وتعالى أن يحاور المشركين من أهل مكة ليقيم عليهم الحجة بعبارات فيها تحديات وبيان لما هو الحق الذي لا محيد لهم عن التسليم له والاعتراف به إن كانوا يعقلون ، وإن لم يعترفوا ويسلموا يظهر عجزهم وإفلاسهم من الحجة ظهورا يعرفه العقلاء من الناس .

﴿قُلُ ادْعُواْ الذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِ اللَّه لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الاَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَالَهُ مِنهُم مِن ظَهِيرٍ﴾ .

قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا الذين زعمتم أنهم يكشفون عنكم الضر أو يجلبون لكم النفع واتخذتموهم آلهة مع الله تعبدونهم، ادعوهم من دون الله ، وهذا الأمر للتبكيت والتوبيخ ، وهم يعلمون أنهم لا يكشفون عنهم الضر ولا يقوون على ذلك ولا يجلبون لهم نفعا إنما يعبدونهم تقليدا لآبائهم وكبرائهم ويقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فهم يزعمونهم شفعاء عند الله فرد الله عليهم بقوله :

﴿لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّمَاوَاتِ ولاَ في الاَرْضِ وَمَالَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَالَهُ مِنهُم مِن ظَهِيرٍ﴾ .

إن هؤلاء الذين زعمتموهم آلهة لا يملكون من الخلق ولا من الأمر والتصرف مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وليست لهم شركة مع الله مطلقا وما لله منهم

من معين يعينه ، فما أحقرهم وما أضعفهم عن ذلك ولله الخلق والأمر وحده لا شريك له .

﴿ وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ .

رد الله عليهم بهذا لأنهم يزعمونهم شفعاء عند الله فقال تعالى : لا تنفع الشفاعة عند الله من الملائكة والنبيئين إلالمن أذن له الرحمن، والإذن يكون للشافع ويكون للمشفوع له فهم لا يشفعون إلا بعد إذن الله لهم ، ولا يشفعون إلالمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون .

﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

تصوير عجيب لهول ذلك اليوم وروعته فإن أنبياء الله وملائكته يخشعون مشفقين في ذلك اليوم لا ينطقون مدة طويلة يملأ قلوبهم الفزع ،حتى إذا فزع عن قلوبهم أي زال الفزع عنهم نطقوا وقالوا ماذا قال ربكم يسألون الملائكة الذين من فوقهم : ماذا قال ربكم فيجيبونهم : قالوا الحق أي قال الحق وأذن في الشفاعة لمن ارتضى وهو العلي الكبير، أي لربنا العلو والكبرياء وحده لا ينازعه فيها أحد وكل من سواه خاضع لقهره وسلطانه وكبريائه فأهل الشفاعة من أنبيائه ورسله وملائكته لا يشفعون إلا من بعد أن يأذن الله وبعد أن يزول الفزع عن قلوبهم ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة/٢٥٥] فلا أحد يجرأ على الشفاعة عند الله إلا بعد إذنه فبطلت شفاعة جميع ما عبد من دون الله فما تنفعهم شفاعة الذين يزعمونهم آلهة ، ولاهم يشفعون لهم والأمر لله العلي الكبير .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ .

لا يزال الحوار معهم مستمرا بما يبكتهم ويقيم الحجة عليهم ، يقول الله تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين عبدة الأوثان قل لهم : من يرزقكم من السموات بإنزال الماء ومن الأرض بإنبات النبات ! هل يفعل هذا أحد من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله أو يستطيعه؟ كلا ! وهم يعلمون ذلك ويعترفون به ولا يستطيعون أن ينكروه، ولذا جاء الجواب من الله تعالى بما هو الحق ﴿ قُلِ اللَّه ﴾ قل يا محمد : الله الذي يرزقكم ينزل من السموات الرزق ويُنبت من الأرض أنواع النبات ، ويخرج منها الكنوز والبركات ، وتأكلون من بحارها لحما طريا وتستخرجون منها حلية تلبسونها ، وكل ذلك من الله رزقا وخلقا وإنعاما وفضلا فمالكم ألا تشكرون الخالق الرازق ألا توحّدون العلي الكبير ! يحاججهم الله بحجج قوية لا يستطيعون دفعها ولو رجعوا إلى عقولهم لأدركوا الحق ، ولذا يقول لهم بعد ذلك .

﴿وَإِنَّا أَوإِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ .

حجاج من الله ورسوله لهم في غاية الإنصاف وهو أشد وقعا عليهم وألزم لهم بالحجة ، يقول الله تعالى قل لهم يا محمد وإنا أو إياكم أي نحن أو أنتم على هدى أو في ضلال مبين ، فانظروا من منا على هدى من ربه ومن منا على ضلال ، نحن نعبد خالق السماوات والأرض مالك الملك نخافه ونرجوه ونتوكل عليه وحده وأنتم تعبدون من لا يملك لنفسه ضراولا نفعا ولا يملك الشفاعة فنحن وأنتم على طرفي نقيض ، فانظروا من المهتدي منا أو منكم ومن الضال ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّه فَقَد ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ [النساء/١١٦] .

ثم بعد هذا الحجاج اللطيف القوي الملزم للخصم الحجة يقول: تبارك وتعالى:

﴿ قُلْ لاَّ تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ .

يأمر الله نبيئه وكل داع بدعوته أن يقول لهؤلاء الكفار الجاحدين المعاندين الذين يرمونه بالإجرام والإفساد ظلما منهم وعدوانا يقول لهم كلمتين فيهما رد محكم على شبههم التي يلقونها في الناس ليصدوهم عن سبيل الله ، يقولون لرسول الله ساحر فتان يفرق بين الولد وأبيه وبين الأخ وأخيه ويسفه أحلامنا ويسب آلهتنا ويأتينا بما لم نعرفه، وينسبون إليه الاجرام كما نسب فرعون الفساد لموسى رسول الله عليه السلام ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّيَ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر/٢٦] وكذلك يرمي الكبراء دعاة الاصلاح في كل زمان بالفساد والابتداع والإتيان بما لم يألفه الناس، فالإصلاح في نظرهم فساد، ودين الله عندهم فتنة وابتداع وتفريق بين الأقارب والأصدقاء ، وما الفتنة والفساد إلاما تشبت به أهل الضلال والعناد فتمسكهم بالباطل هو الذي فرق الناس وفتنهم وأفسد عليهم أمرهم ، ولأن يتفرقوا عن باطلهم خير من أن يجتمعوا عليه ، يقول الله تبارك وتعالى لنبيئه أن يقول لهم : قل إن كان عملنا هذا في نظركم إجراما فلا تسألونا عما أجرمنا فنحن نتحمل مسؤولية هذا الإجرام ، كذلك نحن لا نسأل عما تعملون وما علينا إلا أن ندعوكم إلى الهدى ونأمركم بالمعروف وننهاكم عن المنكر والضلال : قل يجمع بيننا

ربنا وربكم يوم القيامة ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ، والفتح هو الحكم ، سمي فتحا لأنه يحل ما انعقد من المشاكل والله خير الحاكمين لأنه العليم بأعمال خلقه ما وافق منها الحق وما خالفه وصحة الحكم لا تكون إلا للعليم بما بطن من أفعال عباده وما ظهر منها ، والحكم على الشئ فرع عن تصوره ، وهذه قاعدة يقررها العلماء بأصول الأحكام .

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قل يا محمد لهؤلاء المشركين أروني هؤلاء الذين ألحقتم بالله شركاء وعبدتموهم من دون الله ، أروني حقيقة هؤلاء المعبودات ومن هم وما مقدار نفعهم ودفعهم وتصرفاتهم ؟ ! إنهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يكون جوابهم بعد هذا التحدي إلا كجواب قوم إبراهيم ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء/٥٣] ولذلك يأتي الجواب الحق من الله جل جلاله بعد عجزهم عن الجواب الصحيح .

﴿ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ يأتي الحكم الصحيح الحق بعد ﴿ كَلاَّ ﴾ التي هي للزجر والردع وبعد ﴿ بَلْ ﴾ التي هى للإضراب ، كلا بل المعبود الحق الذي لا شريك له ولا ند ولا مثيل هو الله العزيز الغالب عزته لا ترام ، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها ويؤتي من حكمته من يشاء من عباده ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيراً.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

للمفسرين في إعراب الآية اختلاف ولهم فيها تقديم وتأخير وتقدير ، ويقول بعضهم ولعله هو الصحيح .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ .

معناه وما أرسلناك يا محمد إلا إرسالا كافة للناس بشيرا ونذيراً فيكون .﴿ كَافَّةً ﴾ نعت لمقدر يفهم من الإرسال ، ولنقرب المعنى إلى الأفهام نقول وما أرسلناك إلا بشيرا ونذيرا إرسالا عاما للناس كلهم فيزول بهذا شبهتان يلقيهما الكفار من أهل الكتاب والمشركين في أذهان البسطاء من الناس قصد إضلالهم وصدهم عن سبيل الله، فرد الله عليهم بهذه الآية وأوضح الحق للناس حتى يهتدوا إلى الحق في أمر الرسالة والرسول ، الشبهة الأولى يلقيها أهل الكتاب واليهود والنصارى ومن لف لفهم يقول : إن هذا النبيء إن صدق في نبوته إنما هو مرسل لقومه خاصة ، إنما هو رسول للعرب لا لجميع الناس فرد الله عليهم بما قرره في هذه الآية وهو الحق أنه مرسل لكافة الناس إرسالا عاما للإنس والجن حتى تقوم الساعة ، فمن لم يؤمن به و لم يستجب لرسالته فهو هالك ، والشبهة الثانية أنهم يزعمون ويلقون في أفكار الناس أن هذا الرجل إن كان رسولا حقا فليخبرنا متى يكون قيام الساعة وليأتنا بما نقترح عليه من الآيات إن كان نبيئا حقا من الله كما يزعم فرد الله عليهم بأن قصر رسالته على البشارة والنذارة وإنه بشر مثلكم يوحى إليه ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء/٩٣] فهوَ عَبْد الله ورسوله يبلغ للناس ما أوحي إليه وقد أيده الله بما شاء من المعجزات ليكون دلالة على أنه رسول من الله حقا والمعجزة الخالدة هي القرآن الذي هو معجز حقا ، وقد تحداهم منزل القرآن أن يأتوا بمثله أو بعشرسور مثله مفتريات أو بسورة من مثله فعجزوا ، وقال لهم إنكم لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوا ولو اجتمع إنسكم وجنكم وكان بعضهم

لبعض ظهيرا ، أما هذا الرسول الذي أرسلناه بالهدى ودين الحق فما أرسلناه إلا مبشرا ونذيرا لكم بين يدي عذاب شديد ، فأولى لكم أن تؤمنوا به وتنصروه وتتبعوه لعلكم تفلحون وتنجون من عذاب الله .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

هؤلاء الناس الذين أخبر الله عنهم أنهم لا يعلمون وأنهم أكثر الناس في هذه الأرض فهم يستبعدون قيام الساعة ويقولون متى هذا الوعد أخبرونا متى هو إن كنتم صادقين في ادعائكم خبر السماء وهي شبهة رد الله عليها ردا محكما فقال :

﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

قل لهم يا محمد : لكم ميعاد يوم معلوم إذا حل أجله لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ، والساعة ليست هي الساعة المعهودة عندنا التى هي ستون دقيقة بل هي قطعة من الزمن قليلة ، وقد يعبر عنها لحظة وليس عندي علمها إنما علمها عند ربي ، وهم يستبعدونها ويسألون عنها سؤال ارتياب وتكذيب وهل سيصدّقون بها لو أخبرهم عن موعدها ؟ إنهم لا يؤمنون بها حتى يروها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ولا يمارون فيها ، أما رسول الله فليس من شأنه الإخبار عن يومها بل هو منذر من يخشاها ، وقد أخبر عن قربها فقال : « بعثت أنا والساعة كهاتين (وقرن بين أصبعيه) كادت أن تسبقني فسبقتها » وأخبر أيضاً ببعض أشراطها وأخبر بما يقع بين يديها وبآياتها الكبرى التي إذا جاءت لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن ءامنت من

قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، وكذلك جاء ذكر بعض ذلك في كتاب الله فكفى بذلك واعظا وزاجرا لمن آمن بها وهو يخشى .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي
بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ
يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ
لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ (٣١)
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ
عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ
إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ
هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٣٣) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن
نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٤)
وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلۡ

إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ٣٦ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا
زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ
بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ
ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ٣٨ قُلْ إِنَّ
رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ
وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩

يعرض الله في أوائل هذه الآيات مشهداً من مشاهد أهل الكفر والضلال المعاندين لأهل الحق الجاحدين للرسالات وهو مشهد فظيع حقا ومصير مشئوم ، ولكي يعلم كل من يقرأ القرآن أنهم يستحقونه يبّين لنا مبلغ تعنّتهم في إنكار الحق ورد الحجج الواضحات في إثبات الرسالات فهم ينكرون أن يرسل الله من عباده رسولا يوحى إليه ويكفرون بالكتب كلها ويكذبون بقيام الساعة وينكرون البعث والجزاء .

﴿ وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّومِنَ بِهَذَا القُرآنِ وَلاَ بِالذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ .

للمفسرين في تفسير هذه الآية اختلاف فمنهم من يقول أن المقصود بقوله تعالى:

﴿ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ما سبق نزول القرآن من الكتب والصحف المنزلة من السماء على أنبياء الله ورسله ، فقد تقدمت نزول القرآن الذي هو آخرها وجاءت بين يديه أي قبل مجيئه فإن هؤلاء الكفار سألوا علماء أهل الكتاب فأخبروهم أنا نجد في التوراة والإنجيل مبعث رسول اسمه أحمد ، وله علامات وآيات تدل على صدقه ومجيء زمان ظهوره فكفر هؤلاء الكفار بالقرآن والذي جاء به وبالرسالات كلها عنادا وإصرارا على ضلالهم، وهذا هو المعنى الذي نرجحه لأن في كتاب الله ما يؤيده فقد جاء في سورة الصف ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَآئِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف/٦] وجاء في سورة المائدة ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [المائدة/٤٨] وذلك في وصف هذا القرآن المنزل على خاتم النبيئين الذي يصدق جميع الكتب المنزلة من عند الله على أنبياء الله ورسله ، وجاء في سورة الأحقاف ﴿يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف/٣٠] هذه آيات من كتاب الله ترجح ما نميل إليه من معنى ﴿ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وما فسر القرآن مثل القرآن ، ومنهم من يقول إن المقصود ما أخبربه القرآن مما سيقع عند قيام الساعة وبين يديها وبعدها ، ومنهم من يقول المقصود هو الرسول الذي جاء بالقرآن بين يديه ولكل نظره والله أعلم ، يصر هؤلاء الكفار على أن لا يؤمنوا بالقرآن وبما أخبر به القرآن من أمور الغيب الواقعة وينفون الإيمان بلَن التي هي للنفي والتأبيد والتيئيس مبالغة في التمرد والجحود ، وإذا كان الأمر كذلك فلم لا يكون عقابهم عند الله في غاية الألم والشدة والفظاعة ، ولذا يجيء بعد هذا قوله تبارك وتعالى :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى
بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ
يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ
لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ
عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

بعد قيام كل الحجج على الكفار في المحاوراة السابقة التي تخاطب العقول بالمنطق والبرهان ظهر عناد هؤلاء الكفار وتمردهم على الله وعتوهم على رسله وإغلاقهم باب الايمان بالقرآن والذي بين يديه من الكتب المنزلة من عند الله كلها يعظم

التعجب من كفر هؤلآء واختيارهم طريق الشقاء على طريق النجاة ، وربما تنشأ في بعض النفوس تساؤلات : ما الذي يمنع هؤلاء من الإيمان ؟ أليست لهم عقول يفهمون بها الخطاب ؟ ماالذي يصدهم عن الهدى بعد إذ جاءهم ؟ بعد التعجب والاستفهام وقد حارت العقول يأتي الجواب من الله العليم الخبير الذي يعلم ما تكن الأنفس وتخفي الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، يأتي الجواب الذي يحل الإشكال ويزيل التعجب والحيرة ، إن هؤلاء قد أدركوا الحق وفهموا كل شيء لكن القضية فيها تابع مستضعف ذليل مقلد لمن يتبعه ويعظمه ، ومتبوع مستكبر ينتصر لسيادته وكبريائه فهو يجتهد في مد طغيانه ويخشى على سلطانه أن يزول ، وهكذا يضيع صوت الحق بين الطغيان وحب العلو وبين التقليد وحب الفجور والفساد، فالأمر إذن واضح لا لبس فيه ولذا يعرض الله على محاجتهم لأنها لم تعد نافعة ، ويقبل على نبيئه يخاطبه فيهم في أسلوب الالتفات البديع الذي يعرفه أهل الفن في بلاغة اللغة ويدرك العقلاء أثره في نفوسهم .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الذِينَ اَسْتُضْعِفُواْ لِلذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُومِنِينَ ﴾ .

مشهد عجيب من مشهد الكافرين الظالمين يوم القيامة يعرضه علينا وكأننا نشاهده بأعيننا ونسمع الحوار بآذاننا ،ويزداد المشهد وضوحا بافتتاحه بهذه الكلمة التعجبية المثيرة ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ وبعدها يأتي الإظهار في محل الإضمار ليبين أن أنواع

الكفر كلها ظلم حتى المستضعفين منهم ليسوا مظلومين بل هم ظالمون كما سيأتي بيان ذلك ، ثم الوصف الذي يأتي هكذا ﴿ مَوْقُوفُونَ ﴾ على صيغة المبني للمفعول ، فهم قد أوقفوا إيقافا وهم مجبورون أذلاء لاحول لهم ولا طول ولا مناص ، فهم قد أحضروا عند ربهم للجزاء لا يفلت منهم أحد ، فلنستمع إليهم وهم يتحاورون في موقف خزي رهيب يرجع بعضهم إلى بعض القول في حجاج وتخاصم لايغني يومئذ ولا ينفع شيئاً.

﴿ يَقُولُ الذِينَ اَسْتُضْعِفُواْ لِلذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُومِنِينَ ﴾.

يقول المستضعفون المسخرون الأذلاء لساداتهم الكبراء أهل الجاه والسلطان وأهل الثراء، وقد كانوا يعظمونهم ويتبعونهم ويعصون الرسل ، يقولون لهم :

﴿ لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُومِنِينَ ﴾ . أي لولا صدكم إيانا عن سبيل الله لكنا مؤمنين بالله وباليوم الآخر مصدقين لرسل الله ، فهم يردون اللوم والعتاب على كبرائهم وهم يعلمون أنهم لن يغني عنهم من الله شيئا ذلك التلاوم ، ويرد عليهم الذين استكبروا .

﴿ قَالَ الذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ لِلذِينَ اَسْتُضْعِفُواْ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ ﴾ .

قال الذين كانوا فى الدّنيا مستكبرين للذين استضعفوا أنحن منعنا كم على الهدى بعد إذ جاءكم ؟ فهم ينكرون أنهم كانوا يصدونهم ويفتنونهم ، يقولون لهم لو أنكم اخترتم الهدى وعزمتم على اتباع الرسل لم يكن لنا سلطان عليكم ، بل كنتم راسخين فى الإجرام مائلين مع الهوى فوافق قولنا هوى فى نفوسكم فاتبعتموه ، وفي

هذا الجواب كشف عما في نفوس أتباع الطواغيت من ميل إلى الفجور والإجرام ، فهو حوار فيه اعتبار وتخويف وإنذار فلا ينفع يومئذ هذا النوع من الاعتذار بل يضاعف العذاب لكلا الصنفين أهل الضعف وأهل الاستكبار فسحقا لأهل النار .

ثم يجيب الذين استضعفوا على كلام كبرائهم .

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ﴾ .

قال المستضعفون التابعون لمتبوعيهم : بل كنتم تمكرون مكر الليل والنهار دائبين لإضلالنا وتأمروننا أمرا صريحا أن نكفر بالله ونجعل له شركاء وكنا نعظمكم ونطيع أوامركم ونعص الله ورسله ، وفى إسناد المكر إلى الليل والنهار مجاز عقلي له أثره البليغ فى النفوس ، وكذلك يجتهد المستكبرون فى إضلال تابعيهم بكل أنواع المكر التى يعرفونها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ، وهؤلاء المستضعفون سيندمون على تقييد عقولهم بقيود التعصب والاتباع الأعمى لمن يعظمونهم وهم إنما يعبدون الجاه والسلطان والمال ويقلدون الآباء والأجداد وهذا كفر بنعمة العقل سيضاعف لهم العذاب لأجل هذا الكفر كما يضاعف على الذين استكبروا لإضلالهم الناس وصدهم عن سبيل الله ، وفى عرض هذا المشهد في القرآن موعظة بليغة لقوم يتفكرون وإنما بعث الرسول ﷺ لإنقاذ العباد من عبادة العباد وهدايتهم إلى عبادة رب العباد، ولإخراجهم من ظلمات التقليد والأهواء إلى نور التوحيد والهدى والفرقان ، وبعد

عرض هذا الحوار يخبر الله عنهم وهم يستقبلون العذاب المحقق الذي لا محيد عنه فيقول :

﴿ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

لما رأى هؤلاء الكفار عذاب الله وتيقنوا أنهم ذائقوه أسروا الندامة في نفوسهم ، ندموا على عصيانهم رسل الله ندما عظيما وعلموا أنه لا ينفعهم إعلان الندامة فأسروا ما في نفوسهم ولا يعلم إلا الله مدى عمق تأثير الندامة في نفوسهم وإحساسهم لها ، فهي نوع عذاب داخلي لا يقل عن عذاب الأجساد ، وأمر الله الزبانية فجعلت الأغلال في أعناق الذين كفرو جزاء على كفرهم وتمردهم وإصرارهم ، وليقرر الله قاعدة العدل الإلهى ولا أحد أحب إليه العذر من الله ومن أنذر فقد أعذر يقول الله تعالى : ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

هكذا في أسلوب الاستفهام المؤثر الذي يراد به النفي يبين أنه لا يجزى هؤلاء الكفار إلا ما كانوا يعملون ، لقد كان عملهم الإجرام والفجور وكان الشيطان زين لهم سوء أعمالهم فاليوم يلقون جزاءهم بالعدل ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، كل هذا الإنذار والوعظ البليغ وباب التوبة مفتوح وإن ينتهوا قبل الموت يغفر لهم ما قد سلف فلا يشقى بعد هذا الإنذار البليغ ولا يضل بعد الحق المبين إلا شقي متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، والآية الكريمة تنص على أن الجزاء لا يكون إلا من جنس العمل .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ .

هذه الآية والتى بعدها تكشف عن حقيقة فريق من الناس هم أشد على الرحمن عتياوهم المترفون المنعمون الذين ابتلاهم الله فبسط لهم من الرزق ونعمهم في الدنيا فظنوا أن الله أكرمهم بذلك وليتهم شكروا النعمة بل ازدادوا بها كفرا وطغيانا ووقفوا من أنبياء الله ورسله موقف العناد والتمرد والإصرار ، ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وكذلك يصنع المترفون في كل زمان ومكان ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

هكذا بصيغة الحصر ليفيد العموم ، ما أرسل الله فى قرية من نذير إلا قال مترفوها ما يقولون ، ورسل الله هم النذر والمبشرون ولكن أكثر ما يأتي لفظ النذارة في كتاب الله لأن الإنذار أشد تأثيرا في النفوس من البشارة ، فهي تنصاع للتخويف أكثر مما تنقاد لداعي التبشير ، وجاء لفظ القرية في الجملة لأن الرسل عادة تكون في القرى لا في البوادي ، ويقف أهل الترف والنعيم منهم موقف التصلب والعناد والكفر الصريح يقولون : إنا بما أرسلتم كافرون ، وهم يكفرون برسالاتهم ويكذبون بها ، وما تعبيرهم هذا إلامن باب المشاكلة ولشدة عتوهم على ربهم وكذلك يصنع الترف والنعيم بالنفوس ينفخ فيها فتطغى وتستكبر وتمرح فى الفجور والفساد ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق/٦-٧] .

﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

أعجبوا بكثرة أموالهم وأولادهم وطغوا بذلك طغيانا وظنوا أن الله إنما كرمهم بذلك تكريما وأنكروا أن يعذبهم الله بعد أن بسط لهم من نعيم الدنيا وأعطاهم الأموال والأولاد وكذلك يغر الشيطان أولياءه ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا، وقد رد الله عليهم وفند زعمهم هذا وبين لعباده الحق الذى يدمغ باطلهم فقال تعالى :

﴿قُل إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَّشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّمَنَ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ .

رد الله عليهم باطلهم بهذه الآية الكريمة ليدحض بها شبهة كثيرا ما تعلق بها المبطلون في كل زمان وهي أن بسط الرزق وتقديره يجريان على حسب رضى الله وسخطه وباطل ما يزعمون ، فقال تعالى :

﴿قُل إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ .

قل لهؤلاء المخطئين الخاطئين ، قل لهم يا محمد إن قضية الرزق بسطه وتقديره تجري على حسب مشيئة الله ليبلو عباده أيشكرون أم يكفرون ، فمن شكر الله على الغنى وصبر على الفقر نال جزاءه الموفور عند ربه بالحسنى ، ومن كفر وبطر فى الغنى وجزع وكفر فى الفقر نال عقابه عند ربه بالسوءى ، وقد يبسط الله الرزق لمن يحب ولمن لا يحب كما يقبضه عمن يحب ومن لا يحب ، وإذا أحب الله عبدا أعطاه الإيمان والحكمة ، وليست الأموال والأولاد هي التى تقرب إلى الله زلفى كلا بل الإيمان

والعمل الصالح هو الذي يقرب العبد إلى مولاه ، فأولئك تضاعف لهم الحسنات وهم في جنات ربهم في غرفاتها آمنون، هذه الحقيقة ولكن أكثر الناس لا يعلمونها ويظن الذين كفروا بربهم ظنا باطلا ويعلم الله أولياءه العلم الذى ينفعهم ، وليس سواء عالم وجهول ، وما أروع المقابلة بين الآيات التي سبقت في الوعيد وبين هذه الآية التي في وعد الصدق الذي يعد الله به عباده الصالحين ، بينما هؤلاء الكفار فى السلاسل والأغلال يضاعف لهم العذاب في طبقات الجحيم ، نرى هؤلاء المؤمنين الصالحين في غرفات الجنات يضاعف لهم الثواب وهم في نعيمهم آمنون ، شتان بين مصير ومصير فليعتبر أولوا الألباب ، والغرفات هي المنازل المرتفعة العالية التى يشرف ساكنوها على الجنات والأنهار .

﴿ وَالذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ .

هؤلاء المترفون المستكبرون يكفرون بآيات الله ويسعون في ردها وإبطالها إما بالإنكار والجحود أو باتباع ما تشابه منها ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها، وإما بتأويلها تأويلا لا يتفق مع المحكمات ، وإما بأنواع التحريف تحريف معانيها بالإلحاد فيها والتشكيك وهم على أصناف : صنف يكفر بالله ويسعى معاجزا في رد آياته ردا صريحا ، ومنهم من تميل أنفسهم إلى اتباع أهوائها وتعكر عليهم آيات الوعد والوعيد فيحاولون التحلل من ذلك بالتآويل الباطلة وهذا صنيع المترفين في كل زمان ومكان، يغويهم الشيطان بالمعاصي ثم يفتنهم بصرف معاني الآيات الصريحة في الوعيد إلى معانٍ بعيدة يتأولونها أو بصرف آيات الوجوب والتحريم إلى غير ظواهرها ويحملونها

على أناس معينين أو أزمنة مضت ليتحللوا بذلك عن الوجوب والتحريم فيتبعون أهواءهم ويفتنون الناس ، وهذا صنيع الملاحدة يفسرون القرآن على وجوه لا يحتملها التفسير الصحيح ليتحللوا بذلك من قيود الدين وكذلك يفعلون مثلما فعلت بنوإسرائيل من قبلهم ، اليهود والنصارى يحللون للناس ويحرمون فيتبعونهم ، يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، أما القرآن فلا يستطيعون تبديل حرف منه ولكنهم يُفتنون في التفسير وتأويل آياته على غير وجوهها فيَضلون ويُضلون ، والمعاجزة هي محاولة الإعجاز فكأنهم بفعلهم هذا يحاولون إعجاز الله وما هم بمعجزين بل يمدهم الله في طغيانهم ويملي لهم ويمهلهم ويغرهم ذلك الإمهال فيظنون أنهم يفلتون من قبضة الله ولا يعذبهم ، فهم يريدون الفجور والفسق ويحاولون تأويل آيات الوعيد على غير معانيها ويقولون : هذه نزلت في اليهود ، وهذه نزلت في النصارى ، وهذه نزلت في المشركين ، حتى يحلو لهم اتباع شهواتهم فلا ينغص عليهم وعيد الآيات ، وإنما أنزل كتابه نذيرا ليزجربه الناس عن الشر والفساد وليتعظوا بما فيه وليذكر أولوا الألباب .

قال الله تعالى يتوعد جميع هؤلاء الأصناف .

﴿ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ .

إنهم يحضرون فى العذاب أذلاء مرغمين لا يجدون عنه محيصا ليلقوا جزاء ردهم لآيات الله وسعيهم في معاجزتها ، وفي هذا تخويف للناس وإنذار لهم وتسلية لقلب نبيه والمؤمنين في كل زمان ومكان حتى يثبتوا على الحق ولا تضيق نفوسهم

بهؤلاء الذين يلحدون في آيات الله ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها أو يردونها ردا صريحا لكفرهم بالله وبرسله وآياته ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

يرى بعض المفسرين أن هذه الآية تكرار لمعنى الآية المتقدمة وتأكيد لها وقد تقدم قريبا مثلها في هذا السياق ، ويرى آخرون أن هذه الآية غير المتقدمة وأنها جاءت لتفيد معنى جديدا والتأسيس خير من التأكيد ، والآية الأولى خوطب بها الكفار الجاحدون وهذه خوطب بها المؤمنون ، والآية الأولى تعم جميع الناس وهذه تخص الأفراد إذ جاء فيها : ﴿ لَهُ ﴾ وهذا ما نراه ونفهمه .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ .

قل إن ربي وربكم ورب العالمين جميعا الذي ضمن لكل دابة رزقها أنه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له أي يوسع ويضيق ، وربما يبسط الرزق للشخص الواحد في بعض الأوقات ويقدر له في غيرها فهو يتقلب بين السعة والضيق وليس حال يدوم فإذا كان الأمر كذلك فاغتنموا أيها الناس وخذوا من غناكم لفقركم وأنفقوا مما رزقكم الله ما دام الرزق مبسوطا عليكم ، والإنفاق شكر لنعمة الرزق والشكر سبب لدوام النعمة وزيادتها ، واعلموا أنكم ما أنفقتم من شئ فهو يخلفه عليكم إما في الدنيا وإما في الآخرة أو فيهما معا ، وهو الغني الكريم وقوله ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ يفيد العموم فإنه ما

من شئ ولو كان قليلا ينفقه المؤمن بإخلاص إلا ويقع أجره على الله ويخلفه له إن لم يكن في الدنيا فهو في الآخرة مضاعف له ، والآخرة خير وأبقى فلا تضق نفس أحدكم إذا أنفق و لم ير خلفا ولا يظنن بربه سوء وليحتسب أجره عند الله وليرغب في الآخرة ولا يكن همه الدنيا فمن كان همه الدنيا فما له في الآخرة من نصيب ، أما إذا رغب فيما عند الله فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وربما يخلف له في الدنيا ولا ينقص ذلك من أجره في الآخرة ، والله شاكر عليم غني كريم .

﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

وليس معناها أن هنالك رازقين غير الله وهو خيرهم ، لا بل الرازق المطلق هو الله لارازق غيره ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْـمَتِينُ ﴾ [الذاريات/٥٨] وإذا أسندت صفة الرزق إلى غيره فمن باب المجاز ، ومعناه قسم الأرزاق وصرفها إلى أهلها ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ [النساء/٨] وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون/١٤] ولا خالق غيره فهو خير الرازقين لأنه يمن علينا بالرزق ابتداء منه من غير استحقاق منا ومن غير سؤال وله خزائن السماوات والأرض وخزائنه لا تنفد ، والذي يكون من انتقال الأرزاق من أيدي بعض خلقه إلى بعض آخرين إنما هو في الحقيقة رزق من الله ، وما الناس إلا وسائط مسخرون وما الرزق إلا من عند الله فإذا كان الرزق على الله والخلف منه فالبخل لماذا ؟ فلنثق بالله ولننفق مما رزقنا ولنحسن الظن به وبوعده والله لا يخلف الميعاد .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ
كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ
كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ
قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ
وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا
وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا
بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

يعرض الله علينا في هذه الآيات الكريمات مشهدا آخر من مشاهد يوم القيامة يوم الحشر والناس مجموعون عند ربهم فيخاطب الله ملائكته ليبكت الكفار ويقيم عليهم الحجة قبل إلقائهم في النار جزاء شركهم بالله وتكذيبهم بالنار وعذابها فيقول تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا

مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ .

أذكر يوم نحشرهم جميعا يوم القيامة لا يفلت منهم أحد ويوقفون للسؤال ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، يلقي الله تعالى السؤال على الملائكة وهو أعلم بهم يقول لهم : أهؤلاء الكفار كانوا إياكم يعبدون ، ولا يعبدون الله ربهم ؟! وهذا نظير سؤاله تعالى للمسيح ابن مريم : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة/١١٦] غير أن صيغة السؤال تختلف لأن المسيح أرسله الله للناس يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده ، وزعمت النصارى أنه ابن الله فيسأله ربه وهم يستمعون وهم المقصودون بهذه المساءلة فيجيب بما يجيب به ويقول لله :﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنُ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ .

أما الملائكة فما كانوا رسلا إلى الناس و لم يخاطبوهم بشيء وما زعم الناس أنهم أمروهم بعبادتهم ، ولذا يأتي السؤال بصيغة أخرى

﴿ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ .

فيتبرءون من عبادتهم ويقولون

﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ .

تنزيها لك ياربنا وتقديسا لك وتعظيما ، أنت ولينا ومعبودنا إياك نعبد وإياك نخاف ونرجو ، وأنت تعلم ذلك منا فكيف نرضى أن نعبد وما يكون لنا ذلك وما ينبغى ﴿ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول ملائكة الله: بل أكثر الناس يعبدون الجن يخافونهم ويستعيذون بهم ، ينزل أحدهم منزلا ويقول أعوذ بك ياعزيز الوادي أو ياعمّار الوادي من سفهائكم ويعتقدون أنهم يعيذونهم ويدفعون عنهم الضر ، ومن ذلك ما توارث الناس من عادات جاهلية مثل الذبح على عتبتي الباب أو على حافة البئر ، ونحو ذلك مما تعودوه من طقوس جاهلية يجب محاربتها ، وما هي إلا عبادة للجن من دون الله، ومن ذلك إلقاء الرماد والملح أو إلقاء الكسبر فى بعض المواضع يقصدون بها إرضاء الجن والإستعاذة بهم ، ولو كان إيمانهم سليما خالصا لاستعاذوا بالله وحده، كل ذلك يجب تطهير العقائد منه وتخليص القلوب من شوائبه وإخلاص الدين لله وحده ﴿ أَلاَ لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر /٣] ولا يزال الشيطان حريصا على إلقاء لوثات الجاهلية في عقائد الناس ، فالذين يعبدون الملائكة ويرمزون لهم برموز من الأصنام إنما يعبدون الشيطان لأنه هو الذى سول لهم وأملى لهم وأمرهم بذلك وزينه لهم ، وما أمرتهم الملائكة ولا رضيت بصنيعهم ، وفي هذا المشهد الذي ينكرون فيه عبادتهم بين يدي الله تبكيت لهؤلاء المشركين وتوبيخ لهم وتحذير للناس من الوقوع فيما وقعوا فيه حتى لا تجتالهم الشياطين شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، نعوذ بالله من الشياطين وما أضللن ، ونسأل الله العصمة من الشرك وشوائبه ﴿فَمَن يَّكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُومِن بِاللَّهِ فَقَدِ اِسْتَمْسَكَ بَالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَانفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة/٢٥٦] أما عبدة الجن فهم مومنون بالجن كافرون بالله وسيوقفون يوم القيامة موقف الخزي والهوان والندامة حين يقرعون ويوبخون على رؤوس الأشهاد حين يقول الله لهم :

﴿ فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً وَنَقُولُ لِلذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ التِى كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ .

فاليوم وقد تبرأ المعبودون من عابديهم وتبين الحق لا يملك بعضكم لبعض نفعا فينفعوهم ولا ضرا فيدفعوه عنهم وقد كانوا يخافونهم ويرجونهم ولذلك عبدوهم فاليوم لا يملكون لهم نفعا ولاضرا ، وقد كانوا في الدنيا كذلك لا يملكون لهم نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله ، أما في الآخرة فخابت الظنون فهل يعتبر المعتبرون وهل يتعظ العاقلون ! بعد هذا يقول الله تعالى : ﴿ وَنَقُولُ لِلذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ التِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ .

يقول الملك الواحد القهار للذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي وظلموا الناس ذوقوا عذاب النار واصلوها ، ويأتي هذا الوصف ﴿ الذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ لأنهم دخلوها بسبب ظلمهم ، وما ظلمهم الله فهو العدل الإلهي المطلق ﴿ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ [غافر/١٧] ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون إنهم كانوا يكذبون بالآخرة ويكذبون بجهنم ويقولون لاجنة ولانار ﴿ إنْ هيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنيَا نَمُوتُ وَنَحْيَاوَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون/٣٧] فاليوم وهم يرون النار عين اليقين ويسمعون زفيرها وقد أمر الله بإلقائهم فيها يقال لهم هذا الكلام توبيخا لهم وتخويفا للناس حتى يتجنبوا هذه العاقبة الوخيمة ، جاء هذا الخطاب هنا للمشركين المكذبين بالنار ، أما في سورة السجدة فيقال للفساق الذين فسقوا في الدنيا وهم يؤمنون بالآخرة وهم ينكرون أنهم يعذبون بفسقهم يقال لهم : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابِ النَّارِ الذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾

[السجدة/ ٢٠] يقال لهم هذا وهم في أطباق النيران وفي السلاسل والأغلال والجحيم والأنكال فلنفهم الفرق بين حال وحال ، ونعوذ بالله من أحوال أهل النار، ومن أراد الله به خيرا فليتعظ بهذه المشاهد وليعتبر بهذا القول ، وإنه لقول عظيم في يوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين .

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُواْ مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

يكشف الله لنا في هذه الآية الكريمة طبعا من طباع الكفار ، والمقصودون هنا كفار قريش قوم النبيء ﷺ ، ولهم طرق ملتوية في تكذيب آيات الله ورسوله وشبه ليس لها أساس من الصحة مطلقا إنما يلقونها ليفتنوا بها بسطاء الناس من أقوامهم فيصدونهم بها عن سبيل الله وهم يعلمون أنها واهية وليست بشيء ، ويعلمون صدق الرسول ، وبلاغة القرآن وحلاوته وإعجازه ، ويقومون بعد سماعه مشدوهين عاجزين أن يأتوا بسورة من مثله ، فهم يتخبطون في معارضته خبط عشواء ليس لهم كلمة صحيحة في ذلك ، يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُواْ مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ ﴾ .

عندما يسمعون آيات الله يخرون عليها صما وعميانا ويقول قائلهم : ما هذا إلا رجل مثلكم لا فضل له عليكم وليس بنبيء بل يريد أن يصدكم عن دين آبائكم

وأجدادكم ، هكذا بهذه الإضافة يستجيشون عواطف الناس والناس لهم تمسك واعتزاز بتراث آبائهم فيغرونهم بهذه العبارات على التعصب والتمسك بما تركه الآباء والأجداد ولو كانوا في ضلال قديم ، ولو جاءهم هذا الرسول بأهدى مما وجدوا عليه آباءهم .

﴿ وَقَالُواْ مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ .

ثم بعد الطعن في الرسول يطعنون في كتاب الله يقول قائلهم : ما هذا إلا إفك، والإفك أعظم أنواع الكذب والافتراء هو اختلاق الكذب وقد يقولون شعر وكهانة وأضغاث أحلام ، في عبارات متعددة مضطربة تدل على اضطرابهم في ضلالهم البعيد وإنما يخادعون بها أنفسهم ويخدعون العوام والبسطاء من الناس ، ومن أعماه التعصب ومالت نفسه إلى الفجور والإجرام .

﴿ وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

آخر الأمر وقد أعياهم أن يعارضوه وأعجزهم أن يأتوا بمثله يقررون أنه سحر ظاهر بيّن لما رأوا تفريقه بين المرء وأبيه وأمه ، وبين المرء وزوجه وبين المرء وأخيه، وما أبعد الحق المبين عن السحر ، وهم يعلمون حقيقة الكهانة ولا يشكون في صدقه ولذا يأتي التعبير القرآني البليغ بالإظهار لا بالإضمار .

﴿ وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقال الذين كفروا للحق لما جاء هم بالصدق إن هذا إلا سحر مبين ، هكذا

بطريقة القصر مبالغة في التكذيب والإيهام وبوصف السحر أنه مبين حتى يموهوا على أتباعهم وقد رأوا قوة تأثيره واجتذاب قلوب الناس إليه فسموه سحرا ، وهو الحق من ربهم ، وتلك طبيعة المكذبين من أقوام الرسل في كل زمان .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ءَاتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ وَكَذَّبَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِي ﴾ .

كل هذا مما يقوله الكفار من التكذيب والطعن في الوحي والرسول وليس لهم شئ يتمسكون به كما لليهود والنصارى كتب ولكنهم حرفوها وبدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم كتبا خلطوا فيها من الباطل ما يريدون وتعصبوا لها وقالوا هي من عند الله ، أما كفار قريش فتعصبوا لجاهليتهم ووثنياتهم وليس لهم علم سابق وما ءآتاهم الله كتبا يدرسونها ، وما أرسل لهم قبل محمد من نذير فهم إنما يقلدون آباءهم وأجدادهم في ضلالهم القديم وينكرون الحق المبين . يقول الله تعالى :

﴿ وَكَذَّبَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِى﴾.

وكان الذين من قبلهم من الأمم كذبوا رسل الله فأهلكهم الله فلم تغن عنهم قوتهم ولا جمعهم، وما بلغت قريش من القوة والجمع والملك والجنود معشار ما أوتي الذين كانوا من قبلهم ، لقد آتاهم الله من القوى والغنى ومكنهم في الأرض ما لم يمكن لقريش فلما كذبت رسل الله جاءهم الهلاك المدمر الذي أبادهم فبقيت بيوتهم خاوية كأن لم تغن بالأمس ، فهلا اعتبرت قريش بهؤلاء الأمم وهم أضعف منهم وما أوتيت

معشار ما أوتوا ، والمعشار يرد في التعبير العربي بمعنى العشر ، ويرد بمعنى عشر العشر وقد يرد حتى بمعنى عشر العشير أي واحد في الألف ، قال الله تعالى :

﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ .

أي فكيف كان غضبي وسخطي وانتقامي ، وهذا الاستفهام يدل على التهويل والتعظيم ، لقد كان انتقام الله منهم عظيما مهولا لم يستطيعوا له دفعا هم ولا آلهتهم التى يدعون من دون الله ، وهذا إنذار بليغ لكفار قريش وتخويف لهم أن يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم من عذاب الله ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

قُلْ إِنَّمَآ
أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا
بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾
قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾
قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا
يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا

فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ
التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ
بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ
كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

يلقن الله تبارك وتعالى نبيئه الكريم أجوبة سديدة يخاطب به قومه ليقيم عليهم الأدلة بالحق الذي لو تجردوا من أهوائهم لأدركوه جليا لا لبس فيه ، وكذلك يثبت الله رسوله والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، والله يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم، وفي هذه الأقاويل الخمسة التى يأمر الله نبيئه أن يقولها لقومه خلاصة ما سبق من أول السورة من تدبّرها أدرك الحقيقة وعرفها وهي حجج منطقية تخاطب العقل ، ولا يمكن لأي عاقل معارضتها ، ومن لج في عناده بعد هذه البيانات والبراهين صار إلى العاقبة التى تبينها الآيات المحكمات التي ختم الله بها هذه السورة وهي عاقبة رهيبة ترتجف منها قلوب المستمعين يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

قل يا محمد لقومك إنما أعظكم وأذكركم وأدعوكم لخصلة واحدة أرجو أن تجيبوني

وتوافقوني إليها وفيها النجاة لكم مما أنذرتكم به من عذاب الله ، وذلك أن تقوموا لله مثنى وفرادى وتتجردوا من أهوائكم ومن رغباتكم وتعصبكم للأجداد ، ومن كل هوى تميل إليه نفوسكم من حب المال والسلطان والعلو في هذه الدنيا ثم تتفكرون بعقولكم تفكرا خالصا لله لا شائبة فيه يقول لهم . ﴿لِلهِ﴾ .

لأنهم يؤمنون بالله الذي خلقهم أنهم ربهم ورب العالمين إلا أنهم خرقوا له شركاء يزعمون أنهم يشفعون لهم ويقربونهم إلى الله زلفى ، فهم يلبسون إيمانهم بظلم ، فهو يدعوهم بالله الذي يعترفون به أن يقوموا له بخصلة واحدة وهي أن يتفكروا مثنى وفرادى، والتفكر السليم الهادي لا يستقيم إلا لاثنين يتحاوران في دعة وسكون وتجرد أو لواحد والإثنان خير من واحد ، لأن أحدهما يذكر الآخر بما نسيه أو غفل عنه أما إذا كثر العدد فلا يستقيم التفكر ولا يجري في طريقه السليم بل يصير الأمر إلى اضطراب وتشويش وبلبلة فتظيع الحقيقة إلا إن كان أمرهم بيد شخص واحد يهابونه ويعظمونه فيدير المحاورة بنظام محكم فحينئذ تكون المحاورة بينه وبين كل شخص منهم واحد بعد واحد فيصير التفكر حينئذ مثنى ، وفي القرآن إرشاد لنا وتأديب وحكمة ، والوقف يكون هنا عند قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ . فإذا قاموا بهذا التفكر في أمر صاحبهم أدركوا أنه ما به من جنة وهو أبعد الناس عن الجنون فبقي أن يكون رسولا حقا من عند الله نذيرا لهم بين يدي عذاب شديد وقريب غير بعيد ، وقوله تعالى : ﴿بِصَاحِبِكُمْ﴾ .

إشارة إلى كون هذا النبيء واحد منهم فهم يعرفون عقله وصدقه وأمانته ولا

ينكرون منه شيئا وقد تفكر مفكرهم في أمر محمد فأدرك الحق وكاد أن يصرح به لولا تعصبه لدين الأجداد ، وهو عظيم مكة الوليد بن المغيرة المخزومي تفكر فأعلن برأيه بين أصحابه كبار قريش فقال : والله ما هو بشعر وأنا أعلمكم بالشعر رجزه وقصيده، ولا هو بسجع الكهان ولا هو بكلام المجانين ، إن فيه لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمعذق وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى ، فما بقي إلا أن يقول هو كلام رب العالمين ولكن يمنعه التعصب وحب العلو وحب الفجور ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ [القيامة /٥] ثم فكر وقدر وعبس وبسر فقال ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤثَرُ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر/٢٤-٢٥] وهذا الكلام أملاه عليه الطغيان والكبرياء خشية أن ينتشر الكلام الأول في الناس فيصبئون في نظره ونظر أمثاله من كبراء القوم ، وقد علموا أنه ما به من جنة لأنه لا يمكن لعاقل مثله أن يجازف بمقالة يخاطب بها العالم إلاوهي حق ولو كان مفتريا لابد سيفتضح أمره وهذا لا يقدم عليه عاقل ، وقد عرف محمد ﷺ بالعقل والصدق ولقبوه الأمين لأمانته ونزاهته ، فلا يمكن أن يكذب على الله من عاش أربعين سنة وهو لا يكذب على الناس وما جربوا عليه كذبة واحدة .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

وكذلك أنبياء الله ورسله عليهم السلام لايسألون أقوامهم أجرا على رسالاتهم بل كان قولهم لهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ وقد عرضت قريش على نبيها أشياء يأخذها ويترك دعوته هذه فأبى وقال « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أموت دونه » قال لهم

كما أمره الله : ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله ، منه أحتسب أجري في الدار الآخرة ، وهو على كل شيء شهيد كفى به شهيدا بيني وبينكم ، فإذا كان لا يطلب عوضا على أمره هذا، فما هي النتيجة التى ينتهي إليها المتفكرون المتجردون ؟ لا شك أنهم يدركون أنه صادق مبلغ عن ربه أرسله الله تعالى رحمة للعالمين لينذرهم عذابا شديدا وليبشر المؤمنين الذين اتبعوا النور الذي أنزل معه بفوز عظيم ، وكفى بالله شهيدا على صدق ما يقول ، وما أروع هذا التذييل بهذه الآية في مثل هذا المقام!﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ .

بعد ما تبين بالمقولين السابقين أن محمدا ليس بمجنون ولا هو يطلب على أمره هذا أجرا بل أجره على الذي أرسله لم يبق إلا الاعتراف بالحق ، والله شهيد بين محمد وبين قومه وكفى بالله شهيدا ، قال الله لنبيه عليه السلام : قل إن ربي الذى أرسلني يقذف بالحق ، والقذف لا يكون إلا بشيء متين صلب ، والمقذوف هو الباطل ، ولم يذكر هنا لهوانه والمقذوف لا يكون إلا مهينا مدحورا وما تكون حاله إذا قذفه الله بالحق فهو لا شك لا يكون إلا زاهقا مهزوما متلاشيا ، والذى يقذفه بالحق علام الغيوب وسيكون هذا الحق قويا يصيب مرماه لأنه من علام الغيوب ، وسيكون هذا الحق قويا ويبقى كذلك مدى الدهر لأنه من عالم الغيب والشهادة ، وسيمكن الله لكل من نصره وأيده أي تمكين ومن لم ينصره ولم يأخذ به سيهزم ويهون ولا ينفعه مجرد الانتساب إليه ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن

رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة/٦٨] الحق قوي بذاته منتصر في كل زمان ومكان أنزله عالم الغيب والشهادة عالم بأسرار هذا الكون خبير بالنفس لأنه هو الذي سواها وألهمها فجورها وتقواها، ومن حمل مشعل الحق اهتدى وكان الله معه ولو كان قليلا ، ونصره ولو كان ضعيفا، وأعزه ولو كان ذليلا ، ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة/٢٤٩] أنزل الله هذا الدين بالحق ولا يزال قويا يعلو ولا يعلى لأن الذي أنزله هو العلي الكبير علام الغيوب .

﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ .

قل جاء الحق عبارة موجزة بسيطة ولكن قوتها في إيجازها وبساطتها ، وإذا كان الحق قويا بذاته فلا حاجة إلى تنميق العبارات الفخمة في وصفه بل يكفي أن نخبر عن مجيئه ، فلو أن رجلا عرفه الناس بالبطولة وشدة المراس جاء للبراز فرآه الناس وهم يعرفون قوته وبطولته فلا حاجة حينئذ إلا أن يقول الناس : جاء فلان فما بال الباطل المهين إذا جاء الحق ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ [الإسراء/٨١] والزهوق هو الذوبان والتلاشي وقال تعالى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء/١٨] والدمغ هو الضربة القاضية على أم الرأس موضع الدماغ .

﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ .

هذا بعد مجيئ الحق وقذفه للباطل و ﴿ مَا ﴾ هنا قد تكون نافية وقد تكون استفهامية يراد بها النفي وهذا الذي نرجحه لأنه يعطي قوة للمعنى لأنه يحمل المستمع

على الاقرار بالحقيقة وهي أن الباطل لا يبدئى عند مجئ الحق ولا يعيد ، أي لا يقوم ولا يقوى على معارضة الحق ولا يصنع شيئاً لا أولا ولا آخرا فهو مهزوم في أول الأمر وآخره متلاشي لا بقاء له.

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

وهذا خطاب آخر فيه ميزان منطقي تدركه العقول السليمة ، يأمر الله نبيئه أن يخاطب به قومه يدعو ليتفكروا متجردين عما ورثوه من الآباء من الاعتقادات ، فإما أن يكون هذا الذي يخاطبهم ضالا أو مهتديا فإن هو ضل فضلاله على نفسه لا يضرهم، وإن اهتدى فبوحي من ربه وإرشاد منه فعليهم أن يطيعوه ويتبعوا هداه وإلا فسيصيبهم العذاب القريب الذي ينذرهم به وهم لا شك إن طرحوا التعصب للأهواء جانبا سيدركون أنه صادق يدعوهم إلى هدًى فياويلهم إن كذبوه و لم يطيعوه ، وهو أسلوب من الخطاب بديع ملزم للخصم لا يقوى على معارضته إلا مكابر غشوم يجنح إلى استعمال العنف إذا أعوزته الحجة ، كل هذا والرب سميع لقول نبيئه سميع لجواب قومه قريب غير بعيد سريع الحساب فأنى يؤفكون .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُواْ فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ وَقَالُواْ ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾

يختم الله هذا السورة الكريمة بهذه الآيات التى فيها تخويف وتهويل عجيب في

عبارات جياشة بمشهد مؤثر فظيع لهؤلاء الكفرة المكذبين المرتابين في صدق ما جاءت به رسل الله وكذبوا وصدق الله العظيم. ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُواْ فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ . ولو ترى يا محمد ومن بعد محمد ممن يصلح للرؤية والاعتبار ، لو ترى إذ فزع هؤلاء المكذبون فلا فوت ، فهم في فزع عظيم ينتابهم حين يشاهدون ما يشاهدونه من أهوال ذلك اليوم وقوارعه ، الناس في هذه الدنيا إذا فزعوا يهربون مما يفزعون منه طلبا للنجاة ولكن الكفار يومئذ يفزعون فلا فوت ولا هروب ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى/٤٧] إنهم لن يعجزوا الله هربا ولن يستطيعوا لعذابه دفعا ، لو ترى حالهم يومئذ لرأيت أمرا عظيما لا يأتي عليه وصف ، ولذا حذف جواب الشرط و لم يذكر ، وفي حذفه تبليغ عن فظاعة المشهد أدل على المقصود من ذكره، ويأتي مثل هذا في الكلام البليغ وهو موجود في القرآن في غير موضع ، من ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُم ... الآية ﴾ [الأنعام/٩٣] ويأتي مثل هذا الأسلوب البديع في مواضع التفخيم والتهويل .

﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ .

قال : أخذوا على صيغة المبني للمجهول و لم يذكر من هو الآخذ لأنه معلوم وهو الله لاشك وقد كانوا ينكرون هذا الأخذ ، وقال من مكان قريب كناية عن تمكن الآخذ من المأخوذ لأن الشيء إذا أخذ من مكان قريب لا يفلت ، والله تعالى أقرب إلى أحدهم من حبل الوريد .

﴿ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ .

اعترفوا بما أنكروه من قبل وصرحوا بالإيمان بما كفروا به من أمر الوحي وما جاء به الوحى ، قالوا ءامنا به وقال الله تعالى أنى لهم التناوش من مكان بعيد والتناوش هو التناول ، أنى لهم تناول الشئ بعد أن أصبح بعيد المتناول بُعد ما بين الدنيا والآخرة، فإيمانهم يومئذ لا ينفعهم شيئا ولا يفلتهم من العذاب .

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ .

وقد كفروا من قبل بما ءامنوا به اليوم وكانوا يقذفون بالأباطيل رجما بالغيب فهم يقذفون ولكن قذفهم يطيش ولا يصيب لأنهم يقذفون بالغيب ومن مكان بعيد فأنى يصيب ما قذف بالغيب ومن مكان بعيد عن المرمى وكذلك أمر الكفار المكذبين ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ .

قال الله تعالى: وحيل بينهم وبين ما يشتهون من الرجوع إلى الدنيا ليتوبوا ويعملوا عملا صالحا ينجيهم من العذاب كما نجى المؤمنون وذهبوا بنورهم إلى الجنة وتركوهم في ظلمات ، تمنوا النور واشتهوه وطلبوه ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم وأشكالهم من قبل من الأمم الماضية المكذبة لرسل الله ، تشابهت قلوبهم وأعمالهم وأقوالهم فتشابهت عواقبهم .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ .

إنهم كانوا من هذا الأمر في شك أوقعهم في الريب ولو آمنوا لكان خيرا لهم وأنجى من عذاب الله .

وهكذا يختم الله تعالى هذه السورة الكريمة بمثل ما بدأها به وهو تقرير الحق من أمر اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وبيان عاقبة المكذبين المنكرين لقيام الساعة الذين عرض قولهم في أول السورة حيث قال تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ .

إن علم الساعة وما في اليوم الآخر من الأمور الغيبية التى لا تثبت إلا بالوحى من عند الله عالم الغيب ، والناس من هذا الخبر فريقان : فريق المؤمنين الذين يعلمون أنه الحق من ربهم وفريق الكفار الذين يكذبون الرسل ولا يؤمنون بالغيب ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ، وإلى الفريق الأول الإشارة فى أوائل السورة ، وإلى الفريق الثاني الإشارة في آخر السورة وما ذاك إلا لشدة مناسبة أول السورة بآخرها وكذلك سور القرآن كالحلقات الذهبية يشد بعضها بعضا ، وتختتم بتقرير ما هو الحق من عند الله عالم الغيب والشهادة الحكيم الخبير وهو على كل شيء شهيد ، والله يقول الحق وهو العلي الكبير ، وتفتح هذه السورة بالحمد لله والتي بعدها كذلك تبدأ بالحمد لله، والمناسبة بينهما شديدة وكلاهما يثبتان أمر الوحي والرسالة ، وأن وعد الله حق وأن المكذبين برسل الله لهم عذاب شديد وإلى الله ترجع الأمور .

هذا وقد انتهينا من تفسير ما تيسر لنا من سورة ﴿ سبإ ﴾ ولله الحمد رب العالمين .

سورة
فاطر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

تفسير سورة ﴿ فاطر ﴾ وهى مكية وءاياتها خمس وأربعون

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا
وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ
يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾

السورة مكية وأسلوبها يجري على النحو الذي تجري به أساليب السور المكية في شدة إيقاع آياتها القصار وتسمى سورة فاطر، وتضغط على عقيدة التوحيد وأن

الأمر كله بيد الله ، وتدعو الناس إلى الإيمان باليوم الآخر ، والاستدلال بإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بعد موتها على قضية البعث بعد الموت ، والأمر بحسن الاستعداد ليوم الحساب وأن لا يغرنا الشيطان الغرور ولا تغرنا الحياة الدنيا ، وتبتدىء السورة كالتي قبلها بإسناد الحمد لله . ﴿ الْحَمْدُ لِلهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

الحمد هو الثناء بالوصف الجميل على فاعل الجميل المتصف بالكمال ، فإسناد الحمد إلى الله فى هذه الجملة الاسمية يفيد أن جميع المحامد دائما لله تعالى فاطر السموات والأرض وما فيهما ، ففي السورة السابقة إسناد ملك ما في السماوات والأرض لله وفي هذه إسناد خلق السماوات والأرض لله لأن الفطر هو الخلق والإبداع ، لله ما في السماوات والأرض خلقا وملكا وتدبيرا لأمر الكون كله سمائه وأرضه ، فلله الحمد ولله النعمة والملك وإليه ترجع الأمور ، وكل حمدٍ أسند لغير الله فهو مجازي والحمد الحقيقي لله خالق الخلق ميسر الأسباب مُسبغ النعم على مخلوقاته ، موفق المحمودين إلى فعل ما يحمدون عليه فهو صاحب الحمد مولى النعم إليه تنتهي المحامد كلها .

﴿ جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً اُوْلِى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ اِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

الملائكة عباد لله مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون والله تبارك وتعالى خالقهم وجاعل منهم رسلا يبلغون رسالات الله إلى من يشاء من عباده ، وجاعل منهم رسلا ينزلون بأوامر ربهم كالكاتبين البررة والحفظة، والذين يسوقون السحاب، والذين يتوفون العباد عند حلول آجالهم، والذين ينزلون بالرحمات أو

بالنقمات، فهم جنود الله المسخرون يرسلهم لما يشاء ، وينزلهم بالروح على من يشاء من عباده ، وخلق لهم أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وروي أن رسول الله ﷺ رأى جبريل وله ستمائة جناح ما بين الجناحين ما بين المشرق والمغرب .

﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ .

والزيادة ليست مقصورة على خلق الملائكة وأجنحتها بل تعم خلق الله فهو الخالق لجميع المخلوقات يزيد فى خلقه ما يشاء .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

هكذا يأتي هذا الوصف لله بالقدرة على كل شيء مؤكدا ويحمل على عمومه ، وكل ما كان من هذا القبيل من أسماء الله الحسنى وإسناد الكمالات إليه تفهم على عمومها وتنطبق على جميع مدلولاتها ، ولايجوز تخصيصها ولا توهمُ ذلك فى البال فإن ذلك من وسواس الشيطان ، بل نؤمن بعموم هذه الأوصاف التى يصف بها الباري نفسه .﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ .

وهكذا بما تفيده العبارة من الاطلاق والعموم بدون استثناء ولا تخصيص . أماما يقوله أهل اللغة والمعاني ما من عموم إلا وقد خصص ، فهو فى غير هذا المجال .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

إن الله هو الرحمن الرحيم والرحمات بيده لا بيد غيره فهو الذي يصيب

برحمته من يشاء من عباده ، فما يفتح من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهذا حكم من الله عام لا مخصص له أبدا ، وقد فتح للناس رحمة ببعث محمد أرسله الله رحمة للعالمين ولكن هؤلاء الكفار المكذبين يريدون إمساك هذه الرحمة بإنكارهم وتكذيبهم وأنى لهم ذلك وقد فتح الله رحمته للناس ، فهم يريدون أن يطفئوا نور الله والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وما من رحمة يفتحها الله على عباده عموما أو على من يشاء منهم فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، ومن ذا الذي يستطيع أن يمسك ما فتح الله ومن ذا الذي يستطيع أن يرسل ما أمسك الله ؟! ولهذه الآية أثر بليغ في نفس المؤمن المتوكل على ربه إنه يزداد طمأنينة وثقة بقضاء الله وقدره فلا يلتفت إلى الوسائط ويقطع رجاءه منها فلا يرجو إلا الله، روي عن عامر بن أبي القيس قال : أربع آيات في كتاب الله تعالى إذا قرأتها فما أبالي ما أصبح عليه وما أمسي لا أخاف الفقر ولا الانسان ولا الشيطان ولا أي شئ أبدا ، وهذه الآيات أولها قوله تعالى :

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ثانيها قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس/١٠٧] ثالثها قوله تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ [الطلاق/٧] رابعها قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود/٦] هذا وجاءت كلمة الرحمة وهي أبلغ من النعمة لأن النعمة إذا لم تقارنها رحمة من الله فهي بلية ونقمة ، وينعم الله على الناس جميعا ليبلوهم

أيشكرون أم يكفرون ويرحم الله من عباده الرحماء ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [آل عمران/٧٤] ويقول تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف/١٥٦] الآية ، وبعد الآية التي نحن بصددها يأتي التذييل بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

العزيز الذي لا يغالب ولا ينال ما عنده إلا بإذنه وفتحه ، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها ومن أراد رحمة الله فليسلك لها أسبابها ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف/٥٦] والتعبير بالفتح في الآية يشعرأن هنالك خزائن مفاتيحها بيد الله فهو وحده يفتح بما شاء لمن يشاء وخزائن الله لا تنفد لكن يفتح منها بحسب الحكمة وهو العزيز الحكيم ، وهو تعالى يقول : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر/٢١] ويقول : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ [الشورى/٢٧] فالخزائن بيد الله العزيز المالك القادر ، والفتح والتنزيل والإرسال والبسط يكون بحسب الحكمة، والله هو الفاتح الممسك القابض الباسط العزيز الحكيم .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ .

نداء من الله تعالى للناس كافة يأمرهم أن يذكروا نعمة الله، والذكر المقصود هنا ليس باللسان فحسب بل بالقلب واللسان والعمل ، وهو استعمال النعم فيما خلقت له، وشكر الله بالإقبال على طاعته واجتناب معصيته، والنعمة المذكورة ليست نعمة واحدة بل هي جنس النعم التى ينعم الله بها على عباده وأعظمها نعمة الهداية

إلى الدين الحنيف ، ثم بعدها نعمة الحياة والعقل والصحة والعافية والرزق وغيرها من النعم التى لا تحصى .

﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُوفَكُونَ ﴾.

يضرب الله مثلا ويلقي علينا هذا الاستفهام المقصود به النفي والعموم ، أي لا أحد مطلقا يخلق ولا أحد مطلقا يرزقكم من السماء والأرض إلا الله ربكم لا إله إلا هو ، فهو وحده الخالق الرازق فلم تعبدون غيره ، فأنى تصرفون عن الحق ، والإفك هو الكذب لأنه يصرف عن الحق وكل من جعل لله ندا فقد أفك عن الحق إلى الضلال.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ .

الخطاب من الله لنبيه ﷺ فيه تسلية له ولأ صحابه وللمؤمنين ، يقول له وإن يكذبك هؤلاء الكفار من قومك فقد كذبت رسل كثيرون قبلك فلك بهم أسوة فاصبر ولقد جاءهم نصرنا وكذلك سننصرك ونظهر أمرك عليهم ، وعواقب الأمور بيد الله ومرجعها إليه وحده ، فليكن عليه توكلك وبه ثقتك وإليه إنابتك ومآ بك ، وفي الآية وعيد وتهديد للمكذبين .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ
فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ
فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ
عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ
ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ
بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ
جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ
يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ
يَبُورُ ١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ
أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ
وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١
وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ
أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ

وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ
لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ . النداء الثاني من النداءات الثلاثة فى هذه السورة الكريمة ، ينادي الله الناس جميعا ليؤكد لهم صدق وعده لهم ، إن وعد الله بالبعث بعد الموت وبالحساب والجزاء حق لا ريب فيه ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا بمفاتنها وزهراتها فتلهيكم عن الاستعداد للقاء الله في الآخرة فإن لقاء الله حق وإن عذاب الله لواقع ، ولا يغرنكم بالله الغرور، وهو الشيطان الذي غرأبويكم وخدعهما وأقسم لهما حتى أخرجهما من الجنة ، يغر الشيطان الناس يقول لهم اعملوا ماشئتم فإن رحمة الله واسعة وأنه يغفر الذنوب جميعا ، فيرتكبون الكبائر من الذنوب ويطمعون أن يغفر الله لهم بدون توبة ، وهذه هي الأماني الغرارة التي يلقيها الشيطان في قلوب الناس وهي التي غرَّبها من كان قبلنا فيحذرنا الله منها ومن الاغترار بزهرة الحياة الدنيا وفتنتها ، وهي

نصيحة من الله لعباده فيها موعظة بليغة وإنذار لهم .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنَ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾.

يؤكد الله لنا أمر عداوة الشيطان لنحذره وهو عدونا الأول وعداوته لا تزول فقد أقسم بعزة الله أن يغوينا أجمعين إلا عباد الله المخلصين ، وقد حذرنا الله منه وبين لنا عداوته في غير موضع من كتابه ويأمرنا هنا أن نتخذه عدوا وذلك بمخالفته والاجتهاد في أخذ الحذر منه وقال الله : ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنَ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

إنما بطريقة الحصر أي ليس له غرض من دعوة الناس إلى مولاته ومطاوعته إلا أن يلقيهم فى جهنم ، ومن أطاعه فهو من حزبه وحزب الشيطان أعداء لله هالكون قال الله ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة/١٩] وللسعير وهي نار جهنم أصحاب خلقوا لها وخلقت لهم وهم حزب الشيطان الذين يوالونه أو يعبدونه، وهذا تحذير كبير من الله لعباده من عدوهم الأكبر وأمر لهم بمحاربته لينجوا من عذاب النار.

﴿ الذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ .

يبّين الله تعالى فى هذه الآية مصير الفريقين عندما يأتي وعد الله الحق ، الذين كفروا بالله ورسله وكذبوا بوعده وعبدوا الشيطان و لم يعبدوا الله فأولئك لهم عذاب شديد والعذاب عذاب فكيف به إذا كان شديداً أعاذنا الله من عذابه، أما الذين ءامنوا بالله ورسله وصدقوا بوعده و لم تغرهم الحياة الدنيا و لم يغرهم بالله الغرور فأولئك لهم مغفرة من الله يغفر الله ذنوبهم ويكفر عنهم سيئاتهم لأنهم تابوا منها وأنابوا إلى

الله ولهم أجر كبير يتقبل الله أعمالهم ويضاعفها لهم ويدخلهم الجنة بفضله ورحمته ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة/٢٢]. والآية فيها بيان أن الايمان النافع يوم القيامة هو الذي يقترن بالعمل الصالح بل هو جزء من الايمان، فالايمان الحقيقي مركب من العقيدة والإقرار بجملة التوحيد ، والإتيان بالعمل الصالح هو امتثال الأوامر واجتناب النواهي .

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

ينبهنا ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية إلى طبع خطير في الإنسان هو من أخطر حالات الإنسان إذا صار فيه لا يرجى له الخير ولا يؤثر فيه الوعظ والإنذار ويصوغ الكلام في صيغة الاستفهام الإنكاري تليه ﴿ من ﴾ الشرطية ولا يؤتى لها بجواب ليكون ذلك أبلغ في التعبير ليذهب الفكر في الجواب مذاهب .

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَناً ﴾.

أفمن أضله الله وأصمه وأعمى بصره فزين له سوء عمله فرآه حسنا، هي دركة من الشقاوة يصل إليها الناس بسبب ذنوبهم التي ترين على قلوبهم فتستحوذ عليهم شياطينهم من الجن والإنس فتزين لهم المعاصي فيمعنون في ارتكاب الآثام فيصيرون والعياذ بالله إلى حالة يرون فيها الحسن قبيحا والقبيح حسنا فمن كان كذلك فلا يرجى له صلاح ! يقول بعض أهل العلم : هذا مفترق الطرق فمهما يرتكب الإنسان من الذنوب فإنه إن كان يشعر بقبح ذنوبه يرجى له الرجوع والتوبة وهو لا يزال في الطريق

أما إذا زينت له نفسه عصيانه فأصبح يرى عمله السئ حسنا فقد صار في مفترق الطرق وسلك طريقا آخر فلا يرجى له رجوع ، فكيف يتب من يرى سوء عمله حسنا ويضحك من الصالحين ويراهم سفهاء ويسخر من الوعاظ والمرشدين ! إن أمثال هؤلاء لا يرجى لهم صلاح ، يقول الله تعالى :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

إن الأمر بيد الله يضل من يشاء من عباده بعدله يصيبهم ببعض ذنوبهم ويكلهم إلى أنفسهم ويهدي من يشاء برحمته يوفقهم ويأخذ بأيديهم ومن يضلل فلا هادي له، فلا تذهب نفسك يا محمد عليهم حسرات أسفا ألا يؤمنوا فإنما عليك البلاغ وعليك التبشير والإنذار وليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ، فلا تحزن عليهم فإن لهم أجلا هم بالغوه وعنده يجدون الله فيوفيهم حسابهم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾.

إن ربهم عليم بهم وبأفعالهم وأقوالهم وسيجازيهم عليها الجزاء الأوفى ، وفي هذا التعقيب ما فيه من الإنذار والتهديد وفيه تسلية لنبيئه ومن معه من المؤمنين لأنهم يلاقون العنت من هؤلاء المكذبين الذين يسخرون بالوعاظ والمرشدين ويتخذونهم هزؤا ولعبا ويضحكون من الذين ءامنوا ويمدهم الله في طغيانهم فيزدادون غيا فسلّى الله عباده المؤمنين بهذه الآية الكريمة .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ .

يذكّرنا ربنا تبارك وتعالى بهذه الآية الدالة على كمال قدرته يذكرنا بمناظر نشاهدها دائما في سماء الله وأرضه إن نظرنا إليها نظرة تأمل واعتبار فإنها تدلنا دلالة واضحة على قدرة الله على إحياء الموتى وبعث الحياة فيهم والذي خلق الخلق أول مرة قادر على أن يحيي الموتى وهو على شيء قدير. والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا ، ويأتي التعبير هنا بالمضارع لنستحضر ذلك المشهد البديع الذي يدل على قدرة الله وهو يتجدد دائما، ويأتي ذكر الرياح غالبا بالجمع في القرآن ليدل على رياح نعمة الله ورحمته ، فهي هنا الرياح الدافئة التي تثير السحاب من البحار ثم تسوقه بإذن الله قال الله: ﴿ فَسُقْنَاهُ ﴾ .

جاء الفعل موصولا بنون العظمة ليدل على ما في الأمر من عظمة الرب للمتأملين، يسوق الله السحاب إلى حيث يشاء وتمطر بما يشاء كيف يشاء قال تعالى :

﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ .

أي انظروا إلى السحاب كيف نسوقه حتى إذا أمطر على بلد ميت أحيينا به الأرض بعد موتها فأنبتت من كل زوج بهيج ، إنكم إذا نظرتم نظرة اعتبار أدركتم أن الذي أحيا البلد الميت لمحيي الموتى كذلك ، أي كإحياء البلد الميت يكون بعث الأجساد ورد الحياة إليها ، كما أنبت الله بذور النبات التى ضلت في الأرض وبعث فيها الحياة كذلك يخرج الله الموتى من الأرض ويحييها الحياة الثانية وذلك النشور . كذلك

يضرب الله المثل بهذه المشاهد الكونية التي تتكرر دائما ويراها الناس كلهم باديهم وحاضرهم ، عالمهم وجاهلهم ، فهي ظاهرة ليست خفية ولا نائية ولا تنقطع زمانا ثم تعود ، بل هي تتكرر على الدوام بحيث يراها الناظر في كل زمان ومكان ، وقيل إن الله تبارك وتعالى إذا أراد إحياء الخلق للبعث والحساب ينزل على الأرض ماء من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجسادهم فيرد إليها أرواحها كذلك ينشئ الله النشأة الآخرة إن الله على كل شئ قدير، وكذلك يقيم الله الحجة على خلقه بما يضرب لهم من الأمثال .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ .

بعد أن يبين الله لنا في الآيات السالفة عجائب قدرته في سمائه وأرضه وأنه هو العزيز الحكيم وإليه ترجع الأمور قال ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ من كان منكم يطلب العزة فليطلبها من الله فلله العزة جميعا في الدنيا والآخرة ، لا من الأوثان والأصنام ولا من الملوك والأمراء ولا من المال والقوة ، أما آلهتهم التي يعبدونها من دون الله فقد قال الله فيها : ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم/٨١-٨٢] ويطلب المنافقون العز من الكافرين فأنزل الله فيهم ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً الذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُومِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلهِ جَمِيعاً ﴾ [النساء/١٣٩] الاستفهام إنكاري ، ينكر الله على من يبتغي العزة من عند غير الله ،

ويؤكد لنا أن العزة لله جميعا من أرادها فليطلبها منه وحده ومن طلبها منه فليطلبها بطاعته وحسن عبادته فإنه لا ينال ما عند الله بمعصية الله ، قال تعالى :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ .

إليه أي إلى الله وحده يصعد الكلم الطيب ، والكلم الطيب توحيد الله وذكره والثناء عليه بما هو أهله ، والعمل الصالح يرفعه الله إذا كان مقرونا بنية خالصة ليس فيه حظ لمخلوق هذا بعد أن يكون موافقا لشريعة الله وسنة رسوله الكريم ﷺ ، وروي عن النبيء ﷺ في هذا المعنى أنه قال : « هو قول الرجل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن ، فالكلم الطيب والعمل الصالح والإخلاص فيه هي وحدها مفاتيح العزة لمن أرادها وهي بيد الله تبارك وتعالى يرفعها ويعز أهلها في الدنيا والآخرة ﴿ وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ ﴾ [المنافقون/٨] .

﴿ وَالذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ .

والذين يمكرون المكرات السيئات لهم عذاب شديد ، أنذرهم الله بالعذاب الشديد وهو عذاب جهنم وبئس المصير وهؤلاء هم كفار قريش مكروا المكر السّيئ ودبروا للنبيء ثلاثة أنواع من الكيد فجعل الله كيدهم في ضلال وحاق بهم مكرهم فأهلكهم الله يوم بدر ﴿ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر/٤٣] وكذلك عاقبة كل من مكر المكر السيئ من الكفار والمنافقين بأنواع المعاصي والظلم لهم عذاب من الله شديد .

﴿ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ .

البوار هو الهلاك ، إنهم يمكرون لأهلاك المؤمنين ولكن مكرهم هو الذي يبور ويكتب الله النصر والعزة للمؤمنين ، وجاءت الإشارة إليهم بإشارة البعد لبعدهم عن الله وهوانهم عنده فهم ممقوتون مسخوط عليهم والعياذ بالله .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

لا يزال الله تبارك وتعالى يذكرنا بدلائل قدرته ودلائل التوحيد ودلائل البعث لنتفكر في مخلوقات الله فندرك عظمة الخالق ، وفي هذه الآية الكريمة يذكرنا بأصل خلقتنا الأولى وبتكوننا في أرحام الأمهات وأطوارنا بعد ذلك ، يقول تعالى : والله الذي خلقكم من تراب أي الخلقة الأولى من سلالة من طين ثم الخلقة الثانية من نطفة تمنى في أرحام الأمهات ثم تطور طورا بعد طور حتى يخلقه الله خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، يقول تعالى :

﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ .

ثم جعل منكم أزواجا ذكرا وأنثى ليتصل الذكر والأنثى فيستمر وجود الجنس، وفي كل ذلك آيات بينات لمن تدبرها تدل على وجود الخالق المالك الرازق وقدرته وعلمه وإتقان صنعه وأن شيئاً من ذلك لا يملكه غيره ولا يقدر عليه ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ .

آية أخرى من آيات الله في خلقه وهي أحاطة قدرته وعلمه بكل أنثى وما تحمل

وتطور حملها وما تضع ، والآية تشمل كل أنثى من بني آدم أو من الحيوانات والبهائم وما خلق الله في البر والبحر ، ما من أنثى تحمل إلا بإذن الله وقدرته ولا تضع إلا بعلمه، يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وفي التفكر في هذا علم واسع ودلائل واضحات تدل على أنه الواحد القادر العليم وأنه أحق أن يعبد ويطاع ويتقى ويخاف ويرجى وأن لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ .

يخلق الخلق ويقدر آجالهم وأعمالهم وآثارهم كل في كتاب مبين وهو اللوح المحفوظ ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ .

المعمر الذي يعيش عمراً طويلا ، قال قتادة أحد العلماء التابعين : من جاوز الستين فهو المعمرين .

﴿ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ .

أي ومن يعش دون ذلك ويحتضر فكل ذلك بعلم الله وقدرته وفي اللوح مكتوب أجله ، وجاء الضمير في الفعلين واحدا وليس المعمول واحداً ويجري هذا في الأسلوب العربي ثقة بفهم السامع وعليه كلام الناس المستفيض ، ولا يلتبس على الناس الطول والقصر في عمر واحد وهذا من التعبير المتسامح فيه على غرار قولهم : لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه إلا بحق أي ولا يعاقب آخر إلا بحق ، والإيجاز مطلوب إذا اتضح معنى الكلام في فهم السامع ، وكذلك قولهم : وما تنعمت بلدا ولا اجتويته إلا قل ثوائي فيه ، أي ولا اجتويت آخر . والمفهوم هنا وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر

آخر إلا في كتاب .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

كل ذلك مما تقدم ذكره من الآيات العظام يسيرٌ على الله هين عليه لا يعجزه شئ ولا يؤوده خلق السموات والأرض ولا حفظهما ولا يعزب عنه مثقال ذرة ولا يمسه نصب ولا لغوب ، بل يتعب المخلوقون ويمسهم النصب والإعياء بعد القيام بعمل فيه إجهاد النفس فيرهقهم لما طبعوا عليه من الضعف والعجز وعوامل الفناء ، أما العليم القدير المدبر الحكيم فقد وسع كل شئ رحمة وعلما ، وأحاط بكل شيء قدرة وإرادة ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَّرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام/٥٩] ومن كانت هذه أوصافه فهو أحق أن يفرد بالعبادة ويعظم ويخاف ويرجى وأن نتوكل عليه ونفوض أمورنا كلها إليه .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأكُلُونَ لَحْماً طَرِّياً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾. يلفتنا ربنا تبارك وتعالى إلى آياته في البحار ويضرب لنا بها مثلا للمؤمنين والكفار كما لا يستوي الليل والنهار ولا يستوي الظل والحرور حتى نفهم البون الشاسع بينهما . يقول الله تعالى:

﴿ ومَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ .

لا يستوي بحران أحدهما عذب شديد العذوبة فرات يكسر العطش سائغ شرابه

ينحدر إلى الجوف بيسر لحلاوته ، وهذا مثل للمؤمن الطيب القلب الحلو اللسان ذي الخلق الحميدة والمعاملة الحسنة ، والآخر ملح أجاج مر يحرق الحلق لملوحته ومرارته، وهذا مثل الكافر الخبيث النفس المر اللسان ذي الأخلاق الفاسدة والمعاملة السيئة ، غير أن البحر المالح ولو ضرب مثلا له في الملوحة والمرارة له منافع كما للبحر الحلو منافع ، وفي تأمل ملوحة هذا وعذوبة ذلك آيات بينات وعبر ناطقات بقدرة الله وعلمه ورحمته بمخلوقاته وبديع صنعه ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل/٨٨] .

﴿وَمِن كُلٍّ تَأكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

ومن كل من نوعي البحار تأكلون لحماً طرياً من الأسماك والحيتان التي تصطادونها وأنواع من لحوم البحار لا يعلمها إلا الله ، لحوم طرية فيها غذاء لكم ، وزيوت تعتصرونها منها لكم فيها أدوية ، وتستخرجون من البحار حلية من اللآلئ والجواهر والمرجان تزينون بها لباسكم تشترونها بأثمان غالية ، ولا يعلم إلا الله ما في أعماق البحار من كنوز وأسرار ، ولا يزال العلماء يبحثون عنها ويكتشفون منها العجائب والمخبئات فسبحان خالق البحار وما فيها .

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

وترى الفلك أيها الرائي المعتبر تراها تمخر أي تشق الماء شقا بما سخرها الله ، وهي من آيات الله تراها في البحر تحمل آلاف الأطنان كأنها الجبل وتنقل آلاف الناس عبر البحار ، وهي من نعم الله العظمى لنبتغي من فضل الله بالتجارة وغيرها ولعلنا نشكر

المنعم على إنعامه علينا ويحب الله الشاكرين ، ويجزيهم بالحسنى ويزيدهم من فضله ، ومن أسمائه الشكور فربنا شكور ويحب من عباده الشاكرين .

﴿ يُولِجُ الْيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الْيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَاءَكُمْ وَلَوْسَمِعُواْ مَا اَسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ .

لا يزال السياق مستمرا في تفصيل آيات الله التي تدل على قدرته ووحدانيته ويذكرنا بيوم القيامة وقربه وما يقع فيه من العرض والحساب لنعتبر ونستعد لذلك اليوم ونتزود له بالتقوى مخلصين لله وحده ديننا .

﴿ يُولِجُ الْيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الْيْلِ ﴾ .

الإيلاج هو إدخال الشئ في الشئ ، وولوج الليل في النهار والنهار في الليل له معنيان ، الأول هو ما نشاهده كل يوم في أول النهار وآخره من ولوج ضياء النهار في ظلام الليل وولوج ظلام الليل في ضياء النهار حتى يغشى أحدهما الآخر ، وهذا منظر بديع يوحي بقدرة الله غير أن اعتيادنا له يجعلنا نغفل عن هذه الآية العظيمة ولا نقدرها حق قدرها ، والمعنى الثاني للولوج هو الذي يترتب عليه اختلاف فصول العام فطالما يزداد النهار في الطول فهو يلج في الليل حتى إذا بلغ نهايته في أطول يوم من أيام الصيف فحينئذ يبدأ ازدياد الليل فيلج في النهار حتى يبلغ نهايته في أطول ليل من ليالي الشتاء هذا وكل إقليم بحسابه والأرض تنقسم إلى أقاليم .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

أي كل من الشمس والقمر والنهار والليل وسائر النجوم والكواكب تجري إلى أجل محدود يعلمه الله .

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ .

الإشارة بالبعد إلى الله لعلو منزلته وقداسة ذاته ، ذلكم الله ربكم الذي خلقكم ورباكم وخلق كل شئ فهو ربكم ورب كل شئ له الملك الحقيقي الدائم الذي لا يزول فهو أحق أن يعبد وأحق أن يدعى .

﴿ وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ .

والذين تنصبونهم أصناماً وأوثاناً وترمزون بهم إلى آلهة من الموتى والملائكة والشياطين والجن لا يملكون من الملك مقدار قطمير، والقطمير ثوب النواة في وسط التمرة ، وفي التعبير إلى القلة فهم لا يملكون من ملك الله ولو مقدار ذلك بل لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، والملك كل الملك لله ربكم خالق كل شئ ومليك كل شئ لا إله إلا هو فأنى تصرفون .

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَاءَكُمْ وَلَوْسَمِعُواْ مَا اَسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكِمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى : إنكم متى دعوتم تلك المعبودات فإنها لاتسمع دعاءكم ولو سمعوا فإنهم لا يستجيبون لكم ، ذلك لأنهم يدعون أوثاناً وأنصاباً

ينصبونها رموزاً لناس قد ماتوا ويبنون على قبورهم أو بعيدا عنها قبابا يطلبون عندها الحاجات ، ويقسمون بها وينذرون لها ويتقربون لها بسائر القربات وقد لا يعلمون حقيقة تلك المعبودات ولا يجيبونك إذا سألتهم عنها إن هي إلا أسماء سموها هم وآباؤهم الأولون.

ويقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ إن تلك الآلهة التي ألحقتم بالله شركاء ستكفر يوم القيامة بإشراككم إياها لله وتتبرأ من صنيعكم حتى الشيطان الذي عبدوه سيعلن ذلك يوم القيامة ويقول لهم كما قص الله علينا :﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم/٢٢] وكما قص علينا خبر الملائكة في سورة (سبأ) وقص علينا في سورة المائدة خبر المسيح ابن مريم حين يسأله ربه : ﴿ ءَانتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ... الآيات﴾ ففي هذا خزي لهؤلاء المشركين وتبكيت لهم في يوم تكثر فيه حسرات الكفار ويعلنون إيمانهم بما كفروا به من قبل ولا ينفعهم إيمانهم ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

ثم يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ .

وهو نبأ عظيم لا يعلمه إلا الله عالم الغيب والشهادة ولذا جاء هذا التعقيب في غاية التمكن والبلاغة ، ولا ينبئك النبأ اليقين مثل خبير وما يعلم ذلك إلا الله العليم

الخبير ، فخذ النبأ من مصدره الموثوق ملك يوم الدين ومن أصدق من الله قيلا ، ومن أصدق من الله حديثا ، ودع قول كل أفاك أثيم يقذف بالغيب من مكان بعيد ولا يزال من أمر يوم القيامة في شك مريب .

ثم لنستمع إلى النداء الثالث من الله في هذه السورة المباركة التي تشتمل على نداءات ثلاثة :

يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا
لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا
يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ
وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾
وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ
وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ

أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ
بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا
يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟
مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾
لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

نداء من الله تبارك وتعالى للناس جميعاً إنسهم وجنهم ويأتي هذا النداء الشامل لتقرير حقائق وضرب أمثلة وللتبشير بالوعد للمطيعين وللوعيد للكفار العاصين .

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ .

يأيها الناس أنتم المفتقرون إلى الله ربكم في كل شأن من شؤون معيشتكم وفي هدايتكم إلى الصراط الأقوم وليس الله مفتقرا إليكم ، إن الله يدعوكم إليه ليغفرلكم من ذنوبكم وليجيركم من عذاب أليم ، وإن الله سيجزيكم على أعمالكم الصالحة ويضاعفها لكم والله شكور حليم ، وإن الله إنما خلقكم لعبادته لا ليستكثر بكم من قلة ولا ليعتز بكم من ذلة ولا ليستأنس بكم من وحشة وإن تقرضوه قرضاً حسنا يضاعفه لكم ، فإنكم إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، يقول الله لنا هذا حتى لا يظن بعض الناس أن الله إنما يلح علينا في الدعوة إليه لافتقاره إلينا، وقد قال ناس من بني إسرائيل ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران/١٨١] وكفروا بقولهم هذا وكتب الله قولتهم هذه وسيجزيهم عليها شر الجزاء ، والحق أننا نحن الفقراء إلى الله في جميع أمورنا والله وحده هو الغني عن خلقه الحميد في ذاته المستحق لجميع المحامد ، هو أهل للحمد والثناء حمده الناس أم لم يحمدوه ، بل ولو كفروه كلهم لم ينقص ذلك من ملكه شيئاً ، كما أنهم لو أحسنوا وأطاعوه كلهم لم يزد ذلك في ملكه شيئاً ، إنما كفر من كفر على نفسه وإحسان من أحسن منهم لنفسه ثم قال تعالى :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ .

إن يشأ الله يذهبكم أيها الناس ويأت بخلق آخر غيركم فلا تظنوا أنكم تعجزون الله إنكم لن تعجزوه فاتقوه واحذروا سخطه ، وهذه الآية من الله تهديد وإنذار لنا حتى لا نغتر بإنعام الله علينا مع مخالفتنا لأوامره وارتكابنا لنواهيه فالجميع في قبضته .

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ .

وما خلقكم ولا إفناؤكم بصعب على الله ولا ممتنع وكذلك إبدالكم بخلق آخر جديد ليس بعزيز على الله بل هو على كل شئ قدير .

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ .

الآية تعلن وتقرر استقامة ميزان الله العادل في معاملة عباده فهو وإن كان قاهرا جبارا ليس يعجزه أقوى مخلوقاته غير أنه لا يأخذ أحدا منهم بجريرة الآخر ولو كان جاراً وقريباً كما هو شأن جبابرة الملوك بل الأمر كما قال :﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ .

وهنا يقول :﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ .

أي ولا يلقى وزر أحد من الناس على آخر ، هكذا يطمئن الله عباده فلا أحد يعاقب بما صنعه أخوه أو قريبه فثقوا أيها الناس بعدالة ربكم واحذروا عدله فإنه يعامل كل أحد بما يستحقه .

﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ .

لا يطمع أحد منكم أن يلقى شيئا من حمله على صديق أو قريب ، إنه إن تكن نفس مثقلة بذنوبها فدعت من يخفف عنها ثقلها لا يحمل منه شئ ولو كان المدعو ذا قرابة من نسب أو قربة من خلة أو ولاء . ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبسى /٣٧] وهذا من الله إنذار لعباده حتى يتوبوا إلى ربهم قبل الممات ويتنصلوا من المظالم والتباعات ولا يتكلوا على ذوي القرابات .

﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

هكذا بطريقة الحصر بإنما فكأن الله يقول :أنت منذر ولا تنفع بإنذارك إلا الذين يخشون ربهم بالغيب فهم يؤمنون بالله و لم يروه ولكنهم رأوه في مخلوقاته فهم يعبدونه كأنهم يرونه ويؤمنون بالغيب الذي أخبرهم في كتابه وعلى لسان نبيه ويخشونه ربهم بالغيب في خلواتهم كما يخشون في جلواتهم فهم يقيمون له الصلاة كما أمرهم ويتقربون إليه بالنوافل حتى يحبهم وتلك الصلوات هي التي ملأت قلوبهم بخشية الله فهم يتزكون ويتطهرون من الذنوب والآثام باجتنابها ، وبالتوبة منها إذا مسهم طائف من الشيطان ولا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه كما أن من حمل وزرا فإنما يحمله على نفسه فكذلك من تزكى وأحسن فإنما إحسانه لنفسه، وهذا من الله ترغيب لنا في تزكية النفوس وسياستها بطاعة الرحمن :

﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

هذا ومصيرنا جميعاً إلى الله ربنا ليحاسبنا ويجازينا على أعمالنا وهو المصير الذي

يخشاه المؤمنون بالغيب ويستعدون له بتزكية نفوسهم وخير ما زكيت به النفوس إقام الصلوات والتضرع إلى الله بالدعوات .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾

ضرب الله لنا في هذه الآيات المتناسقة المحكمة أمثالاً للمؤمن والكافر بها يتبين الفرق الفارق بينهما فلا يستويان في حال من الأحوال كما لا يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور كذلك لا يستوي الأحياء ولا الأموات ، وقد ضرب الله لنا من قبل مثلا من البحرين ، العذب والمالح وما أروع أمثال القرآن وأشد وقعها في نفوس ذوي الألباب ! وما يذكر إلا أولوا الألباب ، ثمانية أشياء في أربعة أزواج من تأمل فيها وجدها متباينة تمام التباين ، فالأعمى هو الكافر يعمه في ظلمات الكفر والهوى والشيطان ، والبصير هو المؤمن يبصر بقلبه الحق في نور الله يفرق بين الحق والباطل فكما تبصر العين في الضوء فكذلك القلب يبصر في نور الله الذي هو كِتاب الله وسنة رسول ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة/١٥-١٦] ثم يأتي المثل الثالث وهو الظل والحرور ، فالإيمان ظل فيه طمأنينة القلب وبرد الرضا واليقين ، فلا يزال المؤمن في جميع أحواله مطمئن النفس قرير العين راضي القلب بقضاء الله وقدره يرجو حسن العوض عند الله تبارك وتعالى ويحسن الظن بربه وينتظر منه الفرج وانتظار الفرج عبادة ، ولا يزال الكافر والمنافق في حرور الهلع وسوء الظن وخبث النفس وضيق

القلب تعتوره المخاوف والشكوك وتتقاذفه أمواج الوساوس والهواجس لا يطمئن قلبه على حال ولا يهتدي في أموره إلى حل ، فهو وإن رأيته في نعيم يشعر بالشقاء ويحس في باطنه بالألم كأنه في الحرور والسموم ، أما المؤمن فهو وإن رأيته في بلاء راضي النفس قرير العين يحمد ربه على كل حال لأنه في ظل الايمان ، فكيف يستوي حال المؤمن وحال الكافر ؟! ثم يأتي المثل الرابع وتتكرر معه كلمة الاستواء لأنه في القمة من بلاغة التعبير .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ ﴾ .

ليس سواء من كان حيا ومن كان ميتا لا روح فيه ، فالأحياء هم المؤمنون الذين أحياهم الله بالايمان وأيدهم بروح منه والأموات هم الكفار الذين فقدوا هذه الروح وبقوا في ظلمات الكفر والجهالة لا يخرجون منها ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام/١٢٢] يضرب الله المثل لحالة الكفر والجهل بالموت ، ويضرب الله المثل للايمان والعلم بالحياة لأن الايمان حياة النفوس والإنسان إذا حييت نفسه بحياة الايمان جالت في ملكوت الله مع ملائكة الله الأبرار ، فلا يستوي الأحياء ولا الأموات ويا بعد ما بينهما .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ إِنَ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ .

عليك البلاغ وعلينا الحساب ومن أراد الله له الهداية فإنه يستمع إنذارك ، ومن لم يرد له الخير فإنه لا يستمع إن الله يسمع من يشاء من عباده فالأمر بيد الله ومرهون

بمشيئته ، وما تستطيع أن تسمع الأموات الذين هم في القبور وليس ذلك من شأنك ولا هو في قدرتك وما أنت إلا نذير تبلغ ما أنزل إليك من ربك وتذكرهم ، فمن أراد الله به خيراً يتذكر وما أنت عليهم بمسيطر ، يحدد الله لنبيه مهمته حتى لا يهلك نفسه أسفاً على عدم سماعهم ولا يظن أنه لتقصيره في التبليغ والإنذار .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ .

يقول الله تعالى لنبيه إنا أرسلناك بالحق لتبشر الناس وتنذرهم ، وما من أمة خلت من قبلك إلا وقد جاءهم نذير ، ذلك ليقيم الله الحجة على الناس وليبين للذين كذبوه من قومه أن محمداً ليس بدعا من الرسل فما هو إلا واحد من النذر التي سبقته يكمل الله به بنيانه ويشرع الله له من الدين ما وصى به نوحا والذين من بعده من الرسل فمالهم أنى يؤفكون .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ثُمَّ أَخَذْتُ الذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِي﴾ .

يسلي الله نبيه ويهدد الله الكافرين المكذبين بأنهم سينالهم من العقاب والنكير ما نال الذين من قبلهم من المكذبين أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فلم يقدروا أن يفتلوا من قبضته و لم ينتصروا و لم تغن عنهم آلهتهم التي يدعونهم من دون الله يقول الله تعالى لنبيه : وإن يكذبك قومك فلا تأس عليهم فقد كذب الذين من قبلهم من الكفار جاءتهم رسل الله إليهم بالبينات وبالزبر التي هي صحف الله التي تشتمل على المواعظ والذكرى وجاءتهم بالكتب التي فيها هدى ونور من شرائع الله كالتوراة والإنجيل

فظلموا أنفسهم وكذبوا بها فأخذتهم فكيف كان نكيري أي عقابي ، وفي التعبير بالأخذ روعة ودلالة على شدة عقوبة الله لهم ، وفي قوله : فكيف كان نكيرى تعبير أن هذا النكير لا يأتي عليه وصف لعظمه وهوله فلتذهب الأفكار فيه مذاهب وهذا ما يوحي به الاستفهام الذي جاء هنا للتفخيم والتهويل : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود/١٠٢] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

ألم تر أي رؤية علم واعتبار وهي كلمة يقولها القائل يخاطب بها الذي يريد أن يلفت انتباهه إلى شئ أو أشياء ظاهرة غير خافية بالتأمل فيها يحصل العلم والاعتبار، والخطاب للنبيء ﷺ ولكل من يصلح للخطاب من المكلفين .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ .

آيات بينات من آيات الله في هذا الكون الذي هو كتاب مفتوح للمتوسمين والمعتبرين يلفت الله إليها عباده ليخشوه ويوقروه ويقدروه حق قدره ، يلفتنا الله إلى السماء وسحبها وأمطارها ، وإلى الأرض ومختلف نباتها وأشجارها وثمارها ، وإلى الجبال وفجاجها ومختلف ألوانها وأنواعها وأشكالها ، وإلى الناس والدواب والأنعام

ومختلف ألوانها وأجناسها وأنواعها كذلك ، فما على اللبيب العاقل إلا أن ينظر حيثما اتجه فيشاهد آيات الخالق الدالة على قدرته وعزته وعظمته فيزداد علماً وخشية لله وإيمانا به ، ومن أحب الله أحب أن يطلع على آياته الناطقة بوحدانيته وقدرته ، الله هو الذي ينزل من السماء ماء يسقط مطرا أو بردا من السحب المتراكمة ونزوله يكون بالمقادير التي يفتحها لعباده فهو ينزل بقدر ما يشاء ، فلا أحد غيره يستطيع أن يزيد أو ينقص فيها أو يمسك ما فتح الله أو يفتح ما أمسك الله فالحمد لله رب العالمين له الحمد وله النعمة وبيده الملك وهو على كل شئ قدير ، ثم إن الله هو الذي يخرج بالماء النازل من السماء ثمرات مختلفا ألوانها من الأرض التي تحيا بمطر السماء ، وفي التعبير بنون العظمة ﴿ أَخْرَجْنَا ﴾ إلفات إلى عظمة ربنا وأنه وحده القادر على فلق الحب والنوى وإنبات النبات على مختلف ألوانه وأشكاله وأنواعه وإتمام نضجه وإدراكه واشتداده حتى يصير متاعا لنا ولأنعامنا ، وفي التأمل في السحب وأمطارها وفي الأرض ونباتها وأزهارها وفي الأشجار والنخيل وأثمارها ما يملأ القلب بالاعتبار ويُملّي النفس بالمتعة والجمال ، فلله الحمد رب السماء والأرض رب العالمين . ثم لنتأمل في الجبال التي هي من خلق الله ذي الجلال فهي ذات جدد أي طرايق مختلفة الألوان والأشكال كاختلاف أنواع النبات ، ويظهر ذلك جلياً للرائي ولا سيما صفائح المرمر تظهر فيها عروق مختلفة الألوان فمن الذي صورها ولونها بتلك الألوان العجيبة ؟ الله جل جلاله خلقها وجعل فيها فجاجا سبلا وجعل فيها جددا بيضا وحمرا وسودا وخضرا مختلفا ألوانها ، وفي التعبير بالغرابيب وتقديم هذا الوصف على الموصوف مبالغة في شدة وصفها بالسواد والغربيب هو الشديد السواد ، ومنه الغراب الذي يضرب به المثل في الوصف

بشدة السواد ، ثم يلفتنا ربنا إلى الناس والدواب والأنعام واختلاف ألوانها كذلك أي كاختلاف جدد الجبال وألوان صخورها وطينها ، وهذا يذكر بأصل خلقة الإنسان الأولى التي هي من سلالة من طين هذه الأرض ، والدواب كل ما دبّ على الأرض، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز ونحن نشاهد فيها الألوان المختلفة من صبغة الله خالقها ومن أحسن من الله صبغة أليس في هذه الألوان ما يدل دلالة واضحة على وجود الخالق ووحدانيته وعلمه وقدرته ، وكلما ازداد الإنسان علماً بآيات الله في السموات والأرض ازداد له خشية وبه تعلقا . ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

هكذا بطريقة الحصر ، فالذين يخشون الله من عباده الخشية المطلوبة هم العلماء بآياته في الأكوان وآياته في القرآن ، وفي هذا تحريض من الله وحث على طلب العلم واستعمال الفكر في المعلومات فإننا بذلك نزداد لله خشية وله حبا وبه إيمانا ونزداد اطمئنانا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

يختم الله هذه العروض الكونية العجيبة البديعة الصنع بهذه الآية التي تحمل وصفين من أسماء الله الحسنى العزيز القاهر الذي ذل لعزته أهل السماوات والأرض، فلا يقع فيهما إلا ما يريد الغفور الذي يتكرم على عباده بالمغفرة لذنوبهم التي منها الغفلة عن آيات الله والإعراض عنها ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف/١٠٥] ولولا عفوه ومغفرته لآخذهم بذنوبهم وغفلاتهم ، وما أعظم المغفرة حين تكون من العزيز ، والعفو عند المقدرة من الشيم العظيمة عند العقلاء ، وفي الآية امتنان من الله على عباده بالمغفرة لذنوبهم ، وهو العزيز

القادر إن يشأ يذهبهم ويأت بخلق جديد ، وفيها إرشاد لهم أن يتخلقوا بأخلاق الله فيعفُو هم الآخرون والعفو عند المقدرة من شيم الكرام ، فما أعظم وقع هذه الآية على القلوب وما أحسن مناسبتها لما سبقها من الآيات .

﴿ إِنَّ الذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِماَّ رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .

إن الذين يتلون القرآن الذي هو كتاب الله ويتلون كتاب الله المفتوح في الكون يتأملون آيات الله فيه ويزدادون إيمانا ، وأقاموا الصلاة أي أدوها على الوجه الأكمل في أوقاتها وبشروطها وأركانها وسننها وآدابها ولا يحافظ على الصلوات إلا الذين يتلون كتاب الله أو يتلى عليهم ، فهم المؤمنون الذين يوقنون بالآخرة يرجون عند ربهم تجارة لن تبور لا يخافون كسادها وهلاكها لأنهم يتاجرون مع الله الذي يعطي بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعين إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة والله يضاعف لمن يشاء ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

إن ربنا غفور لعباده يغفر لهم التقصير والإساءة ويقبل منهم اليسير من أعمالهم القليلة ويوفيها لهم بالجزاء الأوفى، والزيادة في الحسنات والدرجات من فضل الله ، والله ذو الفضل العظيم ، وكذلك من خصال هؤلاء الأبرار السخاء فهم يؤدون زكاة أموالهم وينفقون مما رزقهم الله وفي قوله تعالى :

﴿ وَأَنفَقُواْ مِماَّ رَزَقْنَاهُمْ ﴾ .

إشعار لنا أن الأموال التي بين أيدينا من رزق الله جعلها في أيدينا وأذن لنا في

الإنفاق منها وسينزعها منا متى شاء ، فالسعيد من اغتنم منها لنفسه قبل ذهابها والمحروم الشقي من اختزنها وكنزها وبخل بها ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، وتذكر الآية هنا ثلاث خصال هي أعظم خصال المؤمنين وهي تلاوة كتاب الله ، وإقامة الصلوات، وإيتاء حقوق الأموال ، وتلك تجارة لن تبور لأنها معاملة مع الله الذي يوفي عباده أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور .

وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

يثبت الله قلب نبيه وقلوب المؤمنين بهذه الآية الكريمة بعد ما سبق من ضروب التسلية لهم ويقرر الله الحق الذي لامرية فيه وكفى بالله شهيداً وهو أكبر شهادة ، ويأتي الضمير بنون العظمة لتفخيم أمر الرسالة والكتاب يقول الله تعالى :

﴿ وَالذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ .

وهذا الذي أوحينا إليك من الكتاب أي هو الكتاب و﴿ مِنْ ﴾ هنا بيانية ، هذا الوحي من الله والكتاب الذي أوحي إليك هو الحق لا غيره والإتيان بضمير الفصل مع تعريف الخبر بأل يفيد حصر الحق في الكتاب الذي هو القرآن ، وهذا القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب التي أنزلها الله على رسله ، فهو مؤيد لها ومهيمن عليها يصدق ما فيها من شرائع الدين وأصول العقيدة وأمهات الأخلاق ، وينبه الناس على ما أدخل عليها من الزيادات والتحريفات وهو الكتاب الذي ضمن الله حفظه حتى

يرفع قرب قيام الساعة فكيف يكفر به بنو إسرائيل وهو مصدق لما معهم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ .

يأتي الحكم من الله مؤكداً بإنَّ واللاّم ليفيد أن الله الذي أنزل الكتاب على عباده خبير بهم وبما يصلحهم من الأحكام والآداب والحدود بصير بأحوالهم وأفعالهم لا يخفى عنه شئ من أمرهم ، هو الذي خلقهم وهو العليم بما يصلح نفوسهم ، الخبير بما يؤول إليه حال كل فرد منهم، البصير بظواهرهم وبواطنهم ، فلا تأس عليهم يا محمد إن كذبوك وثق بأن الذي يوحى إليك حق كله من عند الله وسيجازيكم جميعاً على أفعالكم كلا بما يستحق وهو الخبير البصير بكم لا تخفى عنه خافية .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا
فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ
بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾
جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن
ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ

لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ
فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا
رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ
فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾
هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ
إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ
أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ
بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

بعد ذكر السابقين من الأمم السالفة وعرض أصنافهم يذكر الله تعالى المصطفين من عباده الأبرار من هذه الأمة الذين فضلهم بكتابة القرآن الكريم فحفظوه وتلوه وعملوا بما فيه فسعدوا وفازوا ويصنفهم إلى أصناف ثلاثة ، يقول الله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ .

ثم بعد هؤلاء الأولين أورثنا الذين اصطفينا من عبادنا الآخرين كتابنا القرآن ،والتعبير بالإرث يفيد التعليم والتمكين والإنعام ، كما أن التعبير بالاصطفاء فيه الامتنان والخصوصية والتفضيل ، والإضافة في . ﴿ عِبَادِنَا ﴾ .

تفيد القرب والتشريف لهؤلاء الذين أنعم الله عليهم بالكتاب والهداية والاصطفاء وهم أمة محمد ﷺ الذين آمنوا به واتبعوا النور الذي أنزل معه وانتفعوا بالذي جاء به من الكتاب والحكمة ، ويصنفهم الله تبارك وتعالى ثلاثة أصناف .

﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ .

وهم الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي الكثيرة غير أنهم تابوا من ذنوبهم و لم يصروا عليه. ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ .

وهم أرفع درجة من الأولين وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً غير أنهم اعترفوا بذنوبهم أي تابوا مما فعلوا . ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

وهم السابقون التاركون للمعاصي المسارعون في الخيرات ، وإذا مسهم طائف

من الشيطان تـذكروا فإذا هم مبصرون ، وذلك بـإذن الله وعـونه وبتوفيق منه .

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ .

أي ذلك السبق بالخيرات من نوافل الأعمال بعد أداء الفروض والواجبات هو الفضل الكبير الذي اجتباهم الله به واختصهم بفيضه ، وترك هذا النوع آخرا في الذكر لأنه الأقل كما أنه بدأ بالظالمين لأنفسهم لأنهم الأكثر ولكن الله يمن على الجميع بالعفو والمغفرة والاصطفائية ويقربهم بالإضافة إليه ، ثـم يـذكر مصيرهم يوم القيامة وهو الجنات التي تأتي بدلا من الفضل الكبير لأن فضل الله سبب لهم في نيلها ودخولها والخلود فيها فيقول :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ .

فضل الله الكبير على المصطفين من عباده الذين سبقوا بالخيرات والذين ماتوا على توبة من ذنوبهم أن الله أعد لهم جنات عدن يقيمون فيها أبدا ولا يبغون عنها حولا، ينعمون فيها بأنواع النعيم فهم يحلون فيها بأساور الذهب ويكون لباسهم فيها حريرا ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مما تقرُّبه أعينهم ، وفي التعبير هنا بحلية الذهب ولباس الحرير إشارة إلى أنهم في منتهى الرفاهية والنعيم ونعيم الجنة لا نهاية له ، وفوق ذلك كله رضوان الله الذي هو أكبر من كل نعيم نسأل الله رضا لا سخط بعده في جواره آمين .

﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنَ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ .

بعد ذكر النعيم المادي الذي ينعم به أهل الجنة جعلنا الله منهم ، يذكر الله النعيم الروحاني وهو السرور الذي يجده أهل الجنة في نفوسهم فتنطلق ألسنتهم بحمد الله وشكره والثناء عليه بما هو أهله .

﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

انطلقت ألسنة أولياء الله في الجنة أول ما تكلموا بالحمد لله ، وهو الثناء الجميل بإسناد الكمالات إلى الله ذي الجلال والكمال ، وهذا الحمد ينبعث من أعماق قلوبهم المفعمة بالرضا والارتياح والسرور وآية ذلك أنهم وصفوه بهذا الوصف .

﴿ الذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ .

أذهب الله عنهم الحزن الذي كان يلازمهم في الدنيا وهو خوف عذاب الله وسخطه فإن الخوف كان ينغص عليهم نعيم الدنيا لأنهم كانوا يخافون من ربهم ﴿يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾. [الإنسان/ ١٠-١١] هذا الذي يذكره أهل الجنة ويحمدون الله عليه .

﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

غفر الله ذنوبهم الكثيرة وشكر سعيهم القليل فبارك في أعمالهم وضاعف حسناتهم وفي قولهم هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا ﴾ .

تعبير بحفاوة الله بهم وإحسانه إليهم ، وفقهم وهداهم ثم أجزل ثوابهم بعد أن غفرلهم خطاياهم ، ثم قالوا :

﴿ الذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَيَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ .

الذي أنزلنا دار الخلود وجعلها محلا لنا من فضله العظيم ولولا فضله ما نلناها لايمسنا فيها نصب ، والنصب هو التعب الذي يصيب الإنسان من هموم الدنيا وأشغالها الشاقة ، ولا لغوب واللغوب هو ما يجد الإنسان من جراء التعب من الكلال والفتور بعد القيام بعمل شاق وأهل الجنة لا يجدون ذلك أبداً فهم في راحة ومتعة ونعيم وهناء الضمير وراحة النفوس رضي الله عنهم ورضوا عنه، تلهج ألسنتهم بحمد ربهم وشكره وتعداد نعمه ، وفي ذلك الحمد لذة روحانية يجدونها في نفوسهم ويعبرون عنها في صيغة الحمد والشكر لله رب العالمين .

﴿ وَالذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ .

هكذا على طريق المقابلة والازدواج التي يخاطبنا بها القرآن الكريم ، الوعد والوعيد والبشير والنذير وآيات القرآن مثاني تذكر الشئ وتثني بضده ليظهر الفرق الشاسع بين الضدين ، يذكر الله هنا مصير الكافرين المشئوم بعد ذكر مصير المؤمنين أولياء الله في دار كرامته دار المقامة في النعيم ، فبينما المؤمنون يتنعمون في جناتهم في الذهب والحرير يحمدون الله ويشكرونه على هذا المصير ، ترى الذين كفروا في عذاب جهنم يصطرخون ولا يرحمون ، يقول الله تعالى

﴿ وَالذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ .

والذين كفروا بربهم وبرسله وكتبه وباليوم الآخر أعد الله لهم نار جهنم يعذبون فيها العذاب الشديد الذي يتمنون معه الموت ليريحهم مما هم فيه ولا يجدونه ، فهم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذاب جهنم فهم في حالة من عذاب الله وسخطه لا يرضاها عاقل ، قال الله :

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ .

كل هذا جزاء لهم وفاق على كفرهم وأعمالهم الشنيعة كذلك نجزي كل كفور شديد الكفر ، فهم كذلك لأنهم كلما وعظوا بآية من آيات الله ازدادوا كفراً وطغياناً ولجوا في معاصيهم وظلمهم ، ومن كان كذلك استحق أن يوصف بأنه كفور واستحق هذا الجزاء المشئوم .

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ .

بينما أولياء الرحمن في الجنات يحمدون الله ربهم ويشكرونه نجد أعداء الله الكفار يصطرخون في النار، والاصطراخ هو الصراخ الشديد الذي تنشق به الحناجر، وهذا من شدة العذاب الذي هم فيه ، وزيادة الحروف تؤذن بزيادة المعنى ، فهم في صراخهم ينادون .

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ .

لقد كان عملهم في الدنيا فجورا وظلماً فهم يعترفون بذنوبهم حين لا ينفعهم الاعتراف ويطلبون الرجعة ليعملوا عملا صالحاً غير ما كانوا يعملون ولا يسعفون إلى طلبهم ويعرض الله عنهم ولا يجابون إلى ما يطلبون ، وحتى هذا الجواب الذي يحمل اليأس ويزيدهم عذابا لا يأتيهم إلا بعد مدة طويلة ، قيل مثل عمر الدنيا فيجيب الله بندائهم بكلام فيه توبيخ لهم يزيدهم عذابا إلى عذابهم يقول الله لهم :

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ .

أو لم نعمركم في دار الدنيا عمرا يكفيكم أن تتذكروا فيه وجاءتكم نذري يعضونكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا وقد تذكر أولو الألباب وانتفعوا بالنذر لكنكم أنتم كنتم في عمى عن نذر الله لا تسمعون كأن في آذانكم وقرا ، فذوقوا اليوم عذاب الله ولا تطمعوا في النجاة ولا في الخروج ، فما للظالمين من نصير ينصرهم ومالهم من شفيع يطاع ، هكذا بهذا الجواب الصارم يؤيسهم من كل تخفيف أو نجاة ولا يعلم إلا الله حالهم يوم يسمعون هذا الجواب ، نسأل الله السلامة ونعوذ به من مصير الظالمين.

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

يقرر الله حقيقة من حقائق الايمان لا يتم إيماننا إلا باعتقادها وهي أن نعلم ونعتقد أن الله عالم غيب السماوات والأرض ، والغيب بالنسبة إلينا أما عند الله فشهادة ، ومن كان كذلك يجب أن يطاع في السر والعلن .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

إنه عليم بنوايا الصدور وخفاياها فهو يعلم أن عباده المؤمنين لو عاشوا طويلا في

هذه الدنيا لاستمروا في عبادتهم وطاعتهم لله ورسوله، ويعلم أن الكفار لو عاشوا أحقابا في الدنيا لاستمروا في كفرهم وتمردهم وعتوهم على ربهم ولذلك استحق المؤمنون دوام الثواب في الجنات واستحق الكافرون دوام العقاب في عذاب جهنم، ولوردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، وما عاقبهم إلا عدلا وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

﴿ هُوَ الذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الاَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إلاَّ مَقْتاً وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إلاَّ خَسَاراً ﴾ .

جمل قصيرة موجزة ولكنها بليغة عظيمة في دلالتها ، واسعة المعنى ، تكفي في إرشاد الناس وهدايتهم ، فيها موعظة للمتقين وعبرة للمعتبرين ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ الذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الاَرْضِ ﴾ .

الله ربكم هو الذي خلقكم أجيالا يخلف بعضكم بعضا في هذه الأرض التي خلقكم منها وإليها تعودون ، سخرها لكم واستعمركم فيها واستخلفكم عليها أجيالا تتعاقبون يخلف الأواخر الأوائل حتى تقوم الساعة ، وفي هذا التعاقب ما يدعوكم إلى الاعتبار ، تعتبرون بمن مضى قبلكم من الأمم ، تنظرون كيف كانت عاقبة المحسنين منهم والمسيئين ، وقد قص الله عليكم أخبارهم، وتنظرون بأعينكم آثارهم ومنكم من يسكن في ديارهم ومنكم من يمر عليها ، ولا تكاد تخلو بقعة من الأرض من آثارهم ، ولا تزال مدن خاوية على عروشها تدل على عظمة بانيها فيتساءل رائيها كيف بادت وما سبب هلاكها !؟

قال الله تعالى :

﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ .

فمن كفر منكم بالله ورسله واليوم الآخر فعليه وحده وبال كفره ، فإن الله العليم بذات الصدور سيجازي كلا بما يستحق ، والله لا تنفعه طاعتكم ولا تضره معصيتكم ولكنه لا يرضى لعباده الكفر ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ، والمقت هو البغض الشديد وشدة الكراهية لأفعال الممقوت، إن الكافرين ممقوتون عند ربهم لا يرجون عنده خيرا وقد أعدَّ لهم عذابا أليما جزاء لهم على كفرهم .

﴿ وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ .

جاء تكرير العبارة ليتقرر في أذهان السامعين سوء عاقبة الكفار فيعلم الناس جميعاً أن كفر الكافرين لا يزيدهم إلاخسارا فهم وإن نالوا في الدنيا شيئاً من متاعها ولكنهم في الآخرة من الخاسرين ، خسروا أعمارهم في الدنيا وخسروا أنفسهم وأهليهم في الآخرة ، وخسار الأعمار حسرات وخسار الآخرة ليس كمثله خسار إذ لافرصة فيه للتلافي والاستدراك ، فهم في ذل وهوان وعذاب مؤبد والعياذ بالله، نسأل الله السلامة والعافية .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَاتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُوراً ﴾.

يأمر الله نبيئه أن يوجه إلى هؤلاء الكفار ومن بعدهم هذا الاستفهام الذي يراد به التعجيز والتبكيت بهم وبعقولهم السخيفة لأنهم يعبدون مالا يملك نفعا ولا ضرا ، قل أرآيتم شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء لكم من دون الله ، الذين تدعونهم وترجونهم لدفع الضر وجلب النفع وتخافونهم ، أروني ماذا خلقوا من الأرض ، ﴿ أَرَآيْتُمْ ﴾ هذه الكلمة يصدر بها الكلام للتعجب وإلفات الانتباه ، أروني شيئا خلقوه في هذه الأرض من حيوان أو نبات أو حتى من الجماد من صخور الأرض ومعادنها مثلا ، فإن عجزوا عن ذلك وهم لابد عاجزون فأروني ماذا خلقوا في السماء ، هل لهم شرك مع الله في خلق السماوات ، وهذا من أبلغ أنواع التهكم والتبكيت ، فكيف يستطيع من عجز عن خلق شئ في الأرض أن يكون له شرك في السماوات ، فهو لا محالة أعجز وأحقر وأهون على الله ، فكيف تعبدون من هذه حاله وهذا عجزه وهوانه ، ثم قال تعالى:

﴿ أَمَ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَاتٍ مِّنْهُ ﴾ .

تأتي أم هنا للاضراب الاستفهامي كالتي قبلها ، أم هل آتينا هؤلاء كتاباً فيه حجة من الله وبرهان على استحقاقهم لعبادتكم فتكونون حينئذ على بينة من أمركم تتمسكون بها .

﴿ بَلِ إِن يَّعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلاَّ غُرُوراً ﴾ .

لا شئ عندهم من كتاب أو سلطان من الله يقوى على رد هذا القرآن بل ما هي إلا أوهام باطلة ووعود كاذبة يعد بها الكفار الظالمون بعضهم بعضا ويغر بعضهم بعضا ، يعد الكبراء المستضعفين أنهم سينتصرون وأن آلهتهم تنفعهم ويعدهم الشيطان ويمنيهم

وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ، واليوم يعد متزعموا الأحزاب الباطلة يعدون أتباعهم بالانتصار والسيادة يزعمون لهم أن أفكارهم هي التي تسود العالم وأنها ستخلد لأنها تحمل عناصر البقاء ، ويخلعون عليها أوصافا خلابة يغتر بها البسطاء من الناس والفساق ذوو الأغراض الفاسدة والنفوس الخبيثة والقلوب النغيلة ، فيغر بعضهم بعضا بالوعود الكاذبة ، وإن مذاهبهم الشيطانية لفي بوار لأنها تحمل عناصر الفناء والدمار، وقد بدأ الواقع يفضحها ويظهر بطلانها بموت أصحابها أو سقوطهم كما تلاشت أفكار من كان قبلهم وأمست في بوار ، وسيظهر الله دينه ويتم نوره ولو كره الكافرون، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا .

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ
حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ
لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ
إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ
الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ
فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾
أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن

قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن
شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾
وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ
ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

بعد أن ضرب الله المثل بالاستفهام السابق المعجز الدال أن الذين يدعون من دون الله لم يخلقوا من الأرض شيئا وليس لهم شرك في السماوات جاء بالتعقيب المناسب بالآية التى تقرر الحق المبين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِّنَ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ .

إن الله وحده أوجد السماوات والأرض وما بينهما من العدم وأبقى وجودهما وما بينهما إلى أجل مسمى ، فلا قيام للسماوات والأرض ولا استمرار لوجودهما وما بينهما إلا بقدرة الله جل جلاله ، إن الله وحده يمسكهما أن تزولا ويوم يأذن بزوالهما في الأجل المسمى ستزولان ولا يمسكهما من أحد من بعده من ملك ولا إنس ولا جن، ويومئذ تقوم القيامة وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، ولو شاء لأزالهما في أي

وقت ولو أزالهما ما أمسكهما من أحد من بعده فهل بعد الحق إلا الضلال ! كل شئ في السماوات والأرض ، الدواب والكواكب والنجوم وما هو دون ذلك أو فوق ذلك، محتاج في استمرار وجوده وبقائه إلى الله في كل لحظة فلولا المدد من الله الحي القيوم في كل آن لزالت السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما فسبحان الله رب العرش عما يصفون وتعالى الله رب السماوات والأرض عما يشركون .

﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ .

جاء هذان الاسمان من أسماء الله الحسنى هنا في مقام مناسب تمام المناسبة بعد ذكر كفر الكافرين وإشراكهم بربهم من لا يملك من أمر الخلق شيئاً وهم أكثر الناس ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف/١٠٣] فلولا حلم الله على هؤلاء المتمردين العاصين ، ولولا مغفرة الله لعباده المذنبين المستغفرين لدمربهم الأرض وأسقط عليهم السماء كسفا إن الله كان حليما بعباده لا يعجل عليهم بل يمهلهم لعلهم يتوبون ويستغفرون فيغفر لهم إنه كان غفورا .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّازَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ .

يجتهد الناس في إبرام ألفاظ القسم وتأكيدها ويحلفون بالشئ المعظم عندهم ، والمسلمون يحلفون بالله وقد نهوا أن يحلفوا بغيره ، وهنا يخبر الله عن قريش أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أي بالأيمان المغلظة أنهم ينصرون النبيء الذي يجيئهم من

قومهم ومن بني جنسهم وذلك أنهم سمعوا عن اليهود والنصارى أنهم يكذبون أنبياءهم ويؤذونهم ويقتلونهم فتعجبوا من ذلك وأنكروه فأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم رسول من الله لينصرونه وليؤمنن به وليكونن أهدى من إحدى الأمم ، قطعوا العهود والمواثيق على أنفسهم وأكدوا الأيمان ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، يعني أنهم ازدادوا به ضلالا على ضلالهم بكفرهم بالله ورسوله وما كان كفرهم إلا استكباراً وفساداً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، يمكرون المكر السيئ بالنبيء والمؤمنين ولا يحيط المكر السيئ إلا بأهله وقديماً قال الناس : من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا ، وقد رجع عليهم مكرهم يوم بدر وكفى الله نبيئه الخمسة المستهزئين فأمات الله كل واحد منهم شر ميته وتلك عدالة الله اقتضت أن يرجع المكر السيئ على أهله ولو بعد حين ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾.

هذا سؤال أريد به النفي أي لا ينظرون إلا سنة الأولين أي عاقبة الأولين الذين انتقم الله منهم لتكذيبهم بالرسل وإيذائهم لهم ، وفي ذلك عبرة للمعتبرين وتلك الأمم تمر عليها قريش في رحلاتها الصيفية والشتوية فأنذرهم الله أن ينتظروا مثل سنته فيهم إن لم ينتهوا عن غيهم وعنادهم ، وسنة الله في الأمم لا تتبدل ولا تتغير .

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾.

أي لن تتبدل معاملة الله للمكذبين كما أنها لن تتبدل معاملته للمرسلين وأتباعهم بالنصر آخر الأمر .

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ .

أي لن تجد لها تحويلا عن أزمانها المحدودة ولا تحويلا عن أمكنتها المرسومة فسنة الله لن تتخلف ولن تتحول ولن تخطىء قوما أرادهم بسوء أو قوما أرادهم برحمة ، وهذا كلام فيه تسلية للمؤمنين وإنذار للكافرين ، ومن أراد الله به منهم خيرا فإنه يعتبر ويتوب ويرجع وكفى بكتاب الله واعظا .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾ .

أو لم يسيروا في الأرض ، أي أعميَ هؤلاء الكفار عن النظر في الأرض نظر اعتبار ! إنهم يسيرون في الأرض ويمرون على ديار عاد وثمود ومدين وغيرهم ، أفلا ينظرون ماذا صنع الله بهم وكيف انتقم منهم لما كذبوا الرسل ، أفلا يستمعون إلى أخبار الأولين ، أفلا يعتبرون ويتعظون بما يسمعون ألا يخافون أن يصنع الله بهم ما صنع بهؤلاء المكذبين ، هكذا يتعجب الله منهم يمرون عن آيات الله ولا يعتبرون بأيام الله ، ولقد كان هؤلاء الأقوام الذين أهلكهم الله أشد قوة من قريش وهم يعلمون ذلك لأن آثارهم تدل على ما كانوا عليه من قوة الأجسام وكثرة العدد وقوة الملك والتسلط ، لا تزال مبانيهم الضخمة قائمة خاوية على عروشها ولا تزال ديار ثمود وبيوتهم المنحوتة في الجبال تشهد بشدة هؤلاء الناس وقوة تمكنهم في الأرض ولكن شدتهم وقوة عتادهم وملكهم وغناهم ، كل ذلك لم يغن عنهم شيئاً لما جاء أمر ربك .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾ .

إن الله كان عليماً بأفعالهم وآجالهم عليماً بجنوده التي يسلطها على من يشاء من عباده قديرا على إهلاكهم لا يعجزونه ولا يفوتونه ولا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون ، وفي هذه الآيات تخويف من الله لعباده وإنذار لهم من عذابه ينتفع به من أراد الله به خيرا ، وإعذار لهم ومن أنذر فقد أعذر ، وقليلا ما يتذكرون والله عليم بالظالمين قدير على إهلاكهم وما يؤخرهم إلا إلى آجالهم.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ .

يختم الله السورة بهذه الآية الكريمة ليبين لنا أن الأمر كله بيده كما قرر هذا المعنى في الآيات الأولى منها ، ولينذرنا عقابه ولا نغتر بحلمه ، كما يأمر نبيئه بإنذار الكفار في الآيات من سورة (يس) والمناسبة شديدة بين سور القرآن فهي حلقات ذهبية متماسكة تنزيلا من حكيم حميد ، يقول الله تبارك وتعالى في هذه الآية :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ .

ولو يؤاخذ الله عباده بذنوبهم في الدنيا لأنزل العذاب على الأرض فلا يبقى على ظهرها شئ يدب عليها من إنسان أو حيوان ذلك لأن شؤم الذنوب وعقاب أهلها يعم كل شيء على هذه الأرض من إنسان أو حيوان أو نبات حتى الحيتان في البحر ، ولأن الحيوان إنما خلق لمنفعة الإنسان المستخلف في الأرض فلا فائدة في بقائه بعده ، وفي الآية بيان لحلم الله على عباده فإنه يمهل الكافرين لعلهم يرجعون ، ويستأني بالعصاة

لعلهم يتوبون ، ولا يعجل بالعقوبة، وقد يستبطئ الصالحون عقوبة الله للعاصين وقد يستبطئها الطاغون استخفافا بأمر الله وارتياباً في وعيده فبين الله في هذه الآية أن لذلك أجلا مسمى لا يقدم ولا يؤخر فقال:

﴿ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

إن الله لا يعجل على عباده بالعقوبة ولو كثر طغيانهم وعصيانهم وكفرانهم ولكن يؤخرهم إلى أجل معدود فإذا حل الأجل لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون ، وإن الله بصير بما يستحق أهل المعاصي من العقوبة بصير بمعاصيهم ، والله بصير بالمحسنين وبما يستحقونه من الجزاء الحسن وبدرجات المحسنين ودركات المسيئين، عقابه عدل ، وجزاؤه فضل ، ووعده حق ، وقوله صدق ، بيده الملك وهو على كل شئ قدير .

ثم ما تيسر لي تفسيره من سورة فاطر ونسأل الله أن يمد لنا في الأجل حتى نتم تفسير كتابه إنه ولي التوفيق والحمد لله رب العالمين .

سورة العنكبوت

من قوله تعالى .... إلى قوله تعالى	الآيـــات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
﴿ الم آحسب الناس أن يتركوا ....أحسن الذي كانوا يعلمون ﴾	١-٧	٥-١٥
﴿ ووصينا الانسان بوالديه حسنا .... لندخلنهم في الصالحين ﴾	٨-٩	١٥-١٧
﴿ ومن الناس من يقول ءامنا بالله ..... عما كانوا يفترون ﴾	١٠-١٣	١٧-٢٣
﴿ ولقد ارسلنا نوحا إلى قومه ..... وجعلناها ءاية للعالمين ﴾	١٤-١٥	٢٤-٢٧
﴿ وإبراهيم إذ قال لقومة ..... وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾	١٦-٢٧	٢٧-٤٤
﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتاتون الفاحشة ... لقوم يعقلون ﴾	٢٨-٣٥	٤٥-٥١
﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ..... فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾	٣٦-٣٧	٥٢-٥٤
﴿ وعادا وثمودا وقد تبين .... لآية للمومنين ﴾	٣٨-٤٤	٥٤-٦٣
﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب .. والله يعلم ما تصنعون ﴾	٤٥	٦٣-٦٦
﴿ ولا تجادلوا أهـل الكتاب ..... وهو السميع العليم ﴾	٤٦-٦٠	٦٧-٨٣
﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات .... وإن الله لمع المحسنين ﴾	٦١-٦٩	٨٣-٩٥

سورة الـروم

من قوله تعالى .... إلى قوله تعالى	الآيـات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
﴿ الٓمٓ غلبت الروم .... ثم إليه ترجعون ﴾	١-١١	٩٨-١١١
﴿ ويوم تقوم الساعة ..... في العذاب محضرون ﴾	١٢-١٦	١١٢-١١٥
﴿ فسبحان الله ..... وما لهم من ناصرين ﴾	١٧-٢٩	١١٥-١٤١
﴿ فأقم وجهك ..... وتعالى عما يشركون ﴾	٣٠-٤٠	١٤١-١٥٩
﴿ ظهر الفساد ..... لعلهم يرجعون ﴾	٤١	١٥٩-١٦٠
﴿ قل سيروا في الارض ...... فهم مسلمون ﴾	٤٢-٥٣	١٦١-١٧٥
﴿ الله الذي خلقكم ..... وهو العليم القدير ﴾	٥٤	١٧٥-١٧٧
﴿ ويوم تقوم الساعة ...... الذين لا يوقنون ﴾	٥٥-٦٠	١٧٧-١٨٣

سورة لقمان

من قوله تعالى .... إلى قوله تعالى	الآيـــات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
﴿ ألم تلك آيات الكتاب الحكيم ...... في ضلال مبين ﴾	١-١١	١٨٦-٢٠٢
﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة .. لصوت الحمير ﴾	١٢-١٩	٢٠٢-٢٢٦
﴿ الم تروا أن الله سخر ..... بل أكثرهم لا يعلمون ﴾	٢٠-٢٥	٢٢٧-٢٣٥
﴿ ولو انما في الأرض من شجرة .. ختار كفور ﴾	٢٦-٣٢	٢٣٥-٢٤٩
﴿ إن الله عنده علم الساعة .... إن الله عليم خبير﴾	٣٣-٣٤	٢٤٩-٢٥٧

سورة السجدة

من قوله تعالى .... إلى قوله تعالى	الآيـــات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
﴿ ألم تريل الكتاب ...... قليلاً ما تشكرون ﴾	١-٩	١٦٠-٢٧٣
﴿ وقالوا أءذا ضللنا ...... من المجرمين منتقمون﴾	١٠-٢٢	٢٧٣-٢٨٩
﴿ وجعلنا منهم أئمة ...... وانتظر انهم منتظرون﴾	٢٣-٣٠	٢٩٠-٢٩٩

سورة الأحزاب

من قوله تعالى .... إلى قوله تعالى	الآيـــات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
﴿ يا أيها النبيء اتق الله.....في الكتاب مسطوراً ﴾	١-٩	٣٠٢-٣١٤
﴿ وإذ اخذنا ..... وكان الله على كل شيءٍ قديراً ﴾	٧-٢٧	٣١٤-٣٣٥
﴿ يا أيها النبيء قل.....إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾	٢٨-٣٤	٣٣٦-٣٤٧
﴿ إن المسلمين والمسلمات... مغفرة وأجراً عظيماً ﴾	٣٥	٣٤٨-٣٥٤
﴿ وما كان لمومن ..... وكان الله بكل شيءٍ عليما ﴾	٣٦-٤٠	٣٥٤-٣٦٣
﴿ يا أيها الذين آمنوا .... وأعد لهم أجراً كريماً ﴾	٤١-٤٤	٣٦٤-٣٦٦
﴿ يا أيها النبيء انا أرسلناك ..... وكفى بالله وكيلاً ﴾	٤٥-٤٨	٣٦٦-٣٧٤
﴿ يا أيها الذين آمنوا ..... على كل شيءٍ رقيباً ﴾	٤٩-٥٢	٣٧٤-٣٨٣
﴿ يا أيها الذين آمنوا ..... على كل شيءٍ شهيداً ﴾	٥٣-٥٥	٣٨٣-٣٩٢
﴿ إن الله وملائكته ..... وكان الله غفوراً رحيماً ﴾	٥٦-٥٩	٣٩٣-٤٠٢
﴿ لئن لم ينته المنافقون.... ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾	٦٠-٦٢	٤٠٢-٤٠٤
﴿ يسألك الناس عن الساعة ... والعنهم لعناً كثيراً ﴾	٦٣-٦٨	٤٠٤-٤٠٧
﴿ يا أيها الذين آمنوا .... وكان عند الله وجيها ﴾	٦٩	٤٠٧-٤٠٩
﴿ يا أيها الذين آمنوا ... وكان الله غفورا رحيما ﴾	٧٠-٧٣	٤١٠-٤١٤

سورة سبأ

من قوله تعالى .... إلى قوله تعالى	الآيـــات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
﴿ الحمد لله الذي له في السموات .... لكل عبد منيب ﴾	١-٩	٤١٧-٤٢٧
﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا .... لكل عبد المهين ﴾	١٠-١٤	٤٢٧-٤٣٧
﴿ لقد كان لسبإ ..... وربك على كل شيء حفيظ ﴾	١٥-٢١	٤٣٧-٤٤٥
﴿ قل ادعوا الذين زعمتم ..... ولا تستقدمون ﴾	٢٢-٣٠	٤٤٦-٤٥٤
﴿ وقال الذين كفروا لن نومن .... وهو خير الرازقين ﴾	٣١-٣٩	٤٥٤-٤٦٧
﴿ ويوم نحشرهم جميعا ..... فكيف كان نكيري ﴾	٤٠-٤٥	٤٦٨-٤٧٥
﴿ قل انما أعظكم بواحدة .... إنهم كانوا في شك مريب ﴾	٤٦-٥٤	٤٧٥-٤٨٤

سورة فاطـر

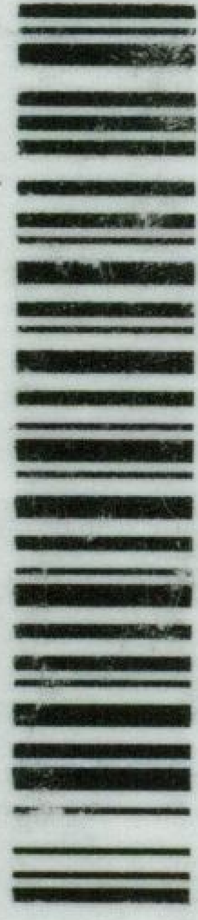
من قوله تعالى .... إلى قوله تعالى	الآيـــات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
﴿ الحمد لله فاطر ..... وإلى الله ترجع الامور ﴾	١-٤	٤٨٧-٤٩٢
﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق ..... ولا ينبئك مثل خبير ﴾	٥-١٤	٤٩٢-٥٠٨
﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء .... إنه غفور شكور ﴾	١٥-٣٠	٥٠٨-٥٢٠
﴿ والذي أوحينا إليك ..... لخبير بصير ﴾	٣١	٥٢٠-٥٢١
﴿ ثم أورثنا الكتاب ..... إلا غرورا ﴾	٣٢-٤٠	٥٢١-٥٣٢
﴿ إن الله يمسك السموات ..... فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾	٤١-٤٥	٥٣٢-٥٣٨

تم بحمد الله

رقم الإيداع : ١٠٥ / ٢٠٠٥م

ص . ب : ٦٦٨ الرمز البريدي : ١١٣ مسقط
سلطنة عمان

طبع بمطبعة الألوان الحديثة ش.م.م
هاتف : ٢٤٥٦٢٢٧٦


Bibliotheca Alexandrina
09962899